

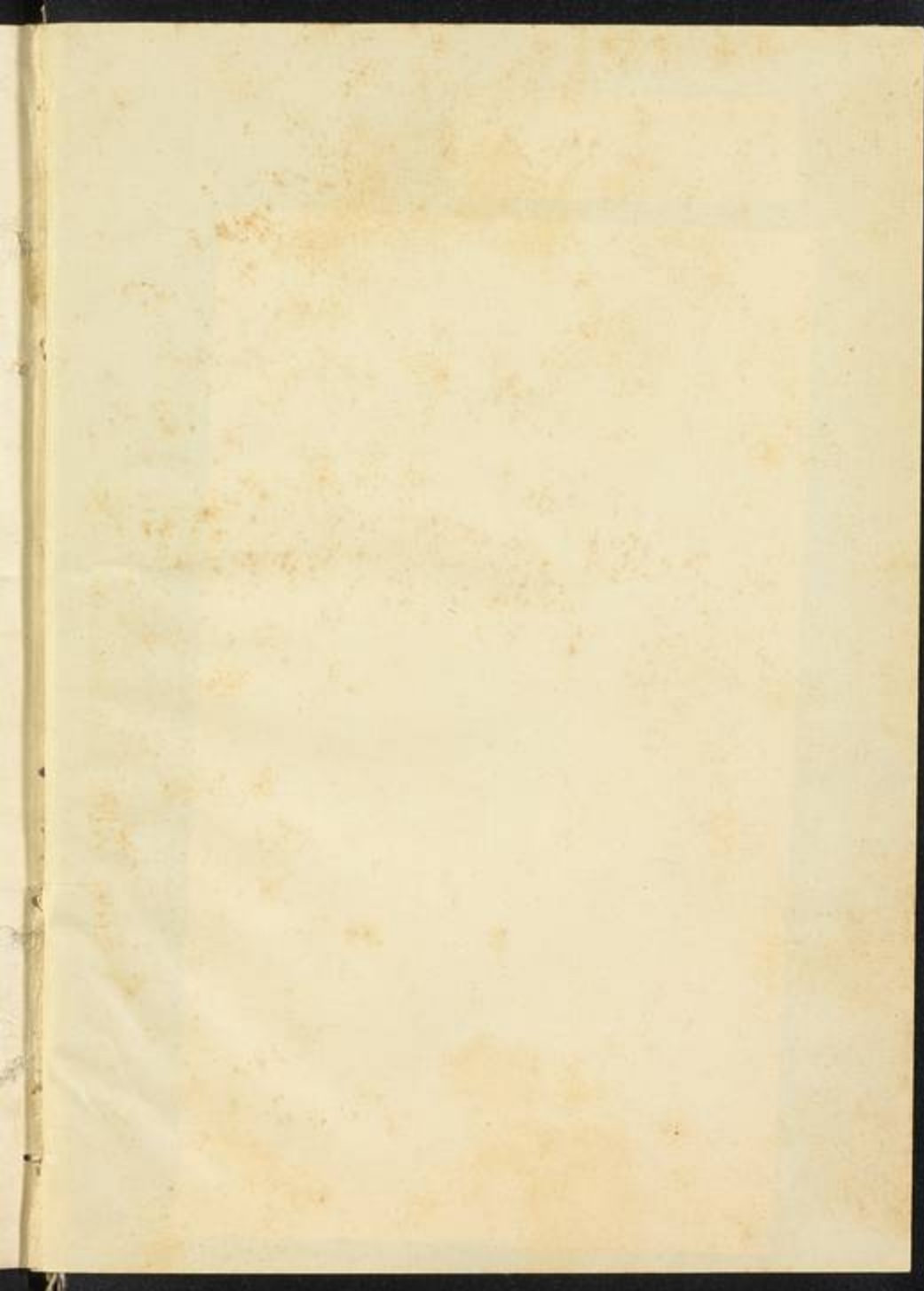
PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

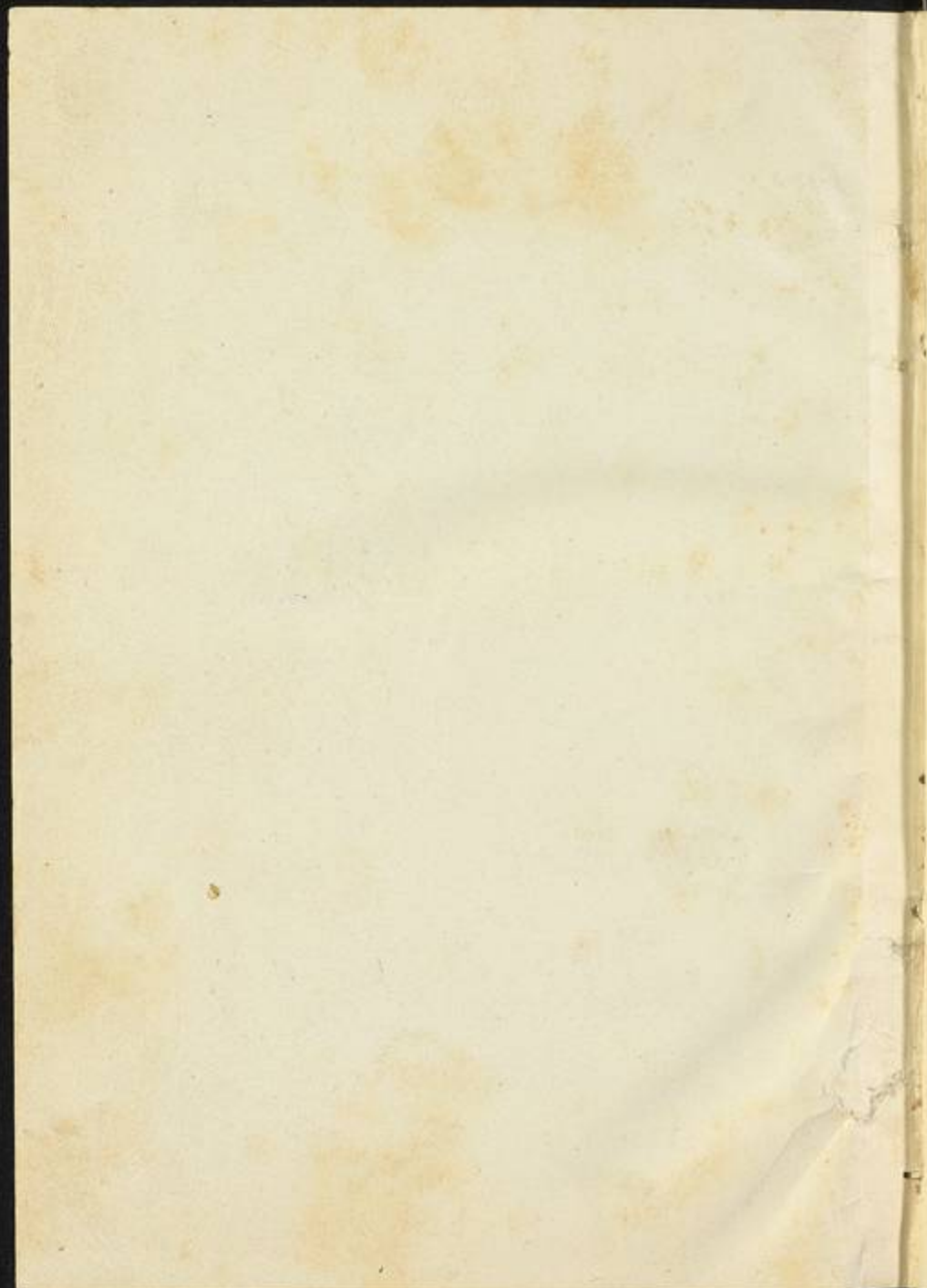


32101 010594776

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*





الى حضرات الكتاب والقراء !

قد عزمنا بعونه تعالى على متابعة نشر كل ما تعمُّ فائدته وتلذُّ
مطالعتُه من المؤلفات الأدبية والاجتماعية والعلمية والتاريخية والفكاهية
والروايات والقصص وغير ذلك بعنوان :-

سلسلة المطبوعات العصرية

وذلك بالاتفاق مع بُلغاء الكتاب والمؤلفين . وسنبذل كل
ما في وسعنا في سبيل مرضاتهم ، وعرض عرائس أفكارهم على القراء
مجلوةً في حلل الإجابة والإلتقان ما

الباس انطوره الباس



أحمد الصاوي
A. X. Abushady



تاليسم

A. France

تأليف

أنتول فرانس

(عضو الاكاديمية الفرنسية)

ترجمة

احمد الصاوي محمد

عُني بنشرها

الناشر انطون الناير

صاحب

المطبعة: العصرية بمصر

بشارع علوي رقم ٥

جميع حقوق الطبع محفوظة لناشر الكتاب

(Arab)
PQ 2254
.T4A9



ANATOLE FRANCE,
de l'Académie Française.

MAÏS

— — —
Traduction
Par

AHMED EL-SAWY MOHAMED

— • • —
EDITEUR :
ELIAS A. ELIAS

5, Rue Eloui,
Le Caire
1924



تقدمة الكتاب

من الناس إلى الجمهور

تقدّم اليوم إلى الجمهور الكريم هذه القصة الممتعة ، التاريخية ،
الفلسفية ، الجامعة لدعابات «اناتول فرانس» المشهورة ، وفنه الجميل ،
الذي يفتح أبواب الخيال من أقدم الأجيال بمفتاحه السحري - القلم .
تقدّمها مغتبطين كدرة من درر الفن الخالدة ، واثقين انها ستلقى
من نفوسهم المتساحمة ارتياحاً ، ومن عقولهم الراجحة رضياً وقبولاً
ونجدد العهد على بذل الجهد في التوفيق بين أدب الشرق
والغرب ، ولغات الافرنج ولسان العرب ، قياماً بالواجب علينا نحو
النهضة الشرقية والناطقين بالضاد ما

الباس انطوره الباس



﴿ أناتول فرانس ﴾

صفحة من كتاب (الورود الدرامية)

لسمو الأمير الجليل حيدر فاضل

الى اناطول فرانس

أفلاطون العصر ومؤلف تاييس

A ANATOLE FRANCE

(Au Platon Moderne).

Ces vers humbles et doux, à toi je les apporte
Du pays de THAIS... Daigne les recevoir.
Et pour te les offrir je me fais un devoir
De les déposer tous sur le seuil de ta porte.
O maître, ne crois point qu'un fol orgueil m'emporte,
Jusqu'à m'imaginer qu'il soit en mon pouvoir
De taquiner la Muse en caressant l'espoir
De plaire à ton regard que le génie escorte.
Non! Je suis un rêveur... un pauvre troubadour,
Chantant le ciel, la mer, les roses et l'amour,
Respirant ta pensée et toujours vivant d'elle...
Et si j'eus le courage, avec l'ami Silvain,
D'entrer à ton foyer pour te serrer la main.
C'est que «FRANCE» à ton nom je demeure fidèle!

** Roses Ensanglantées*

par S.A. Le Prince Haidar Fazil.

* Impr. de l'Institut Français D'Archéologie Orientale,
le Caire 1919, £ 1.

*Ut vitam habeant
et abundant.*

لكيما تكون لهم حياة موفورة



هذه هي القصة الأولى من مجموعة
الشعلة الخالدة ، نستعين بالله مبعث
النور والحياة على نقلها الى لغتنا تبعاً ،
إذكاء للنار المقدسة في قلب
الشرق العظيم .

أقدمها الى شباب بلادي وغيرهم
من طلاب الحب والحق والحكمة .
قصة رجل مسكين راح ضحية هذه
الدنيا الغرور ، لعلمهم يتدبرون ما فيها
من عظمات سامية ، فيسيرون في الحياة
في طريق الاخاء الروحي بأقدام
ثابتة ، متكبين رمال التعصب الخائنة ،
أوفياء للانسانية ، مخلصين للحقيقة ،
هائمين بالحكمة ، ناصرين الفضيلة
دواماً - لكيما تكون لهم حياة موفورة

احمد الصاوي محمد



اللوّس

كانت الصحراء في ذلك الزمان يسكنها النساك في اكواخ
لا تحصى ، بنوها من الأغصان والصلصال ، وهي تمتد على شاطئ النيل
متجاورة مثورة بحيث توافر لساكنيها الغايتان ، العزلة ، والمؤازرة
لدى الحاجة . وبرزت الكنائس هنا وهناك بين الاكواخ عليها شارة
الصليب يقصدها الرهبان ايام العيد لاقامة الشعائر والمشاركة في التبرك
بالاسرار الدينية . وكان على ضفة النهر اديار آهلة بالرهبان وكلهم
قابع في كسر صومعته الضيقة لا يتدانون الا ليدوقوا طعم الوحدة .
عاش الرهبان المتبتلون والماكفون في زهد وتقشف ، وكانوا
يصومون حتى غروب الشمس ثم يتبلغون بقليل من الخبز والملح .
وطمر بعضهم انفسهم في الرمال متخذين الكهوف او المقابر مساكن
كانت غاية في العزلة والانتقطاع .

أخذوا جميعاً بأسباب التقشف ، فارتدوا ملابس من وبر
الإبل وكانوا بعد طول التهجذ يفتشون الأرض ، ويصلون
وينشدون المزامير . وقصارى القول ان هؤلاء الزهاد كانوا في كل

يوم يزاولون جميع اعمال الصلاح والتقوى . ولم يكونوا يقفون في الورع عند حد تحريم الخطيئة الأزلية على أجسادهم بل تجاوزوه الى تحريم العناية بأبدانهم ، مع انها كانت مباحة في عهدهم ، وذلك لاعتقادهم ان إضعاف البدن يقوي النفس ويطهرها ، وان أشرف حلية للجسم إزهاقه بتكليفه ما يشقّ عليه ، وهكذا صدقت فيهم نبوة الأنبياء : « يتبهج القفر ويزهر » !

وكان بعض نزلاء « طيبة » المقدسة يقضون اوقاتهم في التنسك والتصوف بينما يسعى غيرهم في تحصيل معاشهم بضمير الياف النخيل وخدمة الزراع المجاورين في اثناء الحصاد على أجر معلوم . أما المشركون فكانوا يعيشون من قطع الطرق ومداخلة البدو الرحل الذين ينهبون القوافل . وهل ينافي ذلك ان هؤلاء الرهبان كانوا يمتقنون المال والثراء ، وكانت راحة فضائلهم الذكيّة تتصاعد الى عنان السماء ؟ ؟

وكان الملائكة يقدون على هيئة فتيان لزيارة الصوامع وبأيديهم عصيهم كالسائحين . وكان الشياطين يتخذون اشكال الاحباش او ضروب الحيوان ويجولون بين الناسك ليضلّوهم . وكان الرهبان يذهبون في الصباح ليلاًوا اباريقهم من النبع فيرون آثار أقدام الشياطين على الرمال ! وكان المتأمل بعين العقل في حال طيبة الروحية يراها ميداناً للقتال بين أبالسة جهنم وملائكة النعيم !

ولما كانت جيوش الشياطين تهاجم الزاهدين بعنف وفضاعة
كان هؤلاء يدافعون عن انفسهم بالصوم والتقوى والتكسب مستعينين
بالله والملائكة ! وكانت رغبات شهواتهم تقسو عليهم حيناً فتخزهم
وخزاً يمزق احشاءهم من شدة الألم ، فتجاوب صيحاتهم المزعجة تحت
قبة السماء المملوءة بالكواكب هي وعواء الضباع الجائعة ! وعند ذلك
كانت الشياطين تبدو في صور جميلة فتانة ، تحول دون معرفة
طبيعتهم الباطنة ، فجزع رهبان طيبة اذ رأوا في صوامعهم مشاهد
التمتع غير المعروفة حتى عند معاصريهم المترفين . وكان الصليب يعلو
صوامعهم ويحميهم من شرور الخطيئة ، فتخذ الشياطين أشكالها
الحقيقية وتبتعد لدى الفجر وقد ملئت خجلاً وغيظاً . وكان يحدث
احياناً في مطاع الفجر أن عابراً يلتقي واحداً من هؤلاء باكياً منتحباً
فيسأله عن سبب بكائه فيجيب « أبكي وأنتحب لأن أحد هؤلاء
المسيحيين الساكنين هنا ضربني بهراوته وردني بجزي وفضيحة » !

أما شيوخ الصحراء فقد عرفوا مبلغ سلطانهم على الآثمين
والكافرين ، وكان صلاحهم في بعض الاحيان صلاحاً مروعاً . فقد
أخذوا عن الرسل سلطة معاقبة العصيان لله الحق ، وما من شيء كان
يستطيع انقاذ الذين يحكمون عليهم . وتناقل الناس حتى في مدينة
الاسكندرية ، أن الارض انشقت لتبتلع الاشرار الذين مستهم عصي
الزاهدين ! ولهذا السبب كانوا مرهوبي الجانب يخافهم كل الذين

يحيون حياة الانس ولا سيما أهل المسخر والمراقص ، والتساوسة
المتزوجون ، وربات الخلاعة !

وقد ظهرت فضيلة هؤلاء الزاهدين فامتد نفوذها الى الوحوش
نفسها . فكان إذا دنا أجل أحدهم أقبل أسد وخطله مضجعاً بمخالبه
فيعرف القديس بهذا أن الله قد دعاهُ اليه فيتجه نحو اخوانه ويقبلهم
قبلة الوداع ويرقد بانسراح لتأخذه سنة الموت في الله عز وجل !

ومذ صعد « انطوان » الى قمة جبل كلزين بعد أن أربت سنه
على المائة مصطحباً أحب مريديه اليه وهما « مقار واما تاس » لم يبق
في طيبه ككاهن راهب أبر وأصلح من « بافنوس » كاهن بلدة أنصينا (١)

حقاً كان افرام وسرايون يحتكان في كثيرين من الرهبان وكانا
متفوقين في خططهما الروحانية والزمنية وفي ادارة مناسكهما . أما
بافنوس فكان يراعي أنظمة الصوم فيقضي ثلاثة أيام بلياليها لا يدوق
طعاماً ، وكان يرتدي عباءة من الصوف الخشن ، ويجلد نفسه صباح
مساء ، وطالما انبطح على الارض ممرغاً جبهته في التراب !

أما تلاميذه الاربعة والعشرون فبعد أن بنوا اكواخيم على
مقربة من كوخه فقد اقتدوا به في تقشفه فأجهم في يسوع المسيح حباً

(١) قامت على اطلال مدينة أنصينا (بلدة الشيخ عبادة) المعروفة بالصعيد
(المترجم)

جماً وكان يحضهم دائماً على التقوى . وكان من أبنائه الروحانيين رجال
قضوا سنين طويلة في قطع الطريق ، لكن وعظ هذا الصالح القديس
هداهم سواء السبيل فتخلَّقوا بأخلاق الرهبان . وكانت طهارة عيشتهم
مما يشرف رفقاهم ، ومنهم طاهي ملكة الحبشة الذي صار بعد أن هداه
كاهن « أنصينا » يذرف الدموع بلا انقطاع ! ومنهم أيضاً
الواعظ فلافيان ، وهو رجل عالم بالكتابة وخطيب مفاوّه . علي ان
أعجب تلاميذ بافنوس كان فلاحاً صغيراً يدعى بولس ، ولقب
بالساذج لسلامة نيته التي لا حد لها . ولشد ما ضحك الناس من
سذاجته . لكن الله شرفه بأن بعث له بالرؤى الصادقة وآتم عليه
نعمة النبوة .

وقف بافنوس حياته على تهذيب أتباعه وتثقيفهم ومزاولة العبادة
والبحث والتنقيب في تضاعيف الكتب المقدسة يقتبس منها المواعظ
والامثال . فكان على حداثة سنه موفور الحظ من الفضيلة ، فلم تكن
الشياطين التي هاجمت الرهبان تلك المهاجمة العنيفة لتجروا على الدنو
منه . واعتاد أن يجلس في الليل في ضوء القمر سبعة من جراء^(١) بنات
أوى منصته امام صومعته بلاء الهدوء والسكون . وقيل ، بل تلك

(١) جمع جرو وهو الصغير من الحيوانات

سبعة من الجن كان قد استبقاها بياحه لا تتعدى عتبته بقوة طهره
وقداسته !!



وُلِدَ بافوس في مدينة الاسكندرية من أبوين نبيلين وتأدب
بأدب الدنيا، ولشد ما أضلته أكاذيب الشعراء! وكانت تلك الاكاذيب
مغالطة لعقله مشوشة لافكاره في ريق صباه. حتى انه صدق أن
طوفاناً قد أغرق الجنس البشري كله في عهد ديوقليس! وجادل
رفاقه في الدرس في طبيعة الله، وصفاته، ووجوده. ثم استرسل في
الخلاعة، وكانت تلك بدعة الخارجين على الدين.

وكان قد اعتاد في تلك الأيام أن يقول لاخوانه، لقد غليت
في مرجل اللذات المزيفة!

يريد بذلك انه اكل اللحم المطبوخ جيداً، واختلف الى
الحمامات العامة!

ودرج على سنن الحياة في عصره حتى بلغ العشرين، وهذه
المدة أجدد أن تسمى بالموت منها بالحياة. ولكنه بعد أن تهب
على يدي الكاهن « ماكرين » خلقاً آخر وعاد رجلاً جديداً
وكذلك تغلغل الحق فيه ونفذ في روحه — كما كان يقول —
كالحاسام! فاعتنق عقيدة الصليب وعبد المسيح المصلوب. وبقي
سنة اخرى بعد تعميده، بين الكافرين مقيداً بسلاسل العادة. فني

ذات يوم سمع واعظاً في كنيسة يقرأ من الكتاب المقدس آية مؤداها: « اذا شدت أن تكون كاملاً فاذهب بع ما لك واعط ثمنه للفقراء » فباع من فوره متاعه وانفق ثمنه في وجوه البر والاحسان وانخرط في سلك الرهبنة .

وفي العشر سنين التي قضاها بعيداً عن البشر لم يقل في رجل الشهوات الجثمانية بل استفاد بمعالجة نفسه بيلسم التقوى

تعوّد التفكير في ما مضى من حياته قبل هدايته ، وعرض خطاياها الواحدة تلو الاخرى فأدرك جسامتها واستغفر منها . تذكر بينها إذ ذاك انه رأى منذ بضع سنين في ملعب الاسكندرية ممثلة ساحرة



بجمالها ومحاسنها تدعى « تاييس » . كانت تمثل في الالعب أدواراً شتى . ولم تكن تتحرج من رقص يثير في النفس بحركاته أقوى الشهوات ويعرض نفس الراي لأشنع الرغبات ، وتبدو في مشاهد مخجلة ، مما الصقه الكافرون بالزُهرة وليدا وباسقيه . فكانت تشعل زيران اللذة في

جميع المشاهدين . وكان يختلف اليها الشبان المدلهون والشيوخ الاغنياء المغرمون ، يعلقون اكاليل الزهر بياها ، فكانت ترحب بهم وتزيلهم منها ما يشتهون . بحيث انها لما أضاعت نفسها أضاعت نفوساً أخرى .

وكان بافوس نفسه من المعجبين بها. فقد أضرمت نار الصبابة في قلبه ، وأشعلت لهيب الشوق في نفسه . فاقترب ذات مرة من بيتها ولكنه وقف بالباب وصدته الجبانة واحتجزه التهيّب الفطري في الشباب الغضّ (كان في الخامسة عشرة من عمره) وكان تخرجه كذلك خشية أن يُزجر لخلو ذات يد ، إذ كان أبواه يأيآن عليه البذل الكثير . ومن رحمة الله ان قيض له ذلك استنقاذاً له من وزر كبير . بيد أن بافوس لم يحمده تعالى لأنه كان في حينها لا يستطيع أن يميز بين ما ينفعه وما يضره ولا أن يفرق بين نفعه الحقيقي ونزاعته الباطلة .



أما وقد ركع بافوس في صومعته أمام صورة ذلك الصليب المقدس المعلق عليه « فدية العالم » ، فقد بدأ يفكر في تاييس ، التي كانت معصيته ، وقد فكّر طويلاً ، بحسب الطقوس الدينية ، في مخافة الملاذ الدنسة المروّعة ، تلك اللذات التي أذاقته إياها هذه المرأة في أيام المحنة والجهل . وبعد تفكير عدة ساعات تراءت له صورة تاييس بجلاء تام ، فرآها ثانية جميلة الجسد كما كانت حين نصبت له حبات الغواية ، فظهرت له أولاً مثل « ليذا » راقدة فوق

مضجع من حجر يمان ، ناكسة الرأس ، مغرورة العينين المملوءتين
نوراً ؛ باسمه ترتجف شفتها ، وثدياها كزهرتين ، وزنداها كجدولين .
فضرب بافئوس صدره عندئذٍ وقال :



- أدعوك ربي لتشهد على شعوري بشناعة خطيئتي !
ثم غيرت الصورة شيئاً فشيئاً ملاحظياً ، اذ زاد ابتسام ثغرها
فافتقر عن ألم مبرح ، وامتلات عينها النجلاوان دموعاً ونوراً ، وجعل
صدرها يعلو وينخفض بالتهنيدات وهي تزفر زفيراً يشبه اول هبوب
العاصفة . فاضطرب بافئوس لهذا المنظر اضطراباً شديداً أثر في صميم
قلبه ، وخرَّ ساجداً رافعاً هذه الضراعة :

- أنت يا من أشربت قلوبنا رحمةً مثلما اشربت الرياض
ندى الصباح ! أيها الإله العادل الرحيم ! تباركت وتعاليت ! انزع
من قلب عبدك هذا الحنان الباطل الذي يؤدي الى الشهوة ،
وأوزعني ألا أحب مخلوقاتك إلا فيك وحدك ، لأنها تفتني جميعاً
وأنت وحدك الحمي القيوم . فاذا كنت قد عنيت بهذه المرأة فذلك
لأنها صنع يديك وان الملائكة أنفسهم ليتوجهون اليها بعناية واهتمام .
ألم تكن يا إلهي نعمة من روحك ؟ إن عليها أن تضع حداً لما تركبه
من الخطايا مع اهل البلاد والغرباء . لقد انبعث في قلبي شعور عطف
زائد نحوها ، إن ذنوبها لفظيعة ، وان مجرد التفكير فيها يروعني
الى حد أن شعر رأسي يقف رعباً . سيبقى اشفاقي عليها عظيماً كذنبها ،
وكلما ازدادت طغياناً زدت حناناً . انني ابكي حين افكر في أن
الزبانية سوف يعذبونها في نار جهنم ، التي كلما خبت زادوها سعيراً
وانه لكذلك اذ رأى ابن آوى صغيراً مقعياً عند قدميه ،

فأدهشه ذلك كثيراً لأن باب صومعته كان موصداً منذ الصباح .
ولاح على الحيوان أنه قرأ ما جال بخاطر الكاهن فحرك ذنبه كالكلب
فرسم بافنوس علامة الصليب فاخفى الحيوان . وهناك علم بأن
الشیطان قد دخل حجرته للمرة الأولى ، فصلی صلاة قصيرة ثم فكر
ثانية في تاييس وقال

— يجب أن أقتدها بعمون الله !

ثم نام .



في صبيحة اليوم التالي ، بعد الصلاة ، زار القديس « پالمون »
الذي كان يعيش في دار قريبة عيشة الترهّب والزهد ، فألفاه
هادئاً مطمئناً ضاحكاً مستبشراً يفلح حديقته كعادته . وكان پالمون
شيخاً هرمًا له حديقة تتابها الوحوش الضارية تلحس يديه ، ولم
تقر به قط الشياطين . فقال پالمون وهو مستند الى فأسه .

— حمداً لله يا أخي بافنوس !

فاجاب بافنوس

— الحمد لله ، والسلام عليك يا أخي !

فرد عليه الراهب پالمون بقوله

— وعليك السلام يا أخي بافنوس !

ثم مسح عرق جبينه بكمه

— أي أخي بالمون . ليكن موضوع حديثنا حمد الآله الحي ،
الذي وعد بأن يكون بين الذين يجتمعون باسمه ، هذا هو غرضي من
الحمي ، لأحادثك عن خطة لتمجيد الرب .

— بارك الله في خطيتك يا بافنوس مثاماً بارك في خستي ! فهو
في كل صباح يسبح عليّ نعماءه بسكب الندى على حديقتي ، وإن
رحمته لتدعوني أن أسبح بحمده على ما يمنحني من القناء والقرع .
دعنا نضرع إليه ان يكلاًنا برعايته وينزل على قلبينا السلام ! فليس
ثمّ ما يخيف أكثر من المشاعر التي تتعب القلوب فلا يلبث المفتونون
بها ان يكونوا كالسكارى يترنحون يميناً وشمالاً وهم على أهبة السقوط
المزري في هوة الشقاء . لقد تغمرنا هذه الانفعالات بفرح مفرط ،
والذي ينهمك في هذه الغوايات يكون هزأةً تضحك منه البهائم
ضحكاً يتردد عالياً في أجواز الفضاء . ولكن قد تنشى قنن
الروح والحواس كآبة مضمية ، وهذه أشأم الف مرة من الفرح . اي
أخي بافنوس ، لستُ إلاّ خاطئاً تعساً ، ولكنني وجدت في أثناء
حياتي الطويلة أن ما من عدو اعدى للراهب من الكآبة . أعني
الكآبة المستعصية التي تغشى الروح كالضباب وتجب عنها نور الله .
وما من شيء مثلها ينافي الراحة والسلام ، وان أعظم نصرة للشيطان

أن ينفث الزيع والنزعات السوداء في قلب رجل متدين . فلو أنه
بعث لنا التجارب والغوايات في سباق الفرخ والمسرّة لما كان مخوفاً
نصف هذا الخوف المروع . وأسفاه ! إنه بارع في إيلا منا ، متقن في
تعدينا . أو لم يظهر لأينا « أنطوان » طفلاً أسود جميلاً الى حد
أن رؤيته استدرفت دموعه واستعبرته ؟ على أن أبانا نجا بمعونة الله
من الوقوع في حبال الشيطان . وانني لأعرفه مدى الزمن الذي
قضاه بيننا طروباً منشرح الصدر مع تلاميذه ولم يك قط كثيراً .
لكن ألم تأت يا أخي لتحدث عن خطة هيأتها في نفسك ؟ إن
إطلاكك إياي عليها فضل منك متى كانت لتمجيده تعالى .

— أخي بالمون ، انني راغب حقيقة في تمجيد الله ، فاشدد
أزري بمشورتك وأولني نصحك ، فانت عالم مستنير لم يحجب الاثم
قط أشعة فطنتك !

— يا أخي بافنوس ، انني لست جديراً بأن أحلُ شراك نعلك !
فان آثامي كرمال الصحراء لا تحصى ولا تُعدّ ، غير أنني بلغت من
السكر عتياً فلن أرفض أن أكون عوناً لك بتجاربي .

— اذا سألتني اليك همومي واحزاني يا أخي بالمون ، فاني
ليحزني التفكير في أن هناك بمدينة الاسكندرية غانية تدعى تاييس
تتمرغ في الحمأة حيث تعيش ويلاً على الناس ومذلة لهم .

— يا أخي بافنوس إن هذا في الحقيقة لرجس محزن ، وإن النساء اللواتي يحيين هذه الحياة بين الوثنيين لكثيرات ، فهل فكرت في علاج لهذا الداء ؟

— سأذهب يا أخي بالمون في طلب هذه المرأة بالاسكندرية وبعون الله سأهديها الى الحق . هذه هي خطتي ، فهل تقرني عليها يا أخي ؟
— لست سوى آثم منكود يا أخي بافنوس . لكن أبانا أنطوان اعتاد أن يقول : « حيثما كنت لا تسرع بمغادرة مكانك الى مكان سواه »

— أترى يا أخي بالمون خطأ ما في مسعاي الذي اعتزمت ؟

— يا بافنوس الوديع ، أعاذني الله من اتهام مقاصدك يا أخي ! لكن أبانا أنطوان قال أيضاً « كما ان السمك الذي يوضع فوق أرض جافة يموت ، كذلك يضل النساك الذين يغادرون صوامعهم ويختلطون بالعالم فيبتعدون عن طريق الخير »

وبعد هذا القول نكت الشيخ بالمون الأرض ببعوله ، وبدأ يحفر التربة حول شجرة تين مثقلة بثمارها . وبينما كان يحفر قفزت وعلة متخطية سياج الحديقة عائثة بالأوراق ووقفت في دهش بلا حراك ، مرتعدة المأبض ، ثم بلغت الشيخ الهرم بوثبتين وغطت رأسها البديع في حجر صديقها . فقال بالمون : —

— أسبح بحمد الله في غزاة الصحراء !

ثم مضى الى كوخه يتبعه الحيوان الرشيق فأحضر خبزاً أسود
أكلته الغزاة من راحته .

لبث بافئوس شاخصاً يبصره الى حجارة الطريق ، ثم قفل
راجعاً ببطء الى صومعته يفكر بعناية فيما سمع وقال وقد تنازعت
ذهنه الفكر :

— لعمرى ان هذا الزاهد نافذ الرأي بصير ، وانه لحصيف
حذور ، فقد ارتاب في صواب فكرتي ، غير أنه من القسوة أن أتخلى
بعد الآن عن تاييس للشياطين الذين يحظون بها . اللهم اهدني سواء
السييل وهيء لي من امري رشداً .

وبينا كان في طريقه رأى كبرواناً واقفاً في شبك نصبها صياد
على الرمال ، وادرك أن الطائر أنثى . لأن الذكر أقبل محملاً حول
الشبكة وقطع عيونها واحدة بعد واحدة بمنقاره الى أن أحدث فتحة
كافية لخروج رقيقته ونجاتها . فتأمل ذلك الانسان المؤمن هذا
المنظر ، ولكونه يستطيع ، بفضل ايمانه وتقواه ، قراءة خفايا
الأشياء ، تمثل له أن الطائر الأسير تاييس ، واقعة في حبال
الرزائل ، وعلى ذلك — طبقاً لمثل الكبروان الذي قطع عيون
الشبك بمنقاره — يجب أن يقطع بالاقوال المؤثرة البليغة القيود

الخفية التي تربط تاييس بالكبائر . ولهذا حمد الله وثبت على تصميمه
الاول ، ولكنه عند ما رأى الكيرون واقعا هو نفسه ومنشباً لأظفاره
في الشبك الذي قطعه ، عاد ثانية الى ترده وارتياحه .

فبات مسهداً ارقماً لم يذق طعم النوم سواد ليله ، ورأى عند
الفجر رؤيا . ظهرت له تاييس مرة أخرى . لم تبد على وجهها أية
علامة للأهواء الضالة أو الملاذ التي يمازجها الاثم ، ولا كانت مرتدية
كعادتها شفوفا المهلهلة ، بل كانت في برودة تغطيها كلها وتحجب بعض
وجهها بحيث لم يستطع الراهب ان يرى سوى عينين تفيضان
بالدموع السخينة البيضاء .

بدأ يبكي لرؤية هذا الشهيد ويعول احوالاً . وجرى في ظنه
أن هذا الحلم وحى من عند الله ، فطلق التردد ، ونهض لساعته
وتناول عصاً معقدة ، هي رمز العقيدة المسيحية ، وغادر صومعته .
وأغلق الباب بعناية حتى لا تدنس الحيوانات التي تعيش فوق
الرمال أو الطيور التي تحلق في الفضاء ، الكتاب المقدس الذي حفظه
في رأس مضجعه ! ودعا الشمس فلاقيان ليستودعه تلاميذه الثلاثة
والعشرين . واكتفى بوضع عباءة طويلة من الوبر ، وسار والنييل
قاصداً ان يمشى محاذياً الشاطيء الليبي حتى المدينة التي أسسها
اسكندر المقدوني . وبدأ السير عند انبثاق الفجر فوق الرمال مستهيناً

بالتعب والجوع والعطش . وكانت الشمس تحت الافق حين رأى
النهر الرهيب زاخر الموج مخضوباً بالدماء بين صخور الذهب
والنيران . سار على الشاطئ مستعظيماً الخبز لوجه الله عند ابواب
الاكواخ المنفردة ، متقيماً الاتهار بابتهاج ، غير خائف من اللصوص
ولا الوحوش الضارية ، ولكنه توخى أن يتنكب القرى والأمصار
التي في طريقه . فقد كان يخشى ان يلقى الأولاد يلعبون امام منازل
آبائهم بالكعب ، أو يرى الصبايا في جلايب زرقاء ، يملأن جوارهن
مبتسمات . فكل هذه أشياء خطيرة على الناسك تركبه العرعر !
بل كان يتهبب أحياناً أن يقرأ في الكتاب المقدس أن « معلم
اللاهوت ^(١) » ذهب من مدينة الى مدينة وتعشى مع
تلاميذه ! فالفضائل التي يطرزها الرهبان بعناية على نسيج ايمانهم ،
سريعة التلف بقدر ما هي بديعة ، فان نسمة من نسمة الحياة العادية
قد تقم الوانها الزاهية . ولهذا امتنع بافئوس عن دخول المدن خشية
افتتان يصيب القلب ، او خور يلثم بالنفس من جرأ مرأى البشر .
فانطلق يضرب في الطرق الموحشة ، وكما أمسى فداعب النسيم
شجر التمر الهندي ، فزرع فأسدل غطاء رأسه على عينيه حتى لا يشاهد
جمال الكائنات !

(١) هو السيد المسيح عليه السلام (المترجم)

وبعد مسير ستة أيام وصل الى مكان يدعى « سيلسليه »
حيث يجري النهر في وادي ضيق تحده من جانبيه جبال الجرانيت ،
هناك نحت المصريون أوثانهم ، أيام كانوا يعبدون الأبالسة .
فوجد بافنوس رأساً هائلاً لأبي هول لا يزال قائماً بين الصخور .
فخوفاً من ان يكون ابليس قد نفخ فيه من روحه الشيطانية ، رسم
علامة الصليب وفاه باسم يسوع ، وطار للحال خفاش من احدى
اذني الصنم ، فعلم بافنوس انه قد طرد روح الشر التي سكنت التمثال
عدة أجيال ! فازدادت حماسه ورفع حجراً ضخماً قذفه في وجه
التمثال ، فاستبان اذ ذاك في تقاطيعه كآبة حركت في نفس بافنوس
عامل الحنان والشفقة . والواقع أن صورة الحزن البادية على هذا
الوجه الحجري كانت كفيلة بأن تؤثر في أسمى الناس قلوباً وأعظهم
اكباداً وأشدهم جموداً . . .

من اجل هذا خاطب بافنوس أبا الهول بقوله : —



- أيها الوحش ! اتبع مثال الجياد والمعز الآدمية التي رآها
ابونا انطوان في الصحراء ، واعترف بألوهية يسوع ، لكيما أباركك
باسم الآب والابن والروح القدس !
ولما فاه بذلك سطعت عينا أبي الهول بضوء أحمر ، وارتعشت
جفون الاسد الغليظة ، وباحت الشفتان الصوائنتان بتأوه - كصدى
صوت إنسان - باسم يسوع المسيح . . . وعندها مدَّ بافنوس يده
اليمنى وبارك أباهول سيلسيلييه !



استأنف سفره بعد ذلك ، وانفسح الوادي امامه فرأى أطلال
مدينة عظيمة لا تزال المعابد باقية فيها ، تسندها الاصنام بدل العمد .
وقد القت هذه الاصنام نظرات طويلة ثابتة على بافنوس امتنع لها
واضطرب ! وهكذا سار سبعة عشر يوماً ، كان غذاؤه الوحيد فيها
بعض الاعشاب والثمار يأكلها فبجة غير ناضجة . وكان يقضي ليله
في خرائب القصور مع القطط البرية وجرذان فرعونية ، وخلائق
لها صدور اثوية واعطاف مائية كأنها عرائس البحار . لكن
بافنوس ادرك انهن خرجن اليه من الجحيم فأقصاهن برسم علامة
الصليب !!

وفي اليوم الثامن عشر رأى كوخاً حقيراً بعيداً عن القرى مصنوعاً
من ليف النخيل ، مطموراً الى نصفه في الزمال التي سقتها رياح

الصحراء . فجاهه آملاً أن يجده مأهولاً ببعض المنتسكين الصالحين .
ولم يكن له باب فرأى فيه جرة وركام بصل وفراشاً من الهشيم ،
فقال في نفسه :

— هذا متاع ناسك ، والزاهدون لا يبعدون كثيراً عن
أكواخهم ، فلا ألبث أن التقي الرجل وأرى أن أهب له قبلة السلام
مقتدياً بالقديس المنتسك « انطوان » الذي عانق « بولس الزاهد »
ثلاث مرات وهو مارتبه !! سوف نتكلم في الابديات ، وربما انزل
الله عليه خبزاً بواسطة غراب فيفضل بدعوتي لتناول شيء منه !

ثم دار حول الكوخ معللاً نفسه بهذا الامر باحثاً عن الناسك .
ولم يسر الا قليلاً حتى رأى رجلاً متربعا على ضفة النيل . وكان
الرجل عارياً ، وشعر رأسه ناصع البياض كاحيته ، وكان لون جسده
شديد الحمرة كاللون الآجر ، فلم يشك بافنوس في أنه هو الناسك
وحياه بتحية الرهبان المعتادة عند القيا :

— السلام عليك يا اخي ! أمتك الله بلذات النعيم المقيم !

فلم يجب الرجل ولبث بلا حراك كأنه لم يسمع ، فظن بافنوس
أن سكوته ناشئ عن حالة الانجذاب الذي اعتاده القديسون ،
فركع بجانب الرجل المجهول ، مشبك الأنامل ، وظل هكذا جاثياً حتى
الغروب . ولما رأى ان رفيقه لم يحرك ساكناً قال :

— اذا كنت قد فرغت يا أبت من حالة التجلي التي اراك
فيها ، فباركني باسم سيدنا المسيح !
فأجابه الرجل دون ان يلتفت اليه :
— أيها الغريب ! لا علم لي بما تعنيه ، ولا اعرف هذا السيد
المسيح !
فصاح بافنوس :

— يا سبحان الله ! التجمل من انبأت به الأنبياء ، واعترفت
باسمه الرسل والشهداء ، وعبيده قيصر نفسه ؟ ومنذ وقت قصير
أنطقت أبا الهول بتمجيده ، فكيف لا تعرفه ؟
— نعم يا صاحبي ! حقاً اني لا اعرفه !

فدهش بافنوس ورثى لشدة جهل هذا الرجل وقال له :
— اذا لم تكن تعرف السيد المسيح فمظاهر تقواك لا تجديك
فتيلاً ، ولن تنال الحياة الابدية .
فأجابه الشيخ الهرم :

— عبثاً يأمل المرء ، سواء سعى او لم يسع ! وسيان عندي
الحياة والموت !

— وا عجباً ! أترغب عن الحياة الخالدة ؟ ألسنت تسكن صومعة
في هذا القفر مفتغياً آثار الزاهدين ؟

— في الظاهر !

— ألا تعيش عارياً محروماً كل شيء ؟

— يُخَيِّلُ اليك ذلك !

— الست تتغذى بالجذور ؟ الست متعلقاً بأهداب العفة ؟

— يظهر انني افعل هكذا !

— او لم تنبذ لذات الدنيا ؟

— الحق اني زهدت فيها لأنني رأيت الناس شديدي الكلف بها.

— اذن انت مثلي في الزهد والتعشُّف ولكنك لست مثلي في

محبة الله وطلب سعادة السماء . فلماذا تمسك بالفضيلة اذا لم تكن

تؤمن بالمسيح ؟ لماذا تحرم نفسك متاع الدنيا اذا لم تكن تطمع في نعيم

الآخرة ؟

— أيها الغريب ! أنني لا احرم نفسي ، ويسرني اني اهتديت

الى عيشة راضية ، وان كانت الحياة خلواً من الطيب والرديء جميعاً .

الحق ان الحياة ليس فيها شيء مما يقال له شرف وعار ، وعدل

وظلم ، ولذة وألم ، وحسن وسوء . ولكن الناس خصوا هذه الاشياء

بأوصافها كما يعطي المايح للطعام مذاقاً .

- ففي رأيك إذاً ان ليس ثمة يقين ؟ انك تنكر الحقيقة التي
نشدها الوثنيون أنفسهم . انك غارق في جهالتك كما يغرق الكلب
المضنى من التعب في الحمأة !

- أيها الغريب ! لا فائدة من سبك الكلاب والحكام ! إننا
لا ندرى ماهية الكلاب ونجهل ماهية انفسنا . فلا ندرى شيئاً . . .

- أترأى إلى جماعة اللأدرين تنتسب ؟ أنت إذاً أحد
اولئك البائسين ذوي العقول السخيفة ، الذين ينكرون الحركة
والسكون معاً ، ولا يميزون بين نور الشمس الساطع وظلام الليل
الحالك ؟

- أجل ! اني « لا أدري » يا صاحبي ، وأنتسب الى طائفة ، اذا
كانت في رأيك مدعاة للسخرية ، فهي في رأيي جديرة بالاعتبار .
لان الاشياء نفسها لها مظاهر عديدة . فاهرام منفيس تبدو في مطلع
الفجر مخاريط من ضياء وردي ، لكنها تلوح عند غروب الشمس مثلثات
حالكة السواد في السماء المتقدمة كشعلة من نار . فمن ذا الذي يستطيع
ان يسبر غورها ويدرك كنهها ؟ انت تعبرني إنكار الظواهر ، والظواهر
هي وحدها الحقائق التي أسلم بها . تبدو لي الشمس منيرة ، ولكن
طبيعتها خافية عليّ ، وارى النيران تشتعل ، لكنني لا أعرف كيف
ولم . انك عاجز عن إدراك فكري ، ولكن هذا لا يهمني !

— أسألك ثانية لماذا تعيش مكتفياً بالبلح والبصل في البادية ؟
لماذا تقاسي شظف العيش والحرمان ؟ إنني أتحمّل مثل هذه الشدائد
والتي ماتلتي ، ولكنني أفعل هذا إرضاءً لله تعالى لكيما أستأهل السعادة
الأبدية ! فمن المعقول أن يتعذب المرء لقاء أجرٍ كبير ، ولكن من
الجنون أن يعاني الانسان بحض ارادته مشقات لا فائدة منها .
فلو لم اكن مؤمناً — غفرانك لهذا التجديف أيها النور الذي لم
يولد ! — فلو لم اكن مؤمناً بحقيقة تعاليم الله بلسان أنبيائه وبيئته ابنه ،
وأعمال رسله ، وأحكام المجامع ، وشهادة الشهداء المحتومة بدمائهم ،
ولو لم أعلم ان تعذيب الجسد واجب لتطهير النفس ، او كنت مثلك
أجهل أسرار الدين ، لعدتُ تَوّاً الى العالم وسعيت لاحراز الغنى
لاعيش في ترف ورفاهية كالسعداء فيه ، ثم أصبح في عبادة اللذات
قائلاً : هلم يا بناتي ! هلم يا خوادمي ! تعالين جميعاً واسكنين خموركن
ورحيق غرامكن وعطوركن . — ولكنك أيها الشيخ المأفون
تمتع نفسك كل الطيبات فتخسر دون أن تكسب شيئاً ، تعطى ولا
أمل لك في أن تسترد شيئاً مما أعطيت . فيا أغبي الناس ما حاجتك ؟
قال بافوس هذا بجدّة وعنف ، لكن الشيخ لبث هادئاً وأجاب
بصوت رقيق : —

— وماذا يهمك من حجة كلبٍ راقد في الحماة ؟

ولما لم يكن لبافنوس سوى غرض واحد ، هو تمجيد الله ،
فقد ذهب غضبه ، واعتذر بخشوع قائلاً : -

- اعف عني يا أخي الشيخ ! إن غضبتي للحق حملتني على تجاوز
حدود الادب. ويشهد الله اني ما مقت شخصك ولكنني استنكرت
خطيئتك ، ولشد ما يؤلمني أن أراك في ظلمات الضلالة مع اني أحبك
في المسيح ، ورغبتني في خلاصك تشغل بالي . تكلم ! ادل الي
ببراهينك ، اني مشوق الى معرفتها لأفندها .

فأجابه الشيخ بهدوء : -

- ان ميلي الى الكلام كرجبتي في السكوت ، على اني سأدلي
ليك بحججي دون أن أسألك حججك ، فانك لن تستمياني بأي
حال من الاحوال . أنا لا أبالي سعادتك او شقاءك ، وسواء لدي
السبل التي تتجه اليها أراؤك . وكيف أحبك أو اكرهك ، والميل
والنفور كلاهما لا يليقان بالحكيم ؟

أما وقد سألتني فاعلم ان اسمي « تيوكليه » ، وانني قد ولدت
في « قوص » من أبوين أثرياً من الصناعة . وكانت صناعة أبي
تسليح السفن ، وكان ذكاؤه يضارع كثيراً ذكاء الاسكندر الملقب
بالاكبر . وكان لي اخوان اتخذوا صناعة آيينا ، أما أنا فقد احترفت

الحكمة . واكره والدي أخي الكبير على الزواج بامرأة كورية تدعى « تياسا » ، فلم ترقه ولا طابت له عشرتها . ثم ان تياسا هذه اغرت شقيقنا الصغير على عشق أثيم . ولم تلبث هذه العاطفة ان تحولت الى جنة مستعرة وولع شديد . على أن الكورية أبغضتهما كليهما وهامت بزمار كانت تخلوبه ليلاً في مخدعها حيث ترك ذات صباح تاجه الذي اعتاد لبسه في المآدب . فلما وجده أخواي أقسما على قتل صاحبه . وفي اليوم التالي قتلا الزمار ضرباً بالسياط ولم تشفع له دموعه ولا توسلاته . ففقدت زوج أخي رشدها من القنوط وأصبح هؤلاء الثلاثة البائسون كالوحوش يهيمون على شواطئ قوص . وكانوا من شدة جنونهم يعوون كالذئاب ، يعلو الزبد أشداقهم ، وتحقق في الارض ابصارهم ، والاطفال يضجون من حولهم ويرمونهم بالحار والحصى . الى أن ماتوا ودققتهم أبي يديه . ولم يلبث ان امتنع عن تناول الطعام فمات جوعاً ، مع انه كان لوفرة غناه يستطيع شراء ما يشتهيه الأصحاء في أسواق آسيا . وكان يتميز غيظاً من توريثي ثروته التي بددتها بعد موته في الاسفار . فزرت ايطاليا وبلاد اليونان وأفريقيا ، فلم ألق قط عاقلاً ولا سعيداً . درست الفلسفة في أثينا والاسكندرية حتى أزعجتني جلبة الحوار في اختلاف الآراء . ولما وصلت أخيراً الى الهند ، رأيت على شاطئ نهر الكانج رجلاً عارياً متربعا في مجلسه لم يفارقه منذ ثلاثين عاماً ، وقد علقت بجسده

الضامر النباتات المتسلقة وعششت الطيور في شعر رأسه ، وهو باق حياً . ذكرت لرؤيته تيماسا والزمار وأخوي وأبي ، وأدركت أن هذا الهندي حكيم . وقلت لنفسي ، « الناس يتألمون لأنهم محرومون ما يظنونهم خيراً ، وإذا نالوه خشوا ان يفقدوه ، أو لأنهم يعانون ما يظنونهم شراً . فإذا بطل كل اعتقاد من هذا القبيل زالت جميع الشرور . » هذا هو السبب الذي حال دون اعتباري شيئاً نافعاً ، وجعلني على ان أذهب مذهب الانفصال التام عن طبيبات هذه الدنيا ، وجعلني أعيش في وحدة وسكون مبتعداً عن ضجيج العالم ، اقتداءً بالهندي .

وكان بافوس يصغى باتباه لحكاية الشيخ ، فأجاب :

— حقاً يا تيموكليه القوسي ، ان كل ما قلته غير بعيد عن الصواب . فمن الحكمة ازدراء متاع هذه الدنيا ، ولكن ازدراء النعيم الابدئي ، وتعريض النفس بذلك لغضب الله ، لمن الجنون . انني أرني لجهلك يا تيموكليه ، وسأهديك الى الحق ، وأقودك الى محجة الصواب . فانك اذا علمت أن الله موجود في ثلاثة أقانيم ، أطعت هذا الإله كما يطيع الابن اباه . . .

فقاطعه تيموكليه بقوله : —

— كفي أيها الغريب ! كفي شرحاً وتبياناً لتعاليمك . لا تحاول ان تكرهني على قبول آرائك ، فكل جدل عقيم ؛ ورأيي ألا يكون

لي رأي . إني أعيش خلواً من الهموم مادمت لا أفاضل بين الأشياء .
سرّ في طريقك ولا تعالج تحويلي عن الجود المحمود الذي يغمرني
كأني في حمامٍ منعش بعد مشاغل أيامي المرهقة

كان بافئوس راسخ العقيدة قوي الايمان . ولشدة اختياره
لقلوب البشر عرف أن تيموكليه الشيخ قد عدته رحمة الله ، وإن يوم
خلاص تلك النفس الخاسرة لم يكن بعد ، فلم يجب خشية أن تنقلب
التبصرة تهلكة . فقد يحدث ان مجادلة المشركين تزيدهم تمرداً
وعصياناً بدلاً من أن تردهم الى حظيرة الايمان ، ولهذا ينبغي لمن هم
على الحق أن يذيعوه ببطنة وحذر .

فقال : -

- اذن ، فالوداع يا تيموكليه التعس !

ثم تهتد تهتداً عميقاً واستأنف سراه تحت ستر العسق .



رأى في الصباح سرباً من « أبي قردان » واقفاً على ساق
واحدة لا يتحرك عند حافة المياه التي تعكس ظلّ أعناقهِ الوردية .
وقد بسطت أشجار الصفصاف أوراقها الغضة الرمادية على الشاطيء
الى مدى بعيد ، وكانت الكراكي تطير على شكل مثلث في السماء

الصافية الأديم ، ومن بين عيدان القصب يتردّد نواح مالك الحزين .
والى آخر ما تستطيع العين أن ترى يتلاطم النهر في لجته الخضراء
وفوقها الاشرعة البيضاء كأنها أجنحة الطير . وهنا وهناك تهدي على
الشاطيء بيوت بيضاء يعشاها ضباب خفيف . وفي ظلال الجُرُر المثقلة
بالنخيل والازهار والثمار يدوي صياح أسراب البط والاوز والنحام
والشرشير . وإلى اليسار يمتد الوادي الخصيب حتى الصحراء تمايل
حقوله وجناته طرباً . والشمس تصبغ السنابل بالذهب ، وقد فاح
عَرَف التربة المحصبة وعبق شذاها

ولما رأى بافوس ، في روعة هذا المنظر ، برهان وجود ربه ،
خرّاً ساجداً يقول : —

— تبارك الله الذي وفقني في سفري ! سبحانك أنت الذي
أنزل نداءً على أشجار التين ، أنزل غفرانك يا إلهي على روح تاييس
التي برأتها ، وفي أحسن صورة صورتها ، لا تقلّ عن زهر الخمائل وأشجار
البساتين ! دعها يا إلهي تزهر بعنايتي شجيرة ورد بلسمية في بيت
مقدسك السماوي !

وكان كما رأى شجرة مزهرة أو طائراً غرداً ، فكفر في تاييس .
وهكذا سار على ضفة النيل اليسرى بين البقاع المحصبة الآهلة حتى
وصل بعد أيام الى الاسكندرية ، التي لقبها الاغريق بالجميلة والذهبية .

وكان الفجر قد تبلَّج منذ ساعة فلاحته له المدينة الرحبة العظيمة من مرتفع ، تتلألاً قبابها في ضباب الصباح الوردى . فوقف وضمَّ ذراعيه الى صدره ، وقال : -

- اذن ، هذا هو المترُّ البديع الذي تمخض بي في الخطيئة ! وهذا هو الهواء الذي منه استنشقت العطور السامة ! وهذا بحر الشهوات الذي فيه سمعتُ اغانيَّ بناته ! هوذا مهدي الجسدي وموطني العالمي ! وانه في نظر الناس لمهد الورد والزهر ، ووطن المجد والفخر ! ليس عجيبياً ايُّها الاسكندرية أن يعزك بنوك كأمر روم . وقد نشأتُ في أحضانك ذات الرواء وشبيت في ربوعك ربةً البهاء . بيد أن الزاهد يستخف بالطبيعة ، والصوفي يزدرى الظواهر ، والمسيحي ينظر الى وطنه الديوي كأنه منفى ، والراهب يعرض عن الدنيا ! ايُّها الاسكندرية ! لقد حولت قلبي عنك ، فأنا اكرهك وأمقتك لغناك ، لعامك ، لذاتك ، لجمالك ! لعنة الله عليك يا معبد الشياطين ! يا مضجع الفُجَّار ! يا منبر الاريسيين الموبوء ، عليك لعنة ! . وأنت يا ابن السماء ، يا من هدى أبانا الناسك « القديس انطوان » لما أتى من مجاهل الصحراء ودخل معقل الوثنية هذا ، ليثبت إيمان المهتدين ، ويشد أزر المستشهدين . يا ملك الرب الجميل ، ايها الطفل غير المنظور ، يا نفحة الله الاولى ، حلق امام عيني

وعطر برفرفة جناحيك الهواء الفاسد الذي سأستنشقه عمماً قريب مع
مردة الشر وأبالسة الظلام :

قال ذلك واستمر في طريقه ، ودخل المدينة من « باب
الشمس » الرفيع ، وكان على تساميه وخياله يتربع في ظله الفقراء
البائسون ، يستجدون المارّة أو يبيعونهم التين والليمون
وكانت هناك عجوز جالسة في أطوار بالية ، فأمسكت بمسوح
الراهب وقبلتها وقالت :

— أي رجل الرب ! باركني ليباركني الله ! لقد ذقت مر
العيش وكابدت آلاماً كثيرة في هذه الدنيا ، وأريد أن أحظى
بالمسرات في الآخرة . انك آتٍ من عند الله أيها القديس ، لذلك
أعدّ تراب قدميك أعلى من التبر .

فقال بافئوس :

— الحمد لله !

ورسم بيده علامة الفداء والخلاص على رأس العجوز ، وسار
في طريقه

على انه لم يكذب يتعد قليلاً حتى اعترضته شرذمة من الاطفال
جروا وراءه مستهزئين ، ورجوه بالطوب وهم يصيحون :

— يا للراهب الخبيث ! انه أسود من الغراب الاسخم ، وأقبح
التحاء من تيس ! يا له من غبيٍّ مستميت ! لماذا لم ينصبوه لعيناً^(١)
في حقل لتخويف العصافير؟ لكن لا ! ان وضعه هناك يجلب البرد
على زهر التفاح ! انه يجلب النحس والشؤم ! القوا به الى الغربان !!
على الراهب ! الى الغربان !

وانهالت عليه الحجارة مع صيحاتهم ، فتمتم بافانوس :

— اللهم بارك في هؤلاء الاطفال المساكين !

واستمر في طريقه مردداً ما يجول بخاطره :

— لقد احترمتني تلك العجوز ، وامتهنني اولئك الصبيان ،
وكذا الشيء الواحد يقدر على وجوه مختلفة من الناس الذين هم
عرضة للخطأ في احكامهم . فيجب التسليم بأن الشيخ الهرم تيموكليه ،
مع انه كافر ، لم يكن خلواً من الادراك . اذ أنه يعرف انه محروم
النور على الرغم من كونه أعمى . ان كل شيء في هذه الدنيا
سراب خادع ، وظلٌّ زائل ، ولون حائل . والبقاء لله وحده



اجتاز بافانوس المدينة سريع الخطى ، وتذكر بعد غيبته عشر
سنوات كل حجر فيها ، وكان كل حجر لديه فضيحة تذكره بمعصية.

(١) العين ما ينصب في الزرع بهيئة رجل لطرود الطيور والوحوش

لأجل هذا كان يطاء حجارة الطريق حافياً بشدة وعزم ، وكان يتبع
كلما تركت قدماه الممزقتان أثر دمائهما عليها .

ثم سار عن يمين أروقة معبد السرايس الفخمة ، في طريق
محفوف بالقصور المنيفة التي كانت كأنها تنطف عطراً . وهناك
اشجار الصنوبر والاسفندان شائخة برءوسها فوق الطنوف الحمراء
وقواعد التماثيل المذهبة . ورأى من خلال الأبواب تماثيل من
النحاس في أروقة من المرمر ، وخيوطاً من الماء النافر ترقص بين
اغصان الشجر . ولم يك ثمة صوت يكدر صفو سكون هذه الوحدة
الرائقة ، سوى أنغام ناي بعيدة . فوقف الراهب امام منزل صغير
بديع التقسيم ، قائم على اعمدة كأنها لحسن صنعها فتيات ، ومزدان
بتماثيل نصفية من البرنز لأشهر فلاسفة اليونان ، عرف بافانوس
منهم افلاطون وسقراط وارسطو وايقور وزينون .

قرع الباب ولبت ينتظر وهو يفكر في « إن من العبث أن يجرد
المعدن هؤلاء الحكماء المزيفين ، فترهاتهم باطلة ، وأرواحهم في نار
الجحيم تلظى ، وافلاطون الشهير نفسه ، الذي ملأ الأرض بشهرة
فصاحته ، يجادل الآن الزبانية في جهنم » !!!

فتح الباب زنجي . ولما رأى رجلاً حافي القدمين يطاء فسيفساء
العتبة قال بحسونة :

— اذهب ايها الراهب الهزأة ، واستجد في غير هذا المكان
ولا تنتظر حتى أطردك بالنبوت

فأجابه كاهن انصينا :

— لا أسألك شيئاً إلا أن تأخذني الى سيدك نسياس .

فأجابه العبد وهو يمين في حنقه :

— حاشا لسيدي أن يلقى الكلاب أمثالك .

فأجابه بافئوس :

— تفضّل يا بني وافعل ما طلبته اليك . أخبر مولاك اني

راغب في رؤيته

فصاح البواب الساخط متهيجاً :

— اخرج من هنا ايها المستجدي الملحاح !

ولكزه العبد بعصاه ، فتلقى الضربة على وجهه ساكناً ساكناً ،

وكرر قوله بلطف :

— أرجو يا بني أن تؤدي رسالتي الى سيدك .

فارتجف البواب ، وقد أوجس خيفة مما رأى ، وتتم قائلاً :

— ثرى من يكون هذا الرجل الذي لا يخشى الألم ؟

وانطلق ليخبر مولاة .

كان نسياس خارجاً من الحمام ، والجواري الجميلات يمسحن جسده بأدوات التدليك . وكان رجلاً رشيماً بشوشاً ، يجمع محياه بين حلاوة الدعابة ومرارة التهمك . فلما أبصر الراهب ، تقدم إليه مفتوح الذراعين هاتماً :

— هذا انت يا بافنوس ! رفيقي في طلب العلم ، صديقي ، أخي ! آه ! لقد عرفتك مع انك — والحق يقال — قادمٌ في صورة أشبه بالوحوش منها بالبشر . أتذكر أيام كنا ندرس معاً النحو والبيان والفلسفة ؟ كنت في ذلك الحين ذا مزاجٍ فظٍّ وحشي . ولكنني أحبتك لإخلاصك الذي لا تشوبه شائبة . وكنا اعتدنا أن نقول عنك أنك تنظر الى الكائنات بعيني جواد غضبان نفور ، ولم يكن جماحك ونفورك بالشيء المدهش . فلم تكن على جانب كبير من رقة القدماء ، ولكن كرم أخلاقك لم يكن له حد . لم تكن تضن بك ولا تبخل بحياتك . وكنت على خلق شاذٍ وعبقريّة حبيبتك اليّ وجعلتني أميل اليك كل الميل . أهلاً بك أيها العزيز بافنوس ، ومرحباً بك بعد فراق عشر سنين ! لقد غادرت الصحراء وزهدت في خرافات المسيحية وخزعبلاتها والآن تعود الى حياتك الاولى . ان اليوم ليوم ميمون !

ثم التفت الى النساء وقال :

— يا كرويل ويا مرتال ، ضمخا بالطيب قدمي ضيفي العزيز
ويديه وحلته .

فابتسمتا واقبلتا عليه بابر يق وقناني ومرآة معدنية . لكن
بافنوس وقفهما بإشارة الأمر ، ثم غض من بصره كي لا يراها ، لأنهما
كانتا عاريتين . فجاءه نسياس بالوسائد ، وقدم إليه طعاماً وشراباً
مختلفي الألوان ، فرفضها بافنوس كلها بازدرأ وقال :

— اعلم يانسياس انني لم أهجر ما سميته خطأ بالخرافات المسيحية ،
والتي هي بلاريب حقيقة الحقائق : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة
كان عند الله ، وكان الكلمة الله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن
شيء مما كان . فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس ... » (١)
فأجابه نسياس وهو يرتدي جلباباً معطرأ : —

— أتظن يا عزيزي بافنوس أنك تدهشني بذكر أقوال
مشوشة فارغة ، لا معنى لها ولا طعم ؟ أنسيت أنني أنا نفسي فيلسوف
إلى حد معين ؟ أنجيل اليك أنك تستطيع اقناعي ببعض خرق مزقت
من ثوب اميلوس الارجواني ، في حين أن اميلوس وبورفير
وافلاطون في أوج مجدهم ما استطاعوا اقناعي ؟ ! ان المذاهب التي
أنشأها الحكماء ليست سوى حكايات اختلقت لتسلية طفولة الناس
الخالدة ، ويجب أن نلهو بها كما نلهو بحكايات الحمار ، وذن النيذ ،

(١) من الانجيل المقدس (المترجم)

وماترون الافوسمي ، أو أية أسطورة أخرى من الاساطير الميزية .
ثم أخذ بذراع ضيفه وقاده الى بهو فيه آلاف من أوراق البردى
مركومة في سلال وقال :

— هذه مكتبتى . وهي تحوي شيئاً يسيراً من الآراء التي ابتدعها
الفلاسفة لتفسير الغاز هذا الكون . ان مكتبة الاسكندرية بكل
غناها لا تحويها كلها . وا أسفاه ! ليست هذه سوى أحلام قوم مرضى !
وأرغم ضيفه على الجلوس على مقعد من العاج ، وجلس هو
أيضاً . فألقى بافئوس على الكتب نظرة المعتم وقال :

— يجب أن تحرق كلها !

فأجابه نسياس :

— انها تكون خسارة يا ضيفي الكريم ! فأحلام المرضى تكون
بعض الاحيان مسلية . فضلاً عن انه اذا اعدمت كل أحلام الناس
وتخيلاهم فقدت الارض زينة أشكالها وبهجة ألوانها ، وكان نصيبنا
جميعاً الرقاد في خمول محزن .

لكن بافئوس استطرد قائلاً :

— من المحقق أن تعاليم الوثنيين ليست الا ترهات فارغة .
لكن الله ، وهو الحق بآيات بينات ، قد تجسد وعاش بيننا .

فأجاب نسياس :

— ما أغمّ كلامك عن تجسّده أيها العزيز ! عمري أن إلهماً
يفكر ويعمل ويتكلم ويمرح حسب الطبيعة ، كما كان شأن
عوليس العتيق على البحر الاخضر — ان هو الا انسان عريق .
وكيف يخطر ببالك أن تؤمن بجوپيتر هذا الجديد ، في حين أن
صبية أثلنا ، في عصر بركليس ، فرغوا من الايمان بسميه القديم ؟
ولكن دعنا من هذا ، إنك لم تأت ، كما أحسب ، للجدل في الاقائيم
الثلاثة . فخبني عما أستطيع القيام به لك أيها الرفيق العزيز .

فأجابه قسيس انصينا :

— أعربي حلة معطرة ، كتلك التي تلبسها ، ومنّ عليّ بنعال
مذهبة وقارورة ملئت زيتاً لأطيب به لحيتي وشعري . وزد على ذلك
سفظاً فيه الف درهم . هذا ما أتيتك في طلبه يا نسياس حباً لله
واكراماً لعهد صداقتنا القديم .

فدعا نسياس بجاريتيه كرويل ومرتال ، فأحضرتا أخف حلة له ،
وكانت موشاة على الطراز الآسيوي بصور الزهر والحيوان .
فأمسكتها المرأتان ونشرتهاها بمخدق بحيث بدت ألوانها البراقة ،
وأمهلتاه حتى يخلع مسوحه التي تغطيه من رأسه الى قدميه . فأعلن
الراهب أنه يفضل تمزيق لحمه إرباباً إرباباً دون أن يخلع مسوحه . فسترتا

المسوح بتلك الحلة . ومع ان كرويل ومرتال كانتا من طبقة الرقيق
الآ انه كانت لهما على الرجال دأنة الحسن ، فطفقتا تضحكان من
الهيئة الغريبة التي أصبح الراهب فيها . ودعته كرويل مولاها
العزير ، بينما كانت واقفة أمامه بالمرآة . وشدت مرتال لحيته . غير
أن بافنوس كان يصلي لله ، ويغض عنهما بصره . ولما احتذى النعال
المذهبة وشد السفط الى حزامه قال لنسياس الذي كان ينظر اليه باسماء :

— أي نسياس ! يجب ألا تكون الاشياء التي تراها معرفة في
نظرك . كن واثقاً أنني سأحسن استخدام هذا الثوب ، وهذا السفط ،
وهذه النعال ، واعمل بها عملاً صالحاً .

فأجاب نسياس :

— لست أظن ثراً ولا سوءاً ، لاعتقادي أن الناس متساوون
في العجز عن فعل الشر والخير . فالخير والشر لا يتعديان حدَّ
الظن . وليس لدى الحكيم لأسباب الدعوى سوى العادة والعرف .
انني احبذ الآراء الشائعة في الاسكندرية في عهدنا هذا . وذلك هو
سبب اعتبار الناس إياي رجلاً شريفاً أميناً . فاذهب يا صاحبي وتمتع
بما اخذت كيف شئت

لكن بافنوس استحسن أن يطلع مضيفه على حقيقة الامر ، فقال :

— أتعرف تاييس ، تلك التي تمثل في المسرح ؟

— امرأة جميلة فتانة! وقد كانت يوماً ما عزيزة جداً عليّ
حتى اني بعث في سبيل هواها طاحونة وحقاين كانا يزرعان حنطة!
واكرمتها بثلاثة دواوين من الشعر مشحونة مرآئي سقيمة! حقاً ان
الجمال هو اعظم قوة في العالم، فانه اذا قدر لأحدنا ان يظفر به الى
الأبد، أعار « الخالق » و « الكلمة » و « الخلود » أقل ما يمكن
من المبالاة! على اني أعجب يا بافنوس الصالح الجيئك من اعماق
طيبة لتحدث عن تاييس .

ثم تهجد ، فرشقه بافنوس بنظرة الذعر والخوف ، لأنه لم يخطر
بباله قط أن رجلاً يمكنه أن يقترف مثل هذا الأثم بمثل ذلك الهدوء .
وتوقع أن يرى الأرض قد انشقت وابتلعتة . لكن الأرض لم
تنشق . وبقي الاسكندري الصامت معتمداً رأسه يتسم بمرارة
لذكريات شبابه المدير . فوقف الراهب وأجاب بصوت جهوري :

— اعلم يا نسياس اني أروم بمعونة الله اتقاذ تاييس من حضيض
الشهوات الارضية السافلة ، وإشرب قلبها حب المسيح لتكون
عروسه . واذا لم يفارقني الروح القدس ، فستعادر تاييس هذه المدينة
اليوم لتذهب الى الدير .
فأجاب نسياس :

— احذر أن تغضب « الزهرة » إنها إلهة قادرة ، ان أنت
حرمتها أبدع عبادها ، أوغرت صدرها عليك !
فقال بافوس :

— ان الله سيقيني ويدفع عني سوء . وعسى ربي أن ينير
قلبك يا نسياس ، ويرفعك من الهوة التي تتردى فيها .
وخرج فتبعه نسياس حتى أدركه بالباب ووضع يده على كتفه
وهمس في أذنه مكرراً قوله :

— احذر أن تغضب الزهرة ، فانتقامها شديد !

على أن بافوس لم يعبأ بهذا النذير وخرج طويلاً عنه كسحه .
فلم تبعث فيه أقوال نسياس إلا عاطفة الاشمئزاز والاحتقار . وقد
أحفظه جداً ، اذ علم أن صديقه نال حظوة عند تاييس . وخيل
إليه أن ارتكاب الخطيئة مع هذه المرأة أشنع وأشد هولاً منه مع
آية امرأة أخرى ! كان يرى في هذا الشر مخزاة مستنكرة على مثله ،
وأصبح نسياس عنده مبغضاً حقيقاً باستنزال العنات . كان من طبعه
كراهية الرجس ، ولكنه تمثل هذه الذيلة فبدت له بأفزع مظاهرها .
وما سبق له أن شاطر من صميم قلبه ، المسيح في غضبه ولا الملائكة
في حزنها ، كما شاطرهم الآن .

وكان كلما فكَّر في ذلك يزداد ميلاً الى اتقاد تاييس من وسط
الفجار . وما كان ينقصه الا أن يراها لينتشلها من بينهم . غير أنه
كان لا مناص له من التريث حتى يعتدل الجو ، إذ كانت الشمس
لا تزال رآد الضحى . فسار بافنوس في شوارع البلد الآهله ، وقد
اعتزم الامساك عن الطعام في هذا النهار حتى يكون أهلاً لما يلتمسه
من عون الله ورضاه . وكان لشدة حزنه لا يجرؤ على دخول
كنيسة من كنائس المدينة لعلمه بأنها ملوثة بدنس الآريوسيين الذين
قلبوا موائد الرب . وكان امبراطور الشرق يشد أزر هؤلاء الهراطقة
الضالين الذين طردوا اثناسيوس بعد أن القوه عن كرسي اسقفية
وَبُو الفتن بين نصارى الاسكندرية .

فسار معتسفاً ، تارةً يلقي بنظره الى الأرض في اتضاع وخشوع ،
وتارةً يرفع بصره الى السماء في تحلي الانجذاب . وبعد أن سار
قليلاً على غير هدى وجد نفسه على رصيف من أرصفة المدينة . وكان
الميناء يضمُّ سفناً عديدة والبحر يموج معجباً بلججه اللجينية الزرقاء .
وكان هناك مركب يحمل في مقدمته « بنت البحر » وقد رفع
البحارة مرساه وهم يغنون ويشقون صدور الأمواج بمجاذيفهم ، ولم
تلبث السفينة البيضاء المغطاة باللؤلؤ الرطب ، أن اصبحت في عيني
الراهب أثراً بعد عين ، وأبحرت يقودها ربانها في مضيق حوض

«الايستوس» ، وأوغلت في عباب البحر الزاخر تجرُّ وراءها ذيلًا
من الزبد .

فقال بافوس في نفسه :

— لقد تمنيت أنا أيضًا أن أخرج عباب اوقيانوس العالم رافعًا
عقيرتي بالغناء ، لكنني ما لبثت أن أدركت مبلغ حماقتي فلم تغلبي
إلهة البحر على أمري .

ثم جلس على ربطة من الجبال وما لبث أن استغرق في النوم ،
ورأى رؤيا : خيل اليه فيها أنه يسمع نفعًا في صور ، ورأى السماء
حمراء كأنها صبغت بالدم ، فعلم أن الساعة قد أتت وحن يوم الحساب .
وفيما هو يضرع إلى الله بجمرة ، رأى وحشًا هائلًا يتقدم إليه وعلى
جبينه صليب من نور ، فعرف فيه أبا هول سيلسييه . فأمسكه الوحش
بين فكَّيه من غير أن يصيبه بأذى وحمله في فمه كما تحمل القطعة صغارها
وقطع به ممالك عديدة عابراً الانهار ، مجتازاً الجبال ، حتى أتى مكانًا
قفرًا مغطى بالصخور الضخمة والرماد الحار ، وكانت الأرض مشققة
في عدة مواضع يخرج من فوهاتها لهيب وبخار ، فأنزله الوحش على
الأرض برفق وقال له :

— انظر !

فأشرف بافنوس من حافة الهاوية فرأى وادياً من النيران
يتلظى في جوف الأرض بين جرفين من الصخور السوداء. وشاهد
الزبانية تسوم أرواح الخاطئين سوء العذاب ، وقد احتفظت تلك
الأرواح بمظاهر أشكالها الجسدية ، حتى ان قطعاً من النسيج كانت
لا تزال عالقة بها . وأدهشه أنه كان يبدو على هذه الأرواح علامات
الطهائنة في هذا العذاب الذي يكابدونه . ومنها روح طويلة القامة ،
بيضاء ، مغمضة العينين ، على جبينها عصابة ويدها صولجان . غنت
فملاً صوتها الوادي الجذب بألحان موزونة ، وشدت بذكر الآلهة
والابطال ، وكانت العفاريث الصغيرة الخضراء تحرق شفتيها ونحرها
بحديد محمى . . وظل طيف هوميروس يغني . . . ! وعلى مقربة منه ،
الشيخ انجازجور ، وكان أصلع أشيب ، يرسم بالفرجار أشكالاً في
التراب ، وهناك شيطان يصب الزيت الغالي في اذنه وهو جاد في عمله !
ورأى الراهب فيما رأى ، طائفة من الناس على جانب وادي
السمير ، يقرأون ويتحدثون في اطمئنان وهدوء ، وهم يتزهون كما
يفعل الاساتذة والطلبة في ظل اشجار الاكاديمي !!
وهناك على حدة ، وجد تيموكليه الهرم قد اتخذ مكاناً قصياً ، بهز
رأسه هزة الجحود والانكار ، وبجانبه أحد زبانية الهاوية يحرك
شعلة امام عينيه ، وتيموكليه لا ينظر اليه !

عقدت الدهشة لسان بافنوس فالتفت الى الوحش واذا به قد
اختفى ، ورأى مكانه امرأة مقنعة قالت له :

— انظر واعتبر بهؤلاء المشركين فانهم خالدون في جهنم فرانس
الأوهام التي أغوتهم وأضلتهم في الحياة الدنيا . لأن الموت لم يكشف
العشاوة عن بصائرهم ليروا . فما الموت بكافٍ لرفع الحجاب عن الحقيقة .
والذين كانوا في الحياة جاهلين سيبقون في الجهل خالدين . وما اولئك
الشياطين الذين يشتدون في تعذيب تلك النفوس سوى صور محسوسة
يتجلى فيها العدل الرباني . لهذا ترى تلك النفوس عاجزة عن رؤيته
والشعور به لأنها بعيدة عن كل حق فلا تدري قضاء الله عليها وتعمرى
عن الصواب

فقال كاهن انصينا :

— ان الله على كل شيء قدير

فأجابت المرأة المقنعة :

— انه جل شأنه لا يفعل شيئاً عبثاً . فعقابهم يقتضي انارة
بصائرهم ، فاذا ملكوا ناصية الحق اصبحوا كالمجتبين

عاد بافنوس يطل ثانية على الهاوية . وقد طار لبه رؤى
وفزعاً . فرأى طيف نسياس تحت الريحان المحترق يتسم وجبينه متوج
بالزهر وبجانبه « اسبازيا » تحتال بدلال ورشاقة في ثوبها الصوفي ،

يلوح عليهما انهما يتكلمان معاً في الحب والفلسفة . وعلى محياهما
سمات الملاحه والنبل . وكان سيل النار يتساقط عليهما كأنه برد
وسلام . وكانت أقدامهما تطأ الأرض المضطربة وكأنها العشب
الندي . فاهتاج بافنوس لهذا المنظر هياجاً شديداً وصاح :

— عدلك يارب عدلك ! أنزل مقتك وغضبك ! هذا نسياس ،
دعه يبكي ويتوجع ! اجعل اسنانه تصطك ، انه جنى على تاييس !
واستيقظ بافنوس بين ذراعي بحار قوي كهرقل كان يحمله
ليضعه على الرمل وهو يقول له :

— هدوءاً وسلاماً ايها الصاحب ! بحق « پروتيه » آله
البحر ، انك تضطرب في نومك ! ولو لم اكن قد أمسكت بك
لسقطت في « الاينوستوس » . فلا تشك في اني أتقذت حياتك ،
كما لا أشك في أن أمي تبغ الفسيخ !!

فأجابه بافنوس بقوله :

— الحمد لله !

ثم نهض وسار يفكر في الحلم الذي رآه ويقول في نفسه :

— ان هذا الحلم شر ظاهر ، انه يسيء الى العزة الالهية بتمثيل
الجحيم كأن ليس له ظل من الحقيقة ، حقاً ان هذه أضغاث أحلام
من عمل الشيطان !

وبينما كان يعاتب الله على تخليه عنه وتركه لسلطان الشيطان ،
كانت تدفعه جماهير من الناس تسير مسرعة في طريق واحد .
ولما لم يكن معتاداً السير في المدن فانه تعثر في طيات ثوبه وسقط
غير مرة .

وأراد معرفة مقصد اولئك الناس فسأل أحدهم عن سرّ هذه
العجالة فأجابته :

— ألا تعرف أيها الغريب أن الألعاب ستبدأ ، وأن تاييس
ستمثّل ؟ هؤلاء كهّام ذاهبون الى الملعب وأنا ذاهب اليه مثلهم .
فهل تروق لك صحبتي ؟

ففتظن بافئوس الى أن رؤية تاييس في العابها توافق خطته ،
وتبع الرجل الغريب .

وكان الملعب امامهما مزدانا ايوانه بصور الوجوه المستعارة
الزاهية ، وعلى سوره تماثيل لا تحصى . فتبعا الجمهور ودخلا دهليزاً
ضيّقاً في نهايته مدرّج تسطع فيه الأنوار . فجلسا في أحد الصفوف .
وكان المسرح بادياً في أجمل زينة وأبداع مثال ولا يزال خالياً . ولم
يك ثمة ستار يحجب المشهد . وكان على المسرح هضبة كالتي كان
يقيمها الأقدمون لأرواح أبطالهم . وكانت هذه الهضبة في وسط
معسكر . وقد وضعت امام الخيام حزم الرماح ، وعُلقت التروس

الذهبية على الأعمدة بين أكاليل من الغار وتيجان من أوراق شجر البلوط — يخيم عليها جميعاً السكون . لكن دويًا كأزيز النحل دوى من نصف الدائرة حيث جلس المشاهدون ، وقد تحوّلت وجوههم المحمرة ، من انعكاس الثياب القرمزية عليها ، نحو ذلك المكان الرحب الصامت بهضبته وخيامه . وكان النساء يضحكن وهن يأكلن الليمون ، وكان المترددون على الملعب يتلاقون فيعارفون بابتهاج وابتسام .

صلى بافنوس في نفسه ، وأمسك عن لغو الكلام ، لكن رفيقه أخذ ينتقد الملعب ويشكو من تأخر حاله ، فقال :

— قديمًا كان الممثلون البارعون يلقون من تحت الوجوه المستعارة أشعار يوربيدس ومناندر ، أما الدراما فلا تُلقى الآن وإنما يقلدون بها بإشارات كأنهم صم بكم ، ولم تبق لنا من المشاهد السامية التي وُضعت إكرامًا لباخوس في أثينا إلا ما يستطيع أن يفهمه الرجل الساذج ، لأنه ليس سوى مظهر وإشارة . أما برقع المأساة الذي كان موضع الفم فيه مجهزًا بالسنة من معدن تزيد في جهارة الصوت ، والمطوّلات التي كان يلبسها الممثلون فتبلغهم طول الآلهة ، وجلال المأساة والتصانيد التي كانوا يتغنون بها — هذه كلها قد أمّحت ، وحلّ المثلون الصامتون ، والراقصات السافرات محلّ پولوس



(تكريم باخوس ، اله الخمر ، في أثينا)

وروسكيوس . ترى ماذا كان الأثينيون معاصرو بركليس يقولون لو انهم رأوا امرأة تبدو للعيان ؟ ان سفور المرأة عيب ، ولا ريب أن رضانا به تقهقر وانحطاط . حقاً ، ان المرأة هي عدو الرجل الطبيعي وسوءة الوجود .

فأجاب بافنوس :

— أصبت ! فان المرأة أشد أعدائنا ، لأنها تملك قياد

الذات ، وهذا سر قوتها .

فصاح دوريون :

— وحق الآلهة إن المرأة لا تمنح الرجال لذة بل تجلب الحزن ،

والنصب ، والمهموم الساحقة ! الحب مصدر آلامنا المحرقة ! اسمعني

أيها الأجنبي :

ذهبتُ في صباي الى تيريزنا بأرجوليد، ورأيت هناك ريحانة كبيرة الحجم موخوزة الاوراق ، ويقول سكان تيريزنا عنها : انه لما هامت الملكة فيدروس بحب هيبوليتس ، قضت سحابة يوماً جائية في ضنى وكلال تحت هذه الشجرة. وفي أثناء ضجرها وإعيائها أخذت دبوسها الذهبي الذي يمكش شعرها الاشقر ووخزت به أوراق الشجرة ذات الشذى العطري، وبعد ان صادت الرجل البريء الذي نصبت له شرك هواها ، ماتت فيدروس شرمية كما تعلم ، فقد أغلقت باب مخدعها وشقت نفسها بمنطقها الذهبية معلقة في مسار من العاج . وأرادت الآلهة أن تبقى الريحانة شاهدة على هذا الشقاء ، تحمل فوق أوراقها الغضة المتجددة وخزات الدبوس الى نهاية الدهور . وقد قطفت احدى هذه الاوراق ووضعتها فوق مضجعي زجراً للنفس عن التطوح في مهامه الحب ، مستعيناً بحكمة أيقور أستاذه العظيم الذي من تعاليمه أن الشهوة مخوفة . وصفوة الكلام أن الحب دانه محتوم لاخلاص منه غالباً

فسأله بافئوس :

— فيم مسرّاتك اذاً يا دوريون ؟

فأجاب دوريون باكتئاب :

— لي لذة واحدة ، هي التفكير . وليس لذي معدة ضعيفة

مثلي أن يبحث عن سواها .

فانهز بانفوس هذه الفرصة ، وبدأ يُعرّف الايقوري بالمسرات
الروحية الناشئة عن مناجاة الله والتأمل في ذاته العلية ، فقال :

— استمع للحق يا دوريون ، وتلق النور . . . !

فما لبث ان رأى الرؤوس والاذرع تتجه اليه من كل صوب
تأمره بالسكوت . وخيم على الملعب سكون عميق أعقبته نغمات
الموسيقى الحماسية .

بدأت الالاعاب، وشوهدت الجنود تغادر الخيام وتستعد للرحيل،
وعندئذ حدث أمر عجيب رهيب ، اذ غطت سحابة قمة الهضبة ثم
انقضت وظهر طيف « أشيل » في درع من ذهب ومد ذراعه نحو
المحاربين كأنه يقول لهم : « ما هذا يا أبناء دانوس ، أعودون الى
الأرض التي لن أراها ثانية ، وتغادرون قبري بغير أن تقدموا لديه
الذبايح والقرابين ؟ »

فاجتمع فوراً قواد الاغريق حول سفح الهضبة ، وبينهم
اكناس بن تزيس ، ونستور الشيخ ، وأجا ممنون يحمل الصولجان
وعلى جبينه عصابة — وجعلوا يتفرون فيما حدث . وكان بيروس
ابن اشيل الصغير ساقطاً على الارض، واتضح من حركات عوليس،
المعروف بقلنسوته التي يظهر من تحتها شعره الجعد، انه راض بما يطلبه

طيف البطل ، وكان يحاور أجامنون ، واستطاع الحضور أن يفهموا أقوالها من اشارتهما ، وحسبوا ملك اتيكما يقول :

— ان أشيل يستحق منا كل إعظام وتكريم ، وهو الرجل الذي مات أشرف ميتة في سبيل اليونان ، وهو يطلب العذراء پوليكسنا ابنة پريام ليضحي بها على قبره ، فيا أيها اليونانيون ! ادخلوا السرور على طيف البطل واجعلوا ابن بيليه يفرح في مقره الابدي

لكن ملك الملوك أجاب :

— لنبقين على عذارى طرواده اللواتي اتقدناهن من المذابح ، فكفي ما نزل من الإحن والمصائب بالجنس الپريامي الجليل .

قال ذلك لأنه كان يهوى أخت پوليكسنا ويقاسمها مضجعها . فعبره عوليس الحكيم أنه يفضل فراش كساندرا على رمح أشيل وأخيراً ، وافق اليونانيون على اقتراح عوليس بأن قرعوا أسلحتهم بعضها ببعض . وتقررت تضحية پوليكسنا ، فاطمأنت روح أشيل واختفى طيفه مغتبطاً .

وكانت الموسيقى تارة تعصف وتثور ، وتارة تن وتنوح ، وهي تماشي إحساس الجمهور وعواطفه . فصفق الحضور طرباً واعجاباً الالبافنوس ، الذي يعزو كل شيء الى الله الحق ، فانه قال :

— من هذه القصة نرى كيف كانت قسوة الذين عبدوا
الآلهة الباطلة !

فأجابه الإيقوري :

— ان الأديان كلها تلد الجرائم ! ولحسن الحظ ، أوتي اغريقي
الحكمة ، فخلص الناس من مخاوف المجهول التي لا أساس لها . . .

وهنا غادرت هيكوبا الخيمة التي كانت فيها اسيرة وهي شعناء
الشعر ، ممزقة الثوب . فارتفعت تأوهات عالية من قلوب الحاضرين
حين شاهدوا صورة شقائها مجسمة . وكانت هيكوبا قد أندرت برؤيا
صادقة ، فبكت واستبكت لنفسها ولابتها ، فدنا منها عوليس وسألها
أن تسلم بوليكنسا ، فشدت شعرها بيديها ، وخذشت خديها بأظافرها ،
وقبلت يدي ذلك الرجل الغليظ القلب الذي خاطبها بقوله :

— تعقلي يا هيكوبا واخضعي لحكم الضرورة . فان في منازلنا
أيضاً أمهات عجائز يبيكين اطفالهن الذين ناموا تحت أشجار صنوبر
إيدا نوماً أبدياً .

أما كسندرا التي كانت يوماً ملكة آسيا الغنية ، وأصبحت
الآن جارية ، فانها حثت التراب على رأسها .

ثم رُفِع ستار الخيمة . وظهرت العذراء بوليكنسا . فسرت

في المشاهدين جميعاً هزّة اذ عرفوا انها تاييس . وأبصر بافئوس ثاية
المرأة التي جدّ في طلبها

وظهرت تاييس بعد ان رفعت يديها البيضاء ستار الخيمة ، ثم
لبثت واقفة بلا حراك كستمال بديع ، والقت من عينيها البنفسجيتين
نظرات الدلال والخيلاء ، ففتن جمالها الباهر كل قلب ، وأحس كل
من شاهدها برجفة أثارت فيه عوامل الشفقة والحنان .

وارتفعت من الحاضرين أصوات الاستحسان ، حتى أن بافئوس
عقد يديه فوق صدره ، وشدّ على فؤاده مفتوناً ، وتهد متأوهاً ،
وقال : —

— رب ان هذا سلطان شديد ، لواحدة من خلقتك ، على عبادك !
وكان دوريون أقل تأثراً منه فقال :

— حقاً إن الذرّات التي تألفت منها هذه المرأة كونت تركيباً
بديعاً يسر النظر . وليس ذلك الا احدى دعابات الطبيعة وهي تاهو
وتلعب ، فالذرات لا تدرك ماتكونه ، وسوف ينحل بعضها عن بعض
وتتفرق كما اتحدت ، أي بغير شعور بالاتحاد ولا بالتفرق . وأين أين
الذرّات التي تكوّنت منها لا عيس أو كليو بطرا ؟ لست انكر أن النساء
في بعض الاحيان جميلات ، لكنهن جعان عرضة للقبح والثقل !!

هذه مسائل تشغل عقول المفكرين ، في حين أن السفلة
الاجلاف لا يعنون بها ولا يلتفتون اليها . النساء يضرمن الحب فينا
ويوحينه لنا ، ولكن الهيام بهن مخالف للعقل والحكمة .

كذلك فكر الفيلسوف ، وكذلك فكر الزاهد في تاييس ،
واتبع كل منهما سبيل خواطره ، فلم يلحظا اتجاه هيكوبا الى ابنتها -
وقولها باشاراتها :

- حاولي أن تؤثري في قلب عوليس القاسي ، كليه بدموعك
وجمالك وشبابك !

فأرخت تاييس ، أي پوليكسنا ، باب الخيمة ، وخطت خملوة
فاستولت على كل القلوب . ولما تقدمت نحو عوليس بخطى ثابتة
سريعة ، بعثت حركاتها المتوازنة المرتبطة بأنغام الناي الشجية ، في
أذهان الحضور كلهم أحلاماً لذيذة فأحسوا كأنها هي المحور الآلي
الذي تدور حوله أنظمة الكون جميعاً ! فلم يروا أحداً سواها ،
وكسفت أنوار جمالها كل ما عداها ، ولم يحظ الممثلون الآخرون
بأدنى التفات . ثم استمر التمثيل .

أدار «ابن ليرت» الحصيف رأسه ، وأخفى يده تحت معطفه ،
ليتحاشى نظرات الفتاة المتضرعة وقبلاتها ، فأشارت اليه العذراء الألى
يخافها ولا يخشاها ، وقالت بلسان نظراتها الهادئة :

— اني أمتك يا عوليس ! سأتبعك خاضعة للقضاء ، لا اني
راغبة في الموت . أنا ابنة بريام وأخت هيكتور التي كانت يوماً
جديرة بالملوك فلن أرضى سيداً أجنبياً — اني بملء الرضى أنبذ الحياة !
وكانت هيكلوبا جاثية على التراب ، فنهضت فجأة وعانقت
ابنتها عناق اليأس والقنوط ، فأبعدت پوليكسنا ، بلطف لا يقاوم ، ذراعي
أمها عنها ، وكأنها تقول :

— لا تعرضني نفسك يا أماه لعدوان السيد ، لا تتظاري منه
شفقة ولا رحمة ، أيتها الأم المحبوبة ، هات يدك ذات الغضون
وقربي خديك الضامرين الى شفتي !

زاد الحزن وجه تاييس حسناً واشراقاً ، وشعر الجمهور بامتنان
نحوها لتمثيلها أمامه أهواء الحياة وأشكالها في رقة فائقة . وسامح
بافنوس زهوها الخالي اكراماً لاتضاعها المقبل ، واثني على نفسه
سائماً من اجل القديسة التي سيضعها عما قريب الى السماء !



وقارب المشهد الختام . فسقطت هيكلوبا كالميتة ، وتقدمت
پوليكسنا ، يقودها عوليس ، الى القبر المحوط بصفوة رجال الحرب ،
وصعدت مزفوفة بتراتيل الحزن المؤثرة ، الى قمة الهضبة حيث قدم

ابن أشيل الخرفي كأس ذهبية الى طيف البطل . ولما مدّ المقرّبون
أذرعهم ليمسكوا بها أشارت اليهم برغبتها في الموت طليقة غير مقيدة
كما يليق بسليمة الملوك مثلها ، ثم مزقت قميصها وكشفت عن موضع
قلبها ، فغيب فيه بروس حسامه وقد حوّل رأسه ، ففاض الدم ، بحيلة
فنية باهرة ، متدفقاً من صدر العذراء الناصع ، وسقطت بجيأ وخفر
منحنية وقد نكس رأسها ، وغارت عيناها من تأثير الموت وهوله .

كفنّ المحاربون الضحية وغطوها بالزنبق وشقائق النعمان في
برهة مليء الجوف فيها بصيحات الفزع والابن والتأوهات . فنهض
بافنوس واعتلى مقعده وتنبأ بصوت جهوري كالرعد ، هذه النبوءة :

— أيها الذين كفروا وعبدوا الشياطين ! أيها الأريوسيون
وأنتم أشد طغياناً من الوثنيين ! ان ما ترون الآن إن هو إلاّ مثال
ورمز ، هي خرافة تشتمل مغزى دينياً سامياً . فان المرأة التي مثّت
أمامكم التضحية سوف تقبل الموت باغتباط في سبيل الله . . .

ولكن الجموع كانت قد تسابقت الى الخروج كالموج الزاخر ،
واستطاع كاهن أنصينا أن يتخلص من دوريون المذهول فانطلق
وهو لا يزال يردد نبوءته .



وبعد ساعة من الزمن طرق باب تاييس .

وكانت الممثلة تسكن بيتاً محاطاً بجنت وارفة الظلال فيها
صخور صناعية ينساب في وسطها غدير مزدان بأشجار الحور، في
حي راكوتيس بقرب قبر الاسكندر.

ففتحت له الباب جارية سوداء شماء مثقلة بالحلي، وسألته عما
يريد، فأجابها:

— اروم رؤية تاييس، والله يشهد اني ما أتيت الى هنا
الآن لرؤيتها.

وأبصرت الجارية أنه يلبس ثوباً فاخراً ويتكلم بأبهة السيادة
فسمحت له بالدخول وقالت:

— تجد تاييس في كهف العذارى





البردى

ولدت تاييس من أبوين فقيرين ، وثنيين . وفي أيام حداثتها
كان أبوها يدير حانة على مقربة من باب القمر بالاسكندرية يتردد
اليها البحارة . فرسخ في ذهنها تذكارات أمور كثيرة عن الحانة
وما يتعلق بها . كانت تذكرا أباهما وهو مترجع في زاوية البهو ،
طويلاً ، مبيهاً ، هادئاً كأنه أحد أولئك الفراعنة الذين كان العمي
المنسولون يمجدونهم في أغانيهم المحزنة وهم جالسون في مفارق الطرق .
وتذكر أيضاً أمها النحيلة المكتئبة تذرع البيت وتطوف به كقطعة
جانعة ، يملأه صوتها المنكر رعباً ، وعيناها البراقتان شرراً . وقد شاع
عنها في الضاحية انها ساحرة تتحول في الليل الى بومة لتساقى

عشاقها ! على أن هذه الاشاعة زور وبهتان ! فقد تحققت تايس من ملاحظتها الدائمة لأما أنها لم تستغل قط بغنون السحر ، ولكن لشدة تفانيها في الشح والجشع كانت تقضي سواد ليلها تحصي دخل يومها .

فأبوها الفاتر الهمة ، وأما البخيله ، كلاهما ألقيا حبلها على غاربها ، وتركها كدجاجة في حظيرة الطيور البيتية ! فظهرت مهارة لا تجارى في سلب دراهم البحارة السكارى ، تناولها من أحزمتهم وهي تباسطهم بالاغاني الصبائية ، والكلمات الشنيعة التي كانت تجهل معناها . وكانت تنتقل من ركبة الى ركبة في القاعة المتشعبة برائحة الخمر والقرب الراتنجية ، ثم تعود ويدها الصغيرتان قابضتان على الدرهمات ، ووجهها مندّي برشاش الجعة المتطاير ، مخدّش من اللحى الكسّية ، وتجري لشراء أفراس الشهد من امرأة عجوز جالسة في كُنّة تحت باب القمر

وهذه المشاهد كانت تتكرر كل يوم . فيذكر البحارة ما لاقوه من الاخطار في أثناء اشتداد العاصفة ، ثم يلعبون النرد والكعاب ، ويطلبون ، وهم يحدفون ، أحسن جعة كلكيلية .

وكانت الطفلة تايس تستيقظ كل ليلة على شغب السكارى وعراكهم ، وعلى ما يتساقط فوق الموائد من قذائف الحمار وسط

الصخب والضجيج المتعالي ، وترى بعض الاحيان ، على ضوء
المصابيح الكثيرة الدخان ، المدي تلمع والدم يسيل . . .

ولم تعرف الطيبة البشرية في ريق عمرها الا في شخص
« احمس » الذي كانت تقاسمه المذلة . وأحمس هذا عبد البيت وهو
نوبي أشد سواداً من القدور التي يعنى بفركها وتنظيفها ! لكنه كان
طيباً كالليل الذي يُقضى في نوم عميق لا يتخلله سهاد ! وطالما
وضع تاييس على ركبتيه يقص عليها قصصاً عن مغاور مملوءة كنوزاً
وقد بُنيت للملوك أشحاء أعدموا الذين بنوها لهم ! وكان في تلك
القصص أيضاً لصوص حُذاق يتز وجون من بنات الملوك ، وسراري
يينين اهراماً !

فأجبت تاييس الصغيرة أحمس حب الطفلة للأُم والاب
والمرضع والكلب ! تعلقت بالعبد وكانت تتبعه الى قبو دنان الخمر
وحظيرة الدجاج بين الفراخ الضامرة المنتفشة التي ترفرف طائرة
امام مدينة الطاهي الزنجي أسرع من فراخ النسور ! وفي كل ليلة
تقريباً ، كان يصنع لتاييس الطواحين والسفن بحجم راحة اليد ،
وفيها كل معداتها .

وكانت إحدى أذنيه مصلومة من سوء معاملة سادته له ،
وقد غطت الندوب جسده ، ولكن كان على وجهه مسحة الطمانينة

والانبساط ، ولم يخطر لأحد ان يسأله من أين استمد عزاء النفس
وراحة الضمير . فقد كان ساذجاً كالطفل ، وكان وهو يؤدي عمله
اليومي الشاق ينشد بصوت أجشّ أناشيد تبعث في نفس الفتاة
الرجفة والاحلام .

كان يترنم مسروراً بصوت جهوري يقول :

« — خبرينا يا مريم ، ماذا رأيت حيث كنت ؟ »

« — رأيت الكفن ، ونسيج الكتان ، والملائكة جالسين

عند القبر ، وشهدت مجد المبعوث ... »

فسأله تاييس مرةً :

— لماذا تتغنى يا ابنت بقولك : « الملائكة جالسون عند

القبر ؟ »

فأجابها :

— أيتها الصغيرة ، يا نور عيني ! اني أتغنى بذكر الملائكة ، لأن

سيدنا المسيح قد صعد الى السماء

كان احسن مسيحياً ، مُمَدِّاً . وفي اجتماعات المؤمنين التي

يحضرها سرّاً في الوقت المعين لنومه ، كان معروفاً باسم تيودور .

في ذلك العهد كانت الكنيسة تقاسي اكبر البلاء وأشد

الاضطهاد . فبأمر الامبراطور هُدمت الكنائس ، وأحرقت الكتب المقدسة ، وصهرت الاوعية الطاهرة والمسارح ، وجرّد المسيحيون مما ملكت أيّمانهم ، وما كانوا يتوقعون سوى الموت . وساد الرعب طوائف الاسكندرية وبلاد العرب وبين النهرين وغيرها من بلدان الامبراطورية الرومانية . وسأطت السياط ومطايا التعذيب والمخالب الحديدية والوحوش الضارية على الاساقفة والعداري فزّقتهم شرّاً ممزّق . فانقضّ أنطوان ، زعيم المؤمنين الذي كان مشهوراً في مصر بزهده وتقواه ، انقضاض النسر على مدينة الاسكندرية ، وخفّ من كنيسة الى كنيسة يشدد عزائم المؤمنين ، ويبيث في قلوبهم روح الشجاعة والقوة والايان والصبر على المكاره . وكان اضطهاد العبيد على الخصوص بالغاً أشدّه ، فارتدّ كثيرون منهم لما أصابهم من الجزع ، وهرب آخرون الى الصحراء بأمل أن يعيشوا فيها نساكاً زاهدين ، أو لصوصاً ناهبين !

أما أحسن فضل مع هذا كله يغشى كعادته المجتمعات ويختلف اليها . فزار المسجونين ، ودفن الشهداء ، واعترف وجاهر بمبتهمجاً بدين المسيح . ولما شاهد أنطوان العظيم ، قبل رجوعه الى الصحراء ، هذه الحمية الصادقة ، احتضن العبد الاسود ومنحه قبلة السلام . . .

ولما بلغت تاييس السابعة ، بدأ أحسن يخدمها عن الله ، قال :
« — ان الله سبحانه وتعالى قد عاش في السماء ، كفرعون ،
في خيمة حريره ، وتحت أشجار جناته . وهو أزلي منذ الازل
لا بداية له . وليس له من ولد سوى الامير يسوع الذي يحبه بكل
قلبه ، والذي يفوق بجماله العذارى والملائكة جميعاً
وقال الرب للامير يسوع :

« — اترك حريمي وقصري ونخيلي وأنهاري وانزل الى
الارض لخير البشر . ستكون فيها كطفل صغير . وتعيش فقيراً بين
الفقراء . سيكون الألم خبزك اليومي ، وستدرف دموعاً غزيرة تجري
أنهاراً يستحم فيها العبيد المرهقون مبتهجين — اذهب يا بني !
فأطاع الامير يسوع وهبط الى الأرض بمكان يسمى بيت لحم في
أرض الموعد وسار في الرياض المنمقة بشقائق النعمان قانلاً لصحبه :
« — طوبى لاولئك الجياع لاني سأجلسهم على مائدة أبي !
طوبى لاولئك العطاش لانهم سيشربون من عيون السموات !
طوبى لاولئك الذين يبكون لاني سأرتقيهم دموعهم بنقب أبداع من
نقب القيان ! »

لهذا أحبه الفقراء وآمنوا به ، لكن الاغنياء مقتوه خشية أن
يفضل الفقراء عليهم

« وفي ذلك العهد كانت كيلوباترا وقيصر قوة في الارض لا تتحدى ،
وكلاهما كرها يسوع وأمر الحكام والكهنة ان يقتلوه . فنصب أمراء
سورية ، إطاعة للملكة مصر ، صليبا فوق جبل عال وصلبوا المسيح
عليه . بيد أن النساء غسلن جثته ودفننّها . ثم قام الامير يسوع من
الاموات ، وخرج من قبره ، وصعد الى الله أبيه .

ومنذ ذلك العهد يصعد الى السماء كل الذين يستشهدون
في سبيله .

يفتح الرب سبحانه ذراعيه ويقول لهم :

« — على الرحب والسعة ، لأنكم تحبون ولدي الأمير !

استحموا ثم كلوا ! »

« فيستحمون على أنعام الموسيقى الشجية : ويرون في اثناء

الطعام رقص القيان ، ويصفون لحكايات ما إن لها من ختام ! وهم
لدى الله الرؤوف أعزّ عليه من نور عينيه ، لأنهم ضيوفه . وسيكون
من نصيبهم طنافس قصوره ورمان جناته !

ضرب أمّس في أقواله على مثل هذه الأوتار الحساسة ،

وهكذا علّم تاييس الحق واستهواها ، فقالت معجبة :

— أود لو آكل من رمان الله تعالى !!

فأجابها أحس :

«—ان الذين عُمِدُوا في يسوع يذوقون وحدهم فأكهة السماء» .
فطلبت تاييس أن تتعمد ، ولما رأى منها إيمانها بيسوع قرّ رأيه
على أن يعين في تهذيبها ، حتى اذا عُمِدت أمكن أن تنضمّ الى
الكنيسة . واشتد حبه لها كابنته الروحية .

وكانت تاييس منبوذة من والديها الظالمين ، فلم يكن لها فراش
تحت السقف الابوي ، فنامت في زاوية من الاسطبل بين الأنعام ،
وهناك وافاها أحس سرّاً تحت جناح الدجى ، واقترب بخفّة من
القش الذي افترشته ، وجلس على كعبيه ، مزدوج الساقين ، معتدل
القامة ، جلسةً يتوارثها الخلف عن السلف من ابناء جنسه ، واخفى
وجهه وجسده المتشح بالسواد ، في الظلمات . ولمعت عيناه الكبيرتان
البيضاوان وانبعث منهما نور كشعاع الفجر المنبعث من شقوق الباب
ثم تكلم بصوت أجشّ مؤثر ، فيه نغمة الموسيقى المحزنة التي
تُسمع عند المساء في الطرقات . . .

وفي بعض الاحيان كان نهيق حمار أو خوار ثور يصحب
صوت أحس وهو يرتّم آيات الانجيل ، فيتألف من امتزاجها نغم
موسيقى كأنه صادر عن جوقة ملحنين للارواح الغير المنظورة !!

تدفقت كلماته بهدوء في جنح الظلام ، ممزوجة بالحماسة والرحمة
والأمل... فشدت المنتصرة بيدها على يد أحسن وقد اطمأنت
لهذه الأنغام التي تجري على وتيرة واحدة ، وسكنت نفسها لصور
مخيلتها المبهمة ، فأخذ الكرى بمعاقده اجفانها ، فنامت وادعة باسمه
بين ايقاع الحان الديجور والاسرار القدسية ، تحت ضوء نجم بزغ
من ثقب في سقف الاسطبل .



استغرق تعامها الأولي حولاً كاملاً ، حتى جاء الموسم الذي
يحتفل فيه المسيحيون وهم فرحون بعيد الفصح . ففي ليلة من ليلي
ذلك الاسبوع المجيد ، كانت تاييس نائمة على حصيرتها في القبو ،
فشعرت بأن العبد قد حملها وعيناه تسطعان بنور غريب ، ولم يكن
كعادته في سرواله الممزق ، بل كان يرتدي عباءة طويلة بيضاء
لفّ بها تاييس قائلاً لها بصوت خافت :

— تعالي يا روجي ! تعالي يا عيني ! تعالي يا فؤادي ! تعالي
ارتدي ثوب التعميد !

ثم حملها ضاماً إياها إلى صدره ، وكانت خائفة لكنها تواقفة
الى الاستطلاع ، فأخرجت رأسها من العباءة وطوقت عنق صديقها
بذراعها ، وقد جرى بها يشق حجاب الظلمات .

سارا في دروب ضيقة واجتازا حي اليهود ومرًا أولاً بمقبرة
انبعث منها صيحة العقاب الرهيبة ، ثم بفرق طرق علقت فوق صلبانه
أجساد المعذبين وقد حطت على أذرعهم الغربان الناعقة تنقرها .
فنبأت تاييس رأسها في صدر العبد ، ولما فتحت عينها رأت نفسها
في كهف ضيق مضاء بشعل راتنجية ، منقوش الحيطان بصور كبيرة
تظهر في دخان المشاعل كأنها أحياء تتحرك . . . وهي صور رجال
مرتدين جلابيب طويلة يحملون السعف في وسط حملان وحمام
وغصون كرم .

وعرفت تاييس من بين هذه الاشكال يسوع الناصري
بشقائيق النعمان المزهرة عند قدميه . وفي وسط القاعة ، يقرب جرن
المعمودية المملوء بالماء ، وقف شيخ هرم مرتد حلة قسيس قمرزية
مطرزة بالذهب وعلى رأسه تاج أسقف ، وقد تدلت من وجهه
النحيف لحية طويلة ، وعلى رغام حلتة الفاخرة ، كانت تلوح عليه
سياء التواضع ودماثة الخلق . ذلكم المطران فيثانوس الذي كان
أميراً مبعداً من كنيسة برقه واصبح الآن ينسج من شعر المعز قماشاً
صفيقاً ليقم صلبه . وقد وقف بجانبه غلامان فقيران ، وعلى مقربة
منه حملت عجوز زنجية ثوباً صغيراً أبيض . فأنزل أحسن البنت
الى الأرض ، وركع امام الأسقف وقال : —

— هذه هي يا أبي ، النفس الصغيرة ، ابنة روحي ، احضرتها لك حتى اذا ما راقت سيادتك أنعمت عليها حسب وعدك بالعمودية .
فمدَّ المطران ذراعيه وأظهر يديه المشوهتين ، اللتين نُزعت أظافرهما عقاباً على جبهه بالايان في ايام الحن والاضطهاد . فأوجست تاييس خيفة والقت بنفسها في حضن أحس ، لكن الكاهن لاطفها وسكَّن روعها بقوله :

— لا تخافي أيتها الطفلة المحبوبة ، فان لك هنا أباك الروحي الذي يدعى بين المؤمنين تيودور ، ولك أم صالحة ترعاك ، وهي التي خاطت لك يديها ثوباً أبيض .

ثم التفت الى الزنجية وقال :

— انها تدعى « نيتيدا » وهي على هذه الارض جارية ، لكن يسوع سيرفعها في السماء الى صف عرائسه !

ثم سأل الطفلة المنتصرة :

— أتؤمنين يا تاييس بالله الأب القادر على كل شيء ؟ وبابنه الوحيد الذي مات في سبيل خلاصنا ؟ وبكل تعاليم الرسل ؟
فأجاب الزنجي والزنجية ، اللذان كانا قابضين على يديها ، بالايجاب

وطبقاً لأوامر الأسقف ركعت نيتيدا ونضت عن تاييس ثيابها
كلها ، فصارت عارية الأ من رقية في عنقها ، ثم غطسها المطران
ثلاث مرات في جرن المعمودية ، ومسحها بالزيت ووضع ذرة من
الملح على شفتيها ، وبعد تنشيف جسدها الذي كان معداً بعد بلاء
شديد للحياة الخالدة ، ألبستها نيتيدا الثوب الأبيض نسيج يديها .
ثم منحهم الأسقف جميعاً قبلة السلام ، وانتهت الحفلة فترع
حلته الكهنوتية .

ولما صاروا جميعاً خارج السرداب قال أحس :

— ينبغي أن نعقب بتقدمنا اليوم نفساً لله سبحانه وتعالى ، فهلم
نذهب الى منزل سيادتكم ونقضي بقية الليل بالحبور
فأجاب المطران :

— أحسنت يا تيودور

ثم قادم الى داره القريبة منهم وكانت مؤلفة من حجرة واحدة
متاعها نولان ، ومنضدة كبيرة ، وسجادة بالية .

فصاح النوبي عند دخولهم :

هات يا نيتيدا الموقد وقليلاً من الزيت . ولنطهين أكلة هنيئة!

قال هذا وأخرج من تحت عبائه بعض السمك ، وأشعل ناراً
وأخذ يقيه . وجلس الأسقف والطفلة والغلامان والعبدان في
دائرة فوق السجادة ، واكلوا السمك المقليّ وحمدوا الله .

وتكلم فيثانتوس عما عاناه من الآلام المبرّحة ، وبشر بفوز
الكنيسة القريب . وكانت لغته جافة غير انها فائضة بالمجازات
الفصيحة والنكات البديعة . وشبه حياة الاستقامة بنسيج ارجواني
موشى ! قال في شرح سرّ العماد :

— ان الروح القدس يطفو فوق المياه ، ولهذا يتلقى المسيحيون
عماد الماء ، غير ان الشياطين يسكنون ايضاً الغدران ، كذلك
الينابيع المخصصة للحواريات خطرة مخوفة ، ومن المشاهد ان بعض
المياه يسبب امراضاً مختلفة للنفس والجسد .

وفاه في بعض كلامه بأحاجي ومعميات ملكت على البنت
مشاعرها تهيباً واعجاباً ! وبعد الفراغ من الطعام قدم لضيوفه شيئاً
من النبيذ فانطلقت الستهم من عقالها وأخذوا يمشدون ويسبحون .
ثم نهض أحس ونبتيدا ورقصا رقصة نوية تعلمها في صباها ،
وكانت بلاريب شائعة في القبيلة منذ قديم الزمان . وهي رقصة
غرامية ، يكون فيها تحريك الأذرع والجسد بأكمله ، ثم الاحتيال

بالتناوب على الحرب، ثم اقتفاء الأثر. فأدارا عيونهما الكبيرة واطهرا
أسنانهما اللامعة وهما يتسلمان

كذلك تلقت تاييس التعميد القدسي

هامت تاييس بحب اللهو والمرح، وتولدت في نفسها، وهي تنمو
وتكبر، رغبات مبهمه وأهواء... فكانت ترقص وتغني سحابة
نهارها مع أولاد الشوارع المشردين، وفي الليل تعود الى بيت
أيها وهي لا تزال تغني...

ثم أخذت تفضل صحبة الصبيان والبنات على صحبة أمس
الرقيق الرزين، فلم تلاحظ أن صديقها قد قلل اجتماعه بها. وكان
الاضطهاد قد انقطع واصبحت محافل المسيحيين أكثر انتظاماً،
فأخذ النوبي يحضرها على الدوام. وزادت حميته اشتعالاً، وكان
في بعض الاحايين يفوه بكلمات تنذر بالوعيد كقوله، ان الأغنياء
سوف يفقدون أموالهم! وذهب مرة الى الساحات العامة حيث
اعتاد فقراء المسيحيين أن يجتمعوا، وهناك جمع البائسين الراقدين
في ظل الجدران العالية وبشرهم بتحرير الأرقاء ودنويوم
العدالة، قال:

— سوف يشرب الأرقاء في ملكوت السموات خراً صافية

ويأكلون فاكهة لذيدة ، على حين أن الأغنياء يكونون جائين عند
أقدامهم كالكلاب يلتقطون فتات موائدهم !

لم تبق هذه الأقوال في طي السكتان ، بل ذاعت في نواحي
المدينة كلها ، وخشي السادة أن يغري أحس عبيدهم بالتمرد ، وحقه
صاحب الخانة عليه حقداً بالغاً

ففي ذات يوم اختفت من الخانة مملحة من الفضة مخصصة
لمائدة الآلهة . . فأنهم أحس بسرقتها نكايه في سيده وفي آلهة
الامبراطورية . وكان الاتهام بغير دليل على الاطلاق ، وانكر العبد
التهمة بكل قواه . على انه سيق الى المحكمة ، وحكم عليه القاضي
بالموت ، إذ كان على زعمهم عبداً رقيقاً لا قيمة له ولا اعتبار .
وقال له :

- ستسمر في صليب يداك ، التان لم تعرف كيف تحسن
استخدامهما .

فسمع أحس الحكم بهدوء ، وحيي القاضي باحترام فائق ، وقيد
الى السجن العام . وفي اثناء ثلاثة الايام التي قضاها فيه ظل يكرز
بالانجيل للمسجونين ، وقيل انه في وقتها تأثر المجرمون والسجان
نفسه بكلماته وآمنوا باليسوع المصلوب .

واخذوه الى أحد تلك المفارق التي مرَّ بها فرحاً مغتبطاً ذات
ليلة منذ أقل من عامين ، حاملاً تحت عباؤه البيضاء تاييس الصغيرة
ابنة روحه ، وزهرته المحبوبة .

ولما صلب وسمرت يده لم يتأوه ولم ينبس ببنت شفه ، غير
انه تمم قائلاً : « ظمآن ! اني ظمآن ! »

ودام كربه ثلاثة ايام بلياليها . ولا يكاد المرء يصدق أن
الجسد البشري يستطيع أن يتحمل مثل هذا العذاب الطويل ،
حتى ظنُّ مراراً أنه مات . وكان الذباب قد التهم بعض جفنيه ، بيد
أنه ما لبث ان فتح عينيه الداميتين بغتةً . وفي صبيحة اليوم الرابع
غنى بصوت جهير ، أرق من صوت الأطفال :

— خبرينا يا مريم ماذا رأيت حيث كنت ...

ثم ابتم وقال :

— هاهم ملائكة الله مقبلون ... ! يحملون إليّ خمرًا واثماراً
... لله ما أندى حفيف أجنحتهم ...

وأسلم الروح

وظلَّ وجهه وهو ميت مشرقاً بانوار السعادة الابدية ، فكان
موضع إجلال الجنود الذين كانوا يحرسون الصليب . وآتى

ثيفاتوس مصحوباً ببعض الاخوان المسيحيين في طلب الجثة لدفنها بين بقايا الشهداء في قبر القديس يوحنا المعمدان . واحتفظت الكنيسة منذ ذلك الحين بذكر القديس « تيودور النوبي » الموقر وبعد ثلاث سنوات أصدر قسطنطين ، فاتح ما كسانس ، مرسوماً آمن فيه المسيحيين .

وكانت تاييس قد بلغت من العمر إحدى عشرة سنة حين مات صديقها معذباً ، فشعرت بحزن عميق وجزع شديد . ولم تكن روحها من السموي بحيث تدرك أن العبد أحسن كان هائلاً جداً الهناء بحياته وموته . وتولد في ذهنها الضيق أن في استطاعة المرء أن يكون في هذه الدنيا صالحاً ولكن ذلك يكلفه عناء التباريح والآلام ، فخافت أن تكون صالحة لأن جسدها الغض الرقيق لا يحتمل آلام الصلاح !

وكان لها ، قبل الأوان ، عشاق من صبيان المرفأ ، وكانت تتبع الرجال المسنين الذين يطوفون في المساء في ضواحي المدينة مفسدين ، وتشتري بما ينفحونها به ما تشتهي من الحلوى وادوات الزينة . .

وأساءت أمها معاملتها لانها لم تكن تأخذ الى البيت شيئاً مما تربحه من النقود . فكانت كثيراً ما تهرب وتجري حافية الى أطلال المدينة لاجتناب صفعات أمها ، وتختبيء مع الهوام في شقوق

الاحجار . وهناك كان يخامرها حسد النساء اللواتى تراهن مارّات متبرّجات في أهبة وبهاء ، محمولات في محفّاتهن على اكتاف الارقاء وفي ذات يوم نالها من الضرب فوق المعتاد ، فخرجت وانطرحت عند بوّابة المدينة ، نائرة النفس واجمة . وبينما هي على هذه الحال واذا بامرأة عجوز قد وقفت أمامها ونظرت اليها ملياً وهي ساكنة ثم قالت :

— يا لك من زهرة حسناء أيّتها الطفلة الفتّانة ! ما أسعد أبالك الذي أوجدك وأمك التي ولدتك !

فلبثت تاييس صامته مطرقة وقد احمر جفناها من كثرة البكاء .
فعادت العجوز تقول :

— يا زنبقتي البيضاء ! أليست أمك سعيدة الجدل لانها أرضعت معبودة صغيرة مثلك ؟ أليس أبوك معتبطاً من صميم فؤاده برويتك ؟

فأجابت الطفلة كأنها تحدث نفسها :

— أبي قرّبته منتفخة من الصبياء ، وأمي علّقه شرهه !

فنظرت العجوز ذات اليمين وذات الشمال لتستوثق أن ليس عليها رقيب ، ثم قالت متلطفة :

— أيتها السوسنة النضرة ذات البهاء ! أيتها الحسناء التي
تشرب النور وتمهل الضياء ! تعالي معي ، وستكون حياتك سلسلة
متصلة الحلقات من الرقص والابتسامات ! سأطعمك الشهد ،
وسيجبك ابني ، ابني الصميم ، حبه لعينيه ! وانه لفتى لو علمت غضُّ
الاهاب في شرح الصبا ، فاتن الحيا ، ليس له في ذقنه إلا حية خفيفة ،
وجلده ناعم بضّ ، وانه الخنوص^(١) من خنايص أشارنيه !

فأجابت تاييس :

— خذيني ، اني ذاهبة معك !

ثم نهضت وتبعت العجوز الى خارج المدينة .



كانت هذه المرأة ، وتدعى « مروا » ، تأخذ البنات والصبيان
من بلد الى بلد وتعلمهم الرقص ثم تؤجرهم بعدها لسراة القوم ليرقصوا
لهم في الولائم والحفلات

ولما رأت أن تاييس ستغدو عما قليل أجمل النساء ، علمتها
الموسيقى والغناء ، مستعينة على ذلك بالسوِّط . وكانت تجلد ساقيها
البيديعتين بسيور من الجلد اذا لم تقف عند سماع نغمت القيثارة .
أما ابنها فكان ثمره اجهاض ، سقط لا تبدو عليه حقيقة سنه ،

(١) الخنوص : الخنزير الصغير

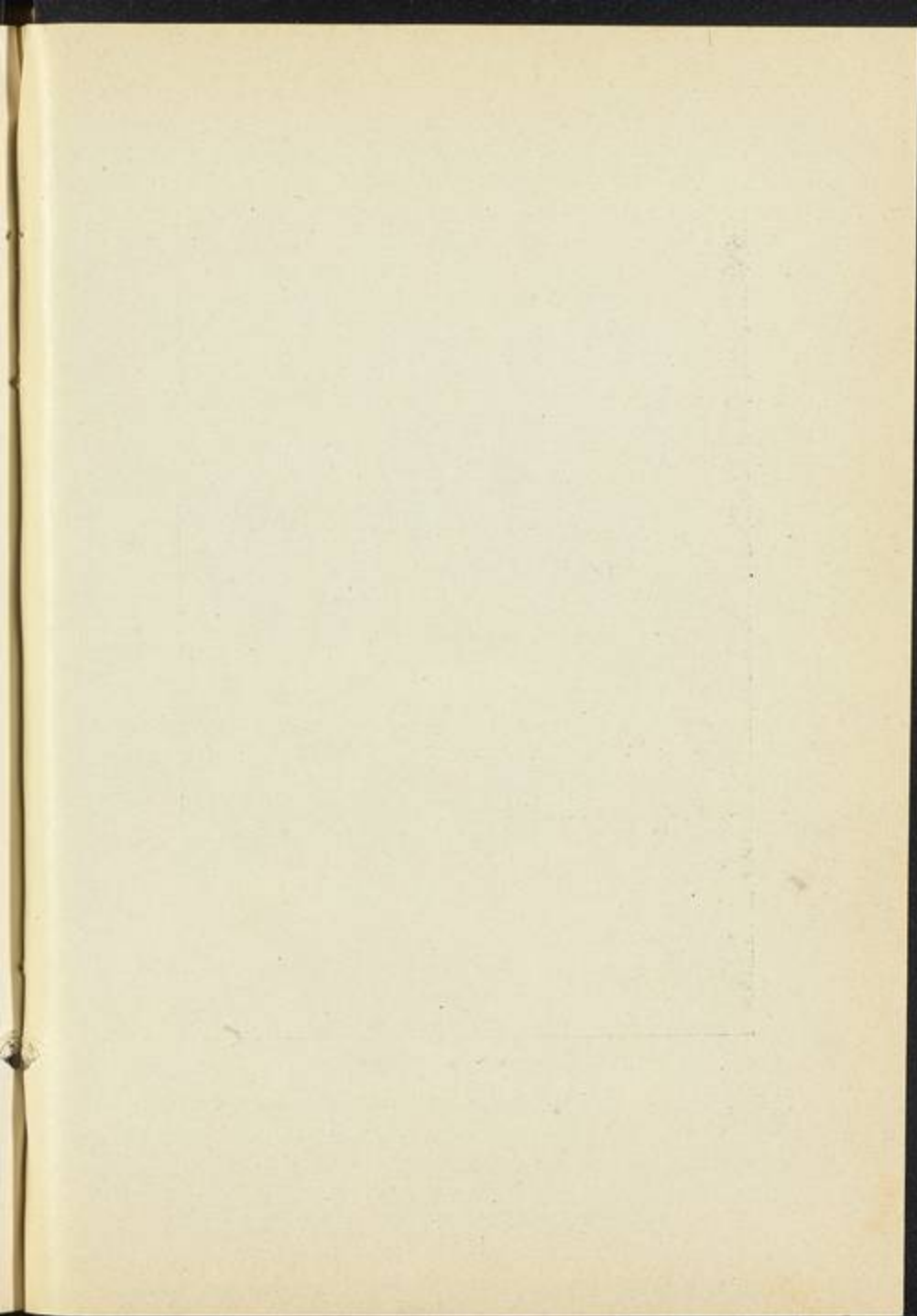
ولا يميز الناظر اليه كنه جنسه ! وكان ينتهر الفتاة ويصب على رأسها جام حقه على النساء جميعاً . ولما كان ينافس الراقصات متكلفاً رشاقتهن ، فقد تعلمت منه تاييس فن التمثيل الايمائي الصامت والتعبير عن العواطف الانسانية بواسطة ملامح الوجه والهئية والوضع . وامتازت بتمثيل أهواء الغرام . ولقد محضها ، على كره منه ، نصح استاذ ماهر . بيد انه كان يغار من تلميذته ، فيخدش خديها ويقرص ذراعيها أو ينخسها بإبرة في ظهرها حين كان يتضح له أنها خلقت لامتاع الرجال !

وبفضل هذه الدروس أتقنت في زمن قصير فنون الموسيقى والتمثيل الصامت والرقص . ولم تدهشها قط فظاظة معلمها ، اذ لم تكن ترى اي غرابة في أن تهان وتساء معامتها ، بل شعرت بشيء من الاحترام نحو تلك الموسيقية العجوز التي تجرع النبيذ الاغريقي ! ولما جاءت « مروا » مدينة أنطاكية ، اطنبت في مدح تلميذتها ، كراقصة عازفة ، لوجوه المدينة وأعيانها الموسرين الذين كانوا يقيمون المآدب .

رقصت تاييس فنالت الاعجاب ، وأخذها السراة بعد انفضاض الولايم الى احراج نهر العاصي ، فسامت نفسها للجميع من دون أن تعرف للحب ثمناً . ولكن حدث ذات ليلة بعد ان رقصت أمام أظرف



❖ تاييس الراقصة ❖



شبان المدينة ، ان اقترب منها ابن الوالي يتوثب فتوة ، ويختال
عزة ، وقال لها بصوت كأنه مرطب بالقبيل :

— ألسْتُ التاج المنعقد على مفركك يا تاييس ؟ الست القميص
المزور على جسمك البديع ؟ الست نعل قدمك الجميلة ؟ اني اروم
ان تطأي بقدميك هامتي ، وان يكون قميصك وتاجك من عناتي
وقبلاتي . فتعالي أيتها البنية المليحة ، تعالي الى بيتي ، ولنس العالم !
نظرت اليه وهو يتكلم ، واستبان محاسنه ، فشعرت على
الفور بالعرق يثلج جبينها ، واستحال لونها كالعشب اخضراراً .
ترنحت وانتشرت على عينيها غشاوة . فتوسل اليها ثانية ان تابعه
فرفضت ، ولم تغنه نظرات اللوعة وكلمات الحب فتيلاً . ولما أخذها
بين ذراعيه ليسير بها على رغبها دفعته بمخشونة ، فعاد يتوسل اليها
ويتضرع وهو يذرف أمامها الدموع ويريق العبرات ، فامتعت
عليه بسلطان قوة مجهولة لا تقاوم . فقال المدعوون :

— تبألها من زمارة حقاء ! انها تنبذ لوليوس الفتى النبيل الغني

الجميل !

عاد لوليوس وقد كوام الهوى سواد ليله بناره ، وفي الصباح
ذهب ممتع اللون ، أحمر العينين ، وعلق الزهر فوق باب الموسيقارة ،

وكان الهم والضجر قد اعتريا تاييس ، فأعرضت عن لوليوس . على
انها كانت تتخيله دائماً . تألمت ولم تدر سرّاً ما تشكو منه . سألت
نفسها لماذا تغيرت هكذا ، ومن أين دهمتها الكتابة ؟ ردت كل
عشاقها لأنهم أزعجوها ، وعافت رؤية الضياء فلبثت سحابة نهارها
مضطجعة في فراشها ورأسها غارق في الوسائد . ثم تهيأت للوليوس
وسائل اقتحام بابها ، وآتى عدة مرات يرجو ويلعن تلك البنت
العنيدة ، فلبثت في حضرته خائفة كعذراء بتول ، وأصرّت على قولها :

— لا أريد ! لا أريد !

وبعد خمسة عشر يوماً وهبته نفسها ، اذ شغفها حباً .
فذهبت الى بيته وعاشت معه ، وكانت ثمّ حياةً لذيذة . فكانا يقضيان
النهار في خلوة يحدّق كل منهما في عيني صاحبه ، ويخاطب احدهما
الآخر بكلمات لا يقولها سوى الاطفال . فأذا جاء المساء تنزها على
ضفتى نهر العاصي الخاليتين ، وضلاً السبيل غير مرة في الأحراج .
واستيقظا أحياناً عند الفجر ليذهبا لقطف السوسن فوق منحدرات
« سلييسوس » . وشربا من كأس واحدة ، وكانت اذا رفعت الى
فها حبة عنب تناولها بأسنانه من بين شفثيها !

أتت « مروا » بيت لوليوس تطلب تاييس بصيحات عالية ، قائلة :-

— ابنتي ! ابنتي التي أخذت مني عنوة ! زهرتي المعطرة !
حشاشة فؤادي وفلذة كبدي !

فصرفها لوليوس بعد أن أجزل لها العطاء . لكنها لما عادت
تلحف في طلب المزيد من قطع الذهب ، بعث بها الفتى الى السجن ،
وحققت الأحكام جرائم عديدة آهمت باقترافها ، فسيقت الى الموت
وطرحت طعاماً للوحوش الضارية



أحبت تاييس لوليوس بكل ما فيها من قوة الادراك وسذاجة
النفس ، وقالت له من أعماق قلبها :
— لم ينل أحد مني ما نلته !
فأجابها لوليوس :

— أنك لا تشبهين أية امرأة في الوجود !

ولبت السحر مستولياً عليها ستة أشهر ، ثم انحلت طلاسمة ،
فأحست تاييس فجأة بنفسها خالية وحيدة . ولم يبق لوليوس في
نظرها لوليوس الذي احبته . وفكرت :

— كيف تغيرت هكذا في طرفة عين ؟ وكيف تغير لوليوس
حتى انه صار في نظري مثل سواه من الرجال ؟

ثم هجرته، وبفؤادها رغبة خبيثة في ان تجد لوليوس في انسان آخر ما دامت لا تجده فيه نفسه. وخيل اليها أيضاً ان الحياة مع انسان لم تحبه قط ايسر خطباً منها مع انسان صارت لا تحبه. وصحبت المترفين من ابناء المسرات والفجور في تلك الولايم الدينية، حيث كانت ترقص في المعابد نجبة من العذارى العاريات، وتقطع السراري نهر العاصي ساجحات. واشتركت في جميع الماسهي التي أقامتها المدينة البديعة الفاسقة. واكثرت من التردد على دور التمثيل حيث كان المثلون الايمانيون يأتون من كل حدب وصوب لتمثيل أدوارهم بين تهليل الجماهير الظالمة الى اللهو واللعب.

عُنت بدرس حركات الممثلين والراقصين، لاسيما الممثلات اللائي كن يمثّلن في الروايات الفاجعة أدوار الربات عاشقات الشبان، أو المخلوقات الهائآت بحب الأرباب. وبعد ان علمت السرّ الذي به خلبن لب الجمهور، توقعت ان تبرهن لأنها كانت تفوقهن حسناً ودلالاً.

ففضت الى رئيس الممثلين وسألته أن يلحقها بفرقة. وبفضل جمالها، والدروس التي تلقمتها من « مروا » العجوز، قُبلت وظهرت على المسرح في دور « ديرسيه »، فلاقت نجاحاً ضئيلاً لأنها كانت مفتقرة الى المران، ولأن جمهور المشاهدين لم يُشوّق الى مرآها

بالاطناب في محاسنها والثناء عليها قبل ظهورها على المسرح . ولكن لم تمض بضعة أشهر حتى انفجر بأس جماها على مسرح التمثيل بقوة اهتزت لها المدينة من أقصاها إلى أقصاها ، ففرع اهل انطاكية الى الملعب حتى اكتظ بهم . واضطرت قوة الرأي العام زعماء الأمبراطورية وقضاتها ورؤساء البلد الى الظهور هناك : وحرّم الخالون والكناسون وعمال الميناء أنفسهم الثوم والخبز ليدفعوا اجرة مقاعدهم . ومدحها الشعراء بقصائدهم ، وخطب في تجريحها الفلاسفة الملتحون في الحمامات والمدارس ، وأشاح عنها الرهبان المسيحيون في أثناء مرورها في محقتها !

تَوَجَّتْ عتبة بيتها بالزهر ونُضِحت بالدم . تلقت من عشاقها الذهب بغير حساب ، وزناً وكيلاً ، لا عدداً . وتدفت الكنوز التي ادخرها الكهول الأشحاء عند موطن قدميها كالأنهار . لذلك طابت نفساً وقررت عيناً . ابتهجت لتكريم الجمهور وعطف الآلهة ، وهامت بحب نفسها ، لأن الجميع هاموا بحبها !

وبعد أن تمتعت عدة سنوات بحب الأنطاكيين وإعجابهم ، اشتاقت للعودة الى الاسكندرية لتظهر عزيمتها للمدينة التي ضربت في أرجائها وهي طفلة تبحر ذيل الشقاء والحرمان وقد هزتها الجوع والمسغبة ، فكانت هزيلة كالجرادة في وسط طريق مقفر . . .

فاستقبلتها المدينة الذهبية بالفرح والترحيب ، وغمرتها بالهبات
والعطايا ، وكان ظهورها في الألعاب نصراً مبنياً . وسعى اليها جمهور
لا يحصى من المعجبين والعاشقين ، فتلقمهم بفتور وقلّة مبالاة ، لأنها
يأست من العثور على من يشغل مكاناً شغله لوليوس من قلبها !



تلقت من بين الجموع الغفيرة الفيلسوف « نسياس » الذي
اشتهرها على مجاهرته بالتجرد من الشهوات ! وكان على ثرائه ذكي
الفؤاد دمث الاخلاق ، غير أنه لم يفتنها بمحاضرة عقله ولا برقة
حاشيته ، فلم تحبه ، بل أغضبته أحياناً تهكماته الرائقة ، وجرّحها
بشكوكه الدائمة . لم يكن يؤمن بشيء ، وهي قد آمنت بكل شيء .
آمنت بالعبادة الإلهية ، وبقدرة أرواح الشر ، وبالرق والتعاويذ ،
وبالعدل الأزلي ، وبيسوع المسيح . كما آمنت أيضاً بأن الكلابات
تنبح اذا مرّت الهة جهنم السوداء بمفارق الطرق !! وبأن المرأة
تستطيع ان توحى الحب اذا صبّت شراب العشق في كأس يحوي
جزءة شاة مخضبة بالدماء ، وسقته لمن تريده !!!

ظمئت الى المجهول ، ودعت كائنات لا أسماء لها ، وعاشت في
انتظار دائم . روّعها المستقبل وأخافها فتطلعت الى معرفته . لاذت

برهبان إيزيس وبالسحرة الكلدانيين ، والعرفان الذين مكروا بها
وخدعوها على الدوام ، ولكنهم لم يتخلوا عنها مطلقاً .

خافت الموت ، وزأته في كل مكان . وكانت كلما استسلمت
للذات يخيل اليها كأن أصبعاً مثلوجةً قد لمست كتفها العارية ،
فيمتقع لونها وتصرخ من الهلع بين الذراعين اللتين تطوقان خصرها .
قال لها نسياس :

- وماذا يكون لو جرى القضاء بأن نزل أبيض الشعر ،
ضامري الحدود ، الى الليل الأبدي ؟ ثم ماذا يكون لو كان هذا
اليوم الذي يتسم لنا الآن في صفحة السماء المبسوطة ، هو آخر أيامنا ؟
ماذا يضربنا يا عزيزتي تاييس ، وماذا يكون ؟ ألا فلنستمرىء طعم
الحياة . فسحياً طويلاً اذا ما شغفنا كثيراً . فلا فطنة كفطنة أن
الحب هو الفطنة ، أما ما نجعله فليس لنا به شأن . وما فائدة إزعاج
أنفسنا لغير طائل ؟

فأجابته غاضبة :

- انني أمقت الذين على شاكتك لا يرجون ولا يخافون !
انني راغبة في المعرفة ! راغبة في المعرفة !

أخذت تقرأ كتب الفلاسفة لتقف على سر الحياة ، فلم

تفهمها . وكان كلما تقدم بها الزمن وتباعد ما بينها وبين أيام طفولتها ، ازدادت تعلقاً بذكرها . فولعت بأن تسير تحت ستار الظلام ، وهي متكرة ، في تلك الدروب والمنعطفات والميادين العامة حيث ترعرعت في الشقاء والبأساء . وكم أسفت على فقد والديها ، وخصوصاً لانها لم تحظَ بلذة محبتها لهما . وكانت عند ما تلقى الرهبان المسيحيين تفكر في عمادها وتضطرب .

وفي ذات ليلة ، بينما كانت تجوس خلال ضواحي المدينة كهادتها وهي مرتدية طيلساناً ، وشعرها الأشقر مجبوء تحت قلنسوة سوداء ، ألفت نفسها ، دون أن تعرف كيف كان ذلك ، أمام كنيسة القديس يوحنا المعمدان الحقيمة . فسمعت بداخلها ترتيلاً ، ورأت نوراً ساطعاً منبعثاً من شقوق الباب . ولاعجب ، فقد اخذ المسيحيون لعشرين عاماً خلتٍ يحتفلون بأعيادهم علانية تحت حماية « فاتح ما كسانس » نادت تلك التساييح روحها نداءً حاراً لا يرد ، فدفعت الممثلة الباب بيدها ودخلت كمدعوة الى المشاركة في الاسرار ، فوجدت جمعاً محشوداً من النساء والاولاد والشيوخ ، راكعين أمام قبر يجانب الجدار ، ولم يكن هذا القبر سوى خاوية حجرية نقشت عليها أغصان وأعنان نقشاً خشناً ، ومع ذلك فقد نالها من التكريم قسط وافر . فكانت مغطاة بسعف النخل واكاليل الورد الاحمر . وكان المعبد مناراً بمصاييح لا عداد لها ، تشق أنوارها

الظلام الذي يظهر فيه دخان الصموغ العربية كأنه ثنانيا جلايب
الملائكة ، وعلى الحائط رسوم كأنها رؤى الفردوس ... وثمَّ
رهبان في ثياب بيض خرُّوا سُجَّدًا عند مؤخرة الناووس .
وكانت التساييح التي شاركهم الشعب في ترتيلها تعرب عن بهجة
الآلام ، وكانت مزيجاً من الفرح والحزن بحيث أحست تاييس وهي
مصغية ، بسررات الحياة ومخاوف الموت تجري معاً في مشاعرها
المستيقظة ...

ولما آتم المصلون الترتيل ، نهضوا وتوجهوا للتبرك بتقبيل القبر
واحداً بعد واحدٍ . أولئك كانوا قومًا بسطاء من أهل الحرف
اليدوية ؛ تقدموا ثابتي الخطى ، شاخصي الابصار ، كليي الأفواه
تلوح عليهم سلامة النية وصفاء الطوية ؛ جثوا واحداً بعد واحد
أمام الناووس وأصقوا به شفاههم ، ورفع النساءُ الاطفال الصغار
على أذرعهن ووضعن افواههم بلطف على الحجر .

فدهشت تاييس واشمأزت ، وسألت شماساً عما يفعلون ،
فأجابها :

— الاتعلمين أيتمها المرأة اننا نحتفل اليوم بالذكري المباركة
للقديس « تيودور النوبي » الذي احتمل العذاب في سبيل الايمان
في عهد الامبراطور ديوقليس ؛ إنه عاش طاهراً ، ومات شهيداً ،

وهذا هو السبب الذي من أجله قد حملنا الورد الأحمر ونحن في
ثياب بيضاء الى ضريحه المكرّم .

فلما سمعت تاييس قوله هذا ركعت واجهشت بالبكاء . عادت
الى ذهنها ذكرى أحسن التي كادت تطمسها يد النسيان . وعلى
تلك الذكرى المهمة ، العذبة ، المؤلمة ، أرسلت أشعة الشموع
وعطور الورد ، وسُحِبَ البخور ، وألحان المزامير ، ومظاهر الخشوع -
عزّة الفخر وجمال المجد .

فحدثت تاييس نفسها :

- أنه كان صالحاً ، وها هو ذا جليل القدر ، جميل الذكر !
تُرى كيف رُفِعَ فوق هام البشر؟ فما هو ذلك الشيء المجهول الذي
فاق الثراء والسراء؟

نهضت ببطء ، واتجهت الى قبر القديس الذي شُغِفَ بعينها
البنفسجيتين ، العينين اللتين تلالأت فيهما الدموع في نور الشموع -
ووقفت مطرقة في مؤخرة الجماعة ، خاشعة متباطئة ، ولثمت قبر العبد
بشفتيها اللتين علقت بهما شهوات كثيرة ...

ولما رجعت الى بيتها وجدت نسياس ينتظرها ، مضمخ الشعر
بالطيب ، مفكوكاً قميصه ، يقرأ رسالة في الأدب يستعين بها على

معضض الأنتظار . فتقدم للقائها مبسوط الذراعين قائلاً بصوت ضحوك :

— أتعرفين يا تاييس الخبيثة ماذا وجدت في اثناء انتظارك في هذا الكتاب الذي كتبه أرزن الرواقين ؟ أهي حكم سامية وسنن عالية ؟ كلا ! رأيت على البردي الحشن ألف تاييس صغيرة ترقص ، وألف تاييس ! وكانت كل واحدة منهن طول الأصبع ، ومع ذلك كان ظرفهن لا يُجدّ ، وكلهن تاييس الفريدة ! كان بعضهن يرفل في حلل من أرجوان وذهب ، وبعضهن يسبح كسحابة بيضاء في ثُقب شفافة ، وأخريات يوحين اللذة بسكونهن في سناء عريهن . وكانت اثنتان منهن متماسكتين بالأيدي ، وهما متشابهتان شهباً يستحيل معه تمييز الواحدة عن الأخرى ، ابتسمت كلتاها ، وقالت الأولى « انا الحب » وقالت الثانية « انا الموت » .

قال هذا واحتضن تاييس ، ولم يلحظ انها كانت ترمق الأرض بنظرة وحشية ، فاستمر يحدّثها بما جال في ذهنه من الخواطر والافكار . وواصل كلامه قائلاً :

— أجل ! لما وقع تحت ناظري هذا السطر : « يجب ألا يحول شيء بينك وبين تهذيب نفسك » قرأت : « قبلات تاييس أحرّ من اللهب وأحلى من الشهد » وهذه هي — والذنب ذنبك أيتها الفتاة اللعوب — الطريقة التي أصبح بها الفيلسوف يفهم كتب

الفلسفة! ولا ريب اننا، ما دمننا كما نحن، لن نجد في خواطر غيرنا
الآ خواطرنا بعينها، بل اذا قرأنا كتاباً فنحن نكاد نقرأه كما أقرأ
هذا الكتاب...

لم تكن مُصغية اليه، لأن ذهنها كان منصرفاً الى قبر النوبي،
فلما سمعها تنهد اخذ يقبل منابت الشعر من عنقها، وهو يقول:

— قرّي عيناً ولا تحزني يا بنيتي! لا يستطيع المرء أن يكون
سعيداً في هذه الدنيا الا اذا نسيها أو تناساها؛ ولدينا سرّ ذلك،
فتعالى نخدع الحياة! إنها أهل لأن يمكر بها لانها تكيل لنا الضاع
صاعين. هلمي تبادل الحب!

فدفعته عنها وصاحت:

— تبادل الحب! انك لم تحب قط إنساناً — أنت! ولا أنا
أحبك! كلا! لا أحبك! انني أبغضك. انني ألعن السعداء
الأغنياء كافة وأحتقرهم! اليك عني فلا فضيلة في الدنيا ولا محبة الا
لدى المساكين. لما كنت طفلة عرفت عبداً أسود مات مصلوباً.
كان طيباً، كان يفيض محبة. وقد حظي بمعرفة سرّ الحياة. انك
لا تستأهل أن تغسل قدميه. اذهب عني! فأني لا أريد أن أراك
بعد الآن.

ثم انبطحت على البساط وقضت ليلتها في أنين ونحيب، وصممت

من تلك اللحظة أن تقني خطوات القديس تيودور وتعيش عيشة
الفقر والمسكنة.

وفي اليوم التالي عادت الى الملاهي التي كانت قد أعدتها .
واذ عرفت أن جمالها الذي كان لا يزال ساحراً لن يبقى طويلاً ،
سارعت الى التمتع به بكل ما يمكن من الابتهاج والاعتزاز .
وأظهرت في الملعب عناية لم تظهرها من قبل ، فأحيت بتمثيلها تحيات
الحفارين والمصورين والشعراء . وأخذ العلماء والفلاسفة من شكل
المثلة وهيئتها وحركاتها وتخطرها النظام السماوي الذي يسير
الافلاك ، فادرجوا هذا الكمال المطلق في عداد الفضائل ، وقالوا
« تاييس ايضاً مهندسة ! » . وباركها الجبناء والفقراء لقبولها الظهور
امامهم ، وعدوه نعمة من الخالق . لكنهما مع هذا الاعجاب والثناء
كانت حزينة ، شديدة الجزع من الموت ، ولم يك ثمة ما يستطيع
أن يدفع عنها هما ولبالها ، ولا وجدت عزاء في بيتها وجناتها التي
كانت من الشهرة بحيث تُضرب الامثال بها في المدينة .

غرست في حدائقها الأشجار الغالية التي جلبتها بنفقات باهظة
من الهند وبلاد الفرس ، يرويها جدول متفجر وسط صف من
الأعمدة المتهدمة والصخور الهائلة المشيدة بيد بناء ماهر ، تنعكس
في بحيرة ترسم على مرآتها المجلوة التماثيل التي حولها . وفي وسط

الحديقة « كهف العذارى » الذي يُعزى اسمه الى تماثيل ثلاث من النساء مصنوعة من الرخام الملون بمهارة وتفنن ، واقفات عند مدخله . وهؤلاء النسوة كنَّ قد نضون ثيابهن ليغتسلن والتفتن قلقات خشية أن يراهن أحد ، وعليهن علامات الحياة . وكان الضوء لا ينفذ الى هذا الحِدر الآ من خلال طبقات المياه الرائقة التي تخففه وتلونه بألوان قزحية . وعلى جوانب الحيطان علفت ، كما تعلق في المغاور المقدسة ، التيجان واكاليل الزهر والصور المنذورة التي ظهر فيها جمال تاييس وذاع صيته . وكانت هناك أيضاً براقع للمأساة وأخرى للمهزلة ذات ألوان زاهية . وصور تمثل مشاهد مسرحية وأشكالاً هزلية أو حيوانات خرافية . وفي وسط الكهف نصب فوق عمود قصير تمثال صغير لإله الحب (ايروس) مصنوع من العاج صنفاً قديماً دقيقاً عجيباً ، وكان هدية من نسياس . وثُمَّ عنزة من المرمر الاسود واقعة في حفرة ، يظهر منها بريق عينيها العقيقتين ، وقد التفت حول ضرعها ستة جداء من المرمر الابيض ، وقد همت العنزة بأظلافها ورفعت رأسها الفلطح كأنما كتَّت وفرغ صبرها من رضاع صغارها ، وكأنها تود لو يتاح لها تسلق الصخور .

وكانت الأرض مفروشة ببساط بيزنطي ، ووسائد مطرزة بأيدي الصنفر من أهل كاتاي ، وجلود أسود صحراء ليبيا . وكان

البخور يتصاعد من المباخر الذهبية . وهنا وهناك أُصص من الجزع فيها نبات مزهر ؛ ووراء ذلك كله ، في الظل الارجواني ، تلمع أظافر من ذهب لسلفاة هندية هائلة مقلوبة على ظهرها تُستخدم كسرير للمثلة .

في هذا المكان ، في كل يوم ، بين خريير الماء ، وشذا الزهور ، وعبير العطور ، كانت تاييس تضطجع برخاوة واستسلام ، في انتظار ساعة العشاء ، تتحدث الى اصحابها ، أو تفكر وحدها في شؤون المسرح ، أو في كرك الغداة ومرّ العشي .



في ذلك اليوم بينما كانت جالسة بعد التمثيل في « كهف العذارى » ، لاحظت في مرآتها العلامات الاولى لتضاؤل جاهلها وذبول حسنها ، فهاها التفكير في انه سيحين أخيراً حين الشعر الأبيض والعضون والتجعدات ، وعبثاً حاولت ان تسكن روعها وتؤمن خيقتها بقولها لنفسها ، قول الواثق المستيقن ، ان احراق أعشاب معينة والنطق بتأم سحرية معلومة تكفي لاعادة نضارتها الاولى !!

وإذا بصوت ، لا أثر للرحمة فيه ، يهيب بها : « ستبلغين يا تاييس من الكبر عتياً ! ستشيخين تاييس ويدركك الهرم ! » فجمد العرق البارد على جبينها من الجزع ، وطالعت وجهها ثانية في المرآة برقة

بالغة ، فألفت نفسها لانزال جميلة فتانة ، جديرة بأن تُعشق وتُستحى ،
فتمتت : « ليس في الاسكندرية كلها امرأة واحدة يضارع قوامها
قوامي الآذن ! ولا من تماثلي في رشاقة الحركات ، وبهاء الأذرع ؛
والأذرع ، أيا مرآتي ، هي سلاسل الحب الحقيقية ! »

وإذ كانت تفكر في ذلك رأت رجلاً مجهولاً ، نحيلاً ،
مشعل العينين ، منتفش اللحية ، مرتدياً ثوباً مزركشاً ثميناً ، واقفاً
امامها ، فأفلتت مرآتها وصرخت مذعورة

وقف بافئوس جامداً ، ولما رأى مبلغ جاهلها ، قدّم من أعماق
قلبه هذه الضراعة :

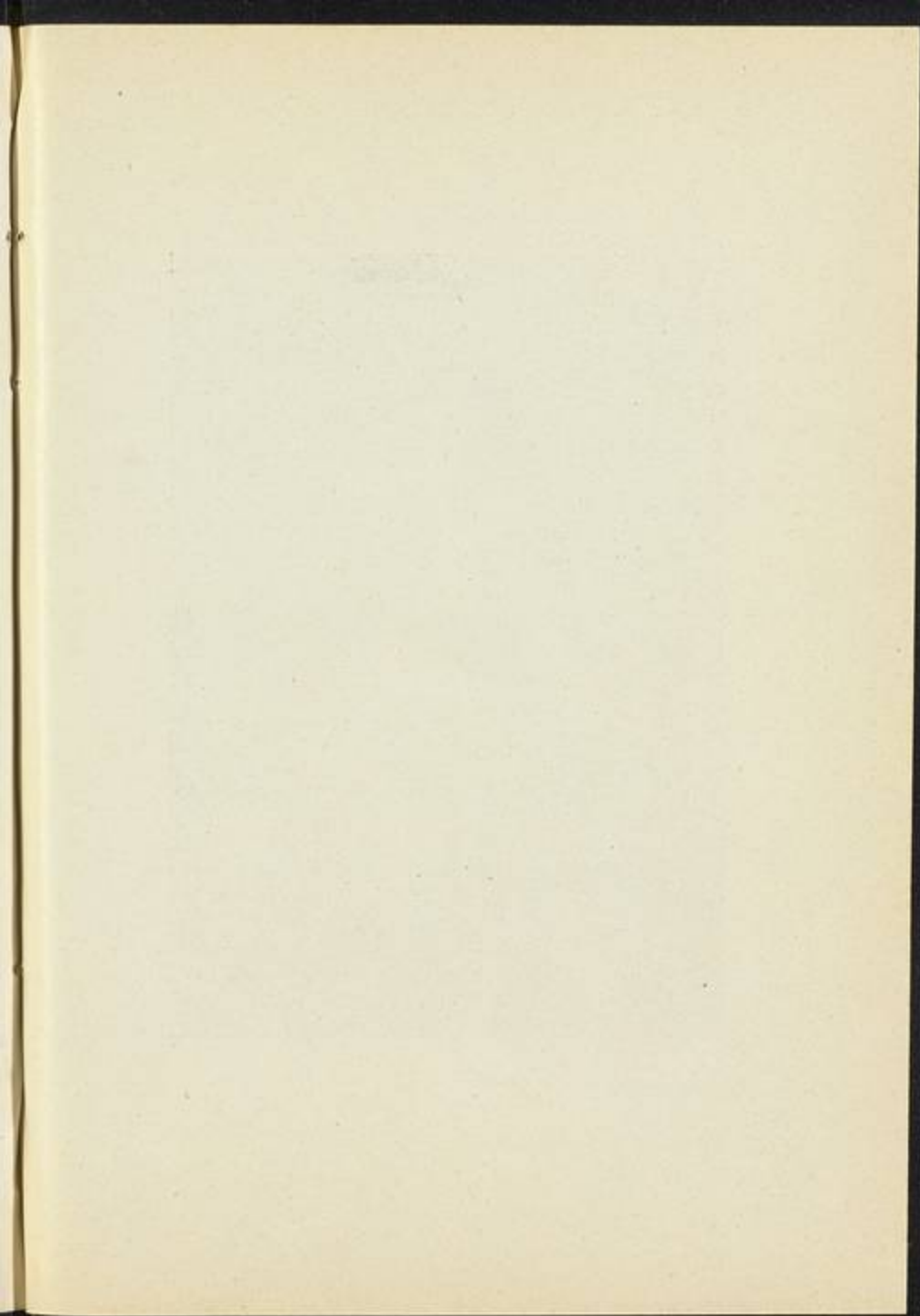
— اللهم لا تجعل وجه هذه المرأة سبباً في غوايتي ، بل سبباً
لهدايتي !

ثم أرغم نفسه على الكلام ، قال :

— تاييس ! انني من سكان أرض سحيقة نائية ، وقد قادني اليك
صيتُ جمالِك . قيل انك أبرع الممثلات وأقدر النساء ، وكأن
قصص ثرائك وغرامك وأهوائك من أساطير الاولين ، تعيد إلى
الذهن ذكرى « رودوبيس » القديمة التي يحفظ ملاحو النيل
تاريخها العجيب عن ظهر قلوبهم . فاستولت عليّ الرغبة في معرفتك ،
ولعمري اني أرى الخبر يفوق الخبر ! انك أعلم وأجمل الف مرة ممّا



(نایس تاجی مرآتیا)



ذاع عن علمك وجمالك . والآن إذْ أراك أقول لنفسي : « يستحيل
على المرء الاقتراب منها الاّ ويترنح ترنح السكارى »

كانت هذه الكلمات ملفقة ، لكن الراهب فاه بها بجملة صادقة
تحمساً للدين . فنظرت تاييس بغير استياء الى هذا الخلق الغريب
الذي أخافها وأدهشها بمنظره القبيح الوحشي ، ونظراته الكئيبة
النارية ؛ فودت معرفة شأن هذا الرجل الذي يختلف كل الاختلاف
عن عرقهم أجمعين .

فأجابت بسخرية رقيقة :

— يلوح لي أيها الغريب انك سريع الاعجاب بالناس . فحذار
أن تشغفك نظراتي فتبلي جسدك . وتوهن العظم منك ! حذار من حيي !
فقال لها :

— إنني أحبك يا تاييس ! احبك اكثر من حياتي وأحبك
اكثر من نفسي . لأجلك غادرت صحرائي علي أسف . لأجلك نطق
لساني بكلمات دنيوية ، وكان قد نذر الصمت . لأجلك رأيت مالا
يصح أن أراه ، وسمعت ما حرّم علي سماعه . لأجلك تبلبت روحي
وفتح قلبي وتفجرت منه العواطف والخواطر كميون الماء الجارية التي
يشرب منها الحمام . لأجلك واصلت الليل بالنهار سائراً في
مفاوز الصحارى الرملية المكتظة بالحشرات والهوام والخفافيش .

لأجلك وطئتُ الأفاعي والعقارب حافياً! أجل ، إني أحبك ! أحبك
لا كهؤلاء الرجال الذين تضمم الشهوات أبدانهم فيتسابقون اليك
كالذئب الخاطفة أو الثيران الهائجة . لذلك أنت عزيزة عليهم معرّة
الظبية على الأسد ، فيتلف جهم الشهواني روحك وجسدك أيهما
المرأة . أما أنا فأحبك بالروح والحق . أحبك في الله وإلى أبد
الآبدين ، والشعور الذي يكنه صدري لك هو غيرة حقة وعطف
رباني . انني أعدك ما هو أزكى من عطر الزهر ، وألذ من أحلام ليل
قصير . أعدك المآدب المقدسة والأفراح السماوية . النعيم الذي آتيك
به مقيم لا يزول ، نادر لم يُسمع به ، رائع لا يوصف وإذا قدّر
للسعداء في هذه الدنيا أن يروا لحظة واحدة من مثله ، فإنهم يموتون
في الحال من شدة الدهول !!

فضحكت تاييس ضحكة المتهم المرتاب ، وقالت بخباثة :

— عليّ يا صاحبي بهذا الحب العجيب . عجل ! فأني أعدت
إسهابك في القول مهانة لمحاسني . فلنبادر الى اتهاز الفرص ولا نضع
لحظة واحدة ! انني لا أطيق الصبر على معرفة السعادة التي تبشرنى
بها . ولسكني أصارحك القول اني أخشى أن أضلّ جاهلة بها ، وان
تنتهي وعودك كلها لي في كلمات فقط . فالوعد بالسعادة ، أسهل بكثير
من منح السعادة . كلُّ له موهبة ، وأظن موهبتك الخطابة والكلام .
انك تقول بحب مجهول ، ليت شعري ، لقد مضى دهر طويل على

تبادل القبل بحيث يكون من عجائب الزمن بقاء أسرار حب لم يمت
عنها اللثام ، والعاشقون يعرفون أكثر من السحرة في هذا الباب ...

— تاييس لا تسخري . اني أحمل اليك الحب المجهول .

— لقد أتيتني يا صاحبي متأخراً ، فانا بكل أنواع الغرام عليمه .

— الحب الذي آتيتك به ملؤه المجد ، وكل حب آخر عرفته

لا يتمخض إلا بالعار !

فنظرت اليه تاييس بعين جامدة ، وغشي جبينها الصغير عبوسة

وتقطيب ، وقالت :

— انك أيها الاجنبي جري ، للغاية ، لتحديد ربة الدار . انظر

إليّ وقل لي بربك هل أبدو كمخلوقة يغمرها الرجس ويطوقها العار ؟

كلا ! لست خجلة مسنكفة ، لا أنا ولا كل اللواتي يعشن معيشتي ،

ولو أنهن قد يكننّ دوني جمالاً ومالاً . لقد بذرت المسرّة في كل

خطوة خطوتها ، فذاع صيتي في العالم من أقصاه الى أقصاه . فأصبحت

أقوى سادة الدنيا ، الذين رأيتهم عند موطني ، قدمي صاغرين . انظر

إليّ ! انظر الى هاتين القدمين الصغيرتين ، وأعلم أنه يوجد ألوف

من الرجال يشترن بأرواحهم نعمة تقييلها ، ويبدلون دماءهم

ليحظوا بهذه اللذة . نعم ، لست رفيعة العاد أو أشغل حيزاً كبيراً

من فراغ هذه الدنيا ، وانني أبدو كحبة أرز لاولئك الذين ينظرون

إليّ من قمة السرايوم عندما أمرّ في الطريق . غير أن حبة الارز
هذه قد سببت للناس أحزاناً وآلاماً ويأساً وبغضاً وجرائم تكفي
لتملاً أودية التتر . وبعد ، ألت مجنوناً أيها الرجل إذ تذكر العار
مع أن كل ما يحيط بي ينطق عن المجد ؟

- ان ما هو مجيد في عيون الرجال ، مردول عند الله . لقد نشأنا
كلانا ، أيها المرأة ، في بلاد مختلفة ، فلا عجب ان تباينت آراؤنا
واختلفت لهجاتنا . ومع ذلك فأشهد السماء على أن مرامي الاتفاق
معك ، وقصدي الآ أعادرك قبلما تتوحد مشاعرنا . من ذا الذي يوحى
إليّ بكلمات مشتعلة تجعلك تذوبين أيها المرأة كالشمع تحت حرارة
أنفاسي ، وتجعل يد إرادتي تكوّنك كما تشاء ؟ أية قوّة تسلمك إليّ
يا ريحانة النفوس لتفطرك ثانية الرّوح التي تحييني كي تسلك بجمال
جديد ، فتصيحين ، وأنت من الفرح تبكين ، : « اليوم وحده يوم
مولدي ! » . من ذا الذي يجعل « جرن معمودية القدس » ينبوعاً
يتفجّر من صدري حيث تجدين فيه بعد الطهر تقاءك الاول ؟ من ذا
الذي يحولني « أردناً » تغمرك مياهه فتمنحك الحياة الخالدة ؟
فبدأت نائرة تاييس وقالت في نفسها :

- هذا الرجل يتكلم عن خلود الحياة ، وكأن كل ما يفوه به
مكتوب فوق طلسم ، فلا شك أنه ساحر ، ولديه أسرار مقاومة
الشيخوخة والموت

فاعتزمت أن تهب نفسها له ، ولهذا تظاهرت بالخوف منه ،
وخطت الى الورا مرتدة الى آخر كهف العذارى ، وجلست فوق
حافة الفراش وقدماها الحافيتان تهتران في رفقٍ ولين ، ورفعت
قيصها بلباقة ، ثم لبثت ساكنة ، ساكنة ، لا تبدي حراكاً ..
تنتظر .. بعيون سبلاء

وقد ألفت أهدابها الطويلة على الخدين ظلاً خفيفاً ، وكان مظهرها
ينمّ عن حياءٍ وخفمٍ ، فشابهت بنتاً تحلم وهي جالسة فوق حافة غدير
نظر إليها بافئوس ولم يتحرك ، ولم تعد ركبته المرتجتان تقويان
على حمله ، وجفت لسانه في فمه ، واعتري دماغه دوي هائل .
وأغشي على بصره ، فعاد لا يرى أمامه سوى سحابة كثيفة ، فظن
أن يد يسوع قد أُلقيت على عينيه لتحجب منظر المرأة عنه ، فاطمأن
لهذا العون وتشدت عزيمته ، وقال بوقار يليق بشيخ الصحراء :

— أفتظنين أنك إذا وهبت نفسك لي تخفي على الله ؟

فهزت رأسها قائلة :

— الله ! ومن ذا الذي يُسكره دائماً على مراقبة كهف العذارى ؟
فليصرف عنا إذا كنا نسوءه ! ولكن كيف نسوءه ؟ أما وقد
بخلقنا ، فليس له أن يستاء أو يدهش إذا رأانا كما برأنا وصورنا ، ففعل
ونتاثر بحسب الطبيعة التي أوجدها فينا . لقد قيل عنه الشيء الكثير

وُعزّي اليه ما ليس بصحيح على الاطلاق ، فهو منه براءه . وأنت أيها
الاجنبي ، ألك معرفة أكيدة بحقيقة أمره وجوهريته ؟ ثم من تكون
أنت حتى تخاطبني باسمه ؟

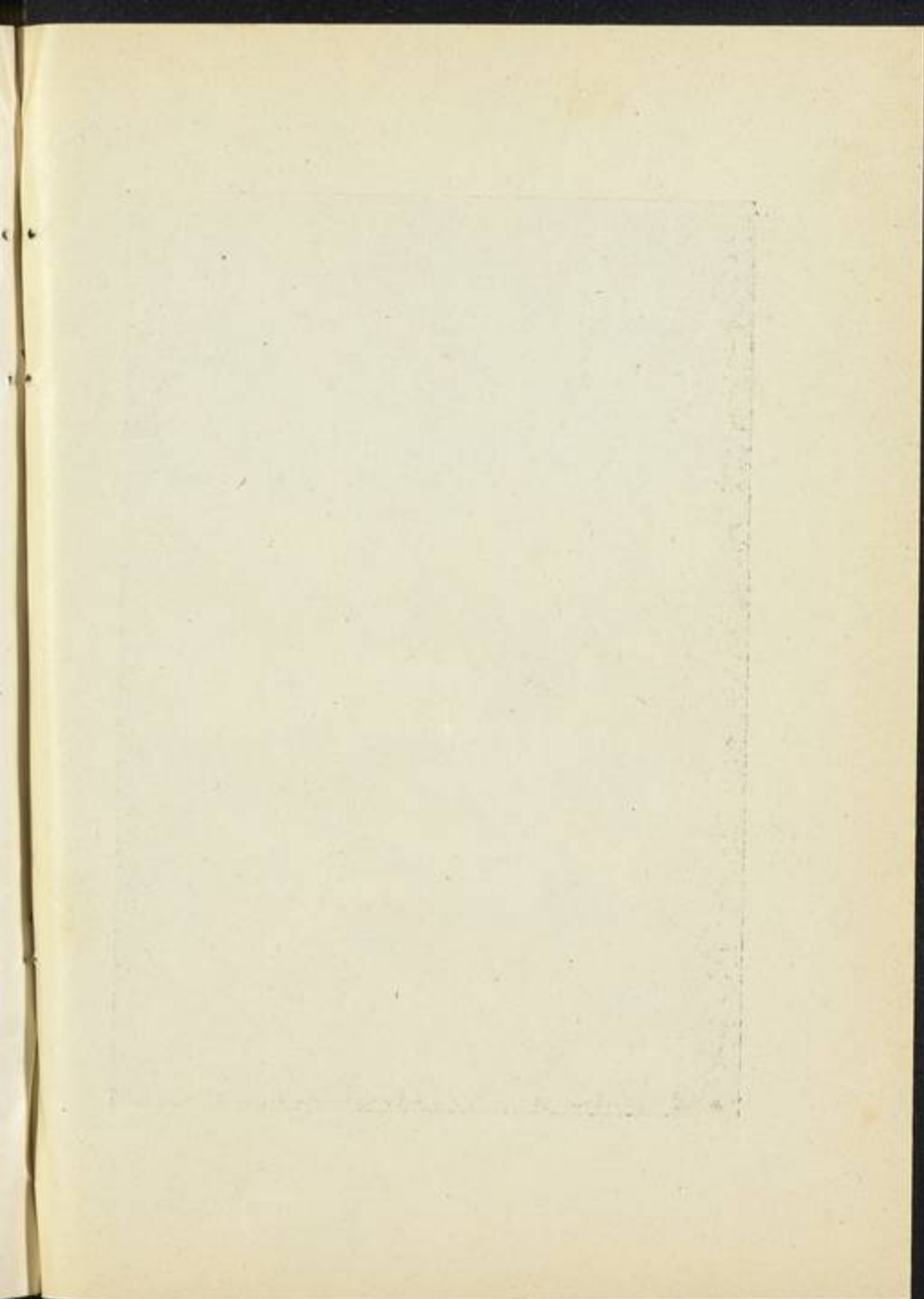
وعند هذا السؤال فتح الراهب قليلاً حليته المستعارة ، وأبان
عن ثوبه الوبري ، وقال :

- أنا بافنوس ، كاهن أنصينا الاكبر ، جئت من الصحراء
المقدسة ، واليد التي أبعدت ابراهيم عن بلاد الكلدانيين ، ولوط عن
سادوم ، هي التي فرقت بيني وبين العالم . لقد احتجبت عن الناس ،
لكن رسمك ظهر لي في مقدسي الرملي ، فعرفت ان نفسك
مفعمة بالفساد ، وان كان فيك المنون . وهأنذا أمامك أيها المرأة
وكأني أمام جدث . وانني أصبح بك : « انهضي يا تاييس ! »

ولما سمعت اسم بافنوس ، وكنتي راهب ، وكاهن اكبر ،
امتنع لونها رعباً ، وزحفت متشابكة اليدين ، شعناء الشعر ، الى
قدمي القديس وهي تنوح ، وتناوّه ، قائلة !

- لا تؤذني ! ما الذي جاء بك ؟ ماذا تبغي مني ؟ لا تؤذني !
أنا أعرف أن أولياء الصحراء يمتنون النساء اللواتي خلقن على شاكلي
متعة للرجال . انني أخشى أن تشنّاني ، وأن تكون راغباً في ايدائي .
فاعزب عني ! أنا لا يخامرني شك في مقدرتك . لكن اعلم يا بافنوس





انه لا يجوز لك أن تحتقري أو تمقتي . اني لم أسخر قط من فقرك
الاختياري ، مثل كثيرين من الرجال الذين أعرفهم ، فعليك
بدورك ألا تجعل ثرائي جرماً . اني حسناء وممثلة حاذقة . اني
مُسَيَّرَةٌ لا مُخَيَّرَةٌ فيما أنا عليه . اني خُلقت لما أنا فيه ، وولدت لأفمن
الرجال . وأنت نفسك قلت الآن انك أحببتي ، فلا تستخدم
عاملك للبطش بي ، ولا تفه بكلمات السحر التي تتلف جمالي
أو تجعلني تمثالاً من الملح . لا ترعبي ! فاني خائفة جداً الخوف .
لا تجرّعي كأس المنون ، فلشدّ ما أخاف الموت !

فأشار اليها أن تنهض ، وقال :

— هدي روعك يا بنية ، فلن أسومك المذلة . اني أتيتك من
قَبَلِ ذلك الذي جلس فوق حافة البئر وشرب من ابريق المرأة
السامرية المقدم اليه⁽¹⁾ ، وهو الذي عندما تعشى في بيت سيمون ،
ضمخته مريم بالعطور . لستُ بلا خطيئة لأرميك بأول حجر ،
فقد طالما أسأت استعمال ما لا يحصى من نعم الله التي أسبغها عليّ .
ليس ثمة غضب ، وإنما هي الرحمة بك أخذتُ بيدي وجاءت بي الى
هنا . والحق أقول ، اني كنتُ قادراً على التقرب منك بكلمات
الحب والهيام ، إنما حرارة قلبي هي التي قادتنى اليك . اني اشتعل

(1) يقصد به السيد المسيح

بجمية الاحسان ، وإذا كانت عينك اللتان لم تتعوّدا النظر إلا إلى
تقاص البدن وعوراته تستطيعان أن تنظرا إلى الأشياء بحقيقتها
الروحانية ، فلا تظهرنَّ إذاً لك كغصن متزع من تلك العليقة
المشتعلة التي أراها الله نبيه موسى القديم في البرية ، ليعلمه الحب
الصادق ، الحب الذي يشعلنا دون أن يبلينا ، فلا يترك جمرأ
ورماداً ، انا بلسماً وطرأ يضمنان كل ما يتخلله إلى آخر الدهر .

— انني أصدقك ، أيها الراهب ، ولست أخشى بعد خدعة
منك أو مضرّة . لقد طالما سمعت أخبار نساك طيبة ، والحكايات
التي بلغتني عن حياة أنطوان وبولس غربية ، ولم يكن اسمك خافياً
عليّ ، ولقد خبروني انك ، على حداثة سنك ، تضارع في الفضل
أكبر الزاهدين . ومع اني لا أعرف حقيقة أمرك ، أشعر بأنك لست
رجالاً عادياً . ألا فخبّرني ، أنتستطيع أن تعمل لي ما يعجز عن عمله
كهنه إزيس وهرمس ويونو والسحرة الكلدانيون جميعاً ، وما لا
يستطيعه العرافون البابليون ؟ أيها الراهب ، إذا كنت تحبني ، فهل
تستطيع أن تحول بيني وبين الموت الذي أخشاه ؟

— أيتها المرأة ، ان من يرغب في الحياة يحى . فاعرضي عن
الملذات السافلة التي تهلكين بها هلاكاً أبدياً . اتزعي جسدك
الذي فطره الله من رضابه ونفخ فيه من روحه ، إتشلبيه من أيدي

الشياطين الذين يشكون أن يحرقوه احراقاً. تعالي أيتها التي أضناها
التعب وردي موارد الزهد المباركة ، تعالي انجلي من تلك العيون
المخبوءة في الصحراء التي تفجر من السماء ! أيتها النفس القلقة المتأهفة ،
تعالي تنلي ما تشتهين ! أيها القلب الشره الطامح الى الجذل ، عليك
أن تجذل حقيقة بتذوق طعم الفقر والعزلة ، وانكار الذات وتركها
في حضن الله . يا عدوة المسيح الآن ، ويا حبيته غداً ، تعالي اليه !
تعالي يا من بَحَّتْ وَقَشَّتْ وستقول : « ها أنا قد وجدت الحب ! »

وكان يلوح على تاييس أنها تنفوس في أشياء بعيدة ، فسألته :

— أصحیح أيها الراهب انني إذا نبذت المسرات وتبتُ ،

أولدُ ثانية في السماء سليمة الجسم موفورة الجمال ؟

— تاييس ، انني أحمل اليك الحياة الخالدة ، فثقي بي ، لأن

ما أبشرك به هو الحق ...

— ومن يضمن لي أنه الحق ؟

— داود ، والأنبياء ، والسكتب المقدسة ، والمعجزات التي

سوف تشهدين ...

— أميل إلى تصديقك ، أيها الراهب . لأنني اسلم بكوني لم

أجد في هذه الدنيا هناء . كان نصيبي أعظم من نصيب ملكة ،
ومع ذلك فقد صبَّت الحياة على رأسي صنوف الآلام والمتاعب ،
وها أنذا قد عيت كثيراً وضقت ذرعاً بوجودي . كل النساء
يحسدنني ، مع انني طالما حسدت المرأة العجوز الدرداء التي كانت ،
وأنا صغيرة ، تبيني أقراص الشهد تحت احدي بوابات المدينة . وقد
خطر لي غير مرة أن الفقراء هم وحدهم الصالحون السعداء المباركون ،
وان في هذه الحياة الوضيعة الوديعة تعزية وسلوى . فيا أيها
الراهب ، لقد هجت أمواج حياتي ، وطفوت إلى السطح بتلك التي
رسبت في القاع . . . ترى من أكون أنا لأؤمن ؟ واأسفاه ! . . .
وما عساي أن أكون ؟ وما هي الحياة ؟

وفي اثناء كلامها تغيرت ملامح بافنوس وأضاء وجهه بفرح
سماوي ، فقال :

— اسمعي ! انني ما دخلت الى مسكنك وحدي ، بل صحبني
آخر . وهو واقف هنا بجاني ، لا تستطيعين أنت رؤيته ، لأن
عينيك لا تستأهلان بعد مشاهدته ، ولكنك لا تلبئين أن تريه
بجلاله وجماله ، وتقولين : « هو الجدير بالحب وحده ! » ولولم
يكن قد وضع الآن يده الناعمة فوق عيني ، يا تاييس ، فلربما كنت
اقترفت معك خطيئة ، لأنني أنا نفسي مثال الضعف والوهن .

لكنه أتقنا معاً . انه صالح كما هو قدير واسمه « المخلص » . وقد
بشر الدنيا به داود والأنبياء ، وسجد له الرعاة والمجوس ، وهو
لا يزال في المهد صبيغاً . وقد صلبه الفريسيون ، ودفنته القديسات ،
وأظهره الحواريون للعالم ، وشهدت به الشهداء . وهو الذي لما علم
بأنك تخشين الردي ، أتى بي إلى بيتك ليدفع عنك غائلة الردي !
اليس كذلك يا يسوع ؟ أولستَ تظهر لي في هذه اللحظة كما
ظهرتَ لأهل الجليل في تلك الأيام العجيبة ، عند ما هوتَ معك
النجوم من السموات ، وصارت قريبة من الأرض بحيث تناولها
الأطفال القديسون بأيديهم وهم يلعبون في أحضان أمهاتهم فوق
سطوح بيت لحم ؟ السنا يا يسوع في حضرتك ، وانك تظهر لنا
حقيقة ناسوتك المقدس ؟ اليس ذلك وجهك ؟ أوليست العبرة التي
تنحدر فوق خدك هي عبرة حقيقية ؟ أجل ! ان ملك العدل الأزلي
سوف يتلقاها فتكون فدية لروح تاييس . الستَ هنا يا يسوع ؟ ان
شفتيك المستحتمتين العبادة مفتوحتان . انك تستطيع الكلام .
تكلم ، فكلي آذان صاغية . وأنتِ يا تاييس ، يا تاييس السعيدة !
اصغي لما يقوله لك المخلص نفسه . انه يتكلم من دوني قائلاً لك :
« بحثُ عنك طويلاً يا شاتي الشاردة ، وها قد وجدتُك ! فلا
تشردي مني بعد الآن . هاتِ يدك أيتها البنية المسكينة ،

ودعيني أحملك فوق كتفي إلى حظيرة السموات . تعالي يا تاييسي !
تعالي يا صفتي ! تعالي واذرفي الدموع معي ! »

وسقط بافنوس على ركبته وعيناه تفتان ذهول الجذب . . .
ولما رأت تاييس على وجهه صورة يسوع الحيّ ، قالت في زفرتها :
— واهاً لأيام طفولتي الماضية ! واهاً لأبي الكريم أحسن !
أيها القديس الصالح تيودور ، لماذا لم أمت في دثارك الأبيض عندما
كنت تحملي في مطلع الفجر ، وأنا مبتلة بماء المعمودية ؟
فوثب بافنوس نحوها صائحاً :

— أنتِ عُمِدَتِ ! . . . يا للحكمة الربانية ! يا للعناية الإلهية !
الآن عرفت القوة التي اجتذبتني نحوك . الآن عرفت ما صيرك
هكذا عزيزة عليّ جميلة في عينيّ ! فالفضل كل الفضل ماء التعميد
الذي جعلني أترك ظل الله ، حيث كنت اسكن ، لأبحث عنك في
جوّ العالم المسموم . لا ريب أن قطرةً ، قطرةً من الماء الذي غسل
جسدك ، قد سقطت على جبيني . فتعالي يا أختاه وتقبلي من أخيك
الروحي قبلة السلام !

ولثم الراهب جبين البغي . . .

ثم سكت وترك حبل القول لله . . ولم يكن يُسمع في كهف
العدارى سوى زفرات تاييس ممزوجة بخرير المياه الجارية .

بكت ، ولم تكفكف عبراتها ، ولا حبست انهارها ، في حين
دخلت جاريتان سوداوان محملتان بالثياب والعمطور وتيجان الزهور .
فقالتا ، وهي تحاول أن تبسم :

— ليس البكاء من حسن الرأي ، فالدموع تحمر منها العيون ،
ولونها يفسد بها . واذا أني مزمنة أن أتعشى الليلة مع بعض الأصدقاء ،
أروم أن اكون فتاة ، لأنه سوف يكون هناك نساء جميلات ، فلا
أريد أن يلحظن آثار الضعف البادية على محياي . وهاتان الجاريتان
جاءتا لاباسي . فتحنَّ قليلاً يا أبي واطركها يفعلان ذلك . انهما
ماهرتان محنكتان وقد اشتريتهما بثمن غال . انظر الى أحدهما ذات
الخواتم الذهبية الكبيرة والأسنان الجميلة ، اني أتيت بها من
بيت امرأة الحاكم .

ففكر بافئوس باديء الرأي في اقناع تاييس بالعدول عن
الذهاب الى هذا العشاء ، على أنه آثر أخيراً أن يتصرف بفطنة
فسألها عن ستلقاه هناك .

فأجابت أنها ستري هناك صاحب الوليمة : الشيخ كوتامدير العمارة

البحرية، ونسياس ، وكثيرين غيرهما من الفلاسفة والمولعين بالحوار ،
والشاعر كاليكرات ، وكاهن سيراييس الأعلى ، وبعض الشبان
الأغنياء من هواة تربية الخيل ، ونساء في ريعان الصبا وكمال الجمال

فقال الراهب بإلهام غير عادي :

أذهبي إليهم يا تاييس ! اذهبي ، بيد أني لن أتركك .. سأذهب
معك الى هذه المأدبة وأبقى بجانبك ملازماً الصمت والسكون ...

فضحكت تاييس ، وصاحت ، والجاريتان تلبسانها حلبيها :

— ترى .. ماذا عسى أن يقولوا عند ما يرون لي عاشقاً من

رهبان طيبة ؟





لما دخلت تاييس قاعة
 المأدبة ، ومعها بافانوس ،
 كان أكثر المدعوين قد
 اجتمعوا متكئين على
 الأرائك أمام مائدة على

شكل حدوة الفرس فوقها كثير من الأواني اللامعة . وكان في وسطها
 حوض من الفضة تعلوه أربعة تماثيل منحنية يقرب يتدفق منها مرق
 على سمك مسلوق يسبح فيه . .

فلما أقبلت تاييس ، علا الهتاف لها من جميع الأرجاء :

— سلام على أخت المحاسن والبهاء !

— سلام على عروس التراجيديا الصامته ، التي تعبر نظراتها عن

جميع الأشياء !

— سلام على محبوبة الآلهة والناس بلا استثناء !

— سلام على المشتهة غاية الاشتها !

— سلام على التي منها الداء وفيها الشفاء !

— سلام على لؤلؤة « راكوتيس » !

— سلام على وردة الاسكندرية !

فانتظرت تاييس بفروغ صبر همود عاصفة التهليل والثناء ؛

ثم قالت لمضيفها « كوتا » :

— لقد جئتك يا لوسيوس براهب من الصحراء ، بافنوس ، كبير

كهنه أنصينا ، وهو رجل قديس كلماته شعله من نار ..

فنهض « لوسيوس أوريلوس كوتا » قائد الاسطول ، قائلاً :

— مرحباً بك يا بافنوس ، يا من يؤمن بالعتيدة المسيحية .

اني أجلّ بعض الاجلال ديناً أصبح الآن امبراطورياً . فقد أحلّ

قسطنطين العظيم إخوانك في الدين المحل الأول بين أصدقاء الدولة. وحقاً أنه وجب على الحكمة اللاتينية أن تسمح بدخول مسيحي معبد أربابنا^(١). ومما يؤثر عن آبائنا قولهم ، أن في كل رب شيئاً من الألوهية . لكن لندع هذا جانباً ، ولنشرب ، ونطرب ، ونروح القلب باللذات ، (فالوقتُ سمحٌ والزمانُ مؤاتٍ)

قال هذا وهو منشرح الصدر ، إذ كان قد فرغ من اختراع سفينة جديدة ، وأتمَّ الجزء السادس من تاريخ كان يكتبه عن قرطاجنه . ولو ثوقه بأنه لم يضع يومه سدًى ، كان راضياً عن نفسه وعن الآلهة .

ثم قال :

— ترى هنا يا بافنوس رجالاً كثيرين جديرين بالمحبة والاحترام : هيرمودور كاهن سرايس الاعظم ، والفلاسفة دوريون ، ونسياس ، وزينوتيس ، والشاعر كاليكرات ، والفتيان شيراس وأريستوبول ، وهما إبنارفيق من رقاء شبابي الأعراء . وبقر بهما فيلنا ودروسيه ومن حقيهما أن يعجب بهما كثيراً لفرط جمالهما . .
فعانق نسياسُ بافنوسَ وهمس في أذنه :

— لقد أذرتك يا أخي بما للزهرة من بأس شديد . أليس

سلطانها القوي هو الذي قادك قسراً الى هذا المكان ؟ اصغِ إليّ ،
انك رجل شديد التقى ، لكنك اذا لم تسلم بأنها أمّ الآلهة فيهلكك
محمّم . واعلم أن الشيخ « ملانت » الرياضي كان يقول : « اني
لم أستطع اثبات خواص المثلث بغير مساعدة الزهرة ! »

وكان دوريون يطيل النظر الى القادم الجديد ، وما لبث ان
صفق يديه ، وصاح صيحة الدهشة :

— انه هو يا صحب ! نظرته ، لحيته ، طيلسانه — هو بعينه !
لقيته في الملعب وكانت تاييسنا تكشف عن ذراعها البديعتين ،
فاضطرب اضطراباً شديداً ، وأشهد انه تكلم بمجدّة وحمية . انه رجل
شريف ، وسيكون نصيبنا منه اللعنات . فصاحته رائعة ، واذا
كان ماركوس هو أفلاطون المسيحيين ، فبافنوس ديموستينهم .
ولعمري ان أبيقور ، في حديقته الصغيرة ، لم يطرق سمعه مثل
ذلك قط .

وفي تلك الاثناء ، كانت فيلنا ودروسيه تكادان تقترسان
تاييس بأعينهما الخائنة ، وقد وضعت فوق شعرها الأشقر تاجاً من
البنفسج الذابل ، كل زهرة منه تمثل لون حدقتها حائلاً ، حتى لاح
الزهر كأنه نظرات زائغة ، وبدت عيناها كزهرتين متآلفتين . . .

ومما امتازت به تاييس أن كل ما عليها كان يتألق بنور الحياة
وروح الانسجام . . فكان لثنيات ثوبها الأرجواني المطرز بخيوط
الفضة رونق عليه مسحة من الكآبة لا تمحوها الأساور والقلائد .
وكان البهاء كله في ذراعيها العاريتين

فلم يسعهما إلا الاعجاب بثوب تاييس وزينتها ، وان لم تشيرا
الى ذلك بكلمة .

قالت فيلنا :

— يالك من فتانة ! لم تستطعي أن تكوني الآن أجل منك
عندما قدمت الاسكندرية ، لأن أمي التي رأتك حينذاك تقول أنه
قل من النساء من كانت تستحق أن تشبه بك .

وسألها دروسيه قائلة :

— من يكون إذاً ذلك العاشق الجديد الذي جئتنا به ؟ ان
هيئته غريبة وحشية ، واذا كان الفيلة رعاة فلا ريب انهم يكونون
على صورته . أين وجدت يا تاييس هذا الصاحب الوحشى ؟ لعله
من سكان الكهوف والمغاور الذين يعيشون تحت الأرض ملطّخين
بدخان سقر ؟

فوضعت فيلنا أصبعها على فم دروسيه ، وقالت :

— صه ! يجب أن تبقى أسرار الحب في طي الكتمان ، لأن
إذا عتبت محرمة ! أما أنا فأفضل أن يقبلني فم بركان إتنا المدخن على
أن تقبلني شفتا هذا الرجل ! لكن حبيبتنا تاييس الجميلة ، الجديرة
بالعبادة كاللّهة ، عليها أن تقبل كاللّهة دعاء جميع المتوسلين . وليست
مثلنا نأبي الغرام الآ على زين الشباب

فقال لهما تاييس :

— احذرا ! انه عرّاف ساحر ، يسمع الهمس الضعيف ، ويعلم
ما تخفي الصدور . وهو قادر على أن يختطف قلبكما أثناء نومكما ،
ويضع بدلاً منهما اسفنجيتين ، حتى اذا شربتا ماء تموتان اختناقاً !
ثم نظرت اليهما وقد شحب لونهما ، وطوت كشحاً عنهما
وجلست بجانب بافوس على أريكته .

ووقف كوتا هدر الحديث بصوته الذي في نبراته رنة الأمانة

ورقة الترحيب :

— إزموها أما كنكم أيها الاخوان ! صبّوا النبيذ المعسول

أيها العبيد !

ثم رفع رب البيت كأسه قائلاً :

— لنشرب أولاً نخب قسطناس سليل الآلهة ورمز عبقرية
الدولة ! يجب أن يقدم الوطن على كل شيء ، حتى على الآلهة ، لأنه
يأويهم في أرضه ، ويضمهم تحت كنفه اجمعين

فرفع كل المدعويين كؤوسهم المترعة الى شفاههم الآبافنوس ،
أبي واستكبر ، لأن قسطناس كان قد اضطهد عقيدة اهل «نيسيه» ،
ولان وطن المسيحي ليس من هذا العالم .

فتتم دوريون بعد أن شرب :

— ما الوطن ! انه نهر جار . ضفافه تبديل ، وأواجه تتجدد
على الدوام

فأجاب قائد الأسطول :

— أعرفُ يادوريون انك قلما ترعى جانب القوى الوطنية ،
وانك تعتقد انه يجب على الحكيم أن يعيش بنجوة عن الشؤون
العامه . أمّا انا فارى أن الرجل الشريف يجب الآ يتمنى اكثر من
أن يشغل منصباً سامياً مسؤولاً في الدولة . فما اجل الدولة وما اجلها !

فوصل هيرمودور ، كبير كهنة سرايس ، حبل الحديث بقوله :

— سأل دوريون « ما الوطن ؟ » وجوابي عن ذلك أن

الوطن عبارة عن محاريب الآلهة ومقابر الأجداد . فالإنسان مواطن
سواه بالاتحاد معه في الذكريات والاماني .

فقاطعه الشاب اريستوبول قائلاً :

— بحق التوأم الأول^(١) ! لقد رأيت اليوم لصاحبنا ديموفون
جواداً كريماً ، له فك ضئيل ، وقائمتان بديعتان ، رافعاً رأسه
الواجف ، مزدهياً ازدهاء الديك !

فهزّ شيراس الفتى رأسه قائلاً :

— انه ليس بالجواد الكريم كما تدعى ، فله حوافر دقيقة ،
وعراقيه توشك ان تمس الأرض ولا يلبث أن يصاب بالعرج .
وكانا سيستمران في حوارهما لولا أن صرخت دروسيه صرخة
عالية :

— آي ! كدت ابتلع حسكة اطول وأحد من الخنجر . ولحسن
الخطأ أخرجتها من خنجرتي قبل فوات الوقت . ان الآلهة تجبني !
فسألها نسياس مبتسماً :

(١) في اساطير الأولين ان كاستر Castor هو ابن جوبيتير وليدا .
والأخ التوأم لبولكس Pollux . وضرب المثل بعروتهما الوثني التي لا انفصام
لها . — وهذان الاسمان يذكران عادة في معرض الوداد رمزاً للمحبة والقبول
(المترجم)

— اتقولين يا عزيزتي دروسيه ان الأرباب يحبك هاتون ؟
إذا فليسا هموا الناس العليل ! لان الحب يقضي بالشقاء الابدي على
من يصاب به ، وهو دليل على الضعف . فالحب الذي تشعر به
الآلهة نحو دروسيه حجة دامغة على عدم بلوغهم حد الكمال .

فاشدت غضب دروسيه لهذه الكلمات ، وقالت :

— ان ما قلتة يا نسياس حماقة لا تستحق الجواب ، ومن
طبعك ألا تفهم ما يقال ، وان تقول ما لا معنى له .

فابتسم نسياس ثانية وقال :

— تكلمي ، تكلمي يا عزيزتي دروسيه ، لا بأس بكل ما
تقولين ، فعلينا أن نشكرك كما فتحت فاك ، فما أبهى ثنياك !

وعندئذ دخل البهو شيخ وقور ، زريّ اللباس ، متشد الخطف ،
عالي الرأس ، ونفض المكان بنظره محققاً في الحاضرين بسكون .
فأشار اليه كوتاً ليجلس بجانبه فوق أريكته قائلاً :

— أهلاً بك وسهلاً يا يوكريت ! هل من رسالة فلسفية
جديدة كتبها هذا الشهر؟ ستكون ، إذا صح حسابي ، الثانية
والتسعين التي خطتها قصبتك النيلية بيدك الأثينية .

فأجاب يوكريت ، وهو يعث بلحيته الفضية :
- ان الببل خلق ليشدو ، وخلقتم لأحمد الأرباب
الخالدين . (١)

دوربون

فلنجي باحترام ، في شخص يوكريت ، آخر الرواقين . انه وقور
رزين ، يقوم في وسطنا ، مكلاً بجلال المشيب ، كتمثال الأسلاف ؟
تراه بين الناس منفرداً ، يفوه بعبارات لم يُسمع بها

يوكريت

هذه مغالطة منك يا دوربون . ففلسفة الفضيلة لم تنعدم من هذا
العالم . وان لي أتباعاً كثيرين في الاسكندرية وروما والقسطنطينية ،

(١) هذه الجملة من أقوال الفيلسوف الرواقى (Epictète) ايكتيتوس
(اي العبد الاسير) . الذى ولد في الجيل الاول للميلاد بمدينة هيرابوليس
بمصر . وأتى روما في عهد نيرون تابعاً لابافروديت Epaphrodite أحد رجال
الطاغية الرومانى . فعُرف بهذا الاسم . وخلاصة آرائه احتقار المادة ونصرة
الفضيلة وحب البشرية وتمجيد الله . وان العلم بغير العمل لا قيمة له . وانه لا بد
مما ليس منه بد . وله في ذلك كلمة مشهورة «احتمل وامتنع» وما يروى عنه
ان سيده القاسى لوى يوماً ساقه في أداة تعذيب ، فقال له ايكتيتوس بهدوء :
« ستكسرهما ! » فلما صدق حدسه وكسرت رجله ، سرَّ بأن ختم جلته بقوله :
« ألم أقل لك ذلك ؟ » - (المترجم)

سواء من العبيد الأرقاء أو أعضاء الأسرة القيصرية ، يعرفون الآن كيف يحكمون أنفسهم ويعيشون أحراراً . وهم بعدم اكتراثهم لشيء سعداء كل السعادة . كثيرون يحيا فيهم « ايكتيتوس » و « ماركوس اوريلوس » ^(١) . لكن إذا صحَّ أن الفضيلة قد انطقت جذوتها من الأرض إلى الأبد ، ففي أي شيء تُعني خسارتها هنائي ، ما دام بقاؤها وعدمها لا يتعلقان بي ؟ إن الحق ، يا دوريون ، هم وحدهم الذين تخرج سعادتهم عن طوقهم ، وتقتل من ايديهم . انني لا أشتحي مالا تشاؤه الآلهة ، وأشتحي كل مايشاؤون . بهذا أصبحت مثلهم أشاركهم في مسرتهم المحققة . فإذا ماتت الفضيلة رضيت بموتها ، وملائي هذا الرضا سروراً ، كالمجهود الأعلى لعقلي أو شجاعتي . ولسوف تشبه حكمتي في جميع الامور بالحكمة الالهية ، فتأتي الصورة أثن جداً من الاصل ، لأنها ستكلف شيئاً كثيراً من العناية ، وكثيراً جداً من المجهود .

نيلاس

لعلي فاهم ما ترمي اليه . انك تضع نفسك في مستوى العناية

(١) Marc-Aurèle عاقل الدولة الرومانية (١٦١ — ١٨٠ ق.م) وخير امبراطرتها . ورب من ارباب السيف والقلم . عُرف بحكمته الرواقية الخالصة واعتداله المشهور وادبه الموفور . ضمن كتابه الخالد « أفكار » زبدة آرائه السامية التي تعد القواعد الادييه لفلسفة الرواقيين — (المترجم)

الالهية والقدرة العلوية . لكن إذا كانت الفضيلة تنحصر في المجهود وحده يا يوكريت ، وفي ذلك الاجهاد الذي به يزعم تلاميذ « زينون » ^(١) انهم يعملون ذواتهم أشباهاً للآلهة ، فالضفدعة التي تتنفخ لتصير ضخمة كالعجل تؤدي اكبر عمل من أعمال الرواقيين

بوكريت

أراك تمزح يا نسياس ، وقد برعت كهادتك في تهكمك . ولكن إذا كان العجل الذي ذكرته إلهاً حقيقياً كأليس ، أو كالثور الذي تحت الأرض - الذي أرى هنا كاهنه الاكبر ؛ واذا كانت الضفدع تُنْفَخ وتُوْنَى الحكمة فتنتجح في مضارعة ، ألا تكون في الحقيقة أفضل من العجل ؛ وهل يسمع الآ الاعجاب بحيوان صغير كهذا أوتي مثل هذا الفضل العظيم ؟



(١) Zénon هو الفيلسوف اليوناني المشهور ولد في سيتيوم بجزيرة قبرص وأسس المذهب الرواقى Stoïcisme الذي يرى في العقل الالهى المنظم الاعظم لجميع الكائنات . وان سعادة الانسان في العمل واجهاد النفس . وقد أسس مدرسته في أثينا برواق باسيل . فأطلق عليه وعلى تلاميذه : « الرواقيون » وكان على مذهب أبى العلاء ، طيب الله ثراه . يرى انها : (تب كلها الحياة) لذلك لما أحس بالشيخوخة تدب في جسده ، وضع حداً لحياته بالانتحار — ٢٩٣ ق . م — (المترجم)

وضع أربعة من الخدم فوق المائدة هَلَوْفًا^(١) مغطى بهلبه ،
وخنايص مصنوعة من الفطير أحاطت بالحيوان كأنها تريد أن
ترضعه ، اشارة إلى أنه انثى .

فاتجه زينوتيميس نحو الراهب قائلاً :

— قد جاءنا أيها الاصدقاء ضيف من تلقاء نفسه ! وأعني به
بافنوس العظيم الذي يحيا في التنسك هذه الحياة الغريبة ، فهو ضيفنا
غير المنتظر .

كونا

قلْ خيراً من هذا يا زينوتيميس ، قل إن له صدر المكان لأنه
قد أتى بغير دعوة

زينوتيميس

يلزمنا أيضاً يا عزيزي لوسيوس ، مبالغة في اكرامه ، أن نتوخى
ذكر ما يطيب له سماعه . وعلى ذلك ، فيقيناً ان رجلاً مثله أقل
تأثراً بتوابل اللحوم منه بعطر الافكار الجميلة . ولا ريب في اننا
ندخل على نفسه السرور بتوجيه الحديث إلى عقيدة المسيح المصلوب

(١) الهلوف : الخبز البري

التي يعتنقها . أما أنا فأقدم نفسي للحوار عن طيب خاطر . لأن هذه العقيدة تلذّي لي كثيراً لاختلاف رموزها وتباين كنياتها . وإذا كان ما تقرؤه عنها يدل حقيقة على روح هذا الدين ، فهو إذاً دين ملؤه الحقائق . وأرى الكتب المسيحية حافلة بآيات الوحي الإلهي . على أي لا يمكنني يا بافانوس أن أسوي بينها وبين كتب اليهود التي لم تلهم ، كما يدعى ، من روح الله بل من روح خبيث . فان «يهوه» (١)

الذي أملاها هو أحد تلك الأرواح التي تعمّر الطبقات الجوية السفلى ، وتبعث بالجانب الأكبر من الامراض التي تفتك بنا . غير أنه يبرّزها جميعاً في الجهالة والقسوة ، على التقيض من ذلك الثعبان ذي الأجنحة الذهبية الذي لفّ طياته اللازوردية على شجرة المعرفة ، فقد كان مخلوقاً من النور والحب ؛ فلم يكن ثمة بدّ من المشادة بين هاتين القوتين — هذه القوة المنيرة وتلك القوة المظلمة . وقد وقع ذلك النزاع بعد خلق الدنيا . إذ دبرّ «يهوه» — لسوء حظ آدم وحواء ، وهما أول رجل وامرأة كانا يعيشان عارين سعيدين في جنة عدن — وسيلة للسيطرة عليهما وعلى جميع ذريتهما . ولما لم يكن في حوزته فرجار أو قيثارة ، وكان كذلك جاهلاً بالعلم الذي له السلطان ، وبالفن الذي يستميل القلوب ، فقد روع هذين الساذجين المسكينين

(١) — Iaveh — (Jehovah الكائن الاسمى)

بأشباح مخيفة ، وتهديدات تخيلية ، ورجود وبروق وصواعق . ولما أحس آدم وحواء بظله فوق رأسيهما ، التصق كل منهما بالآخر وضاعف الخوفُ حبهما . فأشفق الثعبان الحكيم عليهما ، ورأى أن يثقفهما بالعلم حتى لا تضللهما الخرافات والاكاذيب . وتطلب هذا المسعى فطنةً نادرةً وحرماً فائقاً ، بيد أن الشيطان الكريم الصادق النية تلافى الامر بحكمته . فاقترب منهما بغير علم يهوه - الذي ادعى انه يستطيع رؤية كل شيء وهو في الحقيقة قصير النظر - وجذب بصرهما بأبهة درعه وبريق أجنحته . ثم روض عقليهما بأن رسم امامهما ، بجسمه ، أشكالاً متقنة ، كالدائرة والأهليلج والخزون ، التي عرف الاغريق خواصها العجيبة منذ ذلك الحين . فعنى آدم بالتأمل في هذه الاشكال الهندسية اكثر من حواء . لكن لما بدأ الثعبان يتكلم ويعلمهما الحقائق السامية العليا ، تلك التي لا يمكن التذليل عليها ، وجد أن آدم المخلوق من طين ذا طبيعة اكثف جداً من أن يجعله يدرك تلك العلوم الدقيقة ، وأن حواء ، بالضد ، استطاعت فهمها بسهولة لكونها ارق قلباً وأدق احساساً . لذلك حدثها وهي وحدها ، في غياب زوجها ، ليهدب أول

دور بونو

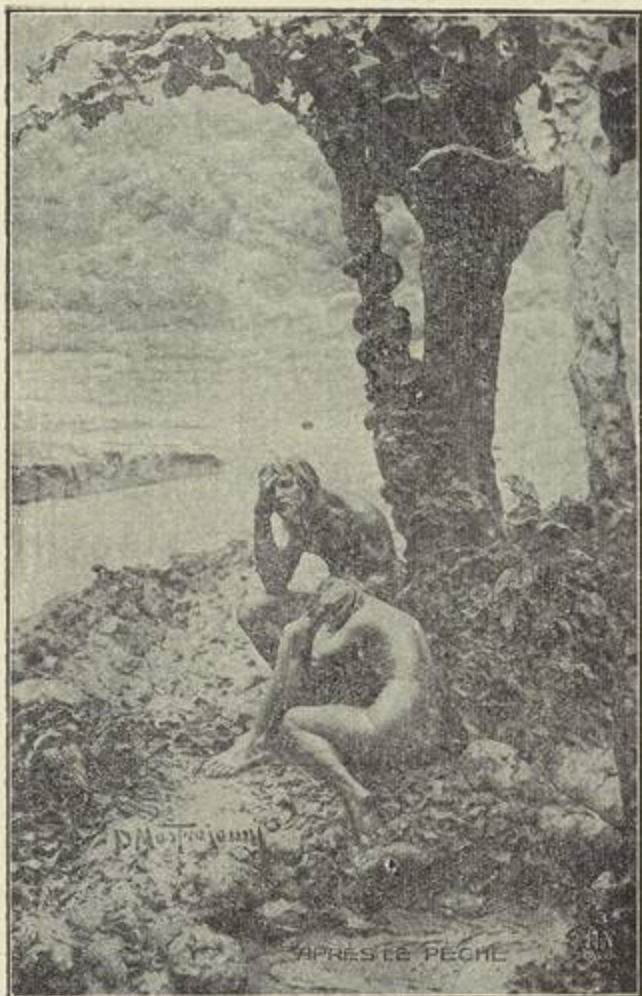
اغترف مقاطعتي لك يا زينوتميس . لقد تبينت أول الامر من

الخرافة التي قصصتها علينا إحدى وقائع الصراع بين « بالاس
أتينا »^(١) والجبابرة . ولعمري ان يهوه يشبهه جدّ الشبه « تيفون »
كما أن بالاس يمثلّه الاثينيون شعباً بمجانبتها . غير أن ما قلته الآن
جعلني أشك في ذكاء الثعبان واخلاصه . ياليت شعري اذا صحّ
أنه أوتي الحكمة ، أفتراه يودعها رأس أنثى صغير الحجم لا يقدر أن
يسمعا ؟ ! أوثر أن أعتقد أنه كان مثل يهوه جاهلاً كذأباً ، واختار
حواء لأنها أسهل انخداعاً ، ولأنه توسم في آدم ذكاءً وتبصرة .

زينو بميس

اعلم يا دوريون أن اسمي الحقائق وأفضلها لا يدرك بالبصيرة
والذكاء ، بل بالحس والشعور . ولهذا ترعى النساء بوجه عام
أقل ادراكاً من الرجال ، ولكنهن أدق منهم إحساساً ، فيصان
بسهولة الى قمة المعرفة بالمسائل الالهية ، ولهن موهبة الرجم
بالغيب . واني لاستصوب تمثيل أبولو العازف بقيثارته ، ويسوع
الناصري مرتدين كالنساء ثياباً فضفاضة . ومهما يكن رأيك
يا دوريون فالثعبان الذي هدى حواء كان حكيماً لتفضيله ، في عمله
النوراني ، حواء التي هي أنصع بياضاً من الحليب والكواكب على
آدم الثقيل الظل ! فقد صفت اليه طوعاً ، وانقادت الى شجرة

(١) Pallas Athéné هي الهة الحكمة عند الاغريق (المترجم)



(آدم وحواء بعد الخطيئة)



(الفردوس المفقود)

المعرفة التي تمتد فروعها الى السماء ، والتي بالها الروح القدس كالندي . كانت هذه الشجرة يانعة بأوراق تنطق بالسنة الشعوب المقبلة ، وتؤلف أصواتها المجتمعة موسيقى كاملة . وكانت أثمارها الوافرة تغذي المهتمدين وتعلمهم الأسماء كلها ، من معادن وأحجار ونبات ، وقوانين الطبيعة والخلق ، ولكنها كانت لهيباً لا يجرؤ الذين يخشون الألم والموت على إدنائها من شفاههم . أما حواء فبعد ان صغت بانتباه الى دروس الثعبان ، تحجرت ورفعت نفسها عن مستوى المخاوف الفارغة ، واشتهت أن تذوق الثمار التي تؤدي الى معرفة الله . لكنها كانت تحب آدم فلم تشأ أن يكون دونها ، فأخذت بيده وقادته الى الشجرة العجيبة ، وقطفت تفاحة ملتبسة واكلت منها ثم قدمتها الى رفيقها . ولكن ساء حظهما إذ باغتهما يهوه ، وكان يتنزه معتمساً في الجنة ، فلما رأى أنهما قد علما ما كان مجهولاً لديهما ، تملكه غضب فظيع . وكانت غيرته شرّاً ما يُتقى . فاستجمع قواه وأحدث في الجوّ السفلي ضجة جزع من هولها ذانك الكائنان الضعيفان ، فأفلتت الثمرة من يد الرجل ، أما المرأة فقد تعلقت بعنقه وقالت : « أريد أن أقاسمك الجهل والألم ! » فلما انتصر يهوه أبقى آدم وحواء وذريتهما في ذهول وفرح . وفازت صناعته التي لم تكن تتعدى خلق الشهب الغليظة وفاقت علم الثعبان الذي كان موسيقاراً ومهندساً . فعلم الناس الظلم والجهل والتسوية ،

ومكّن للشر في الأرض . طارد قبايل ونسله لأنهم كانوا أهل جدّ وعمل . وآخذ الفلسطينيين بشعرهم الأورفيّ ومواعظهم العيسوية ، فأفناهم على بكرة أبيهم . ثم صار للعلم والجمال عدوًّا لا تبرد غلته . وقد ظلّ النوع الانساني قرونًا متعاقبة غارقًا في بحار من الدموع والدماء تكفيراً لهزيمة الثعبان المجنّح . وكان بين الاغريق ، لحسن الحظ ، دهاةٌ مثل فيثاغورس وأفلاطون ، فأدركوا بقوة عبقريتهم الأشكال والأفكار التي حاول عدو يهوده عبثًا تعليمها للمرأة الأولى . كانت روح الثعبان فيهم ولذلك كرّم الأثينيون صورته كما قال دوريون . وأخيراً ، ظهرت ثلاثة أرواح علوية بأشكال بشرية : يسوع الجليلي ، وبازيليد ، وقالنتان . وقد أنعم عليهم باجتناء أفضل الثمار من شجرة المعرفة التي غارت جذورها في بطن الأرض وارتفعت قمتها الى عنان السماء . وهذا ما شئت أن أقوله انتقاماً للمسيحيين الذين كثيراً ما تنسب اليهم أغلاط اليهود

دوريون

إذا كنت وعيتُ ما قلته يا زينوتميس من أن الرجال الثلاثة الحريّين بالاعجاب — يسوع وبازيليد وقالنتان — قد اكتشفوا اسراراً كانت خافية على فيثاغورس وأفلاطون وجميع فلاسفة

اليونان ، حتى عن أبيقور الالهى ^(١) الذي حرّر الانسان من سائر
المخاوف الباطلة ، فيكون لك الفضل ان أنت أنبأتنا بأية وسيلة
أحرز هؤلاء الثلاثة الزائنون المعارف التي غابت عن حكمة الحكماء

زينو تيميس

وهل أنا بحاجة الى أن اكرر على مسمعك يا دوريون ان العلم
والتأمل ليسا سوى الدرجة الأولى من المعرفة ، وان الانجذاب
وحده هو الذى يوصل الانسان الى الحقائق الازلية ؟

هيرمودور

صحيح يا زينو تيميس ان الروح تغتدي بهذا الانجذاب كما يغتدي
الجندب بالندى . وزد على ذلك ان العقل وحده هو الصالح
لتجلي الجذب . لأن الانسان يتألف من طبيعة ثلاثية : جسد مادي

(١) Epicure فيلسوف اليونان العظيم (٣٤٢ — ٢٧١ ق م) .
يحتمل أنه ولد في ساموس . يرى في اللذة الخير كله . وأنه يجب ان تتوجه كل
مجهوداتنا في سبيل الحصول عليها . لكنه يفرقها عن الحواس . ويرى في لذة
الجسد العذاب والالم . ويقول بلذة العقل وثيقفه وممارسة الفضيلة . ويرى في
ذلك السعادة وهي غاية الحياة . اكن مذهبه تحدر وتدهور من بعد ذلك الى
عكس أغراضه العالية النبيلة ككل مذهب من المذاهب السامية التي يقضي عليها
ضعف الانسان — (المترجم)

وروح أرق منه وان كانت مادية مثله ، ثم عقل غير قابل للغناء .
وعندما يصعد العقل من الجسد ، — الذي يصبح بعده كقصر هجره
صاحبه بفتة فصار نهب الصمت والوحشة — ، ويحلّق في جنات
الروح ، ويندمج في ذات الله — يتذوق العقل لذات موت عتيده ،
أوبالحري حياة آتية ، فما الموت إلا الحياة ، وفي هذه الحالة — حالة
الاتصال بالذات العلية والاشترك في الصفء الإلهي — يفوز العقل
بمسرات لانهاية لها وبمعرفة مطلقة ، فيدخل الوحدة التي هي الكل
فيكون كاملاً .

نـبـاس

هذا حري بالاعجاب . لكن الحق أقول يا هيرمودور اني
لا أرى فرقاً كبيراً بين « الكل » و « العدم » . حتى الكلمات
تبدو عاجزة عن التمييز بينهما . فغير المتناهي يلوح ، الى درجة رائعة ،
انه عبارة عن لا شيء — كلاهما بعيد عن التصور . ومن رأيي أن
الكمال يكلف كثيراً جداً ، قد يكلف الانسان حياته كلها ، وعلى
المرء لكيما يحظى به أن يتفانى . وهي نكبة لم ينج منها أحد منذ آلى
الفلاسفة على أنفسهم تأليه الكمال وتكميل الآلهة . وبعد ، فاذا
كنا لا نعرف غير السكأن فنحن جاهلون كذلك ما يكون . اننا
لا ندرى شيئاً . . تقولون ان تفاهم الناس فيما بينهم محال ، ويبدو

لي ، على رغم ضوضاء التنازع بيننا ، أنه يستحيل عليهم ألا يتفقوا
في نهاية الأمر ، وقد دفنوا جنباً الى جنب ، مغمورين بأكوام
من المتناقضات التي هالوها هم أنفسهم فوق أنفسهم مثل بليون فوق
أوسا . (١)

كونا

أحب الفلسفة جيداً جداً ، وأمارسها في أوقات فراغي ، لكنني
لا أفهمها جيداً إلا في كتب شيشرون .
يا أيها العبيد صبوا السلافة المعسولة !

بايكيرات

ان هذا شيء عجاب ! قبلما أذوق الطعام ذكرت أيام كان
الشعراء الجديون يجلسون على موائد الجبارة الطيبين فسأل لعابي .
لكنني وقد ذقت الرحيق المحتوم الذي سكبته لنا بسخاء يا لوسيوس
الكريم ، لم أحلم بسوى الجهاد المدني ، والعراك الحماسي . واني
لأستحي أن أعيش في زمن كهذا لا مجد فيه . انني أستوحى الحرية ،

(١) في اساطير الاولين ان بليون Pélion وأسا Ossa جبلان متجاوران
في تساليا ، فلما نار الجبارة على الاله جويتر . وأرادوا ان يرقوا أسباب السماء
كوتوا بليون فوق أوسا فضربت مثلاً للمشكلات اذا زادت لغير نتيجة ،
والصعوبات اذا قامت ضغناً على ابائنا (المترجم)

وأسفك دمي - في الخيال - مع آخر الرومانين في ساحات فابي !

كوننا

مات أجدادى عند سقوط الجمهورية مع بروتس في سبيل الحرية . ولكن عندي أن ما دعاه الشعب الروماني « حرية » لم يكن في الحقيقة سوى حق حكم نفسه بنفسه . لا أنكر أن الحرية قد تكون خير النعم لأمة وأجدى ما تناله من العطايا . لكن كلما طال عمري زدت اقتناعاً بأن الحكومة القوية ذات الحول والطول هي وحدها التي تستطيع أن تضمنها لرعاياها . لقد قضيت أربعين عاماً شاغلاً أعظم مناصب الدولة ، ودلتي تجاربي الطويلة على أن وهن القوة الحاكمة ينتج ظلم الرعية . فكل الذين يسعون ، مثل السواد الأعظم من الفصحاء ، في اضعاف كيان الحكومة ، يقترفون جرماً شنيعاً . قد تتخذ ارادة الحاكم المطلق حيناً مظهرأ مشئوماً ، ولكن السعي الى رضا الشعب يجعل الحزم والعزم في الحكم مستحيلاً . وقبل أن يُغمر العالم بجمالة السلم الروماني ، لم تسعد الشعوب الاً بحكم مستبد مستنير

هبرمودور

أما أنا يا لوسيروس فأظن أنه لا يوجد مثال صالح للحكم ، ولن يوجد . إذ أن اليونانيين الألباء الذين وقفوا الى إدراك أشكال

صالحة لمختلف الشئون ، حاولوا عبثاً إيجاد الحكومة التي ينشدونها من هذا القليل . لذلك كان كل أمل من هذه الوجبة خائباً سلفاً . ولقد استدللنا من علامات خاصة على أن الدنيا أشرفت على الفرق في الجمالة والوحشية ، وقدّر لنا يا لوسيو ان نشهد احتضار المدينة المروع ، ولم يبق لنا من كل الترضيات التي فازت بها الزكاة والعلم والفضيلة إلا الفرح القاسي - إلا ارتقاب الموت مستسلمين

كوتنا

حقاً ان جوع البشر وعتو المتوحشين آفتان مخيفتان . غير أنه بأسطول عظيم ، وجيش عرمرم ، ومال وفير . . .

هيرمودور

ما فائدة اغترارنا بأنفسنا ؟ ان الأمبراطورية المضمحلة سوف تُقدم لقمة سائغة للهمج . والمدن التي شاد صروحها الخدق الهيليني والأناة اللاتينية لن تلبث أن تصير نهباً للمتوحشين السكارى . ولن يبقى على وجه الأرض فن ولا حكمة . ستقلب صور الأرباب في المعابد وتنعكس في القلوب . وسيكون في هذا ظلام العقل وفناء العالم . وكيف نصدق ان « السرماتيين » سيقومون يوماً ما بأعمال نابهة ، أو أن « الجرمان » سيزاولون الموسيقى والفلسفة ، أو أن

« الكاظم » و « المركومان » سيعبدون الأرباب الخالدين؟ كلا!
لقد مال ميزان كل شيء وتهدم . وهذه مصر العريقة في القدم التي
كانت مهد العالم ستصير لحده ، وسيتلقى سيرابيس - إله الموت -
أسنى تعبدات الأحياء . وسأكون أنا آخر كاهن لآخر إله ...



في تلك اللحظة رفع السجوف الموشاة مخلوق غريب ، فرأى
الضيوف أمامهم رجلاً ضئيل الجسم ، أحذب الظاهر ، له جمجمة
مفلطحة صلعاء . وكان يرتدي جلباباً أزرق على الزي الأسيوي ،
ويلبس كالهيمج سراويل حمراء مرصعة بنجوم ذهبية . فلما رآه
بافنوس عرف انه ماركوس الأريوسى ، فرفع يديه فوق رأسه
خشية اقتضاض صاعقة من السماء ، وامتنع لونه رعباً . ففي وليمة
الشياطين هذه لم تستطع تجديفات الوثنيين ولا ترهات الفلاسفة
الخاطئين أن تفت في عضده أوتوهن من جلده ، ولكن أصابه بذلك
مجرد حضور هذا الكافر . فحدثه نفسه بالفرار .. على أنه عندما التقى
نظاره ونظر تايبس ، اطمان وسكن روعه ، إذ قرأ روح المجتبات
وأدرك أنها - وهي توشك أن تصبح قديسة - قد أسبلت عليه
ستر حمايتها ، فأمسك بطرف ثوبها الطويل الفضفاض ، وتناجى
المسيح مخاض البشر

رحب المدعوون بوصول من يدعى « أفلاطون المسيحيين » ،
وخاطبه هيرمودور أولاً بقوله :

— أي ماركوس النابه الذكر ! اننا نبتهج جميعاً برويتك بيننا ،
وقد وافيتنا في الوقت المناسب . نحن لا نعلم عن تعاليم المسيحيين
إلا ما يرضون باذاعته وحاش لفيلاسوف مثلك أن يرتأي ما يرتئيه
الدهماء . لذلك ترانا متلهفين للوقوف على رأيك في الأسرار الكبرى
للعقيدة التي تتحلها . وقد كان عزيزنا زينوتميس ، وهو كما تعلم
شغف بتفسير الرموز ، يسأل الآن النابه بافوس عن كتب اليهود ،
غير أن بافوس لم يحجر جواباً ، ولا غرو فقد نذر ضيفنا الصمت ،
وختم الله على فمه في الصحراء . أما أنت يا ماركوس ، يا من رن
صوته في الجامع الاكبروسية ، واعتلى المنابر في مجلس قسطنطين
الإلهي ، فستطيع — اذا شئت — أن تتقع غلتنا وتبلغنا أمينتنا بأن
تطلعنا على الحقائق الفلسفية المحبوة في أساطير المسيحيين . أوليس
أولى هذه الحقائق هي وجود إله واحد لا شريك له ، به أومن
إيماناً ثابتاً ؟

ماركوس

أجل أيها الاخوان الموقرون ، إني أومن بواحد أحد ، لم يولد ،
فرد صمد ، مبدع لجميع الكائنات

نبياس

نحن نعلم يا ماركوس أن ربك خلق الدنيا . وكان لهذا الخلق ،
بالتأكيد ، شأن يذكرك في وجوده . وكان موجوداً منذ الأزل قبل
أن تصح عزيمته على خلقها . لكن لا بد لي من التسليم — إحقاقاً
للحق — بأن موقفه كان حرجاً جداً . فقد كان عليه أن يظل بلا
عمل ليظل كاملاً . وكان عليه أن يعمل إذا شاء أن يبرهن لنفسه
على وجوده . أراك تؤكد لي أن رأيه كان قد استقرّ على أن يعمل ،
واني لواثق بما تقول ، وإن كان هذا يعدُّ من قبل إله كامل إغضاءً
لا يغتفر . والآن خبرنا يا ماركوس كيف شرع في خلق الدنيا ؟

ماركوس

إن الذين أوتوا الحكمة وجوهر المعرفة مثل هيرمودور
وزينوتيس ، يعلمون وإن لم يكونوا مسيحيين ، إن الله لم يخلق العالم
مباشرة وبغير واسطة . فقد اتخذ له ولداً واحداً هو الذي بأمره
صُنعت جميع الكائنات

هيرمودور

صدقت يا ماركوس ؛ وهذا الولد قد عُبد بأسماء « هرمس »
و « ميتراً » و « ادونيس » و « أبولو » و « يسوع »

ماركوس

لا اكون مسيحياً إذا أطلقت عليه اسماً غير « يسوع »
و « المسيح » و « المخلص » . انه حقاً ابن الله ، لكنه ليس بأزلي ،
إذ أن له بداية . أما القول بأنه وُجد قبلما يولد فذلك سخف يجب
أن يُترك لبغال « نيسيه » ، وللعلماء الحرون الذي حكم كنيسة
الاسكندرية زمناً طويلاً باسم اثناسيوس اللعين

وكان بافنوس قد شجب لسماعه هذا القذف ، وأغرقه الألم
في لجة من عرقه ، فرسم علامة الصليب ولازم صمته السامي . ومضى
ماركوس في حديثه :

— من المعلوم ان مجمع « نيسيه » الاكثيرويي الفر ، قد تمهجم
على جلاله عزّ شأنه ، بارغامه على تقسيم صفاته — التي لا تتجزأ —
بينه وبين الشفيح الذي بواسطته صُنعت كافة الموجودات ...

يا نسياس كفّ عن تهملك بالله المسيحيين الحقّ ! واعلم انه
جلّ شأنه كزنابق الحقل ، لا يعمل ولا يفزل . لم يكن هو الصانع
بل كان ولده الوحيد يسوع الذي خلق الدنيا ؛ وبعد ذلك أتى
سبحانه ليصلح عمله ، لأن الخليقة لم تكن كاملة ، وكان الشرحتماً
قد امتزج فيها بالخير

نَبَاس

ما الخير؟ وما الشر؟

• • •

مرت فترة سكوت، عرض فيها هيرمودور، وذراعاه مبسوطتان فوق غطاء المائدة، اتاناً صغيرة من معدن قورني تحمل سائين، في أحدهما زيتون أبيض وفي الآخر زيتون أسود، وقال:

— انظروا الى هذا الزيتون، فاننا نرتاح الى تخالف لونه، ويروقنا أن أحدهما أبيض والآخر أسود. لكن لو وُهب له الفكر والنطق والمعرفة، لقال الأبيض: «خير للزيتون أن يكون أبيض، وبئس الزيتون الأسود». وكان قوم الزيتون الاسود ينفرون من قوم الزيتون الأبيض. أما نحن فحكما أعدل من حكمهم، لأننا فوقهم، بقدر سمو الآلهة فوقنا. فالإنسان يرى جانباً واحداً من كل شيء، فيبصر الشر شراً، والله يحيط بكل شيء. علماً، فيرى في الشر خيراً. ان القبح بلا شك قبيح، لا جميل. لكن لو كان كل شيء جميلاً، لما ظهر كل شيء جميلاً، (وبضدّها تتيين الأشياء...)

فلا بأس إذاً من أن يكون هناك شر، كالذي أثبتته افلاطون
الثاني بما يفوق سميّة الأول

يوكرين

لنقل قولاً الى الفضيلة أقرب . الشر شر لا للعالم الذي لا يخل
نظامه المنزه عن الاضطراب ، وانما هو شر بالنسبة للشرير الذي
يقترفه ، وكان بوسعه أن يجتنبه .

كونا

وحق چو پیتیر ! ان هذا عين الصواب !

يوكرين

العالم مأساة شاعر مجيد . والله الذي ألفها قد جعل لكل منا
دوراً يمثله فيها . فاذا شاء أن تكون سائلاً أو أميراً أو أعرج -
فابذل أقصى جهدك في اجادة تمثيل دورك !

نبايس

أجل ! .. ويجميل بأعرج المأساة أن يعرج مثل « هيفستوس » ؛
وبالمجنون أن يستسلم لهياج « أچاكس » ؛ وبالزانية بحرم أنف

تجدد جرائم فيدروس ؛ وبالغادر أن يخون ؛ وبالخادع أن يكذب ؛
وبالقائل أن يذبح . وعندما يتم تمثيل الرواية فكل الممثلين —
الملوك ، والعدول ، والطغاة السفاكون ، والعداري الطاهرات ،
والزوجات الفاسقات ، والقتلة الاندال ، وأهل البلاد ذوو الهمم
السماء — هؤلاء كلهم ينالون أنصبة متساوية من الثناء !

بوكريت

انك تشوه فكري يا نسياس ، وتحول الغادة الحسنة الى غول
بشع ! انني أرتي لجهلك بطبيعة الآلهة والعدل السماوي والشرائع
الأزلية .

زنبو نميس

أما أنا يا صاحب فأومن بحقيقة الخير والشر ، اسكنني أيقنت
انه ما من عمل بشري ، حتى قبلة يهوذا ، إلا وفيه جرثومة الفداء .
الشر عون على نجاة الناس نجاة نهائية ، وفي هذا يصدر عن الخير
وله نصيبه في الجزاء المتعلق بالخير . وهو ما بينه المسيحيون تبيناً
شائعاً في اسطورة الرجل ذي الشعر الاحمر الذي لكي يخدع مولاه
منحه قبلة السلام ، واكد فعله خلاص الناس . كذلك ما من
شيء ، في رأيي ، أشد تناهياً في الشطط من الضغينة التي بها طارد

بعض أتباع « بولس الخيام » اتعس حواريي المسيح ، وفاتهم أن
قبلة « الاسخريوطي » التي تنبأ بها المسيح نفسه ، كانت ضرورية ،
بحسب عقيدتهم ، لفداء البشر . وانه لو لم يقبل يهوذا السفط ذا
الثلاثين من الفضة ، لكانت الحكمة الالهية فرية ، فتُضلل الذات
العلية ، وتنعكس اغراضها ، وتسلم الدنيا للشر والجهل والفناء ...

ماركوس

سبق في علم الحكمة الإلهية أن يهوذا كان مخيراً في الآيسلم
سيده ، ومع ذلك سلمه ، وهكذا استخدمت جريمة الاسخريوطي
كحجر في بناء صرح الفداء العجيب .

زيتونيميس

كأمتك الآن يا ماركوس كمن يصدق أن نجاة الناس تمت
على يد المسيح المصلوب ، لعلمي أن هذا هو اعتقاد المسيحيين .
وقد أدركت ما يجول بخواطرهم ليكون في تمام وسعي ان أكشف
عن خطأ اولئك الذين يعتقدون هلاك يهوذا الأبدي . وأرى أن
يسوع هو في الحقيقة البشير بيازيليد وقالنتان . أما من جهة سرّ
الفداء ، فسأخبركم أيها الاصدقاء الاعزاء ، مع قلة شوقكم الى
السماع ، كيف تم - في الواقع - على الأرض .

فأشار المدعوون بالقبول .

وعندئذ دخل القاعة اثنتا عشرة فتاة ، سريعات الخطى على الحان ناي خفي ، يحملن على رؤوسهن سلال الرمان والتفاح ، مثل العذارى الأثينيات بسلال الحصيد المقدسة . فوضعن السلال فوق المائدة ، وانقطعت أنغام الناي . وقال زينونيميس :

— لما خلقت « أيونيا » أي « فكرة الله » العالم ، عهدت بحكومة الارض الى الملائكة . لكنهم لم يحتفظوا بالرزانة اللائقة بالحكام ، فانهم لما رأوا بنات الناس فانتات ، باغتوهن في المساء عند عيون المياه ، واجتمعوا بهن ، فتولد جنس شرس ملأ الارض بغيًا وعتوًا ، حتى ارتوت أتربة الطرقات من دماء الأبرياء . ولما رأت « أيونيا » هذا ، نالها حزن لا يوصف . فالتجهدت الى الدنيا ، وتنهدت قائلة :

« — هذا ما قدمت يداي ! ان أطفالي المساكين غارقون في حياة مريرة ، والذنب ذنبي . انهم يتوجعون بجريميتي وأريد أن أكفر عنها . الله نفسه ، الذي لا يفكر الآبواسطتي ، لا يستطيع أن يرد اليهم طهارتهم الاولى . سبق السيف العذل ، وسوف تبقى الخليقة ناقصة حتى الأبد . وأقل ما أستطيعه ألا أتخلى عن مخلوقاتي . فاذا لم أستطع اسعادهم مثلي ، فاني أقدر على مقامتهم شقاءهم .

وبما انني أخطأت إذ وهبت لهم أجساداً تذلم ، فلا تأخذن أنا
الأخرى جسداً كأجسادهم ، وأذهب لأعيش بينهم »

ثم هبطت الى الارض واتصلت برحم امرأة أرجوسية حيث
تكونت ثم ولدت صغيرة نحيلة ، وسميت « هيلانة » . وسخرت
في اعمال الحياة ، بيد انها ما عتمت أن ترعرعت في حسن وجمال
وصارت أعزّ من يُستهى من النساء . وكانت قد اعتزمت أن تمحن
جثمانها الغالي بأدنس الخطايا . فبذلت نفسها للزناة الشرسين كفأرة
عن كل فسق وشراسة ومظلمة . وسببت بجمالها دمار الشعوب حتى
يعفو الله عن جرائم الكون . ولم تكن « ايونيا » قط ، أو بالحري
الفكرة السماوية ، مستحقة العبادة كما كانت في تلك الايام التي
أباحت ، كامرأة ، عرضها للأبطال والبيعة .

تخيل الشعراء ألوهيتها حين وصفوها بالهدوء والسموّ والفتك ،
وعندما وجهوا الدعاء لها ، قائلين انها : « روح صافية صفاء
البحار »

كذا دفعت الشفقة « ايونيا » الى الشر والعذاب . ماتت
ولا يزال الجنس الأرجوسي ينتجع قبرها . كان عليها أن تعرف
الموت بعد الزنا ، وأن تذوق الثمار المرّة التي بذرت بذورها . لكن
بتخلصها من جسد هيلانة المنحلّ تجسّمت في شكل امرأة أخرى

واقادت ثانية الى كل فاحشة . وهكذا بانتقالها من جسد الى جسد،
واجتيازها مراحل الشرّ بيننا ، تحمل أوزار الدنيا . ولن تذهب
تضحيتها أدراج الرياح ، فلاتصالها بنا برابطة اللحم والدم ، ومحبتها
لنا ومشاركتنا في ذرف الدموع — ستحصل على نجاتنا ونجاتها معاً ،
وسترفعنا ، معلقين بصدرها الأبيض الناصع ، الى سلام الفردوس
المردود .

هيرمودور

هذه الأسطورة ليست مجهولة مني . فاني اذكر ما قيل عن
هيلانة الشائقة انها عاشت في احدى تقمصاتها مع « سيمون »
الساحر في أيام الامبراطور « تيروس » . على انني أظن ان
سقوطها كان على رغبتها ، وان الملائكة طوّحوا بها معهم

زينويميس

كذا يظن الذين لم يقفوا على حقائق الامور يا هيرمودور ،
فعندهم ان « ايونيا » الحزينة سقطت مضطرة غير مختارة . لكن
اذا كان الأمر كما يزعمون فان « ايونيا » لن تكون السرية
المسكفرة ، والنذر المغمور بكل مسبة ، والخبز المتقوع في خمر عارنا،

والقربان المحبب ، والضحية المثابة ، والمحرقه التي يتصاعد دخانها الى الله .. اذا لم تكن خطاياها برضاها فلا خير فيها ولا فضل لها

البكرات

لكن ، هل يعلم أحد يا زينونميس ، بأي أرض ، وبأي اسم ، وفي أي شكل فتان ، تعيش اليوم هذه « الهيلانة » التي تتجدد ولادتها على الدوام ؟

زينونميس

لكيما يستطيع المرء أن يكشف عن هذا السر ، يجب أن يكون قد أوتي الحكمة . والحكمة ، يا كليكرات ، لم توت الشعراء الذين يعيشون في عالم كثيف من الاشكال والاشباح ، والذين يتلهون بالاصوات والصور الوهمية كالاطفال

البكرات

حذار أن تسمي الى الالهة يا زينونميس الزنديق ، فالشعراء أعزّة لسيهم ، وقد سنت الشرائع الأولى نظماً ، ومعجزات الأرباب قصائد ، والآذان السماوية تستطيب وقع الأناشيد ؛ ومن ذا الذي يجمل أن الشعراء مطلعون على الغيب فلا تخفي عليهم خافية ؛ واذ

كنت شاعراً وقد توجت باكليل من غار « أبولو » فسأطلعكم على
آخر تجسد لأيونيا . ان هيلانة الأزلية على مقربة منكم . انها تنظر
الينا ونحن ننظر اليها ... انظروا الى تلك المرأة المتكئة على مساند
فراشها ، بالغة حد الجمال ، غارقة في بحر الاحلام ، وقد اغرورقت
عينها بالدموع ، وتحركت شفاتها بالقبل .. انها هي ! .. فتأنة
كما كانت في عهد پريام وأيام آسيا الزاهرة . ان ايونيا اليوم
تُدعى تاييس ! ...

فيلنا

ماذا تقول يا كليكرات ؟ أترى عزيزتنا تاييس قد عرفت
پاريس ومنالاس واهل « مورة » المشهورين بجمال أربطة الساق
الذين حاربوا حيال « اليون » ؟ وهل كان حصان طروادة عالياً
ياتاييس ؟

أريستوبول

من يذكرك الخيل ؟

فصاح شيراس :

— لقد شربت حتى ارتويت !

ثم هوى ساقطاً تحت المائدة ..
فرفع كالليكرات كأسه قائلاً :

- اذا شربنا شرب اليائسين ، متنا موتورين !

ونام كوتاً الشيخ ملقياً رأسه الأصابع على كتفيه العريضتين .
ومرت فترة من الزمن ، ودور يون يبدو كأنه يموج في معطفه الفلسفي ،
ثم اقترب من مَتَكِ تاييس وقال :

- أحبك يا تاييس ، وان كان حب المرأة لا يليق بي !

تاييس

ولماذا لم تحبني منذ هنيهة ؟

دور يون

لأني لم أكن ذقت طعاماً !

تاييس

أما أنا يا صاحبي المسكين ، وان كنت لم أشرب سوى الماء
القراح ، فلا أحبك !

فاكتفى دوريون بما سمعه ، وانسل الى جانب دروسيه التي
أومأت اليه بعينها لتستأثر به دون صاحبها . فاحتل زينوتميس
المكان الخالي وقبل تاييس في ثغرها

تاييس

كنت أحسبك أعف من أن تأتي بمثل هذا ...

زينوتميس

انني كامل ، والكاملون لا يقيدهم قانون !

تاييس

أفلا تخشى أن تتدنس اذا أقيت بنفسك في حضن امرأة ؟

زينوتميس

للجسد أن يستسلم للشهوات ، وتبقى النفس طاهرة غير شاعرة !

تاييس

بعداً لك ! اني أريد أن أحب بالجسد والنفس معاً . كل
هؤلاء الفلاسفة تيوس !

.....



انطقات المصاييح واحداً إثر واحدٍ . ونفذت أشعة الفجر
الشاحبة من خلال السجوف فأضاءت وجوه المدعويين القائمة
وعيونهم المنتفخة . وكان اريستوبول ، الذي سقط بجانب شيراس ،
مطبق اليدين يرسل في حمله سواسه الى الغربان ! .. وقد ضم
زينوتيمس في حضنه فيلناً المنهوكة القوى . وصبّ دوريون فوق
حلقوم دروسيه العاري قطرات خمر تفرقت كاليواقيت وتدرجت
على صدرها الابيض ، الرجراج من فرط الضحك ، وقد تعقب
الفيلسوف تلك القطرات بشفتيه يشربها من فوق لحم الصدر
الغض ..

نهض يوكريت ووضع يده على كتف نسياس واجتذبه الى
أقصى القاعة ، وقال له مبتسماً :

- اذا كان لا يزال في طاقتك يا صديقي أن تفكر ، ففيم
تفكر ؟

- افكر في أن عشق النساء هو حدائق أدونيس !

- ماذا تعني ؟

- أو لم يجر في علمك يا يوكريت ان النساء في كل عام يشيدن
حدائق صغيرة في شرفات منازلهن ، فيغرسن نخيلاً في أصص تكريماً

لعاشق الزُّهرة؟ فهذه النخيل تنضرو وتحضرو قليلاً ثم تذوي وتذبل...
— وأي قيمة لهذا يا نسياس؟ فمن الحماقة أن يتعلق المرء
بظل لا شك زائل.

— اذا كان الجمال ليس سوى ظل، فليس الاشتهاء إلا
وميض برق. ويا ليت شعري أية حماقة في اشتهاء الجمال؟ من
رأني أن ما يزول ينبغي أن يصحب ما لا يدوم، وان الوميض
الحائل يتلغ الظل الزائل..

— انك تبدو لي يا نسياس طفلاً لاعباً بالأكر! ألا فتحرر
تكن رجلاً!

— كيف يمكن انساناً أن يتحرر يا يوكريت وله جسد؟
— سترى حالاً يا ولدي، وتقول: «لقد كان يوكريت حراً»
وكان الشيخ يستند اثناء كلامه الى عمود من رخام سُمّاتي،
وقد أضاء جبينه بأشعة الفجر الاولى. فاقترب هيرمودور وماركوس
ووقفا بجانب نسياس وأخذ الأربعة يتحدثون في الالهيات غير
مكثرين لضحك السكارى وصياحهم. فأعرب يوكريت عن حكمة،
وأبان عن فصاحة، جعلت ماركوس يقول له:
— انك خليق بأن تعرف الله الحق.

فأجاب يوكريت :

— ان الله الحق في قلب كل حكيم .

ثم تكلموا في الموت

قال يوكريت :

— اريد أن يجذني الموت مشغولاً بتقويم اعوجاجي وتأدية واجباتي . فارفع يدي الطاهرتين امامه نحو السماء ، وأقول للآلهة :
« أيتها الآلهة ، لم أدنس قط صورك التي وضعتها في هيكل روحي .
هناك علقت أفكاري كالأكاليل والتيجان . لقد عشت ممثلاً
لذاتك العلية ، وقد عشت حتى اكتفيت »

قال هذا ورفع ذراعيه الى السماء فأضاء وجهه بنور ساطع .

ولبت هنيهة مفكراً ، ثم عاد يقول مسروراً :

— انتزع ذاتك من الحياة يا يوكريت ، كما تسقط الزيتون
الناضجة من الشجرة التي حماها ، فتحمدها ، وتحمد الارض التي غذتها .
ثم أخرج من ثنيات ثوبه خنجراً مسلولاً وأغمده في صدره . .
ولما أمسك سامعوه بيده ، كان النصل قد اخترق صدر الرجل
الحكيم . فحمل هيرمودور ونسياس الجسد المصفر المخضب بالدماء

الى مضجع بين ولولة النساء المذعورات ، وتأفف الأضياف المنزعجين
من رقادهم ، وتأوهات الشهوات المكتمة التي ركدت ريجها
وخبت نارها . أما الشيخ كوتاً فقد استيقظ من نومه الخفيف
العسكري ودنا من الجنة ، يفحص الجرح ويصيح :

— عليّ بطيبي اريستيه !

فهز نسياس رأسه وقال :

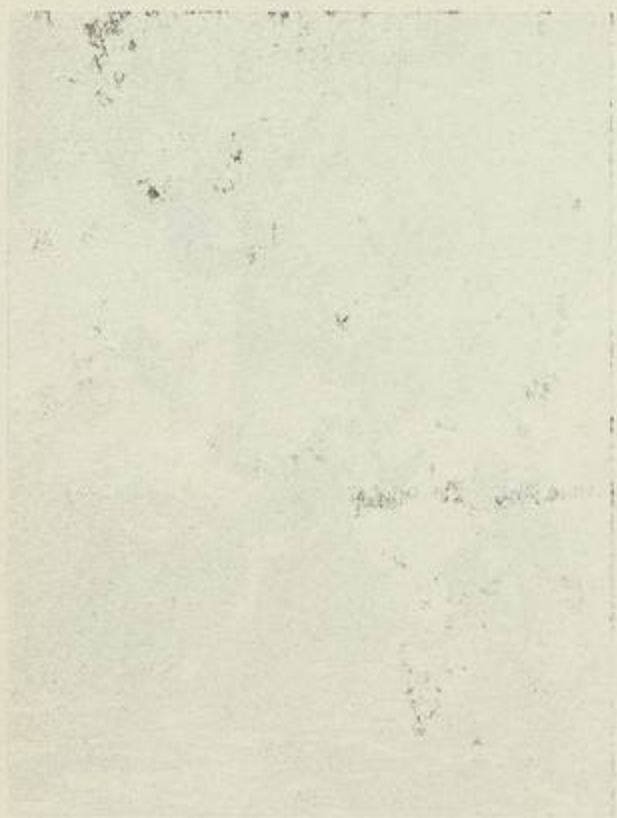
— لقد قضى يوكريت . انه اشتهى الموت كما يشتهي غيره
الحب . وقد أذعن ، مثلنا جميعاً ، لأمنية مبهمة . وها هو الآن
مثل الآلهة الذين لا يتمنون شيئاً ...

فقرع كوتاً جبهته وقال :

— الموت ! يشتهي الموت وهو لا يزال قادراً على خدمة
الدولة ؟ يا للخبال !

وكان بافوس وتاييس قد لبثا جالسين جنباً الى جنب بغير
حرك ، وقد فاقت نفساهما بالاشتمزاز والرعب والأمل ..

ثم أمسك الراهب فجأة بيد المثلة ، وتحطى معها السكارى
المصروعين على مقربة من المتعاقبين والمتضاجعين ، واجتذبتها مجتازاً
بها الشراب المسكوب والدم المسفوك ...





الصباح

(وقد أشرق نوره بلون الورد على المدينة)

البردى

— عودٌ على بدء —

طلع الصبح بلون الورد على المدينة . وامتدت صفوف الأعمدة الطويلة على جانبي الطريق المقفر . وقد أشرفت عليه من بعيد قبة قبر الاسكندر المتألثة . وكان على جانبي الطريق أكاليل زهر سقطت أوراقها ، ومشاعل انطفأ نورها ، مبعثرة هنا وهناك . وكان الهواء مرطباً بنسيمات البحر العلييلة . فمزق بافئوس ثوبه الفاخر مشمئزاً ، وداس عروضه بقدميه ، وصاح قائلاً :

— ها قد سمعتم يا تاييس ! فقد نقثوا صفوف الحماقات والخبائث . وقذفوا بفاطر السموات والأرض من أعلى سمانه الى أسفل درك الجحيم حيث الشياطين . وأنكروا بوقاحة وجود الخير والشر ، وجدفوا على السيد المسيح وكفروا به ، وأثنوا على يهوذا . أما أشدهم طغياناً وجرماً فهو ذنب الظلام ، والحيوان النجس ، الأريوسي النتن المحشو بالفساد والهلاك ، فقد فتح فاه كما تبتش القبور . . . أي تاييس ! لقد رأيت تلك القوقعات النجسة تزحف اليك وتدنسك بعرقها اللزج ، وأبصرت أولئك الوحوش نائمين تحت

أقدام العبيد ؛ وشاهدت أولئك البهائم متضاجعين فوق الطنافس
المدنسة بقيتهم ؛ لقد رأيت ذلك الشيخ المجنون يهرق دماً أنجس
من الخمر المسكوبة في مجلس دعارتهم ، ويلقى بنفسه بعد الفراغ من
التبتهك والخلاعة في وجه المسيح غير المنتظره ..! الحمد لله ..! لقد
رأيت الخطيئة وعرفت أنها مردولة وساءت سيلاً . تاييس !
تاييس ! تاييس ! إذكري جهالة أولئك الفلاسفة ، وقولي ، هل ترغبين
في الهديان مثلهم ؟ إذكري النظرات والحركات والقهقهات التي
عاينتها من رفيقيهم الخليقتين بهم — تانك العاهرات الخليعتان
القردتان ، وقولي ، أتودين أن تكوني مثلها ؟

أما تاييس التي أحفظت قلبها مكاره تلك الليلة ، وشعرت بتفاهة
الرجال وبهميتهم ، وخبائة النساء ، وثقل وطأة الأيام .. فانها
قالت منهدة :

— نفسي متعبة حتى الموت يا أبي ، فأين الراحة ؟ أحس
بجيبني ملتبهاً ، ورأسي خاوياً ، وذراعي مرتجيتين حتى لا أملك من
القوة ما يكفي لإمساك السعادة لو انها وُضعت في راحتي
فنظر البها بافنوس بحنو وقال

— تشجعي يا أختاه ! . فقد اقتربت الساعة التي ترتاحين اليها ،
أنت التي ستصير بيضاء نقية مثل هذه الأبحرة التي ترينها صاعدة
من الحدائق والبحيرات



اقتربا من بيت تاييس . وشاهدا فوق الجدران رؤوس أشجار
الجميز والجلنار ، المحيطة بكهف العذارى ، تتهز تحت ظلّ نسائم
الصباح . وكانت أمامهما رحبة خالية محاطة بالعمُد والتماثيل المنذورة ،
وفي أطرافها مقاعد مستديرة من الرخام عليها أنصاب مختلفة الأشكال .
فسقطت تاييس على أحد هذه المقاعد ، ثم رشقت الراهب بنظرة
تلهف ، وتساءلت :

- ماذا ينبغي أن أعمل ؟

فأجاب الراهب :

- ينبغي أن تبغي ذلك الذي أتى للبحث عنك . انه سيفصلك
عن هذه الحياة كما يفصل القاطف عنقود العنب الذي يتعفن في
الكرّم ويأخذه الى معصرة الخمر ليحوّله إلى صهباء طيبة النكهة
معطرة . اسمعي ! ان على مسيرة اثنتي عشرة ساعة من الاسكندرية ،
الى الجهة الغربية ، بقرب البحر ، ديراً للراهبات تعاليمه آيات حكمة
بيّنات جديرة بأن تكتب شعراً غنائياً وتوقع على ألحان الدف
والطنبور والحق ان النساء اللواتي فيه باتباعهن تلك التعاليم ،
واقدامهن على الأرض ، أصبحت جباههنّ في السماء ! وهنّ يحمين في
هذا العالم حياة الملائكة . يردن أن يكنّ فقيرات ليحبهن يسوع ،

خفرت كي ينظر اليهنّ ، قانتات ليتزوجهنّ . . يزورهن يومياً في
ثوب بستاني حافي القدمين ، ويدها الجميلتان مفتوحتان مثلما أظهر
نفسه لمريم في طريق الضريح . وعلى ذلك ، سأخذك اليوم الى هذا
الدير يا تاييس ، ولا تلبثين بعد انضمامك الى أولاء الراهبات
القديسات أن تشتري في سمرهنّ السماوي . انهن ينتظرنك كأخت
لهن ، وعند عتبة الدير أمهن « ألبن » التقيّة تمنحك قبلة السلام ،
وتقول لك : « أهلاً وسهلاً بك يا ابنتي ! »

فصاحت الغانية صيحة الدهشة وقالت :

— البين ! إبنة القياصرة ! ابنة أخت الامبراطور كارو !

— هي بعينها ! ألبن الشريفة المحتد قد ارتدت بعد الأرجوان
الروماني أطهاراً بالية وسمت بنت سادة الدنيا الى منزلة خادم يسوع
المسيح . ستكون أمك

فنهضت تاييس وقالت :

— خذني الى بيت ألبن

فقال بافوس متمماً نصره المبين :

— سأسير بك حتماً إليه . وسأقفل عليك في صومعة حيث

تبكين على آثامك وما قدمت يدك . إذ ليس من الرأي الصواب

أن تحتلطي بينات ألبن قبالما تغتسلي من جميع خطاياك . وسأضع على الباب ختماً ، وستمكثين سجيناً سعيدة حتى يأتي يسوع بنفسه ويكسر الخاتم علامة الغفران . بالله لا يداخلك ريب يا تاييس في مجيئه ، فسيأتي ، وبالرعدة التي سوف تسري في جسمك حين تشعرين بأصابع نوره فوق عينيك ترقاً دموعك !

فقال تاييس ثانية :

— خذني يا أبي الى بيت ألبن

امتلاً قلب بافئوس فرحاً . فنظر حوله وذاق — غالباً بغير خوف — لذة التأمل في المخلوقات ، ونهت عيناه من نور الله بابتهاج ، ومرت فوق جبينه نسمة مجهولة . ثم أبصر فجأة في إحدى زوايا الميدان الباب الصغير المؤدي الى بيت تاييس ، وتذكر ان تلك الأشجار البديعة التي كان يعجب بأعليها قد ظلت حدائق العاهرة ، ورأى بعين الفكر الأرجاس التي لوثت الهواء الذي كان في ذلك اليوم منعشاً وقيماً ، فأمضه ذلك وأشجاه ، وعال من صبره وشجاه ، فأجهش بالبكاء وقال :

— سنولي الأدبار يا تاييس لا نلوي على شيء . لكن لن

نترك وراءنا الادوات ، الشهود ، الشركاء في جرائمك الماضية . تلك السجوف والأسرة والبسط وقوارير الطيب والمصاييح

التي تعان عن فجورك. أتريدين متاع الجريمة هذا المسكون بالشياطين
والذي يحمله الروح اللعين المستقر فيه — أن يتبعك أيضاً الى
البادية؟ .. والحق الذي لا ريب فيه ان موائد العار ومقاعد
السنار تستخدم كاعوان للشياطين فهي تعمل وتكلم وتخبط في
الارض وتخرق الجو! فليكن العدم والفناء نصيب شهود عارك!
الآ فاسرعي يا تاييس ومري ، والمدينة هاجعة ، عبيدك أن يقيموا
في وسط هذا الميدان كومة من الخشب تحرق فوقها الثروة المدنسة
التي يحتوي عليها مسكنك

فارتضت تاييس ذلك ، وقالت :

— افعل يا أبي ما تريد . لست أجهل أن المتاع اللاروح فيه
يصلح مساكن للارواح! .. في الليل ، يتكلم بعض الاثاث سواء
بضربات يحدتها في فترات معينة ، أو باظهار أضواء ضئيلة كإشارات ،
ولكن هذا كله ليس بذئ بال ، فئمة ما هو أدهى وأمر . أفلم تلحظ
يا أبي إلى يمين مدخل « كهف العذارى » تمثال امرأة عارية كأنها
تأهب للاستحمام ؟ رأيت بعيني رأسي هذا التمثال وقد التفت ذات
يوم كأنه إنسان حي ، ثم استعاد مظهره العادي ، فشلتجت أطرافي
رعباً ، وضحك مني نسياس لما أخبرته بهذه الأعجوبة . فلا بد
وأن يكون في هذا التمثال بعض السحر ، فقد حدث انه نفث .
مآرب مضنيه في رجل دلماسي كان كافراً بجمالي . حقاً لقد كنت

في وسط أشياء ساحرة وكنت معرضة لأشد الأخطار بروية الرجال وقد خنقهم عناق تثال البرنز هذا!! ومع ذلك فمن دواعي الاسف أن تعدم النفائس المصنوعة بمهارة نادرة، وإذا جعلت بسطي وسجوفي طعمة للنيران كانت الخسارة لا تعوض. وان جمال لون بعضها لباهر حقيقةً، وقد أنفق عليها الذين وهبونها أموالاً لا يستهان بها. كذلك أملك أقداحاً وتماثيل وصوراً ثمينة، ولا أظن أن اتلافها ضروري، لكنك يا أبي تعلم ما يجب عمله، فاعمل ما تريد.

ثم تبعت الراهب الى الباب الصغير حيث عُلِّقَت اكاليل الزهر والتيجان الكثيرة، ولما فُتِح أمرت البواب أن يدعو عبيد البيت جميعاً. فظهر أولاً أربعة هنود طهاة، وكانوا عوراً صفر البشرة، وقد كابدت تاييس مشقة عظيمة ووجدت لذة كبيرة في جمعهم من جنس واحد، ومصابين بعاهة واحدة. وكانوا عند ما يخدمون على المائدة يثيرون فضول المدعوين فتأمرهم تاييس بقص تاريخ حياتهم. اقترب هؤلاء وظلوا صامتين. ثم تبعهم مساعدوهم. ثم أقبل السؤاس والصائدون وحملة الحفنة والسعاة الذين لا يرضيهم التعب، وبستانين غزيرا الشعر، وستة زنوج ذوو هيئة وحشية، وثلاثة مماليك يونانيين أحدهم نحوي والثاني شاعر والثالث مغنّ. اصطفوا جميعاً بانتظام في الرحبة. وأقبلت الزنجيات الفضوليات، منزعجات، يدرن عيونهن الكبيرة، واشداقهن منسقة حتى أقراطهن. ثم ظهر ست جوار بيض

جميلات ، عابسات ، متنقيات ، يجررن بيطء أقدامهن المكبّاة
بسلاسل ذهبية دقيقة

ولما تكامل عددهم ، قالت تاييس لهم ، وهي تشير الى بافوس :
— افعلوا ما يأمركم به هذا الرجل ، فقد حلّت به روح الرب ،
فاذا خالفتموه أدرككم الموت

ذلك انها كانت قد سمعت ان لاولياء الصحراء من البأس
ما يفرق الخاطئين الذين يضرّبونهم بعصيهم في جوف الأرض
المنشقّ الملتهب . . فأمنت بما سمعت !

سرف بافوس النساء ، والماليك اليونانيين الذين كانوا كالنساء ،
وقال للباقيين :

— ايتوا بخشب في وسط الرحبة ، وأوقدوا ناراً ، والقوا فيها
ما دار عليه البيت والكهف .

فوقفوا بلا حراك مشدوهين ، وسألوا مولانهم بأعينهم ، فلما
رأوها لا تأتي بحركة ، ولا تبس بينت شفة ، تزاحموا بالمناكب ،
وقد داخلتهم الشكوك فيما يراد بذلك ، وحسبوه دعاة . .

قال الراهب :

— أطيعوا !

كان منهم مسيحيون عديدون فقهوا ما طلب اليهم ، وراحوا
يبعثون في البيت عن خشب ومشاعل ، وتبعهم الباقيون بغير استياء

لأنهم لفقروهم يبعضون الثراء ، وفي غريزتهم حب التدمير . وبينما كانوا يكسدون الخشب ، قال بافوس مخاطباً تاييس :

— قد خطرت لي أن أستدعي خازن إحدى كنائس الاسكندرية (اذا كان فيها ما يصح أن يسمى كنيسة ولم يدنسه الأروسيون الوحوش) لأعطيه متاعك أيتها المرأة ليوزعه على الأرامل والمساكين ، وبذلك يستحيل ربح الجريمة الى كنز العدالة . لكن هذا الخاطر لم يأت من عند الله ، لذلك نبذته نبذ النواة . فلا شك ان اعطاء أسلاب الترف والرفاهية الى أجباء المسيح يكون إساءة بالغة .

أي تاييس !

ان كل ما لمست يدك يجب أن يذهب طعمة للنيران حتى يصير هشيماً تذروه الرياح . حمداً لك يا سماء ، فان هذه الشقوق وهذه النُقب التي تلتقت من القبل ما لا عدد له ، كأموج البحر الزاخر ، لن تحسن الآن إلا شفاه اللهب وألسنته ! عجلوا أيها الأرقاء ! هاتوا أيضاً خشباً ومشاعل ! وأنت يا امرأة ، ادخلي البيت وانزعي حلتك الفاضحة ، والتمسي من أحقر جواريك أن تمن عليك بأرث قيص لها تلبسه وهي تمسح بالبلاط . . .

فأطاعت تاييس .

وبينما كان الهنود راكعين ينفخون في الجذوة المتقدة ،
قذف الزوج على النار صناديق العاج والأبنوس والأرز وهي
مفتوحة فسقطت منها التيجان وأكاليل الزهر والقلائد . وارتفع
عمود أسود من الدخان مثلما في محرقات الشرائع القديمة . ثم ان
النار التي خصرت في صعيد واحد ، اندلعت فجأة وزارت كحيوان
مفترس ، وأخذ لهيها الذي يكاد لا يرى من شدة تكاثف الدخان ،
يلتهم وقودها الثمين . فازدادت حمية العبيد في عملهم ، ونشطوا
لجراً البسط الغالية ، والبراقع المطرزة بالفضة ، والديباج المزخرف .
وقد أثقل كواهلهم حمل المناضد والأرائك والوسائد السمكة
والأسرة ذات العمُد الذهبية . وجرى ثلاثة أحباش أقوياء حاملين
في أحضانهم تماثيل الكهف الملوثة التي كان أحدها محبوباً كأنه من
الأحياء . فما كان أشبههم بقردة كبيرة تسير حاملة نساء ! ولما سقطت
هذه الدمى الجميلة المتجردة من أذرع حاملها وتكسرت فوق
الأحجار ، سُمع لها صدى زفير وتهدي يتردد . . .

وحينئذٍ ظهرت تاييس ، وشعرها مرسل على كتفيها ، حافية ،
ترتدي قميصاً خشناً لا هندام له ، ولعله صار يلمسه بدنها مشرباً
بنعمة الله . . .

وجاء وراءها بستاني يحمل تمثال « إيروس » ^(١) صغير الحجم ،
مصنوعاً من العاج ، مخبوءاً في حليته المتدلّية . فأشارت تاييس إلى
الرجل بالوقوف ، واقتربت من بافوس وأرته التمثال الصغير ،
وسألته :

— أتحتم يا أبي القاء هذا أيضاً في النار ؟ انه من الآثار القديمة
العجيبة ، وهو يساوي مائة مرة وزنه ذهباً ، ولن يعوض فقدته .
لأنه لن يوجد في العالم فنّان قادر على صنع مثله . ولا تنس يا أبتِ
ان هذا الطفل الصغير هو رمز « الحب » . ومن الواجب أن
لا يعامل بقسوة . صدقني يا أبتِ ان الحب فضيلة ، واذا كنت أنا
قد أذنبتُ ، فليس منه ، وإنما إليه . لن أندم أبداً على ما جعلني
الحب أعمله ، واني لآسفة جد الأسف على ما اقترفته برغم منه .
أما تراه وهو يأتني على النساء أن يهين أنفسهن للذين لا يتقدمون
باسمه ، انه خليقٌ بكل إجلال وإكبار ؟ انظر يا بافوس الى هذا
« الأيروس » الصغير ما أبدعه ! لقد لجأ برقة وخفر الى حلية
البستاني مخبئاً . أهدها إليّ نسياس يوماً ، وهو يحبني ، قائلاً :
« سوف يحدثك عني » . لكن إله الحب الماكر حدثني عن شاب
كنت قد عرفته في انطاكية ، ولم يذكر لي نسياس . ترى . . .

(١) Eros هو اسم يوناني لآله الحب عند الاغريق — (المترجم)

أَو لم يكفِ يا أبي ما هلك في هذه المحرقة ؟ .. ابق على هذا
« الأيروس » ، وضعه في معبد ، فيتوجه الذين يرونه الى الله
بقلوبهم ، لأن « الحب » طبعاً يعرف كيف يسمو بتلك القلوب
الى الافكار العلوية ...

وكان البستاني ، وقد جرى في ظنه ان الأيروس نجا ،
ييسم له كأنه الطفل الرضيع ، فاخطفه بافوس من الذراعين اللتين
تحملاه ، ورمى به الى اللهب صارخاً :

— يكفي أن يكون نسياس قد لمسه ، ليفيض بكل أنواع

السموم !

ثم أمسك بجلء راحته الثياب المتألقة ، والأردية الأرجوانية ،
والنعال الذهبية ، والأمشاط ، ومحكات الجلد ، والمرايا ، والمصاييح ،
والطنابير ، والقيثارات ، ورمى بها في الأتون الذي كان أبهى من
محرقة « سردانا بال » . في حين سكر العبيد بنشوة التدمير ،
فرقصوا وهلوا تهليلاً وحشياً تحت وابل من الشرر والزمام



استيقظ الجيران على هذه الجلبة واحداً بعد واحد ، ففتحوا
نوافذهم ، وفركوا عيونهم ليتبينوا مصدر الدخان ، وخرجوا مرتدين
بعض الثياب ، واقتربوا من مكان المحرقة متساءلين :

— ما الخبر؟

وكان بينهم التجار الذين اعتادت تاييس ان تشتري منهم العطور والملابس، فانزعجوا وأتلعوا أعناقهم محاولين ادراك كنه الأمر ومرّاً بالمكان بعض الشبان الفاسقين الذين كانوا منصرفين من وليمة، يتقدمهم عبيدهم، فوقفوا ورؤسهم متوجة بالزهر، وأرديتهم محلولة العرى، وصاحوا صياحاً عالياً

وأخذ هذا الجمهور الفضولي يزداد بغير انقطاع. وعُرف أن تاييس أغراها كاهن أنصينا بحرق متاعها قبلما تعتزل في أحد الأديرة.

ففكر التجار في أمرهم، قائلين لأنفسهم:

— تاييس تاركة المدينة تنعي من بناها، فان نبيعها بعد شيئاً، فما أفضع التأمل في هذا! يا ويلنا، ماذا يكون مصيرنا إذا زابلتنا؟ ان هذا الراهب أفقدها رشدها. إنه يحقنا. لماذا تُرك حبله على غاربه ليأتي بمثل هذا؟ وما نفع الشرائع والقوانين؟ أفلم يبق في الاسكندرية قضاة؟ ان تاييس لا تفكر فينا أو في زوجاتنا وأطفالنا المساكين. ان مسلكها فضيحة عامة. ينبغي أن تُكره على البقاء في المدينة إكراهاً...



وفكر الشبان من جهتهم :

— إذا كانت تاييس تكفّ عن التمثيل وتطلق الحب ، فإن
أعزّ الملاهي ينفضّ ويقفر . انها كانت بهجة المسرح ، ومجده
الطارف ، وعزّه التليد . انها كانت متعة ومسرة حتى للذين لم يحظوا
بها . فيها أحب المرء من أحبّ من النساء . وما من قبلة واحدة ،
تبودلت مع امرأة ، لم يكن لتاييس فيها أثر . . . لأنها كانت لذّة
اللذات ، ومجرد الشعور بأنها تنفّس بيننا ، يبعث فينا اللذة . . !

كذلك فكر الشبان ، ومنهم فتى يدعى « شيرون » كان قد
حظى بها يوماً ، فأخذ يصرخ ناعياً هذا السلب والنهب ، سائلاً
المسيح المغتصب .

وجميعهم ذموا تصرف تاييس وعابوه :

— إنه فرار مخزٍ !

— إنه رحيل بجبانة !

— إنها آخذة الخبز من آفواهنا !

— إنها ذاهبة بصدّاق بناتنا !

- عليها ، على الاقل ، أن تدفع ثمن التيجان التي بعثها آياها !
— وثن الستين حلّة التي أوصتني بصنعها !
— إنها مدينة لكل انسان !
— من التي تمثّل بعدها أدوار « افيجينيا » و « الكترا »
و « بوليكنسا » ؟ ان « بوليب » الجميلة لن تبلغ شأوها !
— ستكتئب الحياة إذا أغلق باب تاييس
— كانت الكوكب المتألق الساطع ، كانت في سماء الاسكندرية
البدر المنير الطالع !



وفي تلك الفترة من الزمن ، اجتمع في الساحة أشهر السوّال
والمستعطين ، من العميان والمقعدين والمشلولين ، وزحفوا في ظل
الأغنياء متأوهين :

— كيف نعيش لما لا تكون تاييس هنا لتطعمنا ؟ ان فتات
مائدتها كان يُشبع كل يوم مائتين من المساكين ، واعتاد عشاقها
عندما يغادرونها ، وقد طابت نفوسهم ، أن يرمونا ببل أيديهم
فضّة ...



رقص تاييس

(في رواية «الكترا» لسوفوكليس)

واندس أيضاً وسط الزحام بعض اللصوص وأخذوا يصرخون
صراخاً يصم الآذان ، وزاحمو القريبين منهم ليزيدوا اختلال
النظام ، ويغنموا الفرصة لنشل ما خفّ حمله وغلامته !

أما الشيخ « تاديه » ، بائع الصوف والكتان ، الذي كانت
تاييس مدينة له بمبلغ كبير من المال ، فقد لبث وحده ساكناً في
وسط الضجيج . أصاخ بأذنه ، ودار بنظره ، وداعب لحيته التيس
لحيته ، ولاحت عليه سيمياء التفكير . وأخيراً ، اقترب من الشاب
« شIRON » وشده من كفه ، وقال له بصوت خافت :

— أنت ، يا أيها المولى الجميل ، ذا الخطوة عند تاييس ، تدخل
ولا تدع هذا الراهب يذهب بها !

فصاح شIRON :

— قسماً بيولكس وكاستر ، لن أدعه يفعل ذلك ! سأخاطب
تاييس وأحسبها ، ولا فخر ، ستصيح إليّ أكثر مما إلى هذا الملوّث
بالرغام ! — افسحوا الطريق ! طريقاً يا رعا !

وبعد ان أمعن في الرجال ضرباً بجمع يده ، صارعاً المعجّز ،
وواطئاً بقدميه الأطفال ، وصل إلى تاييس ، وأخذها جانباً قائلاً لها :

— يا بنتي الحسناء ! انظري إليّ واذكري نفسك ، واخبريني
أصحیح أنك زهدت في الحب ؟

لكن بافانوس حال بينهما صاححاً :

— أيها الفاجر ! إخش روعة الموت ان أنت لمستها ! انها
مقدسة ! انها ملك لله ! ..

فأجابه الفتى ساخطاً :

— سحقاً لك يا أيها النسناس ! دعني وحييتي أخاطبها ، والآ
جررتك بلحيتك الى النار حيث أشوي هيكلك القبيح شيئاً !

ومدّ يده نحو تاييس ، لكن الراهب دفعه بعيداً ، بقوة غير
منظورة ، فترنح الفتى وسقط على بعد أربع خطوات من موضع المحرقة ،
وسط الشعل المنهالة .

وكان الشيخ تاديه يذهب أثناء ذلك من رجل الى آخر ،
شاداً آذان العبيد ، مقبلاً أيدي السادة ، يحرضهم جميعاً على بافانوس ،
ويغريهم به . وما لبث ان ألّف عصبة صغيرة سارت رأساً الى
الراهب الخاطف

ونهمض شيرون بوجه أسود ، وشعر شائط ، وقد كاد يخنق
من الدخان ، واندفع متميزاً من الغيظ ، مجدّفاً بالآلهة ، وألقى بنفسه
في وسط المهاجمين الذين كان السائلون يزحفون من خلفهم ،

ملوحين بعكا كيزهم . فحصر بافنوس ، في الحال ، وسط دائرة من
قبضات أيدي ممدودة ، وعصي مرفوعة ، وصيحات مروعة :

— الى الغربان ! القوا بالزاهب الى الغربان !

— كلا ! اقدفوا به في النيران ! إشووه حياً !

فأمسك بقنيصته الجميلة ، وضمها الى صدره ضمةً طويلة ،
وصاح بصوت كالرعد القاصف :

— أيها الفجار ! لا تحاولوا أن تخطفوا الحمامة من نسر الرب !
أولى بكم ثم أولى أن تقتدوا بهذه المرأة وتتأسوا ، وأن تبدلوا مثلها
بتر بكم تبراً ! احتذوا مثلها ، وانبدوا الممال الزائل الذي تظنون انكم
تملكونه ، وهو الذي يملككم ويستعبدكم . عجلوا ! فقريباً ما توعدون
وأوشك الصبر الالهي أن ينفد . توبوا واعترفوا بذنوبكم ، وابكوا
وصلوا واقنفوا أثر تاييس . إكرهوا خطاياكم التي لا تقل عن
خطاياها . ليت شعري من منكم غنياً كان أم فقيراً ، تاجراً أم
جندياً ، عبداً رقيقاً أم عيناً وحيهاً — يجرؤ على أن يقول بين يدي
الله أنه كان خيراً من بغي فاجرة ؟ ما أنتم إلا ادران متجسمة ، وانها
لآية من لطف الله بكم أن لا تتحولوا فجأة الى بحارٍ طالفة
بالوحول !

وكان ينبعث من حدقيه ، وهو يتكلم ، شررٌ مستعر . وكأنما تساقط من شفقيه جمر متوهج ، فأصغى اليه الذين من حوله صاغرين .

لكن « تاذيه » الهرم لم يكف عن المقاومة ، بل كان يجمع الحجارة وأصداف المحار ويخفيها في طيات ثوبه ، ولم يجرؤ على أن يرميها بنفسه ، فدمسها في أيدي السائلين . وما لبث الراهب ان انهالت عليه الحجارة ، وأصابته جبينه صدفة محارة أحكم تسديدها ، وسال الدم الذي انحدر من وجه الشهيد الكئيب على رأس التائبة كتعميد جديد . وشعرت تاييس ، وقد ضغطها عناق الراهب وחדش ثوبه الخشن جلدها الغض ، بالرعب والجزع يسريان فيها .

واذ ذاك أقبل رجل أنيق اللباس ، متوج الجبين بالكرفس ، وشق لنفسه طريقاً وسط الجمهور الملتج ، وصاح :

— قفوا ! كفوا ! ان هذا الراهب أخي !

وكان الرجل نسياس . وقد مرّ بالرجبة عائداً الى داره بعد أن أغمض عيني الفيلسوف يوكريت . ورأى بغير كبير دهشة (لأنه لم يدهشه شيء قط) المحرقة المدخنة ، وتاييس مرتدية خرقة خشنة ، وبافنوس يُرجم ..

فكرّر قوله :

— قلت لكم قفوا! أبقوا على رفيقي في المدرسة! احترموا رأس
بافنوس العزيز!

لكنه كان متعوداً بمباحثات الحكماء العويصة ، يعوزه ذلك
الحزم والتأثير الذي يسيطر على نفوس الجماهير ويملك مشاعرهم ،
فأعاروه أذناً صماء . وسقط وابل من الحصى والمحار على الراهب
الذي غطى تاييس بجسمه ، حامداً الله الذي أعاضته رأفته من جراحه
تربيتاً . . .

فلما يئس نسياس من حملهم على الاستماع له ، والالتقاد اليه ،
وأيقن عجزه عن إنقاذ صديقه سواء بالقوة أو بالحجة ، وسلم أمره
للالهة — وكانت ثقته بهم ضعيفة — خطر له أن يجرب حيلة
أرشده اليها فجأة احتقاره للبشر . فأخرج من منطقته كيس تقوده ،
وكان ممتلئاً بالذهب والفضة ، لأن صاحبه من عشاق المسرات
والمبررات . ثم حاول أن يغري الذين كانوا يرمون الحجارة برنين
النقود ، فلم يعبروه بداءة بدء التفاناً ، إذ كان حقهم عظيماً ، لكن
أنظارهم ما عتمت ان اتجهت شيئاً فشيئاً الى الذهب الزنان ، ثم كفت
أذرعهم الواهنة عن إيذاء فريستهم

ولما رأى نسياس أنه جذب أبصارهم ، واجتذب نفوسهم ، فتح
هميانه وبدأ يرمي في وسط الحشد قطع الذهب والفضة . فأنحنى
المتناهون في الشراهة لالتقاطها ، فابتهج الفيلسوف بنجاحه المبدئي ،

وجعل يرمي هنا وهناك الدراهم والدنانير ، وعلا رنين القطع المعدنية فوق الرصيف ، فخرّ الزاجون الى الأرض متزاحمين ، وتسابق السائلون والعييد والتجار . والتفّ الاشراف حول شيرون ينظرون الى المشهد ويقهقهون ، فنسي شيرون غضبه ، وشجع أصحابه المتناضلين الراكعين ، واختاروا منهم سباقين وتراهنوا عليهم . وكانوا يزيدون الشحنة بتحريضهم أولئك البأسين كأنهم كلاب متقاتلة . وفاز مقعد ، مقطوع الساقين ، بالاسدياء ، على درهم فعلا له الهتاف الى عنان السماء . وبدأ الشبان أيضاً يرمون قطع النقود . ولم يبق ثمة شيء يُرى في الميدان سوى ظهور بشرية لانهاية لها تعلق وتخفّض ، كأموال البحر الزاخر ، تحت وابل مدرار من المعدن الرنان . . .
وغدا بافوس نسياً منسياً

فجرى اليه نسياس ، وغطاه بمعطفه ، وجرّه مع تايس في الأزقة ، الى حيث باتوا بآمن من المطاردة . ركضوا حيناً صامتين ، الى ان رأوا انهم صاروا في أمان ، فترثوا ، وقال نسياس بنعمة التهمك المزوجة بشيء من الحزن :

— اذا قُضي الأمر ! واغتصب « فلوطون » « پروزرين » (١)

(١) في الميتولوجيا ان فلوطون Pluton هو ملك الجحيم واله الموتى ، وابن زحل Saturne اله الزمان وسبيل Cybèle ربة الارض ، واخو جوبيتر Jupiter ونبوتون Neptune ووزوج پروزرين Proserpine ربة الجحيم التي اختطفها ! — (المترجم)

وتريد تايس أن تتبع صديقي الوحشي المنظر أينما يذهب بها !
فأجابت تايس :

— حقًا يا نسياس ، لقد سئمت عشرة أمثالك البسامين ،
المتعطرين ، الكيسيين ، الأنانيين . وملت كل ما أعرفه ، لذلك أنا
ذاهبة للبحث عن المجهول . ولقد علمت بالاختبار ان الفرح لم يكن
فرحًا حقيقيًا ، وهذا رجل يرشدني الى أن الحزن هو الفرح الحقيقي .
وأي أومن بما يقول ، لأنه يعرف الحقيقة
فأجابها نسياس مبتسماً :

— وأنا يا حبيبتى ، أعرف الحقائق ! هو لا يعرف سوى
واحدة ، وأنا قد أحطت علمًا بها جميعًا . أنا أغنى منه ، ولكنني في
الحقيقة ، لا أفوقه في كبرياء النفس ، او سعادة الجسد !
ولما رأى الزاهب يرشقه بنظرات نارية ، قال :

— لا تحسبن يا عزيزي بافنوس اني أعدك بالغًا غاية
السخرية ، او نهاية الشطط . فلو قابلتُ حياتي بحياتك لما استطعت
ان اقول ايها اجدى وانفع . ها أنا الآن ذاهب لأغتسل في الحمام
الذي اعدته لي كرويل ومرتال ، وسأكل جناح دراج ،

وسأعيد - للمرة المئة - تلاوة بعض القصص « لأبوليوس » او
بعض مباحث « يورفير يوس » وانت ستعود الى صومعتك حيث
تركع كجمل وديع ، مجترأ التساييح والتعاويد التي لا كها فمك مراراً
وتكراراً ، فاذا جاء المساء ، تناولت الفجل بلا زيت . لكن لا بأس !
ففي قيامنا ، يا صاحبي الحبيب ، بهذه الأعمال المختلفة في الظاهر كل
الاختلاف - نخضع كلانا لعاطفة واحدة هي العامل الوحيد في جميع
فعال البشر؛ كلانا يبحث عن لذاته ويسعى في نيل القصد المشترك -
السعادة ، السعادة المستحيلة ! وهبني ارى نفسي مصيباً ، فلا يليق بي
ان اتعرض لتخطئتك يا حبيبي !

اما انت يا تاييسي ، فاذهبي وافرحي وكوني اسعد حفظاً - اذا
كان ذلك في الامكان - في زهد التعفف وطهارة الخشونة ، مما
كنت في الغنى والمسرات . فمن كل وجه اراك جديرة بأن تكوني
محسودة من الجميع لأننا إذا كنا انا و بافنوس في حياتنا بكاملها ، قد
قنعنا - امثالاً لطبيعتنا - بضرب واحد من ضروب المعيشة
الراضية ، فانك يا عزيزتي تاييس قد ذقت في حياتك هذه المسرات
المختلفة التي قلما يتاح لشخص واحد ان يتمتع بها . وحقاً كم اتنى ان
اكون ساعة واحدة قديساً او ولياً مثل عزيزنا بافنوس ، غير ان
هذا محذور علي . فالوداع اذاً يا تاييس ! اذهبي الى حيث تقودك

قوة طبيعتك ونصيبك وقسمتك الخفية ! اذهبي مصحوبة اينما
تذهبين بخير تمنيات نسياس ! لست أجهل انها فارغة ، ولكن هل
في استطاعتي أن أمنحك خيراً من تحمرات عقيمة وغميات باطلة
جزء التصورات السارة الممتعة التي ظللتني في حضنك فيما مضى ،
والتي بقي لي منها خيالها ؛ الوداع أيتها المحسنة إليّ ! الوداع أيتها الطيبة
التي تجهل نفسها ، أيتها الفضيلة الغامضة ، يا لذة الرجال ! وداعاً
يا أحق صورة بالعبادة بين الصور الجميلة التي تنثرها الطبيعة دواماً ،
لغاية مجهولة ، على وجه أرضنا الغرور !

وفي أثناء كلامه ، كان قلب بافنوس يغلي من الحنق ، فنفجر
بهذه الشتائم :

- إخساً يا لعين ! إنني أحتقرك وأمقتك ! ابتعد يا وليد جهنم
الذي هو شرّ الف مرّة من أولئك الأشقياء الضالين الذين كانوا الآن
يرمونني بالحجارة وهم يسبون ! انهم فعلوا ذلك عن جهل ، وغفران
الله الذي رجوته لهم قد يهبط يوماً على أفئدتهم . . . أما أنت يانسياس
المرذول فلست سوى حمة غادرة وسم زعاف . انفاس فمك تنفث
اليأس والموت . بسمة واحدة من بسمائك تحوي تجديفات اكثر
مما تقذفه شفتا ابليس الملوثنان في قرن من الزمان . . . تبدأ لك أيها
الكنود . الى الورااء ! . . .

فنظر اليه نسياس بانعطاف ، وقال :
- الوداع يا أخي ، ليتك تصون الى نهاية أجلك كنوز إيمانك
ومقتك وحبك ! . . الوداع يا تاييس ! عبثاً تنسينني وأنا على
ذكريك جدّ حريص !



تركها وسار مفكراً في الطرق المتعرجة بجوار مقبرة
الاسكندرية الكبرى التي يسكنها صناع أواني الدفن الفخارية .
وكانت حوانيتهم ملامى بتلك الدمى المزوّقة المصنوعة من الصلصال
تمثل آلهة وآلهات ، وتماثيل صامته ونسوة وجنيّات صغيرات مجنّحة
جرت العادة بدفنها مع الموتى . فخطر لنسياس ان بعض الصور التي
يراها قد تصحبه في نومه الأبدي . وخيل اليه ان « أروسا » صغيراً ،
مشعر الثوب ، يضحك ساخراً . فلما استحضر صورة جنازته التي
صورها خياله قبل أوانها تألم ، فحاول تبديد حزنه بالفلسفة ، واقام
هذا الدليل :

- حقاً ان الزمان وهم لا حقيقة له . فما هو الأضلاله من تصوّرنا .
واذا لم يكن له وجود ، فكيف يستطيع ان يجلب الموت اليّ ؟ فهل
معنى هذا اني أحيأ الى الابد ؟ كلا - ولكنني استنتج من هذا أن
موتي كأن ، وقد كان دائماً ، كما انه سيكون أبداً . لم أشعر به بعد ،

ولكنه موجود ، وينبغي ألا أخشاه . ومن الحق ان أخاف مجيء ما قد أتى . إنه موجود ، فكأنه آخر صفحة من كتاب أقرأه ، ولما أتمم قراءته .

شغله هذا التعليل في مسيره ، دون أن يبهجه ، وكان مكتب النفس حين وصوله الى عتبة داره ، وسماعه ضحك جاريتيه كروبييل ومرتال الزبان ، وكانتا تلهوان في انتظاره بلعب الكرة ...



غادر بافوس وتاييس المدينة من باب القمر ، وسارا على شاطئ البحر ، فقال الراهب :

— أيتها المرأة ! هذا البحر الأزرق الكبير كله لا يستطيع غسل نجاستك ...

ثم خاطبها بغضب واحتقار :

— يا أنجس من كلبة ، وأشد رجساً من خنزيرة ، لقد أجمت للفحشاء مع الوثنيين والكافرين جسداً خلقه الصمد ليكون محراباً... وإن أدناسك لعديدة حتى انك الآن ، وأنت تعرفين الحق ، لا تستطيعين أن تضي شفتيك ، أو تجمع يديك ، بغير ما يتولد في قلبك تقزز من نفسك ...

تبعته ، خافضة له جناح الذل والطاعة ، في المسالك الوعرة تحت
أشعة الشمس المحرقة ، فأضعف التعب ساقها ، وأحرق الظأ
أنفاسها ، وأهلب حلقتها . أما بافئوس ، فبدلاً من أن يشعر بتلك
الشفقة الكاذبة التي تلين قلوب الملحدين ، فقد فرح بالعذابات
التكفيرية التي تنال هذا الجسد الآثم . . . ولشدة تأثير الحمية
القدسية فيه ودَّ لومرَّق ضرباً بالعصي هذا الجسم الذي احتفظ
بجماله ، كبرهان ساطع على مجوره . ولما ذكر أن تاييس ضاجعت
نسياس ، واستحضر تلك الصورة البشعة في مخيلته ، جرى دمه كله
مرتداً الى قلبه ، وكاد صدره ينشق . فغصَّ حنجرته باللعنات ،
فخرَّق الأرم ، ووثب منتصباً إزاءها ، شاحباً ، رهيباً ، وقد ملأته
قوة الله ، ونظر إليها حتى اخترقت نظراته أعماق نفسها ، ثم بصق
في وجهها . . .

فسحت محيآها بهدوء وانكسار ، دون أن تتف في سيرها ،
فتبعها محملاً فيها كأنما هي هاوية . ومشى مغتاضاً مفكراً في أن يثار
للمسيح حتى لا يثار المسيح لنفسه ، وإذا به يرى قطرة من الدم
سالت من قدم تاييس فوق الرمال . هنا أحسَّ بطراءة أنفاس .
مجهولة تدخل قلبه المفتوح . . . فتعالت التهنيدات الوفيرة الى شفثيه .
فبكى ، ثم جرى وخرَّ أمامها ، ودعاها أخته ، وقبل قدميها الداميتين ،
وتقم مائة مرة :

— أختاه ! أختاه ! أماه ! يا أقدس قديسة !

ثم قدّم هذا الدعاء :

— يا ملائكة السماء ! خذوا هذه قطرة الدم باعتناء ، وضعوها
امام عرش الله... ليت الرمل الذي بلله دم تاييس ينبت شقائق نعمان
ليسترد الذين يرون هذا الزهر نقاوة القلب وطهارة الشعور ! أي
تاييس أيتها القديسة البالغة غاية القداسة !

واذ كان يصلي ويتنبأ ، مرّ به غلام على أتان ، فأمره بافئوس
أن يترجل ، ثم اركب تاييس الأتان وامسك بالجام ، واستأنف
مسيره ..

أمسيا عند قناة مظلة بأشجار أنيقة ، فربط الأتان بجذع نخلة ،
وافترشا الأحجار ، وتقاسما رغيفاً أكلاه متبلاً بالملح والثغام ،
وشربا براحتيهما ماء سائغاً ، وتحدثا في الأبيات .

قالت تاييس :

— ما شربت قط مثل هذا الماء العذير ، ولا استنشقت مثل
هذا الهواء العليل ، واني لأحس بأن الله سبحانه وتعالى يسبح في
النسمات التي تهب ...

فأجابها بافانوس :

— انظري ! انه المساء يا أختاه ! هوذا ظلال الليل الزرقاء
تغطي التلال .. لكنك لن تلبثي أن تري «مظلات الحياة» مشرقة
في الفجر ، وتشاهدي إشراق ورد الصباح السرمدي !

سريا سواد الليل ، وأنشدا المزامير والتسايح حينما كان نور
الهلال يقبل وجنات الأمواج الفضية . وعند ما أشرقت الشمس ،
امتدت امامهما الصحراء اللبية كجلد أسد واسع الأطراف . وفي
آخر الرمال لاحت لأعينهما ، في ضوء الفجر ، خصاص ييض
بقرب بعض النخيل . فسألت تاييس :

— هل هذه هي مظلات الحياة يا ابي ؟

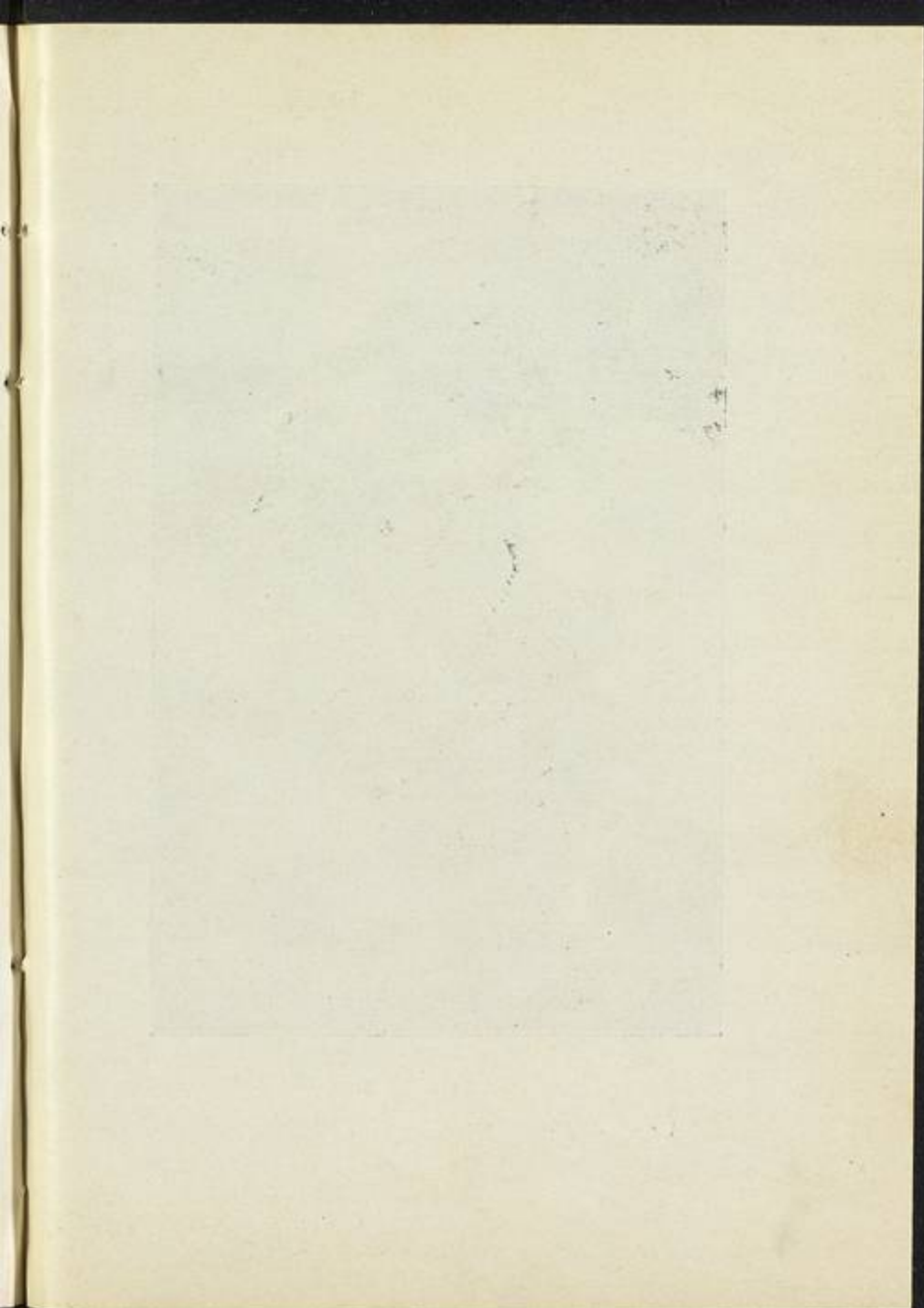
— لقد حرزت يا ابنتي واختي . هذا هو الملجأ الذي أضعك
فيه يدي .

وما لبثا أن شاهدا نساء يجآن من كل صوب حول مساكن
التنسك ، كالحل حول خلاياه . وكان بعضهن يجهنن ، والبعض
يجهنن البقول ، والبعض يغزلن الصوف ، وعليهن نور السماء ينسكب
كاتبسامة من ثغر الله ... واخرىات كنن جالسات في ظل اشجار
الإثل ، ومنصرفات للتأمل والتفكر ، وأيديهن البيض بجوانبهن ،



المساء

(عائق الليلُ النهارَ ، ونشر عليه جناحيه . فكان المساء)



لأنهن اذ شغفن حباً ، اخترن نصيب المجدلية ، فلم يعملن شيئاً سوى الصلاة والتأمل . لذلك سمين « المريمات » ، وكن يرتدين ثياباً بيضاء . أما اللواتي كن يشتغلن بأيديهن فقد أطلق عليهن اسم « المرتيات » ، وكن يلبسن ملابس زرقاء . وكن جميعهن متقنعات ، لكن اللواتي كن في نضارة الشباب أرسلن خصل الشعر تتدلى فوق الجبين ، ولعل ذلك كان ، كما يغلب على الظن ، عفواً بغير قصد ، لأن نظام الدير يحظره ...

وكانت هناك عجوز بلغت من الكبر عتياً ، طويلة القامة ، بيضاء اللون ، تسير من خصّ الى آخر متكئة على عكازة من خشب متين . فاقترب منها بافئوس باحترام ، ولثم طرف خمارها ، وقال :
— سلام لله يا أليين الموقرة ! لقد أتيت الى الخلية التي أنت ملكتها بنحلة وجدتها ضالة في طريق مجذب لا زهر فيه ، فأخذتها في راحتي ، وأدققتها بأنفاسي . إني اعطيك إياها ...

وأشار بأصبعه الى الممثلة التي كانت راكعة امام بنت القياصرة .

فألقت أليين على تاييس نظرة حادة ، وأمرتها بالنهوض ، وقبلت جبينها ، ثم تحولت نحو الراهب قائلة :

— سنضعيا بين « المريمات »

فأخبرها بافنوس عندئذ بالوسائل التي أحضرت تاييس بها الى
« بيت الخلاص » . وسألها أن تغزل ، بداءة بدء ، في صومعة .
فقبلت رئيسة الدير ، وقادت الثابتة الى خصّ خلايموت العذراء
« ليتا » ، ولم يكن في هذه الصومعة الضيقة سوى فراش ومائدة
وابريق . ولما وضعت تاييس قدمها على العتبة امتلأت بهجة لا حد لها .
فقال بافنوس :

— أريد أن أقفل الباب بنفسي ، وأن أضع عليه ختماً يأتي
المسيح ويكسره بيديه .

وذهب الى حافة النبع ، وأخذ قبضة من الصلصال ، ومزجه
بشيء من ريقه ، ووضع فيه شعرة من شعره ، وسدّ به شق الباب .
ثم اقترب من النافذة ، حيث كانت تاييس واقفة ، وادعة راضية ،
وسقط على ركبتيه ، وحمد الله ثلاثاً ، وصاح :

— ما أجمل التي تسير في طريق الحياة ! .. ما أبدع قدميها ،
وما أبهى محياها ! ...

ثم نهض ، وأرخى برنسه على عينيه ، وسار الهويناً مبتعداً ...

فنادت أليين إحدى العذارى ، قائلة :

— احملي يا ابنتي الى تاييس كل ما هي في حاجة اليه ، من
خبز ، وماء ، وناي ذي ثلاثة ثقوب ...

الفرزيون



قفل بافنوس راجعاً الى الصحراء المقدسة ، واستقلَّ بقرب
« تل إتريب Athribis » مركباً صاعداً في النيل يحمل المؤون
لدير السرايوم . ولما خرج من السفينة تقدم تلاميذه لملاقاته
بظاهرات الفرح العظيمة . لأنهم عرفوا ما تمَّ بمدينة الاسكندرية
على يديه وكان الكهنة يتلقون عادة ، بوسائل سريعة مجهولة ،
الاخبار المتعلقة بأمن الكنيسة ومجدها . وكانت الأنباء تُذاع في
الصحراء بسرعة ربح السموم ..

وبينما كان بافنوس يذرع الرمال ، تبعه تلاميذه مسبحين
بحمد الله ، واعترى « فلاقيان » اكبر أخوته ، هذيان ديني فجائي
فأخذ يترنم بأنشودة ملهمة ...

(الفرزيون — L'Euphorbe) اسم مشتق من « اوفريوس » اسم
طبيب أحد ملوك الغرب . وهو لبن نباتي أبيض . (المترجم)

ولما وصلوا الى صومعة الزئيس ، ركعوا جميعاً وقالوا :

— يا ليت أبانا يباركنا ويعطي كلاً منا مقداراً من الزيت
لنحتفل بعودته !

أما بولس الساذج ، فقد لبث وحده واقفاً يتساءل : « من
هو هذا الرجل ؟ » . . . ولم يعرف بافئوس . على أنه لم يعر أحد قوله
التفاتاً لما عُرف عنه من قلة الذكاء والفظنة ، مع كونه موفور
الصلاح . .

خلا كاهن « أنصينا Antinoé » في صومعته ، فقال في نفسه :

— أراني قد استعدت أخيراً ملاًذ راحتي وهنأني ، وعدت
الى معقل قناعتي واكتفائي . لكن ماذا حدث حتى ان هذا السقف
العزير المصنوع من الغاب ، لم يستقبلني كصديق ، ولا قالت
الجدران اهلاً وسهلاً ! . ما تغير منذ رحيلي شيء في هذا المقام
المختار . هذا خواني ، وهذا فراشي ، وهذا رأس المومياء الذي طالما
أوحى اليّ الافكار النافعة ، وهذا هو الكتاب الذي كثيراً ما بحثت
فيه عن صور الله . . . ومع ذلك لا أجد شيئاً مما تركته . كأننا قد
عُرِيت الاشياء من روتقها المعهود ، ويخيّل اليّ اني أراها اليوم أول

مرة . عند ما أنظر الى هذه المائدة ، وهذه الأريكة ، اللتين صنعتهما
يداي في الأيام الخالية . والى هذا الرأس الأسود اليابس ، والى
أدراج البردى المملوءة بآيات الله — يلوح لي أنها آثار رجل ميت .
وأراني ، بعد أن تعرقتها كلها ، لا أكاد أعرفها ! .. وأسفاه ! ..
انه ما من شيء في الحقيقة قد تغير حولي ، ولكنني أنا الذي لم أبق
الشخص الذي كنته . أنا رجل آخر . فالرجل الميت هو أنا ! يا إلهي !
ما الذي صار اليه سلفي ؟ ما الذي أخذه مني ؟ وما الذي تركه لي ؟
ومن أكون أنا ؟؟

وقد انزعج ، على الخصوص ، لما وجد أن صومعته صغيرة ،
مع انه كان يجب — اذا نظر اليها بعين الايمان — أن يراها كبيرة
ولا يرى نهايتها ، لأن سعة الله غير المحدودة تبتدىء منها . . .

بدأ يصلي ، ملصقاً جبهته بالرغام ، فتعزّى ، واستردّ شيئاً من
الفرح . وما كادت تمضي عليه الساعة في التضرع والابتهاال ، حتى
مرت امام عينيه صورة تاييس ، فردد الشكر لله

— يا يسوع ! انك أنت الذي بعثت بها الي . فاعترف بفضلك
العظيم علي . أردت أن تسرّ خاطري ، وتهديء ثائري ، بروية
التي أعطيتك إياها . أراك تمثل امام ناظري بسمتها التي زال الخوف
من أذاها ، ورقمها الرائقة التي لم يعد منها خيرٌ ولا ضرار ، وجملها

الذي نَزَعْتُ منه شوكته الناخسة ! انك لكي ترضيني يا إلهي تظهرها لي كما زينتها وزكيتها ابتغاء رضاك ، مثلما يذكر الصديق صديقه بالهدية التي تلقاها منه . لذلك أرى هذه المرأة مبتهجاً ، لثقتي بأن طيفها آتٍ من لدنك . انك لا تنسى اني وهبتها لك يا يسوع ! فاحتفظ بها ، مادامت تسرك ، ولا تدع محاسنها تسبي أحداً سواك ...

قضى الليل كله ساهراً ، ما اكتحل بنوم ولا أخذته سينة ، ورأى تاييس بجلاء أظهر مما رآها في « كهف العذارى » ، فزكى نفسه بقوله :
— ان ما فعلته ، قد فعلته لمجد الله ...

ومع ذلك بلغ منه الدهش مبلغه ، لأن قلبه لم يطمئن ،
فتهد قائلاً :

— لم أنت حزينة يا نفسي ، ولماذا أنت تقلقيني ؟

وبقيت نفسه في انزعاج . ولبث ثلاثين يوماً على هذه الحال من الكتابة التي تعدُّ نذيراً للناسك بحن هائلة ، وشر مستطير . لم تفارقه صورة تاييس ليلاً ولا نهياراً . ولم يعدها عنه لأنه كان لا يزال يظن انها آت من عند الله ، وانها صورة قديسة ..

لكنها في صباح أحد الأيام ، تراءت له في حلم ، وكان شعرها متوجّجاً بزهر البنفسج ، وكانت رائعة في حلاوتها حتى انه صرخ من شدة الخوف . . فاستيقظ وقد بلّأه العرق البارد . وكانت عيناه لا تزالان مثقلتين بالنعاس ، ف شعر بأنفاس رطبة دافئة تمرُّ على وجهه ، أنفاس ابن آوى صغير ، وضع محلييه عند رأسه وأخذ يلهث هُأته التين في وجهه ، ويضحك من أقصى بلعومه . . .

فشدّه بافئوس وأخذ منه العجب كل مأخذ ، وشعر كأنما قد انهارت تحت قدميه صرخٌ شامخٌ . . .

أجل ! . . في الواقع انه سقط من ذروة ايمانه المتقوض . . .

قضى بعض الزمن مضطرب الفكر ، ولما ثاب اليه رشده ، أفضت ناملاته الى زيادة قلقه ، فقال في نفسه :

— إما أن تكون هذه الرؤيا من الله مثل سابقاتها ، فهي صالحة ، وفسادي الطبيعي قد أفسدها ، كما يتحوّل النيذ خلاً في الكأس القذرة ، وقد أبدلتُ ، لعدم جدارتي ، من النعمة تقمة ، واغتم ابن آوى الشيطاني فرصتها واستفاد منها . وإما أن لا تكون من عند الله بل من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ، فهي شريرة وساءت سبيلاً . وفي هذه الحالة أشك فيما اذا كانت الرؤي السابقة من مصدر سماوي كما حسبتها . فأنا والحالة

هذه قاصرٌ حتى عن التمييز الذي لا بُدَّ منه للزاهد . وأرى الله
ييدي في كلتا الحالتين نفوره مني ، وإعراضه عني ، وهو ما أشعر
بتأثيره ، وأعجز عن تعليه

وعلى هذا النمط برهن ، ثم تضرع بكرُّب :

- يا أيها الإله العادل ! .. بأية تجاريب تبلو عبادك ، إذا
كانت أشباح قديسيك خطراً عليهم ؟ دعني أُميز بعلامة واضحة
ما يأتي منك وما يأتي من غيرك .



صححت عزيمة بافنوس بعد ذلك على أن يكفَّ عن التفكير في
تايس ، إذ تجاذبته الشكوك ولم يُتَّح له الله جلَّت مقاصده أن يهديه
السبيل . لكن تصميمه ظلَّ عقيماً . فان الغائبة عنه ، كانت حاضرة
معه . وكأنها تنظر اليه وهو يقرأ ، ويفكر ، ويصلي ، ويتأمل . . .
وكان اقترابها التصوري يسبقه صوت كخفيف ثوب امرأة في اثناء
مسيرها . وكانت هذه الخيالات أدق من الحقائق التي تنزعزع
ويعتربها الارتباك ، بينما الأشباح الناشئة من العزلة ، تمتاز بأهم
ميزاتها من حيث شدة الثبات والرسوخ .

أنته تاييس بأشكال مختلفة ، تارة مفكرة وقد توج جبينها
بآخر تيجانها التي أحرقت ، ومرتدية كما كانت في مأدبة الاسكندرية
ثوباً أرجوانياً مرصعاً بأزهار من فضة واستبرق . وطوراً خليعة في
سحابة من نقبها الشفافة ، مستحمة في أظلال « كهف العذاري » .
وحيثاً متألفة في أطمار الفرح السماوي . وحيثاً آخر مفجوعة تدور
عينها في مفازع الموت ، وقد أبانت عن صدرها العاري الخضب
بدم قلبها الكليم ...

وكان أشد ما أزعجه من هذه الخيالات ، رجوع الأكايل
والأثواب والنقب التي أحرقتها بيديه ، إذ اتضح له ان هذه الاشياء
روحاً لا تفتى ونفساً لا تبيد ، فصاح :

— ها هي أرواح خطايا تاييس التي لا تُحصى تأتي اليّ !
ولما التفت شعر بتاييس وراءه ، فلم يزد إلا انزعاجاً . وكان
شقاؤه بالغاً أشده . ولكن اذ ان نفسه وجسده بقيا تقيين في وسط
هذه التجربة ، لم يقنط من رحمة الله ، وتقرب منه رافعاً هذه
الشكوى برفق وخشوع :

— إلهي ! اذا كنت قد ذهبتُ الى هذا البعد السحيق
أتفقدتها بين الكافرين ، فقد كان ذلك لأجلك ، لا لأجل نفسي .
فليس من العدل أن أعذب لما فعلته في طاعتك ونفعك . أسبل عليّ

ستر حمايتك يا يسوع الحليم ! يا مخلصي خلصني ! لا تبح للشبح ان يقضي ما عجز الجسد عن فعله . أما وقد انتصرت على الجئان فلا تدع الخيال يصرعني . لا أجهل اني معرض لمخاطر أعظم جداً مما تعرضت له قبلاً ، ولا يخفى عليّ أن الحلم أقوى من الحقيقة ، وكيف لا يكون كذلك وهو ذاته حقيقة سامية ؟ هو النفس ، وأفلاطون ذاته مع كونه وثنيّاً ، سلّم بصحة وجود الهواجس . وفي مأدبة الشياطين التي صحبتني البها يارب ، سمعت أحاديث رجال مع كونهم أشراراً ، لم يكونوا خالين من الذكاء ، وقد اتفقت كلمتهم على ان مانصره في العزلة والتفكير والذهول هو حقيق . وكتبك المقدسة يا إلهي تثبت في مواضع عديدة صحة الأحلام وتأثير الخيالات الصادرة إما منك يا إلهي جلّ شأنك ، وإما من عدوك ...

كان فيه رجل جديد . فناقش الله ، ولكنه سبحانه لم يبادر الى هدايته وارشاده . كانت ليليه حلمًا واحداً طويلاً ، ولم تكن أيامه تختلف عن ليليه

استيقظ ذات صباح وهو يصعد زفرات كالتي تصدر في ضياء القمر عن قبور ضحايا الجرائم . لان تاييس كانت قد آتته تريه قدميها المخضبتين بالدماء ، فلما اغرورقت عيناه بالدموع ، اندست في فراشه . فلم يبق عنده أقل شك في أن صورة تاييس كانت صورة اثم ودعارة ..

فثار قلبه تفرزاً وفاض اشتمزازاً . وانتزع نفسه من فراشه النجس
انتزاعاً ، وخبأ وجهه في يديه كي لا يرى نور النهار . ومرّت الساعات
بغير أن تمحو عاره ، وخيمّ السكوت على الصومعة . وأخيراً غادره
الشبح ، على أن غيابه كان كذلك مزعجاً . وما من شيء على
الاطلاق ألهاه عن تذكر الحلم الفاضح . ففكر هالماً مرتاعاً :

— لماذا لم أدفعها عني ؟ لماذا لم أنتزع نفسي من ذراعها
الباردين ، وركبتها المتهبتين ؟ . .



لم يعد يجروء على النطق باسم الجلالة بقرب ذلك الفراش الكريه
وأشفق أن تكون صومعته قد تنجست فيستبيح الشياطين دخولها في
كل آن . ولم تكذبه مخاوفه ، فبنات آوى السبع التي كانت ملازمة
بابه ولم تحط قط عتبه ، قد دخلت على التعاقب وكنت تحت
المضجع . وعند صلاة المغرب ، أقبل الثامن وكانت رأخته تننه وبيئة
لا تطاق . وفي اليوم التالي انضم التاسع إليها . وما لبثت ان صارت
ثلاثين ثم ستين ثم ثمانين . وكانت كلما تكاثرت تصاغرت . ولما لم
تزد على حجم الفأر غطت الأرض والفراش والمقعد ، ووثب أحدها
على الرف الصغير عند رأس المضجع ووضع محليه الأماميين فوق
جمجمة المومياء . ثم نظر الى الراهب بعينين ناريتين . .

وفي كل يوم كانت بنات آوى جديدة تجيء يزحم بعضها بعضاً



فلكي يكفر بافنوس عن رجس حلمه ، ويتخلص من الأفكار
المدنسة قرأ رأيه على أن يغادر صومعته التي نجست ، ويضرب في
فيافي الصحراء يمارس تقشفاً وتزهداً لم يسمع أحد بمثلهما . ويقوم
بأعمال فريدة تسير بذكرها الركبان ويقدم كفارة ما لها من نظير .
لكنه رأى أن يذهب الى الشيخ بالمون لاستشارته قبل تنفيذ خطته .

فوجده في بستانه يروي حسه ، وقد مال ميزان النهار ، وجرى
النيل الأزرق في سفح التلال البنفسجية . وكان الشيخ الصالح التقى
يمشي الهوينا لكيلا يزعج حمامة حطت على كتفه . قال :

— الرب معك يا أخي بافنوس ! أعجب برحمته سبحانه ! يبعث
إلي بالحيوانات التي خلقها لأحدثها عن أعماله ، وأمجده في طير السماء !
انظر الى هذه الحمامة ولاحظ ألوان عنقها المتغيرة ، وقل لي أليست
من أعمال الله الجميلة ؟ ثم قل لي أولم تأت يا أخي لتحدثني عن
بعض شؤون الدين ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فسأنزل رشاشتي ،
وألقي بسمعي اليك

فحكى له بافنوس حكاية رحلته ، وعودته ، ورواه في النهار ،

وأحلامه بالليل . ولم يغفل ذكر الحلم الاثيم ، وجماعة بنات آوى ،
ثم قال :

— ألا ترى يا أباي أنه يجب على أن أتوارى في الصحراء ،
لأقوم فيها بأعمال خارقة ، وأدهش ابليس بزهدي واستماتي ؟
فأجابه بالمون :

— لست سوى خاطي ، مسكين ، وخبرتي بالناس قليلة ، إذ
قضيت طول حياتي في هذا البستان مع الغزلان والأرانب الصغيرة
والحمام . لكن يلوح لي يا أخي أن مرضك ناشئ على الخصوص من
انتقالك بغتةً بغير حيلة من جلبة المعمورة الى سكينه القفر . هذه
الانتقالات الفجائية لا بد أن توهن صحة النفس . ومثلك يا أخي
مثل رجل يعرض نفسه ، في وقت واحد تقريباً ، للقيظ والقر ،
فيرجحه السعال وتبرّح به الحمى . ولو كنت في موضعك يا أخي
بافنوس ، لكنت بدلاً من الاعتزال في الحال في صحراء مرعبة ،
أخذ بالتسلية الصالحة لناسك تقي وكاهن ورع . كنت أزور
الأديرة المجاورة ، وبعضها كما يقال عجيب . فدير السرابيوم يحوي
على ما بلغني اثنتين وثلاثين وأربعمائة وألف صومعة . والرهبان فيه
منتسمون الى شعب عديدة بقدر حروف الهجاء اليونانية . ويؤكد
الثقة أيضاً أنه قد لوحظت مشابهاً صادقة بين خصال الرهبان

وأشكال الحروف التي تدل عليهم . فالذين هم ، على سبيل المثال ،
موضوعون تحت حرف (ي) ذوو خصال معوجة ، على حين أن
المرتبين تحت حرف (ا) ذوو عقول مخرجة ، ونفوس مستقيمة .
ولو كنت مكانك يا أخي لذهبت وتحققت هذا الأمر بنفسني ، وكنت
لا يقرُّ لي قرار حتى أبصر هذا الشيء العجيب . وكنت لا أغفل
دراسة سنن الطوائف المختلفة المنتشرة على ضفاف النيل ، لأتمكن
من المقايسة بينها . هذه واجبات تصلح لرجل ديني مثلك . ولقد طرق
سمعتك دون ريب أن « افرام » رئيس الدير وضع قوانين روحانية
على جانب كبير من الجمال فستطيع وأنت الكاتب النحرير ، أن
تسخنها باذن منه ، أما أنا فما كنت لأستطيع ذلك لأن يدي ، وقد
اعتادت استعمال المعول ، تعوزهما المرونة اللازمة لتسيير قصبه الكاتب
الرشيق فوق صحائف البردي . لكنك يا أخي تعرف قواعد الخط ،
فلتحمد الله على ذلك ! . ان عمل الناسك والقارىء هو أعظم واق
من الخواطر الخبيثة ، فلماذا لا تدون يا أخي بافانوس تعاليم أبونا
بولس وأنطوان ؟ بهذه الاعمال الدينية ، تسترد شيئاً فشيئاً سكينه
النفس وصفاء الذهن ، وستطيع لك الوحدة مرة أخرى فلا تلبث
أن تصير في حالة فكرية تتمكنك من العودة الى أعمال الزهد التي
كنت تؤديها قبلما تعطلها رحلتك . ولقد اعتاد أبونا أنطوان ، لما
كان بيننا ، أن يقول : « الافراط في الصوم يولد الضعف ،

والضعف يسبب الجمود والتراخي . فبعض الرهبان يتلفون أجسادهم
بصيام مطول بغير تبصر ، فهؤلاء يصح أن يقال فيهم انهم يعمدون
خنجرآ في صدورهم ويسلمون أنفسهم كالجنادات الى الشيطان » .
كذلك قال القديس انطوان . نعم ، لست سوى جاهل ، لكنني
بنعمة الله قد وعيت قول أينا . . .

فشكر بافنوس للشيخ بالمون نصيحته ، ووعد بالتفكير فيها .
ولما تخطى السياج الذي يحيط بالبستان الصغير ، التفت وراءه فرأى
البستاني الصالح يروي خسه ، بينما كانت حمامة تترجح فوق ظهره
المخني . وعندما استوعب بافنوس هذا المشهد ، كاد يجيش بالبكاء
وراود الدمع جفونه ! . . .



عاد الى صومعته ، فوجد هناك حشداً غريباً كأنه حبات رمل
سفاه ريح عاصف . ثم ميزه ، فاذا هو عشرات الالوف من بنات
أوى . . .

وفي تلك الليلة ، رأى في حلم عموداً حجرياً مرتفعاً يعلوه وجه
بشري ، وسمع صوتاً يقول :

— اصعد هذا العمود !

فلما استيقظ مقتنعاً بأن الحلم أتاه من السماء ، دعا تلاميذه
وخاطبهم بهذه الكلمات :

— أولادي المحبوبين ، اني تارككم الى حيث يرسلني الله .
فأطيعوا في غيابي فلافيان كما تطيعونني ، واعتنوا بأخينا بولس . بارك
الله فيكم . استودعكم الله . . .

ظلوا راكعين وهو يمعن في سيره ، ولما رفعوا رؤوسهم رأوا
شبحه الطويل القائم على أفق الرمال . . .



سار نهراً وليلاً حتى وصل الى خرائب ذلك المعبد الذي بناه
الوثنيون قديماً ، وبات فيه بين العقارب والجن أثناء رحلته العجيبة .
كانت الجدران المغطاة بالرموز السحرية لا تزال قائمة . ثلاثون
عموداً هائلاً عليها رؤوس بشرية ، أو أزهار لوتس لا تزال تسند
الحجارة الضخمة . لكن في أحد أطراف المعبد طرح أحد هذه
الأعمدة حملة التقدّم متخلصاً منه ، وكان له تاج على شكل رأس
امرأة باسمه ، بعينين نجلاوين وخدين مستديرين ، وعلى جبينها
قرنا بقرة .

فلما رآه بافانوس عرف أنه العمود الذي ظهر له في حلمه . وقدّر

ارتفاعه باثنين وثلاثين ذراعاً . فذهب الى البلدة المجاورة ، وأوصى بصنع سلم بهذا الارتفاع . ولما أسند السلم الى العمود ، صد ورکم على القمة وخاطب الرب سبحانه :

— هنا إذا يا إلهي المقام الذي اخترته لي . ليتني أبقى هنا في حماك ، حتي يحين حيني ، وتوافيني المنون .

لم يكن معه شيء من الطعام ، اذ كان متوكلاً على العناية الإلهية ، متوقفاً أن يمدّه الفلاحون الكرام بما يقوته . وحدث في عصر اليوم التالي ان بعض النساء والأولاد أتوه بتمرٍ وماء أصعدهما اليه الصبيان حتى قمة العمود

ولم تكن قمة العمود من الاتساع بحيث تمكن الراهب من التمدد بطوله كله ، فنام متر بعاً ورأسه ملقى على صدره . وكانت متاعب النوم لديه أشد من عذابات اليقظة . وعند الفجر ، كانت البواشق تصفعه بأجنحتها فيستيقظ متألماً مرتاعاً

واتفق أن النجار الذي صنع السلم كان رجلاً صالحاً ، فقلقى من جرأء تعرّض القديس للشمس والمطر ، وأشفق عليه من خطر السقوط وهو مستغرق في نومه . فأقام فوق العمود سقفاً ، وركب حوله سياجاً

وما لبث صيت هذا المقام العجيب أن ذاع في البلاد . وأقبل
عمال الوادي في أيام الأحاد مع نسايمهم وأولادهم ليشهدوا « صاحب
العمود » . (١) . ولما سمع تلاميذ بافنوس بمكان عزلته المرتفع ،
احتشدوا بقربه ، واستأذنوه في بناء الكواخ لهم حول العمود . وكانوا
في كل صباح يقفون في دائرة حول الرئيس يستمعون لتعاليمه ، وهو
يقول لهم :

— أولادي ! ابقوا كالأطفال الذين أحبهم المسيح . ان إثم
الجسد مصدر كل الخطايا ورأسها . انها تتوالد منه كأنه أب لها .
فالكبر والشح والكسل والغضب والحسد ذريته المحبوبة . واليكم
مارأيته في الاسكندرية : رأيت الاغنياء مسوقين بنقيصة الترف ، وقد
جرقتهم مثل نهر عكر ، الى دوامة ببحر أجاج . . .

ولما بلغت الرئيسين افرام وسراييون حكاية هذه البدعة
المستحدثة ، راما رؤيتها بأعينهما . فلما شاهد بافنوس على بعد شرع
المركب القادم بهما ، فكر في كون الله تعالى قد جعله مثلاً لجميع
الزاهدين . ولما رآه كبيراً الدير لم يخفياً دهشتها ، فتشاورا ، ثم بدأ

(١) توجد حكاية تاريخية من هذا النوع . قيل ان أحد المنسكين الالقديين
عاش فوق قمة عمود حيث قضى نحو ثلاثين عاماً ، ولقب بسمعان العمودي . .
و لله في خلقه شؤون ! — (المترجم)

كلامهما يلومانه على قيامه بمثل هذه الكفارة الحارقة العادة ، وحثّاه على النزول قائلين له :

— ان مثل هذا الضرب من الحياة مضاد للعرف ، وهو شاذّ ومخالف للقوانين .

فأجابهما بافئوس :

— وهل حياة التنسك إلا حياة الشذوذ ؟ أليس من الواجب أن تكون أعمال الناسك فذة مثله ؟ اني بوحى إلهي صعدت الى هنا ، وبوحى منه تعالى أنزل . .

وكان الناسك يأتون كل يوم فرقاً لينضموا الى تلاميذ بافئوس . وبنوا لأنفسهم ماوي حول المنسك الجوي . وصعد كثيرون منهم ، تشبهاً بالقديس ، فوق أطلال المعبد ، لكنهم ما لبثوا ان نزلوا إذ عنفهم إخوانهم ، ونهكهم التعب فأقلعوا عن تلك المحاولات . . .



وجاء الحجاج من كل فج عميق . وقدم بعضهم من مكان سحيق ، فكانوا جياً عطاشاً . فخطر لأرملة فقيرة أن تبيعهم ماءً بارداً وبطيحاً ، فاستندت الى العمود ووقفت وراء قلنها الحمراء وفاكبتها تحت خيمة مخططة باللونين الأزرق والأبيض ، وأخذت تصيح : « يا أيها الظمء ! هوذا الماء ! » . فحذا حذوها خباز وأحضر

أجرًا وبنى بجوارها مخبزاً ، مؤملاً أن يبيع الغرباء الخبز والكمك .
ولما كان جمهور الزائرين في ازدياد مستمر ، وأخذ سكان مدن
مصر الكبرى يفتدون تبعاً ، شيد رجل آخر فندقاً لنزول السادة
وخدمهم وجمالهم وبغالهم . . وسرعان ما قامت أمام العمود سوق
أحضر اليها الصيادون أسماكهم ، والبستانيون بقولهم وثمارهم . وممَّ
مزين يقص للناس شعرهم في الهواء الطلق ، ويسلي الجمهور بأقواله
الرائقة ، ونكاته الشائقة

وما لبث المعبد العتيق الذي شمته السكينة والسلام دهرًا
طويلاً ، ان امتلاً بجميع لغات الدنيا ومشاهدها غير المعدودة . وحول
الفنديون المغاور الى قاعات تحت الأرض سمروا بدعائها المتهدمة
اعلانات تلوها صورة القديس بافنوس ، وعابها باليونانية والخرية
هذه الكلمات :

هنا يباع نبيذ النبيذ والرمال وجمعة « اوتة » الاصلية



وعلى الحيطان المزدانة بنقوش متقنة جليبة — علق الباعة
البصل والسمك المشوي والأرانب المذبوحة والأغنام المسلوخة .
وفي المساء ، انسلت الجرذان — ضيوف الخرائب القديمة — هاربة
الى النهر . واتلعت الكراكي أعناقها وهي تنقل بجذرد وتردد فوق
الطنوف العالية التي تصاعد اليها دخان المطابخ وعردة السكاري
وصياح السفاة . وخطط المسآحون الشوارع ، وشيد بناؤن الأديرة
والمعابد والكنائس . وما اتقضت ستة أشهر ، حتى أنشئت بلدة
بمخفر ومحكمة وسجن ، ومدرسة يعلم فيها شيخ فقيه أعمى ...

وكان الحجاج لاعداد لهم . وبينهم كثيرون من المطارنة
وكبار رجال الدين ، أقبلوا وهم في غاية الاعجاب . وأتى بطيريك
انطاكية الذي كان وقتئذ في مصر ، مصحوباً بجميع حاشيته .
فاستصوب كثيراً تصرف « صاحب العمود » الخارق العادة .
وواقفه على استصوابه رؤساء كنائس ليبية ، في غياب اثناسيوس .
ولما علم بذلك افرام وسراييون أتيا يعتذران عمأ فرط منهما ،
فأجابهما بافئوس :

— اعلموا يا اخوي أن الكفارة التي أكابدها بالجهد تساوي
التجارب التي تعرّضت لها ، وقد هالني ما رأيت من كثرة عددها
وشدة وطأتها . ان الانسان يرى حسب الظاهر صغير الحجم . ومن

قمة العمود حيث وضعني الله أرى بني البشر يروحون ويغدون
كالمثل . لكننا اذا أنعمنا النظر في الانسان من الباطن نجد عظاماً
جداً ، عظيماً كالدنيا لأنه يسهها . هذه المشاهد المنبسطة امامي -
هذه الأديار والمنازل والسفن والقرى ، وما أراه على بعد من حقول
وترع ورمال وجبال - ليست شيئاً بالنسبة الى ما هو في . ففي
قلبي أحوي مدنًا لا تُعد ، وصحارى لا تُحد . والشر ، الشر والموت ،
يمتدان فوق هذا المتسع غير المحدود ، يُذثّرانه كما يذثّر الليل الارض .
وفيّ أنا وحدي عالم أفكار شريرة ..

قال هذا القول ، لأن اشتهاء المرأة كان متسلطاً عليه ، ممتزجاً

بلحمه ودمه ...



وفي الشهر السابع أتى اليه من الاسكندرية وتلّ بسطه
وسائس نساء عاقرات ، يرجون أن يُرزقن أولاداً بشفاعته وبركة
العمود . فحككن خواصرهنّ بالحجر . ثم اقبلت مواكب لا يبلغ
الطرف آخرها من المركبات والمحفات والنقالات ، وازدحمت حول
العمود القائم عليه رجل الله . وخرج منها مرضى في حالة مخيفة .
وعرضت الأمهات على بافوس أولادهن المصابين بالكسح والعمى

والسعال الديكي والحنّاق وغيرها من الأدوية ، فوضع يديه عليهم .
واقترب منه العميان متمسكين . وأظهر له المفلوجون ما هم عليه من
الشلل التامّ والسقم المميت واقباض عضلاتهم البشع . وأراه
المقعدون أرجلهم المعوجة . وأمسك النساء المصابات بالسرطان
نهودهن ، وكشفن عن صدورهن التي افترسها الرّخمُ الخفيّ .
وجثمت امامه النساء المصابات بالاستسقاء ، وكن متنفخات كزرق
الخر . فباركهنّ كلهنّ . وتقدم النوبيون المصابون بالبرص القبلي
بخطوات متناقلة ونظروا اليه بعيون مخضلة بالدموع . فرسم علامة
الصليب فوقهم . وأحضروا اليه على نعش من بلدة « افروديتو
بوليس » بنتاً صغيرة فثقت دماً ونامت ثلاثة أيام كاملة فكانت كأنها
صورة من الشمع . وظنّ أبواها أنها قضت نجبتها فوضعا سعفة على
صدرها . فابتهل بافنوس الى الله فرفعت البنت رأسها وفتحت
عينها ...

فلما شاع بين الناس أمر المعجزات التي عملها القديس ، أقبل
الجمّ الغفير من المصابين بالداء الذي أطلق عليه الاغريق اسم
« المرض الإلهي » من جميع أنحاء مصر . فما شاهدوا العمود حتى
تشجّجوا وتمرّغوا على الارض واختلّوا وتكوّروا . ومما يكاد
لا يصدّق أن الحاضرين أصيبوا بدورهم بهذيان شديد والتووا

كالصروعين . وتمرغ الكهنة والحجاج والرجال والنساء مختلفين بعضهم ببعض . والتوت أطرافهم وفاض الزبد من أشداقهم وهم يلتمسون التراب بالحففات ويتنبأون .

فشعر بافئوس ، من قمة عموده ، برعدة تمتشى في أعضائه ، وصاح متجهاً الى الله :

— أنا التيس المغضوب عليه ، حمّال الذنوب ، أحمل في عنقي أدران هؤلاء الناس ، وهذا يا رب هو سبب امتلاء جسدي بالأرواح الشريرة .

وكان كما مضى مريض وقد شفي مما أصابه ، يحمله الحاضرون هاتفين هتاف الانتصار .

ولقد علقت مئات العكازات حول العمود المعجز . وعالقت عليه النساء الشاكرات اكاليل الزهر والصور المنذورة . ودون فيه بعض الأغريق قطعاً من الشعر البليغ . ونقش عليه كل حاج اسمه حتى أصبح كله مغشّى بما لا يحصى من الحروف اللاتينية واليونانية والقبطية والقرطاجينية والعبرانية والسورية والسحرية .

•••

وجاء عيد الفصح . فتدفق على مدينة العجائب هذه سيل جارف من البشر حتى ان الطاعنين في السنّ حسبوا انهم عادوا

الى أيام الامرار القديمة . فكنت ترى فوق السهل الفسيح حلل
المصريين المخططة وقد اختلطت ببرانس العرب ، وثياب النوبيين
القطنية ، ومعاطف اليونانيين القصيرة ، وأردية الرومان الطويلة ،
وسراويل البرابرة القرمزية ، وأثواب السراري الذهبية . وكانت
النساء المحجبات يجتزن راكبات الحمير يتقدمهن خصيان سود
يفسحون لهن الطريق بالعصي . وفرش البهلوانون على الارض
سجادهم ولعبوا العاباً مدهشة امام جمهور من المشاهدين الذين
عابنوها وكأنّ على رؤوسهم الطير . وعرض الحواة مشاهد غريبة
من الثعابين والأفاعي ومدّوا أذرعهم ونشروا مناطقهم الحية . .

وهكذا كان حشدٌ عظيم يضيء ، ويتألق ، ويعفر ، ويطنطن ،
ويهدر ، ويجمع . فمن شتائم الجمّالة وهم يجلدون جماهم ، الى صياح
التجار الذين كانوا يبيعون تعاويذ للوقاية من الجذام والاصابة بالعين ،
الى ترانيم الرهبان وهم ينشدون آيات من الكتاب المقدس ، الى
عواء المتسولين وهم يرددون أغاني الحرّيم القديمة ، الى ثغاء الغنم ،
ونهبق الحمير ، ونداء البحارة للمسافرين المتباطئين - هذه الاصوات
كلها امتزجت بعضها ببعض فألفت ضجيجاً يصم الآذان ، وزاد
عليها زناط أولاد الزنوج العرّاة الذين كانوا يجرون من مكان الى
آخر يعرضون للبيع البلح الرطب

وكانت جميع هذه المخلوقات المختلفة قد حُشرت تحت السماء الصافية الأديم في جو كثيف يحمل بعطور النساء وطيب الزنوج ودخان الطهي وأبخرة الصمغ التي اشتراها من الرعاة ، الأتقياء ليحرقوها بخوراً أمام القديس .

ولما جنّ الليل ، كانت النيران والشعل والمصابيح تضيء في كل مكان . فما كان ثمة شيء بُرى سوى أظلال حمراء وأشكال سوداء . وقام في وسط دائرة من المنصتين الجالسين القرفصاء شيخ هَرَمٍ يمثل « خيال الظل » . فقص حكاية أحد القدماء الذي انتزع قلبه من صدره ودفنه في جوف شجرة سنط ، ثم حوّل نفسه الى شجرة ! . وعمل الرجل حركات كرّرها ظلّه بمبالغة مضحكة ، فهتف الحضور معجبين . واضطجع السكارى في الحانات على الأرائك وطلبوا الجعة والنبيذ . ومثلت امامهم راقصات مكتحلات العيون عاريات الصدور بعض المشاهد الدينية والمناظر المحركة للشهوات . وفي جانب آخر ، كان الشبان يلعبون النرد . والرجال المسنون يتبعون البغايا في الظلام .

وفوق هذه الصور المتحركة كان العمود وحده ثابتاً ، وعليه بافنوس مراقباً بين السماء والأرض . وارتفع القمر فجأة فوق النيل كذراع إلهةٍ عارٍ ، فأضاءت التلال بأشعة زرقاء ، وخيل الى

بافنوس أنه يرى جسد تاييس مشرقاً في تآلق المياه في كبد الليل
الأزرق الياقوتي . . .

مرت الأيام وظلّ القديس فوق عموده فلما أتى فصل الأمطار
اخترقت مياه السماء شقوق السقف وغمرت جسده فعبزت أعضاؤه
المحدّرة عن الحركة . وأحرقّت الشمس جلده وحمره الندى فشتقق .
والتهمت القروح الكبيرة ذراعية وساقيه . بيد أن شهوة تاييس
ظّلت تجيش في داخله وترعى في باطنه ، فصاح :

— يا إله القدرة، هذا لا يكفي! زدني من التجارب والوساوس!
زدني من الأفكار الشريرة والشهوات الخبيثة! آتني يا رب
شهوات الناس كلها كي اكفرّ عنها جميعاً! لست أصدق ما سمعته من
بعض الدجالين عن كلبة أرجوس أنها حملت خطايا العالم ، ولكن
لهذه الاسطورة معنى خفياً أدركه الآن . لأن آثام البشر تدخل
حقيقةً أرواح الأولياء لتغرق فيها كما في هاوية . وعلى هذا فنفوس
الأبرار مدنّسة بأدران أرجوس جدّاً من التي في نفوس الأشرار ،
لهذا أحمّدك يا إلهي وأشكر فضلك لجعلك إياي بالوعة أقدار
الكون !

وحدث يوماً أن انتشرت في المدينة المقدسة إشاعة ذات شأن،
وبلغت الناسك ، وهي ان قائد اسطول الاسكندرية لوسوس
أوريوس كوتّا - قادمٌ .. وعمّا قليل يصل ...

كانت الأنباء صادقة . وكان كوتّا الشيخ ، الذي خرج يتفقد
الترع والملاحة في نهر النيل ، قد أبدى غير مرة رغبة في مشاهدة
« صاحب العمود » والمدينة الجديدة التي أُطلق عليها اسم
« ستيلوپوليس Stylopolis » .

وفي صباح أحد الأيام رأى سكان « مدينة العمود » النهر
مغطى بالأشعة ، وظهر كوتّا على ظهر سفين مطلية بالذهب مشدودة
بالأرجوان ، يتبعها اسطوله الصغير ، فخرج يصحبه كاتم سرّه حاملاً
أواح كتاباته ، واريسته طيبه الذي كان يشجوه حديثه .

سار وراءه خدم وحشم كثيرون ، وغطى الشاطئ بالأردية
الرومانية وبذلات الجند الرسمية . فوقف على بضع خطوات من
العمود وبدأ يفحص صاحبه ماسحاً جبهته خلال ذلك بطرف
وشاحه . ولما كان فضولياً بطبعه فقد لاحظ أشياء كثيرة في رحلته
الطويلة حنّ لذكرها ، وعقد العزم على أن يكتب ، بعد أن أتم
التاريخ القرطاجني ، كتاباً عن الأشياء العديدة التي رآها ، وبدأ
عليه أنه سرّاً كثيراً بالمشهد الذي امامه . قال ، وقد عرق ولهث :

— إنه لشيء غريب ! وانها لحادثة تستحق أن تسجل .
فالرجل كان ضعيفاً عليّ يوماً من الايام . أجل ! . هذا الكاهن
تعشى معي في العام المنصرم ، وبعدها خطف إحدى الممثلات . . .
ثم التفت الى كاتم سره ، وقال :

— سطر هذا يا بني في الواحي . كذلك ودون قياس العمود ،
ولا تغفل الاشارة الى شكل القمة .
ثم مسح جبينه ثانية . وقال :

— لقد أكد لي الثقات ان كاهننا صعد فوق هذا العمود
منذ سنة خلت ، ولم يغادره قط . فهل هذا في الامكان يا أريستيه ؟
فأجاب أريستيه :

— إنه في إمكان رجل معتوه أو مريض . لكنه مستحيل
على انسان متمتع بقواه العقلية والبدنية . أولاً تعلم يا لوسيسوس أن
أمراض العقل والجسد تمنح أحياناً المصابين بها قوة لا يتمتع بها
الأصحاء ؟ الحق أقول أنه لا وجود حقيقي للصحة الجيدة ولا
للصحة الرديئة . نعم ، توجد حالات متباينة لأعضاء البدن . وقد
اتضح لي من دراسة الأمراض أنها أشكال ضرورية للحياة . وقد
وجدت في دراستها لذة اكبر مما في محاربتها .

ومنها ما لا يمكن إغفال الإعجاب به ، وهو ما يخفي تحت
اختلاله الظاهري ، أعمق النظامات وأدقها ، كالجمي الرباعية مثلاً (١)
وفي بعض الأوقات تكون أمراض الجسد وسيلة لترقية خواص
العقل . واني لأضرب لك مثل « كريون » الذي كان في صغره
ألكن غيباً فصار بعد أن هشم جمجمته بسقوطه من سلم ، ذلك
القانوني الضليع الذي تعرفه . ولا بد أن يكون هذا الكاهن
مصاباً في بعض أعضائه الباطنية . ومع ذلك فهو غير متفرد في نوع
معيشته كما يلوح لك يا لوسيسوس . تذكر متريضي الهند الذين
يستطيعون البقاء بغير حراك ألبته لا عاماً واحداً وإنما عشرين
وثلاثين ، بل اربعين عاماً . . .

فأجاب كوتاً :

— قسماً بجويتر أن هذا ضلال مبين . لأن الانسان خلق
ليعمل ، والجود جريمة ، لأنه مضر بالدولة . وإني لا أدري لأية
ملة أعزو هذه العادة المنحوسة . ويحتمل أن بعض المذاهب
الاسيوية مسؤول عنها . لما كنت حاكماً على سورية ، شاهدت
نصباً في أروقة مدينة الحيرة . وكان يعلوه رجل مرتين في كل عام ،
ويبقى فوقه سبعة أيام . وكان الناس مقتنعين بأن هذا الرجل

(١) التي تأتي كل اربعة ايام

يتوسل للآلهة بمحدثه معها فتنزل على سورية المنّ والسوى . وقد استهجنّت هذه العادة ، لكنني لم أعمل على إبطالها . لأنّي أرى انه لا يجوز للحاكم أن يستأصل عادات أهل البلاد ، بل عليه أن يربّعاها . وليس للحكومة أن تلزم الناس عقيدةً ، فان واجبها المحافظة على ما هو موجود منها ، سواء أعتادوا كان أم سميئاً ، فقد سنّته روح الزمان والمكان والجاهير . فاذا سعت الحكومة في محاربة دين من الأديان ، ظهرت مظهر الأثر العائى ، وكانت حرّيةً بالبعضاء . هذا فضلاً عن أنّ السبيل الوحيد للترقّع عن خزعبلات العامة هو فهمها وإباحتها . وأرى يا أريستيه أن أترك ساكن مدينة السحب هذا في الجوّ بسلام ، معرضاً لشتائم الطير وغزواتها وحدها . وفائدتي ليست في البطش به ، وإنما في استطلاع أفكاره ، وما ملكت أيمانه وعقائده .

ثم نفخ ، وسعل ، ووضع يده على كتف كاتم سرّه ، وقال :

— دون يا بنيّ أن خطف العاهرات والجلوس على العمُد يُعدّان عند بعض طوائف المسيحيين أمراً محموداً ! ويمكنك أن تزيد أن هذه العادات دليل على عبادة آلهة الشهوات ! لكن علينا أن نسأل الرجل نفسه في هذا الموضوع .

ثم رفع رأسه ، وأظل عينيه بيده من الشمس ، وصاح :

— يا هو! يا بافنوس! إذا كنت تتذكر أنك كنت ضيفي ،
فأجيني . ماذا تصنع في هذا المكان ؟ لماذا صعدت حيث أنت
ولماذا تقيم ؟ وأية دلالة لهذا العمود في فكرك ؟

فلم يتنزل بافنوس لاجابة كوتا ، لأنه كان يعدّه وثيقاً . لكن
تلميذه فلافيان تقدم وقال :

— يا مولاي العليّ الشان ! ان هذا القديس يحمل خطايا
العالم ويبرىء الأمراض .
فصاح كوتا :

— يميناً بجويپيتر! أسمعت يا أريستيه ؟ أن « ساكن مدينة
السحب Le néphélococcygien » يزاول الطب مثلك ! فإذا
تقول في هذا الزميل المعظم ؟
فهزّ أريستيه رأسه وقال :

— يجوز أنه يفوقني في شفاء بعض الامراض ، مثل الصرع
المسمى بين العامة بالمرض الإلهي ، وان تكن الامراض جميعها إلهية
على السواء ، لأنها كلها تأتي من الآلهة . وللوهم تأثير في هذا
المرض . وأنت ترى يا لوسيروس أن هذا الكاهن ، الجاثم هكذا
فوق رأس معبودة ، يؤثر في أذهان المرضى تأثيراً أقوى من

تأثيري أنا المحني في معمل عقاقيري فوق هواويني وقواريري .
توجد يا لوسيوس قوى أشد بأساً من العقل والمعرفة .

فسأله كوتا :

- وما هي ؟

فأجاب أريستيه :

- الجهل والحماقة .

فقال كوتا :

- ان ما أراه امامي الآن لمن الأشياء التي يندر آني رأيت
أشد منها شذوذاً . وآمل أن يروي يوماً كاتب قدير قصة تشيد
« مدينة العمود » . ولكن لا يجوز للرجل الرزين العامل أن يعاق
حتى بأندر المشاهد عن تأدية واجباته ، هيا بنا نتفقد الترع . الوداع
يا بافانوس الصالح ! أو بالحري الى الملتقى ! اذا حدث يوماً أن نزلت
الى الأرض وعدت الى الاسكندرية ، فأرجو ألا تنسى الحضور
لتناول العشاء معي .

سمع الحاضرون هذه الكلمات ، فتلقفها فم بعد فم ، وأذاعها
المسيحيون ورددوها فأضافت الى مجد بافانوس مجداً جديداً . وقد
زينت الخيالات الورعة هذه الكلمات وعظمتها . وأشيع أن

القديس قد هدى ، من قمة عموده ، قائد الاسطول الى الايمان
بالرسل وآباء « نيسييه » . وضمن المسيحيون كلمات أوريلوس كوتا
الأخيرة معنًى مجازياً . فعدّوا العشاء الذي دعا كوتا الناسك اليه
عشاء ربّانياً ، وليمة روحية ، مائدة سماوية !! وألبست قصة هذا
اللقاء زخارف تفاصيل عجيبة ، كان الذين ابتدعوها أول من صدقها !!
فقالوا انه لما اعتنق كوتا الايمان بعد جدل طويل ، هبط ملك من
السماء يمسح العرق عن جبينه ! وزعموا أن طيبه وكاتم سرّه
اهتديا مثله .

ولما اشتهرت المعجزة ، دوّنها شمامسة كنائس ليبيه الكبرى
ضمن الوقائع الموثوق بصحتها ..!

ومن ذلك الحين يمكن القول بلا تردد ان الدنيا من أقصاها
الى أقصاها قد تملكتمها الرغبة في زيارة بافنوس . وان كل المسيحيين
في الغرب ، كما في الشرق ، ولووا أبصارهم الخاشعة شطّاره . وأوفدت
أشهر مدن ايطاليا السفراء اليه . وكتب اليه قيصر روما قسطانس
التقي ، الذي ظاهر الارثوذكسية المسيحية ، كتاباً قدمه القاصدون
الرسوليون باحتفال مهيب ..

ففي إحدى الليالي والمدينة راقدة في الظلّ عند قدميه ، سمع
بافنوس قائلاً يقول :

— لقد صرت يا بافنوس شهيراً بأعمالك ، قوياً بأقوالك .
لقد رفعك الله لرفعته ، واختارك لعمل المعجزات ، لتبريء المرضى ،
وتهدي الوثنيين ، وتنبير الخاطئين ، وتزعج الجاحدين الأريوسيين ،
وتعيد الى الكنيسة السلام ..

فأجاب بافنوس :

— فلتكن مشيئة الله !

فعاد الصوت يقول :

— قم يا بافنوس واذهب للقاء قسطنطوس الطاغية في قصره ،
لأنه بدل أن يحتذي أخاه قسطانس في حكمته ، مال الى ضلالة
أريوس وماركوس . اذهب ! سوف تفتح امامك الابواب النحاسية ،
وسوف ترن نعلك فوق المشى الذهبي أمام عرش القياصرة ،
وسوف يغير صوتك الرهيب قلب ابن قسطنطين ، ويمتد سلطانك
على الكنيسة . وكما تقود الروح الجسد ، كذلك تسود الكنيسة
على الامبراطورية . سوف تعلق يا بافنوس على الوجهاء والامراء
والشرفاء . سوف تضع حدًا لجوع الناس وشراحتهم ، وعتوّ

البرابرة وفضاعتهم . وعند ما يرى الشيخ كوتا أنك على رأس
الحكومة ، يبذل جهده ليحظى بشرف غسل قدميك . وعند موتك
يؤخذ ثوبك الوبري الى بطريك الاسكندرية اثناسيوس الكبير
الذي شاب في المجد ، فيلثمه ويعدّه ذُخْراً من ولي حميد —
اذهب ، على الطائر الميمون !

فأجاب بافنوس :

— فلتكن إرادة الله !

ثم اجتهد في الوقوف ، واستعد للنزول ، لكن صاحب الصوت
ناجاه قائلاً :

— اياك والنزول على السلم ! فهذا ما يفعله الرجل العادي ولا
يليق بمواهبك . قدّر سلطانك بأحسن من هذا يا بافنوس الملكي !
ومن كان ولياً قديساً مثلك يجب عليه أن يطير محلقاً في الجو —
اقفز ! ان الملائكة بانتظارك لتلتفك فاقفز !

فأجاب بافنوس :

— لتكن مشيئة الله كما في السماء كذلك على الارض !
ثم وازن ذراعيه الممتدتين ، فكانا كجناحي طائر مريض

عاريين من الريش ، وأوشك أن يقذف بنفسه ، فرنت في أذنيه
قيته استهزاء مرعبة ، فسأل وقد أرهقه الجزع :

— من ذا الذي يضحك هكذا؟ ..

فعوى الصوت ، يقول :

— آه ! آه ! أنا لا نزال في بدء صداقتنا وسوف تتقوى يوماً أصرة
المحبة بيننا فتعرفني جيداً . هو أنا يا عزيزي الذي جعلك تصعد الى
هنا ، ويحق لي أن أبدي سروري بإذعانك الذي أتممت به جميع
رغباتي . فأنا مسرور منك يا بافوس !

فتمتم بافوس بصوت يتهدج من الخوف :

— الى الورا ! الى الورا ! لقد عرفتك ، انك أنت الذي

رفعت المسيح على ذروة الهيكل وأريته جميع ممالك الدنيا ^(١)

وسقط على الحجر فزِعاً ، وفكّر :

— لماذا لم أعرفه من قبل ؟ انني أشقى من اولئك العمي

والصم والمفلوجين الذين وثقوا بي . لقد فقدت كل دراية بالاشياء

غير العادية . وصرت شرّاً من المعتوهين الذين يأكلون التراب

(١) يريد به الشيطان

ويقربون جثث الموتى . وعدت لا أميرضجة جهنم من صوت السماء .
لقد عدمت كل فطنة ، حتى فطنة الطفل الرضيع الذي يبكي عند ما
يؤخذ عن ثدي أمه ؛ وفطنة الكلب الذي يقتني أثر صاحبه بواسطة
الشم ؛ والنبات الذي يتجه صوب الشمس ؛ فكنت ألعوبة
الشياطين . وكذلك كان إبليس هو الذي أتى بي الى هنا . لما رفعتني
فوق هذا العمود ، صعدت معي الأهواء والكبرياء . فليست
تجاربي هي التي تهولني ، فقد كابد مثلها انطوان فوق جبله ، وأودت
أن تمزق سيوفها بدني أمام أعين الملائكة . نعم ! لقد توصلت الى
إعزاز آلامي ، غير أن الله صامت لا يبدي ولا يعيد ، وصمته يحيرني
ويدهشني . انه يتخلى عني وليس لي سواه . إنه يدعني وحيداً في
مخاوف إعراضه . إنه يفرمني واني أروم الجري خلفه . هذا الحجر
يأهب قدمي بشواظ من نار ، فلا تطلق سريعاً ، فلا تركنه . .
وأرق أسباب السموات لعلي أدرك الله ! . .

وللحال أمسك بالسلم الذي كان قد بقي مستنداً الى جانب
العمود ، ووضع قدمه عليه وهبط درجة فألقي نفسه مواجهاً لرأس
الوحش الذي ابتسم ابتسامة غريبة . فتحقق أن المكان الذي
اتخذ لسلامه ورفعته لم يكن سوى أداة جهنمية لرزته المبرم . فسارع
في النزول الى الأرض وزلّت قدماه والتفت ساقاه وتمايلتا ، ولكنه

وقد أحسَّ بظل العمود فوقه أكره نفسه على الجري . وكان الكرى قد أخذ بمقدكل جفن ، فاجتاز الساحة الكبيرة المحوطة بالحانات والنزل والفنادق ولم يره أحد . واندفع الى درب مؤدى الى تلال ليديه . وتبعه كلبٌ ناجح لكنه وقف في منتهى رمال الصحراء فلم يعدها . وأمن بافئوس السير في بلاد مسالكها مفاوز للوحوش الضارية . وخلف وراءه الاكواخ التي هجرها مزيفو النقود . وقضى في فراره الموحش ذلك الليل والنهار الذي تلاه .

أخيراً ، وقد بلغ به الجوع والظمأ والإعياء حدَّ النزح ، وهو لا يزال يجمل مبلغ بعد الله منه ، عثر على مدينة خيمٍ عليها السكوت ، وقد انبسطت عن يمينه ويساره ممتدة أمامه الى ما وراء الأفق . وكانت مساكنها منفصلة بعضها عن بعض ومتشابهة كأنها أهرام قطعت الى منتصف ارتفاعها . تلك كانت أجداثاً ، محطمة الابواب . ومن خلال قاعاتها شخصت عيون الضباع والذئاب التي تطعم جرائها . وعلى مدخلها جثث الموتى ممددة وقد عراها اللصوص ونهشتها الحيوانات المفترسة . ولما اجتاز بافئوس هذه المدينة — مدينة الموتى — سقط منهوك القوى أمام قبر منفرد بقرب ينبوع يظلمه النخيل . وكان القبر كثير الزخرفة ولكنه بلا باب وفي داخله حجرة مملوءة بالأفاعي . فتهد قائلاً :

— هنا منزلي المختار ، هيكل توبتي وندامتى ، وخباء حسرتي

وانابتى

ثم دلف اليه ، وطرده الصلال بقدميه ، ولبث ملقى على
الحجارة ثمانى عشرة ساعة ، ثم ذهب الى الينبوع وشرب منه براحة
يده ، وجمع قليلاً من التمر وبعض الحبوب من أغصان اللوتس
فتقوتها . واستصوب هذه المعيشة فجرى عليها . فما كان يرفع جبهته
عن حجارة القبر من الصبح حتى المساء



ففي ذات يوم إذ كان مطروحاً على هذا الوجه سمع صوتاً
يقول له :

— تأمل في هذه الصور لتتعلم !

فلما رفع رأسه رأى فوق جدران الحجرة تصاوير تمثل مشاهد
مضحكة ومألوفة . وكانت قديمة العهد وغاية في الاتقان . بعضها
يمثل طهارة ينفخون في النيران بخدود منتفخة ، وبعضها يمثل اناساً
ينتفون ريش الأوز أو يطبخون في الآنية شرايح الضأن ، وبقربهم
صياد يحمل على كتفيه غزالة مزقتها السهام ، ومزارعين منهمكين
بالزرع والحصاد ، ونساء يرقصن على نغمات الرباب والناي والعود .
وفتاة تضرب بالطنبور وزهرة اللوتس تتألق على شعرها الاسود

فدقَّ بأفئوس جبهته بالحجارة ، وصرخ من شدة الفزع .
وكانت الضاربة على الطنبور تترك الحائط في كل ليلة ، وتقدم
وتتكلم بصوت جلي ، ممزوج بأنفاسها الباردة . ولما قاوم القديس
هذه التجارب كلها ، قالت له :

- ملك هواي فؤادك وأذعن لي ! ما دمت تقاومني
فسأعذبك وانكّل بك . انك لا تعرف مبالغ صبر امرأة مية .
سوف أنتظر اذا لزم الأمر حتى تموت ، وبوسعي ، لكوني ساحرة ،
أن أضع في جثتك الهامدة روحاً تعيد إليها الحياة فلا تأتي إجابة ما
رفضته الآن . فكّر يا بأفئوس في غرابة موقفك عندما تنظر روك
السعيدة من علياء السماء فتري جثمانها يستسلم للخطيئة ! والله الذي
وعد أن يرد إليك هذا البدن بعد يوم الحساب ونهاية الدهور سوف
تعتريه هو أيضاً دهشة شديدة ! كيف يقدر أن يُجِلَّ في مجد سماوي
جسماً بشرياً يسكنه شيطان وترعاه ساحرة ؟ انك لم تحسب حساب
هذه المشكلة ، وربما لم يحسب الله لها أيضاً حساباً . إنه - والكلام
بيني وبينك - ليس على شيء من الخدق والدهاء . وان أبسط ساحرة
لتخذه بسهولة . ولو لم يكن لديه رعدة وجنادل سمائه ، لأخذه
أطفال القرية بلحيته . الحق أنه ليس من الفطنة بهزلة خصمه الثعبان
المسن . فهذا الأخير فنّان عجيب . ولست على هذا الحسن والجمال
الألّ لأنه أتقن زينتي ، وعلمني كيف أضفر شعري ، وأجعل أصابي

كالورد ، وأظفاري كالعقيق . وأراك قد استخففت به لما أتيت لتعيش في هذا القبر ، إذ أقصيت بدميك الأفاعي التي كانت هنا وسحقت بيضها ، ولم تبحث عنها لتعلم هل كانت من أسرته . فأخشى يا صاحبي المسكين ان تكون قد سعت إلى حتفك بظلفك ، وعلى نفسها جنت براقش ! ومع ذلك فقد أندرت من قبل وجرى في علمك أنه موسيقار عاشق . فماذا فعلت ؟ انك تحدّيت العلم والجمال . فما أشقى حظك وأعثر جدك ، أما « يهوه » فلن يجيء ليشد أزرك ، فهو ضخم بمحجم الكائنات كلها ، فلا يستطيع التحرك لحاجته الى فضاء . واذا أتى بأقل حركة ، وهذا مستحيل ، انقلب الكون كله . . . يا ناسكي الجليل ، هاتِ قبلة !

لم يكن بافنوس يجهد ما تأتي به فنون السحر من غريب الفعال ، فحدث نفسه ، وقد ألح عليه الوهم والقلق :

— ربما كان الرجل المدفون هنا تحت قدمي عارفاً بسر الكلمات المسطورة في ذلك الكتاب المملوء بالألغاز ، في ضريح ملكي قريب من هنا . فبفضل هذه الكلمات يتخذ الموتى الاشكال التي كانت لهم على ظهر الأرض ، فيرون نور الشمس وبسمة المرأة وكان أشد ما يخشاه أن تتعاقب فتاة الطنبور والرجل الميت ، كما في الحياة ، فيراها متلاصقين . . . وخيل إليه أحياناً انه سمع صوت قبلات خفيفة . . .

ملك الاضطراب زمام أمره . والآن ، وقد تخلى عنه الله ، خاف
الفكر كما خاف الشعور . وفي أحد الامساء ، بينما كان ساجداً
كعادته ، قال له صوت مجهول :

— بافئوس ! ان على سطح الارض من الناس اكثر مما تظن .
ولو أظهرت لك ما رأيت لمت من الخبل . فمنهم رجال لهم عين
واحدة في وسط جباههم . ورجال لهم ساق واحدة يحملون بدل
المشي . ورجال من شجر تنمو جذورها في الارض . ورجال يغيرون
أجناسهم ، وأناث يصرن ذكوراً . ورجال بغير رؤوس ولهم أيضاً
عينان وأنف وفم في صدورهم — فهل تصدق ، بدمتك ، ان المسيح
قد مات لاجل خلاص هؤلاء الناس ؟

ورأى مرة أخرى رؤيا . رأى في نور ساطع جسراً وجداول
وحدائق . وكان على الجسر أريستوبول وشيراس يركضان جواديهما
السوربين ، وقد صبغ حب السباق وجناهما بالاحمرار . وكان
الشاعر كالكيرات ينشد أشعاره تحت إيوان ، والكبيرياء الراضية
تهدج في صوته وتشرق من عينيه . وكان زينوتيمس في بستان
يجمع تفاحاً ذهبياً ، ويلطف ثعباناً ذا جناحين لازوردين .
وهيرمودور يفكر تحت شجرة لبخ مقدسة تحمل بدل الأزهار رؤوساً
بشرية صغيرة ، أشرفت وجوهها وازينت كمعبودات المصريين ،

ونسوراً وصقوراً ، وقرص قمر متألق ، بينما كان نسياس على حافة
ينبوع يدرس ، فوق فلك حلقي ، حركات الكواكب المنتظمة . .

وعندئذ اقتربت من الراهب امرأة مقنعة تحمل في يدها غصناً
من الريحان ، وقالت له :

— انظر ! البعض ينشد الجمال الخالد ويطلب تأييد حياته الغانية ،
والآخرون قليلو الاكثرث ، ولكنهم باستسلامهم هذا وحده
للطبيعة الجميلة تراهم سعداء ذوي جمال وفي رغد من العيش يجدون
مبدع جميع الكائنات ، فالإنسان هو أنشودة مطربة من أناشيد الله .
وتراهم جميعاً يعدون السعادة جائزة والهناة مباحة ، فاذا كانوا على
حق صادقين ، فاشد ما تكون يا بافوس غرّاً غافلاً

ثم زالت الرؤيا



وهكذا حاربت بافوس التجارب والغوايات في جسده وعقله
حرباً لا هدنة فيها . لم يدعه إبليس طرفة عين مستريحاً . وكانت
وحدة ذلك القبر أعمر بالناس من مفارق الطرق في مدينة كبيرة .
وضج الشياطين من حوله بالقهقهات المرتفعة . وقامت هناك ملايين
من أشباح الموتى بأعمال الحياة العادية . ولما مضى في المساء الى ينبوع ،
رقت حوله المسخوطات مختلطات بإلهات الحقول . وقدنه في

دورانهم الفاسق . وعادت الشياطين لا تخشاه ، وأثقلت عليه
بالمداعبات وغمرته بالشتائم البذيئة واللعنات والطمات . وسرق منه
يوماً شيطان ، لا يزيد طوله عن طول ذراعه ، الحبل الذي يتمنطق به .
فناجى نفسه بقوله :

— أيها الفكر ، الى أين اقتدتني ؟ ..

فصمم على أن يشتغل بسديه ، كي يمكن عقله من الراحة التي
كانت تعوزه . وكان يقرب النبيوع أشجار موز كبيرة الورق نامية
في ظل النخيل . فقطع جذوعها وحملها الى القبر حيث سحقها بحجر
وحوّلها الى ألياف أوخيط دقيقة مثلاً شاهد صانعي الحبال يعملون .
لأنه ارتأى صنع حبل بدل الذي سرقه الشيطان منه . فأحس
الشياطين ببعض الانزعاج وكفّوا عن ضييجهم . وأقلمت فتاة الطنبور
عن السحر ، واستكنّت على الجدار الملوّن . وشدّدَ بافئوس شجاعته
وإيمانه وهو يدق سيقان الموز ، وحدث نفسه بما يأتي :

— سأتعلم بعون الله على الجسد ، أما الروح فقد احتفظت
بالرجاء . وعبثاً تحاول الشياطين وهذه المرأة الجهنمية ان تدخل على
نفسي الشكوك في طبيعة الله . سأجيبها بلسان يوحنا الرسول : « في
البدء كان الكلمة ، وكان الكلمة الله » . إن إيماني بهذا لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وإن كان هذا الذي أوّمن به اغواً

باطلاً زدت إيماني به رسوخاً وثباتاً . بل انه يجب أن يكون لغواً
باطلاً ولو لم يكن كذلك لما كنتُ أوْمَنُ به بل كنتُ أعرفه .
فالآن لا تمنح المعرفةُ الحياةَ ولكنَّ الايمان وحده هو الذي يتقد

عرَّض الألياف المنسولة للشمس والندى . وعُني في كل صباح
بتقليها لثلاث تعفن . وسرَّ بأحاسسه بأن سذاجة الطفولة قد انبعثت
في نفسه . ولما جدل الحبل قطع الخوص ليصنع منها حصراً وسلالاً .
فأشبهت حجرة الضريح مشغل صانع السلال . واستطاع بافئوس
أن ينتقل فيها بسهولة من العمل الى الصلاة . بيد أن الله تعالى كان
لا يزال معرضاً عنه ، لأنه استيقظ في إحدى الليالي على صوت ثلجت
بسماعه أطرافه رعباً ، إذ عرف فيه صوت الرجل الميت

دعا الصوت مستعجلاً بهمس خفيف :

— هيلين ! يا هيلين ! تعالي استحي معي ، تعالي سريعاً !

فأجابته امرأة لاسَ فمها اذن الراهب :

— لا أستطيع النهوض يا حبيبي ، ان رجلاً راقداً فوق

صدري .

فأحسَّ بافئوس فجأة بجذده وقد استقرَّ على صدر امرأة ، عرف
انها الضاربة بالطنبور ، ولكنها تخلصت قليلاً ورفعت صدرها ،

فتعلق بافئوس تعلق الياؤس بالجسد الناعم ، الدافئ ، العطر ، وصاح
وقد اضنته منية القضاء المبرم والرغبة في الموت الزوأم

— البئي ، البئي يا سمائي !

لكنها كانت إذ ذاك واقفة بالباب ، فضحكت ، وفضضت
أشعة القمر ابتسامتها ، وقالت :

— وماذا يفيدك بقائي ؟ ان ظل الظل يكفي عاشقاً مثلك
وهُب له مثل هذا الحدس النير ، فضلاً عن إنك قد آثمت ، فقيم
ترغب بعد ذلك ؟ وداعاً ! ان عشيقى يناديني ..

قضى بافئوس الليل في بكاء ونحيب ، ولما لاح الفجر ، فاه
بضراعة أرق من شكايته ، قال :

— يا يسوع ! يا سيدي يسوع ! لماذا تتخلي عني ؟ إنك ترى
الخطر المحقق بي . فتعال شد أزري أيها المخّص الحليم . هوذا أبوك
أصبح لا يحبني ولا يسمعي ، فاذا كر انه لم يعد لي سواك . إنه
لا يرجي منه شيء لي . إنني لا أستطيع إدراك كنهه ، وهو لا يرق
لحالي . لكنك ولدت من امرأة ، وهذا ما يجعلني أطمئن إليك ، وارجو
الخير على يديك . تذكري إنك إنسان . انني اضرع إليك لا لأنك
نور من نور ، وإله حق من إله حق ، بل لأنك عشت معدماً
وضعيماً على هذه الأرض حيث اشقى واعاني . ولأن الشيطان جرب

جسدك ، ولأن عرق النزع ثلج جبينك . لانسانيتك يا معلم الانسانية
اصلي واتوسل ، يا سيدي يسوع ، يا أخي يسوع !
ولما فرغ من ابتهاله ، وَقَلَبَ كَفِيهِ ، اهتزت جدران القبر
بقهقهات مهيبة متتابعة . وقال له الصوت الذي سمعه فوق قمة العمود ،
استهزاء :

— إن هذا الدعاء جدير بصلوات ماركوس الضال . ان بافنوس
اربوسي ^(١) ! بافنوس اربوسي !

فكأنما انقضت صاعقة على الراهب ، فخرَّ مغشياً عليه



لما افاق بافنوس وفتح عينيه ، رأى حوله رهباناً في حلال سوداء ،
وكانوا يصبون الماء على صدغيه ويتلون التعاويذ ، وقد وقف
كثيرون منهم خارج القبر حاملين سعف النخل

(١) الاربوسي هو من ينكر لاهوت السيد المسيح عليه السلام . — (المترجم)

قال له احدهم :

— سمعنا ، ونحن نجتاز الصحراء ، صيحات مرتفعة من هذا القبر ، فدخلنا ، فألفيناك طريقاً فوق الحجارة مغمى عليك . ولا ريب ان الشياطين صرعوك ، ولما شعروا بدنونا ولَّوا هارين . . .
فرفع بافوس رأسه ، وسأل بصوت خافت :

— من أنتم يا إخواني ؟ ولماذا تحملون سعف النخل ؟ أوليس هذا لأجل دفني ؟

فأجاب أحدهم :

— ألا تعلم يا أخي أن أبانا أنطوان ، وقد بلغ من العمر خمساً بعد المائة ، قد أتاه نذير بأن نهايته دنت ، فنزل من جبل كلزان ، حيث كان معتزلاً ، ليبارك أبناء الروحيين الكثيرين . . . فهانحن أولاً ، ذاهبون حاملين السعف لنلقى أبانا الروحي . فكيف بقيت جاهلاً مثل هذا الحادث الجلل ؟ أفلم يأتِ الى هذا القبر ملك لينبئك ؟

فأجاب بافوس :

— وأأسفاه ! لست جديراً بمثل هذا الفضل العظيم . وليس

سكان هذا الربع سوى عفاريت ووطاويط . صلوا من أجلي ، أنا
بافنوس ، كبير رهبان أنصينا ، أشقى عباد الله ...

فلما سمعوا اسم « بافنوس » هزوا سعنهم ، وردّوا التسايح ،
وصاح الذي تكلم من قبل ، متعجباً :

— أفيمكن أن تكون أنت بافنوس ذلك القديس الذائع الصيت
بأعماله ، حتى أن الناس يعدونه بالغا يوماً في الفضل مبلغ انطوان
العظيم ؟ يا أقدس قديس انك أنت الذي هدى العاهر تاييس
الصراط المستقيم ، وأنت الذي إذ صعد على عمود عال حملته
الملائكة ، فرأى الذين يخفرون العمود ليلاً انتقالك الميمون الى
السماء . وقد أحاطت بك أجنحة الملائكة في سحابة بيضاء ، وامتدت
يدك اليمنى وباركت مساكن البشر . وفي صباح اليوم التالي إذ لم
يرك الناس ، ارتفع أنين طويل الى العمود غير المتوج . على أن
تميذك فلاقيان أذاع المعجزة وقام مقامك في تولى شؤون الرهبان .
لكن رجلاً واحداً ساذجاً يدعى بولس ، حاول أن ينقض ما أجمعت
عليه الآراء ، فقد أكّد أنه رآك في حلم محمولاً بالشياطين .. فأراد
الناس أن يرحموه ، وقد نجا من الموت بأعجوبة . وأنا « زوزيمس »
رئيس هؤلاء المتسكين الساجدين عند قدميك ، أركع امامك مثلهم ،

كي تبارك الأب مع الابناء ، ثم تخبرنا بالعجائب التي أنعم الله عليك
بأن أجراها على يديك
فأجاب بافنوس :

— لست أستحق شيئاً مما وصفني به . فان الرب قد بلاني
بأهول التجارب . ولم تحملني الملائكة ، بل ان حائطاً من الظل قام
أمام ناظري وتقدمني . . لقد عشت في حلم ، وكل شيء من دون
الله حلم . لما شخصت الى الاسكندرية سمعت في بضع ساعات
خطباً كثيرة ، وعرفت أن جيش الضلال لا عدد له ، وقد طاردني ،
وأحاطت بي سيوفه . .

فأجاب زوزيمس :

— علينا أن نذكر يا أبي الموقر ، أن الأولياء ، لاسيما
المتسكون منهم ، يُعرضون لتجارب مخيفة ، واذا لم تكن أذرع
الملائكة قد حملتك الى السماء ، فمن المحقق أن الرب قد أنعم بهذا
الفضل على صورتك ، إذ كان فلافيان والرهبان والناس شهوداً
على صعودك الى السماء

فعزم بافنوس على الذهاب لتلقي بركة انطوان ، وقال :

— اعطني يا أخي زوزيمس سعة ، ولتوجه للقاء أينا .

فأجاب زوزيمس :

— هيا بنا ! ان الأوامر العسكرية تلائم الرهبان ، الذين هم جنود قبل كل شيء . ولأننا كلينا رئيسان فسنسير في المقدمة ، وأولاء يتبعوننا وهم يرتلون المزامير

بدأوا المسير ، وقال بافنوس :

— الله أحد ، لأنه الحق الذي هو واحد . والدينا شتي ، لأنها غيٌ وضلال . على المرء أن يعرض عن مشاهد الطبيعة كلها حتى التي تظهر أنها غاية في الطهارة والبراءة . فتنوعها الذي يزينها لنا إنما هو دليل على شرها المستطير . أنا لا أقدر على رؤية حزمة من البردى فوق المياه الراكدة بغير أن تتشعب نفسي الهموم وتساورني السكابة . كل شيء تحسُّ به الشاعر وتدركه قبيح كريحه . أصغر حبة من الرمل ذات خطر شديد . كل شيء يفتننا ويصيبنا بالإحزن والنكبات . وما المرأة الأ مزيج من كل هذه الغوايات السابحة في النسمات الرائقة ، وعلى الأرض المزهرة ، وفي المياه الصافية . فطوبى لمن تكون روحه وعاءاً محتوماً ! طوبى لمن يعرف كيف يكون أصمٌ وأبكم وأعمى ، ولا يدرك كنه شيء في الدنيا ، ليدرك كنه الله !

فمكر زوزيمس في هذا الكلام ، واجابه بقوله :

- ينبغي لي يا ابي المحترم أن أقرّ لك بأثامي مادمت قد
كشفت لي عن ذات نفسك . وهكذا يعترف كل منا للآخر
طبقاً للعادة الرسولية . لقد حيتت قبلما أترهب حياة الرذيلة .
ضربت في أرجاء « مادورا » وهي مدينة مشهورة بغوانيتها . وبجحت
عن صنوف التمتع وضروب التلذذ . وكنت في كل ليلة أتعشى مع
بنات الهوى والفتيات العازفات بالناي . وأخذ الى بيتي من تسهوييني
منهن . وليس في وسع قديس مثلك أن يتصوّر مطلقاً الى أي درك
هوت بي شهواني . يكفيني أن أقول لك انني لم أغادر كهلة صالحة
أو راهبة ، فأثيت المنكر ، واركتبت كل محذور ومحروم . وقد
هيجت حرارة مشاعري بالحر ، حتى شهد لي أهل مادورا بأنني
أشد السكيرين إغراقاً في رشف بنت الحان ، وأقدرهم على
استفراغ الدنان . ومع ذلك كنت مسيحياً ، واحتفظت مع كل
حماقتي وضلالاتي بإيماني بالمسيح المصلوب . وأخيراً ، استغرقت عيشة
الخلاعة والاسراف كل مالي . وبدأت أشعر بغصص الفاقة ، وإذا
بي أرى أحد رفقاء مسراتي قد أصيب فجأة بداء عضال فظيع . فلم تعد
ركبته تقويان على حمله ، وعصته يدها المرتعشتان ، وأغمضت عيناه
الخائبتان ، فما كانت تصدر من حلقه إلا تأوهات مروعة . وكلّ

ذهنه ، فهجع ، إذ مسخه الله حيواناً تنكيلاً به لأنه عاش كالحيوان .
ولقد كان لي في ضياع مالي تبصرة نافعة ، لكن مثل صديقي كان
أبلغ وأفع . وأثر في نفسي بحيث جعلني أنترك الدنيا على الفور
وأنزوي في الصحراء . وفيها تمتعت عشرين حولاً بسلام لم يكدر
صنوه شيء قط . فكنت أعمل مع رهباني حائكاً ، وبناءً ،
ونجاراً ، وكاتباً مع انه والحق يقال لم يكن لي نحو الكتابة إلا ميل
ضئيل ، إذ آثرت دائماً العمل على القول ، وفضلت الفعل على
الفكر . وها هي أيامي ملؤها الفرح ، وليالي بغير أحلام ، واني لأعد
نعم الله تعالى عليّ فلا أحصيها ، لأنني احتفظت بالأمل حتى في
إبان اشد المعاصي هولاً ...

فلما سمع بافئوس هذا القول ، رفع بصره الى السماء ، وتمتم :

— أترحم يارب هذا الرجل المدنس بهذه الخطايا كلها ، أترحم
هذا الزاني ، أتكلأ بعين رعايتك هذا المنتهك للحرمات ، ثم تعرض
عني أنا الذي كنت آتمر بأمرك ، وأنتهي بنهيك !؟ ما أشد غموض
عدالتك يا إلهي ! وما أبعد طرقك عن الإدراك !

فمدّ زوزيمس ذراعيه قائلاً :

— انظريا أبي الموقر ، ترى على جانبي الأفق صفوفاً طويلاً

سوداء كأنها نمل راحل . اولئك اخوتنا ذاهبون مثلنا للقاء انطوان
ولما وصلوا الى الملتقى ، رأوا مشهداً بديعاً . كان جيش النساء
يمتد ثلاثة صفوف في نصف دائرة كبيرة . فالصف الاول يتألف
من سكان الصحراء الأقدمين ، بأيديهم الصلبان وقد تدلت لحاهم
الى الأرض . والصف الثاني من الرهبان الذين تحت امره « افرام »
و « سرايون » ومعهم نساك النيل . ووقف وراءهم الزاهدون الذين
توافدوا من معاقلم النائية . وارتدى بعضهم أطواراً لا تكاد تستر
أجسادهم السوداء الذابلة . وكان كثيرون منهم غراً غير أن الله
قد كساهم شعراً كثيفاً كحزرة الغنم . وكانوا جميعاً يحملون السعوف
الخضري أيديهم . فأشبهوا قوس قزح من زمرد . ويصح تشبيههم
بفرقة المرتلين المحبتين ، أو بجدران حية من مدينة الله . .

وكان المحفل منظماً تنظيمًا تاماً ، حتى ان بافوس لم يجد أقلَّ
صعوبة في العثور على مرءوسيه من الرهبان . فاتخذ مكاناً بقربهم
بعد ما احتاط في اخفاء وجهه بحجابيه ليقى مجهولاً عندهم ولا يكدر
عليهم ترقبهم الديني . وبغته ، تعالى هتاف الجميع حتى بلغ عنان السماء :
— القديس ! القديس ! هوذا الولي العظيم ! هوذا حبيب الله
الذي لم تغلب عليه جهنم ! أبونا انطوان !

ثم ساد السكوت ، والتصقت كل الجباه بالرمال . فتقدم
انطوان من قمة اكمة في الصحراء ، يسنده تلميذاه المحبوبان
ماكار يوس وأماتاس ، وسار الهوينا منتصب القامة ، يشعر الناظر
اليه بأن فيه بقية من قوة فائقة . وقد سترت لحيته البيضاء صدره
العريض . وانعكس عن جمجمته المصقولة اللامعة شعاع النور كما عن
جبين موسى . وكان لعينه نظر النسر ، وعلى فمه بسمة الطفل .
فبارك قومه بأن رفع ذراعيه التين أوهنهما عمل شاق مدة قرن
كامل . وجهر صوته ، لآخر مرة ، بكلمات المحبة الآتية :

— ما أجمل خيامك يا يعقوب ! وأخبتك يا اسرائيل !

فارتفعت في الحال من أقصى الحائط الحي إلى أقصاه ، مثل

قصف الرعد المتوازن ، أنشودة : طوبى للنزي بخاف الرب

ثم تفقد انطوان مع ماكار يوس وأماتاس صفوف الشيوخ
والرهبان والنسك . هذا الرجل الذي رأى السماء وجهنم ، هذا
الزاهد الذي حكم الكنيسة المسيحية من قلب معقله ، هذا القديس
الذي ثبت يقين الشهداء في أيام المحن والاضطهاد ، هذا اللاهوتي
الذي صعقت فصاحته أهل الضلال — أخذ يخاطب ابنائه واحداً
بعد واحد ، برقة وحنان ، ويودعهم وداعاً جميلاً في عشية ميته
السعيدة التي وعده بها الله الذي أحبه

قال للرئيسين افرام وسرايون :

— انكما تقودان الجيوش الجرارة ، وكلاكما ماهر ومدرب
في فنون الحرب ، لذلك سوف تتقلدان في السماء سلاحاً ذهبياً ،
ويمنحكما ميخائيل رئيس الملائكة لقب قائدي قواته .

ولما رأى الشيخ بالمون عاتقه وقال :

— هذا أعزّ أولادي وأفضلهم جميعاً . لروحه شذا عطري
كأريج زهر الفول الذي يزرعه في كل عام .

ووجه الى الرئيس زوزيمس هذه الكلمات :

— انك لم تقنط من رحمة الله ، لذلك فسلام الله فيك
وعليك ، وقد أزهرت زنبقة فضائلك على سباخ فسقك .
وكان كلامه مع كلٍ منهم مملوءاً حكمة وارشاداً .

قال للشيخ :

— رأى الرسول حول عرش الله أربعة وعشرين شيخاً في
ثياب بيضاء ، وعلى رؤوسهم التيجان .

وقال للشبان :

— افرحوا وابتهجوا ، ودعوا الحزن للسعداء في هذه الحياة الدنيا .

وهكذا طاف مقدمة جيشه البنوي ، يحض النصح ، ويذر العظات . فلما رآه بافئوس يقترب منه ، خرَّ ساجداً ، يتنازعه الخوف والأمل ، وصاح غاصاً بآلامه المبرحة :

— أبتاه ! أبتاه ! أبتاه ! أغثني فاني من الهالكين . لقد وهبت روح تاييس لله ، وعشت فوق قمة عمود ، وفي قاع قبر . فتصلبت جبهي من طول التصاقها بالزغام حتى صارت مثل ركة الجمل ، ومع ذلك لا يزال الله معرضاً عني . باركني يا أبت فأنجو . هزَّ الثغام فأطهر وأعود تقياً أتلاً كالتلج .

فلم يجبه أنطوان . بل رشق رهبان انصينا بتلك النظرة التي ما كان يوسع أحد الثبات امامها . ثم استقر ناظره على بولس ، الملقب بالساذج ، فحدق اليه طويلاً ، ثم أشار اليه بالدنومه . ولما أبدى الجميع دهشتهم لمخاطبة القديس رجلاً مختل الشعور ، قال انطوان :

— ان الله قد أنعم على هذا الرجل بما لم ينعم به على أحد منكم . ارفع بصرك يا ولدي بولس ، واخبرنا بما تراه في السماء .
فرفع بولس الساذج عينيه ، وأشرق وجهه ، وانطلق لسانه ، فقال :

— أرى في السماء سريراً مزدياناً بسجوف من أرجوان وذهب،
تحيط به ثلاث عذارى ساهرات على حفظه ، كي لا تقرب منه روح
غير الروح المحببة التي أُعدَّ لها السرير . .

فبادر بافئوس يردد الشكر لله حاسباً أن هذا السرير رمز الى
تمجيده . لكن انطوان أشار اليه بالصمت والاصغاء للساذج الذي
تم في ذهول الجذب ، قائلاً :

— العذارى الثلاث يخاطبني قائلات : « ان قديسة على
أهبة مفارقة الأرض ، تاييس الاسكندرية على وشك الموت ، وقد
أعددتنا لها مضجع مجدها ، لأننا نحن فضائلها :

« الايمان . والخوف . والحب »

فسأل أنطوان :

— وماذا ترى أيضاً يا بني الحبيب ؟

فنظر بولس بيله ، من سمت الرأس الى سمت القدم ، ومن
المغرب الى المشرق ، ثم وقع ناظراه فجأة على كاهن انصينا ، فشحب
وجهه من جزع قدسي ، وعكست حدقاته لهباً خفياً ، وقال :

— أرى ثلاثة زبانية قد امتلأوا فرحاً ، واستعدوا لقبض
هذا الرجل ، وهم يشبهون برجاً وامرأة وساحراً . والثلاثة يحملون

أسماءهم موسومة بميسم من حديد حامٍ ، الأول على جبينه ، والثاني على بطنه ، والثالث على صدره ، وأسمائهم هي :

« الكبرياء . واللذة . والشك »

لقد رأيت هذا كله .

ثم عاد بولس إلى حالته الأولى من البساطة ، بعينيه الغائرتين ، وحنكه المعلق

ولما نظر رهبان أنصينا الى أنطوان بقلق ، فاه القديس بهذه الكلمات :

— قد أعلن الله حكمه العادل ، فلنعبده ونحن سكوت .

ثم سار وهو يبارك الجموع . وكانت الشمس قد بلغت الأفق ، فزمته بالمجد ، وامتد ظله خلفه — بمنة من السماء — امتداداً عظيماً كبساط لا آخر له ، رمزاً الى التذكار الطويل الأمد الذي سيخلفه هذا الولي العظيم بين البشر ..



أما بافوس فقد وقف مصعوقاً ، ولم ير ولم يسمع شيئاً غير الكلمات التي ملأت وحدها أذنيه ، وكانت : « تاييس على وشك

الموت ! ». لم يخطر بباله قط مثل هذا الفكر . قضى عشرين سنة يتأمل في رأس مومياء ، ومع ذلك أدهشه تصوّر أن الموت يغمض عيني تاييس !

« تاييس على وشك الموت ! » قول غير معقول ! « تاييس على وشك الموت ! » يا لشدة الهول المروع في هذه الكلمات الاربعة ! . « تاييس على وشك الموت ! » إذ أفا الحاجة للشمس والأزهار والغدران والبرايا جميعاً ؟ « تاييس على وشك الموت ! » فما فائدة الكون ؟

ثم وثب فجأة صارخاً : « اذهب لتراها ، لتراها مرة أخرى ! » وأخذ يعدو . ولم يدر أين هو ، ولا إلى أين يذهب . لكن الوجدان قاده وسدّد خطاه . فسار رأساً الى النيل . وكان سطحه مغشياً بشُرّع المراكب قفّز الى ظهر سفينة لبعض النوبيين . وهناك انبطح في مقدمتها ، تلهم عيناه الفضاء ، وصرخ بحزن وغضب :

— تبا لي من مجنون معتوه ، لأني لم أحظ بتاييس لما سمح الزمان ! ياما أشدّ حماقتي لأني اعتقدت أن في الدنيا شيئاً سواها ! يا ويح الجنون ! لقد فكّرت في الله ، وفي خلاص نفسي ، وفي الحياة الأبدية ، كأنما كل هذه تعدّ شيئاً مذكوراً جنب رؤية تاييس . كيف لم أدرك أن السعادة الأبدية انما هي في قبلة واحدة

من قبلاتها ، وان الحياة بدونها لا معنى لها وليست سوى حلم مزعج ؟
يا لك من غبي أخرق ، تراها ثم لا تفتأ ترغب في طيبات عالم ثان ؟
يا لك من نذل جبان ، تراها وتخشى الله ، الله ! السماء ! ما هما وما
نصيبي منهما ؟ وهل يساوي ما يمنحانه لي أقل جزء مما كانت
ستمنحه لي تاييس ؟ أفير لك من معنوه سخيف بحث عن رافة
الله وطلبها في كل مكان الأعلى شفتي تاييس ! أية يد غطت عينيك ؟
ألا فليكن ماعونًا ذاك الذي أعماك حينذاك ! كنت تستطيع أن
تشتري بثمن قصاص الآخرة دقيقة من حبهها والتمتع بها فلم تفعل !
لقد فتحت لك ذراعها ، المفظورين من لحم ممتزج بعطر الزهر ،
ولم تملّ لذة الفرق في حضنها ، والاستناد الى صدرها العاري
الذي لا يوصف !

لقد أصخت الى الصوت الحسود الذي قال لك : « أعرض
عن هذا » . . فيالك من مغفل ، مغفل شقي ! آه يا للحسرات !
يا للندامات ، أوآه يا لليأس ، يا لخيبة الأمل ! لجرماني أن أحمل
الى الجحيم ذكرى تلك الساعة التي لا تنسى ولا تمحي ، صارخًا الى
الله : « احرق لحمي ، جفف الدماء التي في عروقي ، اسحق عظامي ،
غير انك لن تستطيع أن تنتزع مني التذكار الذي يعطرنني وينعشنني
للأبد ، والى الأبد ! . . تاييس على وشك الموت ! ليتك يا الله



(تائيس القديسة)



تعلم كم أسخر من جهنمك ! تاييس على وشك الموت فلن تكون
لي أبداً ، أبداً ، أبداً ! »

وبينا السفينة تتبع التيار السريع ، لبث طوال أيامه منكباً على
وجهه ، يكرر :

— أبداً ! أبداً ! أبداً !

ولما ذكر أنها وهبت نفسها للجميع إلا له ، وأنها سكبت على
العالم مياه الغرام وهو وحده لم يبلل منها شفثيه ، وقف في حالة عتوّ
ونفور ، وولول حزناً ، ونشج توجعاً ، ومزق صدره بأظفاره ،
وعضّ زنديه ، وحدث نفسه :

— ليتني أجد سبيلاً الى قتل من أحببتهم أجمعين

فلأته فكرةُ هذا التقتيل بحمياً للذيدة وحنق عذب ، ففكر في
ذبح نسياس ، على مهل رويداً رويداً ، بينا هو يحدق في قرارة
ناظريه . ثم ما لبثت حميته أن خمدت فجأةً ، فبكى وتأوه ، ووهن
العظم منه فارتدّ ضعيفاً وديعماً ، وسكّن اضطراب نفسه حنوً مجبول .
تملكته رغبة الارتقاء على عنق رفيق صباه ، يقول له :

« نسياس اني أحبك لأنك أحببتها . حدثني عنها ! اخبرني

بما قالته لك . »

وكانت مرارة تلك الجملة : « تاييس على وشك الموت ! »
لا تزال عالقة بألياف قلبه :

— يا أنوار النهار العسجدية ! يا أظلال الليل الفضية ! أيتها
النجوم ! أيتها السموات ! أيتها الأشجار المرتعشة قممها ! أيتها
الوحوش الضارية ! أيتها الحيوانات الأليفة ! يا نفوس الرجال المتألمة !
ألا تسمعون : « تاييس على وشك الموت ! » . أيتها الأنوار
الساطعة والأنفاس الصاعدة ، والعمور الطيبة — أمحي وافني !
يا بهاء الكون ورواه ، وأشكاله وأفكاره — اختفي واختبئي !

« تاييس على وشك الموت !... » تاييس كانت جمال العالم
ينعكس حسننها على كل ما يقربها فيصبح زينة للناظرين .. ما كان
ألطف ذلك الشيخ الهرم ، وأولئك الحكماء الذين جلسوا بقربها في
مأدبة الاسكندرية ! ما كان أمتع حديثهم وأرقه ! إن سرُّاً من
الضحكات الرائقة حام حول شفاههم ، وضمخ السرور خواطرهم .
ولأن أنفاس تاييس هبت عليهم ، فكلُّ ما قالوه فاح حباً ، وجمالاً ،
وحقاً . ولقد خلع الإلحاد الجميل على أقوالهم ثوب ملاحظته .
فأفصحوا ببلاغة عن الجلال البشري .. وأسفاه ! ليس كل ذلك
الآن الأحلام . تاييس على وشك الموت ! أوّاه ! ما أشدّ بدهاة
آتي مانت موتها ! ولكن .. أتني لك الموت أيها النطفة القذرة

الجافة ، أتى لك الموت أيها الجنين المنفوع في مرارة الضرّ وحرّازة
الدمع ؛ أيها السقّط الشقي هل يعلق بوجهك أنك ستذوق طعم
الموت ، أنت الذي لم يعرف الحياة ؟ . لكن لعل الله يكون موجوداً
فيقضي عليّ بعذاب الآخرة ! هذا رجائي ومشتهاي . أيها الإله الذي
أمقتة ، استجب لي ! اقذف بي الى جهنمك وبأس المصير . واني
لكي أكرهك على فعل ذلك ، أبصق في وجهك . . . يجب أن
أجد حجماً أبديةً لا ينطفيء ، سعيرها ، ولا تخبو نيرانها ، كما أستطيع
أن أبحر فيها أبدية السخط التي احتوت عليها نفسي

.....
.....

وعند طلوع الفجر ، تلقت « ألبين » كاهن أنصينا في مدخل
الصوامع . فقالت له :

— مرحباً بك أيها الأب الموقر في أخبية السلام . انك أت
بلا شك لتبارك القديسة التي أعطيتنا اياها . أنت تعلم أن الله قد
دعاها اليه . وكيف لا تعلم البشائر التي يحملها الملائكة من بادية الى
بادية ؟ حقاً لقد دنت تاييس من نهايتها السعيدة ، فقد تمت أعمالها .
وعليّ أن أخبرك بكلمات وجيزة عن سيرها في الزمن الذي قضته
بيننا بعد رحيلك ، وكانت حبيسة الصومعة التي أفلتها بمخاطمك ،

أرسلت إليها مع طعامها نايًا كالذي تضرب به الفتيات اللواتي
يحترفن حرقها في الولائم والحفلات . فعلت ذلك لكيلا تشعبها
الهموم وتكتئب . وكى تظهر امام الله سبحانه من البراعة والمواهب
ما لا يقل عمًا أظهرته امام الناس . وقد أحسنت صنعًا وكنت
صادقة الفراسة . لأن تاييس أخذت توقع يومًا على الناي مدائح
« مخلص البشر » . وقالت العذارى اللاتي شاقهن أنعام الناي الخفي :
« أنا نسمع عندليب الخائل السماوية ، نسمع أوزة يسوع المصلوب
التي تحتضر » . كذلك قضت تاييس توبتها . وبعد ستين يومًا فتح
الباب الذي ختمته من تلقاء نفسه ، وانكسر الختم الصلصالي من غير
أن تمسه يد بشرية . فأدركت من هذه العلامة ان الله تعالى قد
غفر للضاربة بالناي خطاياها . ومن ذلك الحين شاركت بناتي في
عيشهن فكانت تعمل وتصلي معهن . وصارت لهن قدوة صالحة بما
في حركاتها وكلماتها من حشمة ووقار . وكانت يبنهن مثال الحفر
والعناف . وفي بعض الأوقات ، كان يتقسّمها الهم والشجن ،
ويتناوبها الهم والحزن ، غير ان هذه السحب ما لبثت أن تقشعت .
ولما رأيت انها شديدة التعلق بالله ، منقادة اليه بالايان والأمل
والحب . لم أخف أن أستخدم فنّها ، بلهّ جمالها ، في تهذيب
أخواتها . فدعوتهما لتمثل أمامنا أعمال النساء الشهيرات ، والعذارى
العاقلات اللواتي ذكرهن الكتاب المقدس . فمثلت استير ودبورة

ويهوديت ومريم اخت لعاذر ومريم ام يسوع . اني عالمة علم اليقين
يا ابي الموقر بما ينال قداستك وورعك من جزع لذكرى تلك
المشاهد التمثيلية . بيد أنك لو كنت رأيتها في تلك المشاهد الصالحة
تفجّر في عبراتها الصادقة ، وتمدّ ذراعيها كالسعف نحو السماء ، إذا
لتأثرت أشدّ تأثر . سست النساء ورعيتن زماناً طويلاً ، ومن
مبدئي أن لا أقوم طبيعتن ، فليست كل البذور تنبت أزهاراً
متشابهة ، وليست كل النفوس تطهر بوسيلة واحدة . ويجب أن
نذكر أيضاً أن تاييس قد وهبت نفسها لله وهي لا تزال شائقة فاتنة
في ريعان صباها . وأن تقدر مثل هذه التضحية ، التي ان لم تكن
منقطعة النظر ، فهي بلا مرأ نادرة الحصول . هذه الملاحظة ، ثوبها
الطبيعي ، لم تفارقها بعد ثلاثة أشهر من اصابتها بالحمل التي تكاد
تودي بها . وكانت اثناء مرضها تطلب بالحاح أن ترى السماء ،
فأمرت بأن تنقل في كل صباح الى صحن الدير قرب البئر تحت
شجرة التين القديمة ، التي في ظلها كانت رئيسات الدير يقمن
محافلن . ستجدها هناك أيها الأب المحترم ، لكن خفّ واسرع ،
ان الله يدعوها اليه ، ولا تلبث أن تلي الدعوة . وفي هذا المساء
يغطي الكفن ذلك الحياً الذي فطره الله لافساد العالم واصلاحه ..

.

تبع بافئوس ألبين الى الساحة المغمورة بنور الصباح . وكانت

تاييس راقدة على الفراش في ظل شجرة التين ، يغشاها بياض
ناصع ، وقد تعارضت ذراعاها على صدرها ، ووقفت بجانبها امرأة
مقنعة ، تردد صلاة النزع :

- ارحمني يا الله كمعظيم رحمتك حسب كثرة رؤفك

اسمع معاصي !

فناداها :

- تاييس !

فرفعت جفنيها ، وولت مقلتيها البيضاوين صوب الصوت -
فأشارت ألبين الى النساء المحجبات أن يتراجعن بضع خطوات
وكرر الراهب نداءه :

- تاييس !

فرفعت رأسها ، وخرج من بين شفيتها الباهتتين همس خافت :

- هذا أنت يا أبي ؟ .. أتذكر ماء الينبوع ، والتمر الذي لما
هزنا لنا الجزع تساقط رطباً جنياً ؟ .. في ذلك اليوم يا أبي ،
ولدت للحب .. للحياة .

ثم انقطعت عن الكلام ، وعاد رأسها فسقط .

دَهْمَهَا الموت ، وكلَّ العرق البارد جبينها . ومزق جلال
السكوت صوت يمامة نائمة . . ثم امتزجت تهديدات الراهب وزفراته
بمزامير العذارى :

- اغسلني كغبار من أمي ومن فطيتي طهرني . بلاني عارف
بمماصى وفطيتي ، مماصى رأماً .

ثم جلست تاييس فجأة في فراشها ، وانفتحت عيناها
البنفسجيتان ، وقالت وهي تحددق الى الأفق ، وقد مدت ذراعيها
نحو التلال البعيدة :

- هوذا ورد فجر الصباح الأبدي !

لمعت عيناها ، وصبغت حمرة خفيفة وجنتيها . وبدت أحلى
وأجمل مما كانت في أي وقت من الاوقات . فركع بأفئوس أمامها ،
واحتضنها بين ذراعيه الأسمرين ، وصرخ بصوت بلغ من الغرابة
مبلغاً أنكره هو نفسه :

- لا تموتي ! اني أحبك فلا تموتي ! اصفي لي يا حبيبتي
تاييس . لقد خدعتك ومكرت بك . وما كنت الأعمتوها شقيماً .
ان الله والسماوات ليست شيئاً مذكوراً . ما من شيء له وزن وهو
حق إلا الحياة الدنيا متاع السرور ، والآن الحب الجسدي . اني

احبك ! فلا تموتي لا ندعني للمنون ! ذلك يكون محالاً وامراً باطلاً .
انك جميلة فتأنة آية الآيات . تعالي تبادل الحب ونرشف كؤوسه .
اصغبي لي يا حبيتي واسمعي وقولي : « ساعيش لاني راغبة في
المعيش سوف أحيا اني أريد الحياة » . تاييس ، تاييس ، انهضي !
لم تسمعه . كانت عيناها تحدقان الى اللانهاية ..

تمت :

- السماء تفتح . اني أرى الملائكة والأنبياء والقديسين ... في
وسطهم تيودور الصالح مملوء اليمين بالازهار . انه يبسم لي ويدعوني
اليه ... يأتي اليّ ملكان . هاها يقتربان ... ما أجملها ! ...
إني أرى الله .

تهددت ابتهاجاً واتقلب رأسها على الوسادة بغير حراك .

ماتت تاييس .

فعاقتها بافئوس عناق اليأس والقنوط الأخير . وقد التهمت
عيناه باشتهاء .. وغل .. وحب ..

فزجرته ألبين قائلة :

- إخساً يا لعين !

ووضعت أصابعها برفق على جفني المائنة . فتراجع بافنوس
وهو يرتجف ، وعيناها تشتعلان بالهيب ، وأحسَّ بالأرض تسيخ
وتنشق تحت قدميه ..

ثم رتل العذارى نشيد زكريا :

— تبارك الرب اله اسرائيل

وما لبثت أصواتهن أن انقطعت في حلوقهن ، إذ رأين وجه
الراهب ، فولين ، مذعورات ، صارخات :

— وطواط ! وطواط !

فقد حات بافنوس نقمة ربه ، فسخطه ، فاستحال الى شخص
قبيح مروع ، حتى اذا ما مرَّ بيده على وجهه ، أحسَّ ببشاعة خلقته



فهرس



كتاب
السودان المصري
ومطامع السياسة البريطانية

بقلم

الاستاذ داود برطات

عميد جريدة الاهرام

هذا الكتاب العلمي الحديث الشائق ، هو ثمرة ذهن قوي
مخصب ، وعقل راجح مستنير ، وسعة اطلاع لا حد لها . وهو
يبحث في هذا الموضوع الخطير بحثاً ممتعاً مفيداً ناضجاً جامعاً من
وجهاته الادارية والاقتصادية والتاريخية والاجتماعية والسياسية الخ .
مع ذكر آراء كبار رجال السياسة الغربيين والمصريين
وهو أول كتاب من نوعه لا يستغني عنه مصري أو مشغل
بالمسألة المصرية خاصة والشرقية عامة .

ثمنه ٢٠ قرشاً

ويطلب من جميع المكاتب المشهورة

الحضارة المصرية

تأليف

غوستاف لوبورن

وتعريب

الاستاذ محمد صادق رستم

إذا كنت من المهتمين بالتاريخ، خصوصاً تاريخ « الحضارة المصرية القديمة » فاشتر هذا الكتاب الآن، وثق أنك ستجده من أثنى ما كتب في موضوعه. وقد حليناه بكثير من الرسوم اللازمة لفهمه، مأخوذة عن الأصل الفرنسي.

ثمنه عشرة قروش مصرية والبريد ثلاثة. ويطلب من جميع المكاتب في مصر وسوريا وفلسطين والعراق أو من ملتزم طبعه ونشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر - وبريدياً بعنوان صندوق البريد رقم ٩٥٤ بمصر

كِتَابُ

الأمراض التناسلية

وعلاجهما وطرق الوقاية منها

تأليف

الدكتور فخرى

طبيب الجلد والأمراض التناسلية

في سنة واحدة أوشكت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أن تنفذ . أحسن كتاب ظهر باللغة العربية حاوياً كل المعلومات اللازمة للطبيب ولأفراد الشعب عامة عن هذه الأمراض وكيفية التعرض للعدوى بها وطرق معالجتها وأحسن ما يتبع عملياً لمنع العدوى بها . كتاب حيوي للشبان والشابات يفهمهم الاخطار التي يتعرضون لها من أول التقييل الى ويفهمهم واجبهم الأدبي والصحي لتعاشي هذه الاخطار

يقع هذا الكتاب في ٣٣٣ صفحة بالقطع الكبير وبه أكثر من
٦٠ صورة تمثل المرض في الاعضاء التناسلية عند الذكور والاث
(وثمته ثلاثون قرشاً)

(يطلب من المطبعة العصرية ، بشارع علوي بمصر ، او من
حضرة مؤلفه بعيادته بشارع عباس نمرة ٨١ بمصر)

كتاب

سَائِلُكَ غَمَامٌ جديدة

بقلم

سَيِّدُ عَيْنِكَ الْإِحْمَدُ

﴿ مزين بصور عديدة ﴾

ثمنه عشرة قروش صاغ والبريد ثلاثة قروش

كتاب

المراة وفلسفة التناسل

تأليف

الركنور فخرى

طبيب الجلد والامراض التناسلية

إذا أردت أن تفهم « من هي المرأة ؟ » وتاريخ معاملتها عند الشعوب القديمة . وكيف تعيش المرأة ، وكيف تفكر ، وما تأثير طبيعة جسمها وعقليتها ونفسياتها على حياتها التناسلية وعلى حياتها الأدبية والاجتماعية . وإذا أردت أن تعرف معنى جمال المرأة وكيف يتأثر بالعباية الصحية أو بالزينة الصناعية . وإذا أردت أن تفهم حقيقة موقفها كفتاة ، وكأم ، وكواحدة حرة طليقة لا تخضع لأنظمة الزواج إذا أردت أن تعرف كل شيء عن المرأة بصراحة فنية ودقة علمية

فما عليك الا أن تقرأ كتاب « المرأة وفلسفة التناسليات »
يقع هذا الكتاب في نحو ٦٥٠ صفحة ، ومحلى باكثر من ٥٠
صورة تمثل حياة المرأة في مختلف الأقطار والعصور (وثمته عشرون
قرشاً فقط)

ويطلب من جميع المكاتب او من ملتزم طبعه ونشره

الياس انطون الياس

صاحب المطبعة العصرية

بشارع علوي ، رقم ٥ بمصر

(صندوق البريد رقم ٩٥٤ مصر)

الانثى مثل العنكب

ترجمة

انجيليلو وانغرا

القصص العصرية

مجموعة ممتعة تشمل ثمانين قصة أدبية غرامية مختلفة المغزى والاسلوب ومحلاة بكثير من الصور الرمزية و مترجمة بعبارة فصيحة قريية المتناول لطيفة الاسلوب على طريقة أهل الغرب في كتابة هذه القصص المستظرفة التي يتوخى بها امتاع الذهن بلذة السيرة المحكية وايصال الفائدة المقصودة الى العقل من طريق تلك اللذة بالاسلوب انشائي خاص تجتمع فيه السهولة والسلاسة الحاذقة الوصف الى رشاقة المحادثة وظرفها، الى حكمة سامية أو عظة كافة عن الشر داعية الى الخير، كما قال نابغة الشعر والنثر خليل بك مطران في المقدمة التي كتبها لها

وتقع هذه المجموعة في ما يقارب الخمس مئة صفحة وثمان النسخة عشرة قروش صاغ فقط . وتطب من جميع المكاتب أو من ملتزم نشرها - الياس انطون الياس - صاحب المطبعة العصرية - بمصر (صندوق البريد ٩٥٤ بمصر)

الغزبان

مجموعة مقالات نقدية ، بقلم حضرة الكاتب العصري
الكبير ، الاستاذ

مخائيل نعيمة

مستشار جمعية الرابطة القلمية بالولايات المتحدة الامريكانية
وهو كتاب قيم حلل فيه كاتبه مذهب رجال الادب العصري ،
والاساليب التي يجب ان يسير عليها الكتاب والشعراء ليجاروا
روح التطور الحديث ، فيجب على كل اديب مطالعته .
ثمانه عشرة قروش مصرية واجرة البريد مسجلا لداخل
القطر ثلاثة قروش صاغ وللخارج خمسة ❖

القَامُوسُ الْعَصْرِيُّ

انكليزي وعربي - مصور

تأليف

الياس انطونه الياس

ان جميع المعاجم الانكليزية عريية التي تقدمت « القاموس
العصري » لم يضعها مؤلفوها لفائدة طلاب اللغة الانكليزية من
الشرقيين بل وضعوها لطلاب اللغة العربية من المستشرقين ،
ولذلك تجدهم يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا امامها من
البيانات ما يفسر اوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية هجائها في
حالاتها المتنوعة ، وجمعها ومفردتها ، الى غير ذلك مما لا فائدة منه
مطلقاً لاطالب الشرقي . واول معجم وضع خصيصاً للشرقيين هو
القاموس العصري

و يطول بنا الشرح اذا ذكرنا مميزات هذا المعجم . وانا
ننصح لكل من لم يطلع عليه للآن ، مكتفياً بما عنده من القواميس

العتيقة ، أن يبادر الى أقرب مكتبة ويفحصه فيرى بنفسه الفائدة
العظيمة التي ينالها من اقتنائه

وقد قررت وزارة المعارف العمومية لاستعمال معاني اللغة
الانكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في
القطر المصري ، وذلك بخطاب تاريخه ١٣ مايو سنة ١٩١٤ رقم ٧٧٧
والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الاولى . ثمنه سبعون
قرشاً والبريد خمسة بداخل القطر المصري وعشرة للخارج .

القاموس العصري

عربي - انكليزي

مُصَوَّرٌ

تأليف

اليا سر الطون الياس

هو معجم لم يُنسخ على منواله حتى الآن ، ويمتاز بأسلوبه
البسيط الذي ابتكره المؤلف لأجل التوفيق بين الترتيب المصطلح
عليه في القواميس العربية والترتيب الهجائي البسيط المتبع في كل

القواميس الافرنجية ، ثم تحديد معنى الكلمة العربية أو تفسيرها
بكلمة عربية مرادفة لها تمهيداً لذكر الترجمة الانكليزية . إذ بدون
ذلك لا يتسنى للطالب أن يتحقق من صحة المقابل الانكليزي
للمعنى الخاص الذي يطلبه

إطلع عليه فتعلم أن اقتناءه ألزم لك من أي كتاب آخر مادامت
من المشتغلين باللغة الانكليزية —

عدد صفحاته ٧٠٠ من القطع الكبير ويحوي نحو ٥٢,٠٠٠
كلمة عربية وما يقابلها من الترجمة الانكليزية . وقد قرره وزارة
المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في جميع
فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري . وثمنه مائة قرش والبريد
خمسة قروش لداخل القطر المصري وعشرة للخارج

قاموس عربي وانكليزي للغة المصرية الدارجة

تأليف

سفرط سيرو بك

قد جمع هذا القاموس كل شاردة وواردة من مفردات وجمل
واصطلاحات اللغة المصرية الدارجة في الكلام والكتابة .

ولا نغالي اذا قلنا انه لازم لكل مشتغل باللغة الانكليزية من أبناء
مصر خاصة والشرق عامة لما يحويه من الكلمات التي لا يمكن
وجودها في غيره من المعاجم العربية انكليزية - ثمنه مائة قرش
صاغ والبريد خمسة قروش صاغ لداخل القطر وعشرة للخارج
ويطلب في جميع المكاتب ومن ملتزم طبعه ونشره الياس انطون
الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر

نرجو أن تكون كل الخطابات المرسلة
الينا، بعنوان
صندوق البريد ٩٥٤

قاموس الجيب

انكليزي وعربي

Accessorial

- 3 -

Accetify

Accessorial اشتراكي، اضافي، ملحق	Call to - حساب . حاسب
Accessory اضافي . ملحق . مساعد	Of no - دليل الالهية
Accident عرضي . عرضة . شدة	Take into - ... حساب
Accidental عرضي . غائي . ملاهي	Accountability مسئولية . مطابقة
Acclaim تصديق الاستعانة حبل	Accountable مسئول . مطابق . عاينت
Acclamation تليل . هتاف الاستعانة	Accountant كاتب حسابات [حاسب]
Acclamatory مفرح . مثالي . استعصالي	Accoutre تجهيز بالسلح
Acclimatize عود على مناس المنطقه	Accoutrements اسلحه . عده الحرب
Acclivity طليه . تيسر . مرتي . عقبة	Accredit فوض الى . عين
Accommodate امدد . اراح . وفر بين	Accretion ازدياد . نمو . تكاثر
Accommodation ملائمة . تسوية	Accrual تجمع تراكم . ازدياد . نمو
Accompaniment مرافقة . مصاحبة	Acervus زاد . نما . ارتفع . كثر
Accompany رافق . سار مع . جاري	Accubation استطعام . ولادة
Accomplice شريك في الجريمة	Accumulate تجمع . جمع . زكم
Accomplish انجز . اكمل . انتهى	Accumulation اجتماع . تجمع . ازدياد
Accomplished كامل . ناهي . نوب	Accumulator حليق . حافة الكهرياد
Accord قبول . اتفاق . مطابفة	Accuracy دقة . مطابفة
Accord وفق . سوي . طابق	Accurate مضبوط . متفق . دقيق
Accordance اتفاق . موافقة . مطابفة	Accurse لعن . شتم . حرم . دعا على
According بموجب . مطابق . نامثل	Accursed ملعون . مفضوب عليه
Accordion آلة موسيقية كالأرغن	Accusant متشكك . مقدم الشكوى
Accost دنا . اقرب من . بادأ بالكلام	Accusation شكوى . شكاية . تهمة
Accostable سهل الوصول والاقتراب	Accuse شكوا . اتهم . بر . ادعى على
Accouchement نطاس . ولادة	Accused متهم . مدعى عليه (جنائياً)
Accoucheur طبيب مولد . قابل	Accustom عود . مرت . قوود على
Accoucheuse مؤلفة . [داية] . قابلة	Accustomed متعود . معتاد . متدرب
Account محاسبة . بيان . تقرير . اعمية	Acerbity حموضة . نفاظة . شكاة
Accountant كاتب الحسابات	Acetify حمض . غلظ

ثمنه عشرون قرشاً والبريد ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج . وفي شهر أغسطس سنة ١٩٢٤ سيظهر صنوه العربي انكليزي وسيكون ثمنه خمسة وعشرون قرشاً فقط

المعهد السني

لطلاب

اللغة الانكليزية

تأليف الياس الطور الياس

يكفي للتويه بفائدة هذا الكتاب أن نذكر انه طبع للمرة
الخامسة في بحر عشر سنوات . وكل من بدأ دراسة اللغة الانكليزية
بواسطته استفاد جداً من سهولة اسلوبه ، خصوصاً لأن الطريقة
الحديثة التي ابتكرناها للفظ الكلمات الانكليزية بأحرف عربية هي
الطريقة التي لا يمكن إيجاد أسهل وأصح منها

اشتر نسخة منه ، وجرب أن تتعلم اللغة الانكليزية من دون
احتياج الى الاستعانة بعلم . ثمنه خمسة عشر قرشاً والبريد (مسجلاً)
ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج

التحفيز الخاصة

لطلاب

اللغة الانكليزية

تأليف الياس انطون الياس

أعيد طبع هذا الكتاب للمرة الرابعة في مدة وجيزة ، وهو مجموعة كبيرة جداً من المفردات والجمل والخطابات الاكثر استعمالاً ، خصوصاً المفردات والجمل المختصة بالمعاملات التجارية والادارية والقضائية ، وبالاختصار كل ما يكثر استعماله في الاعمال العمومية . لا يستغنى عنه أي طالب للغة الانكليزية ، فاسأل من تقدمك في درس اللغة الانكليزية عن هذا الكتاب فيخبرك بعظيم فائدته .

ثمنه ١٢ قرشاً والبريد ثلاثة

كتاب

منتخبات الترجمة

لطلبة التعليم الثانوي

عمل (محمد رفعت) مساعد امين المكتبة بديوان جلالة الملك

يمتاز هذا الكتاب على كل ما سبقه من نوعه ، لاجل تعليم الترجمة ، باشياء كثيرة اهمها طريقته المبتكرة في شرح عبارات القطع المنتخبة ومفرداتها الصعبة أمام كل صفحة بأسلوب اصطلاحي يفيد الطالب في الترجمة واللغة الانجليزية معاً . ثم تنوع قطعه من حيث الصعوبة بحيث يلائم مقدرة كل تلميذ في القسم الثانوي وغيره

ثمنه عشرة قروش مصرية والبريد ثلاثة قروش ،

ويباع في جميع المكاتب

التربية الاجتماعية

تأليف

علي فكري

أمين دار الكتب المصرية

ظهر هذا الكتاب حديثاً وقد جمع من الحقوق والواجبات والآداب الاجتماعية ما يعرف به المرء ماله وما عليه ليعيش في راحة بال واسعد حال محبوباً من اخوانه منظوراً إليه بعين الاحترام : وهو اول كتاب في موضوعه

يقع في ٢١٢ صفحة وثمنه عشرة قروش مصرية ، واجرة البريد (مسجلاً) ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج

يطلب من جميع المكاتب او من ملتزم طبعه ونشره

(الياس انطون الياس) صاحب المطبعة العصرية

بشارع علوي رقم ٥ - بمصر

عِلْمُ الْاجْتِمَاعِ

بِرَبِّهِ

حَيَاةُ الْهَيْئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَتَطَوُّرُهَا

هَلْ بِنَا نَدْخُلُ فِي بَوَابَةِ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ وَنَكْشِفُ اسْرَارَ الْهَيْئَةِ

الاجتماعية، الاسرار العجيبة الغريبة

ترى امماً عظيمة راقية متمدنة حيوية ، تضرب في طول الكرة الارضية وعرضها ، وترى شعوباً متأخرة خاملة خامدة الحركة ، وترى جماعات همجية متوحشة منحطة جداً - اذا كانت هذه الجماعات كلها ابناء آدم وحواء ، فما سرّ تفاوتها في الرقي؟ ففي « علم الاجتماع » تعلم كيف تكوّنت الجماعات والشعوب والأمم ،

وكيف تنوعت وتفاوتت في رقيها

ترى جمهوراً متهيجاً متحمساً متهوساً ، ثم ترى جماعات هادئة عاملة ، ثم ترى ناساً في مجالسهم يتناقشون ويقترعون ويقررون

اموراً . ثم ترى هيئات نظامية من جمعيات وشركات وحكومات الخ ،
فما هو سر التهورس والتناقش والنظام ؟ . ثم ترى ازياء تتعاقب ،
وعادات تتوالى ، وتقاليد تتوارث ، ورأياً عاماً يسود ، وقوانين
تتقرر . فكيف تنشأ الازياء والعادات والتقاليد والقوانين ؟

في « علم الاجتماع » ترى العواطف والعقول تتصادم فتشير
الجماعات ثم تسكنها ، وتمخض الثورات الفكرية عن الانظمة والهيات
ترى امماً ترقى واخرى تنحط ، وامماً تنمو وتعظم وامماً تتلاشى
وتنقرض ، وامماً تستعمر وتستعبد وامماً تُسترق وتعمل لغيرها . ثم
ترى عقولاً تخترع وعقولاً توسع العرفان والعلم وعقولاً تصنع
وتعمل . ثم ترى قوات الطبيعة تتساقط تحت قدمي الانسان الواحدة
تحت الاخرى وهو يسخرها لخدمته ، فيستطيع بها أن ينشر أفكاره
في لحظات حول الكرة الأرضية ، وينتقل من مكان الى مكان
بأسرع ما يمكن ويغير طبيعة الاقليم بحيث تسهل المعيشة له في كل
اقليم بين هجير خط الاستواء وزمهير القطب . فما هي القوات
الاجتماعية التي تقلب سطح الكرة الأرضية رأساً على عقب ؟

« علم الاجتماع » يبين لك ان الشهوة الجسدية ، والحب ،
والذوق الجميل ، والعواطف ، فعلت كل ذلك وفي وسعها أن تقول
للجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل

« فعلم الاجتماع » هو علم التكوّن والنشوء ، وعلم العواطف
المسيطرة على الهيئة الاجتماعية ، وعلم العقل المدبّر للعواطف ، وعلم
الحب والجمال اللذين يرتفعان بالمدينة الى فوق

« علم الاجتماع » هو البوابة التي تدخل منها الى عالم أسرار
الهيئة الاجتماعية حيث تنكشف لك وترى العجب العجيب . هذا
هو العلم الذي بسطه الاستاذ تقولا الحداد الكاتب الاجتماعي المعروف
في هذا الكتاب الذي نحن في صدده بسطاً يدع كل قارئ يفهمه
بكل سهولة

فهذا الكتاب الذي يصدر في آخر صيف سنة ١٩٢٤ هو
الكتاب الوحيد في موضوعه باللغة العربية والمستوفي كل ما يخطر
لك ببال من هذا القليل . أفلا تشعر أنه يجب أن تطلعه وأن
يكون في مكتبتك لكي تعود اليه كلما رمت أن تعرف منزلتك
في الجماعة ومنزلة قومك في الامة ومنزلة أمتك في المجتمع الانساني ؟
وما هي وسائل الارتقاء لك ولقومك ولامتك ؟

ثمنه ٢٠ قرشاً ، ويُباع في جميع المكاتب

أو يطلب من ملتزم طبعه ونشره

الياس انطون الياس ، صاحب المطبعة العصرية

بشارع علوي - بمصر

كتاب

مختارات سلامه موسى

ليس بين كتاب مصر الان من هو اصرح برأيه وأجهر به من الاستاذ سلامه موسى الذي يعرفه جميع قراء الصحف والمجلات ، فهو كثيراً ما يفتح الميادين التي تخشى اقتحامها الملائكة ، لا يبالي ان يصرح برأيه في الدين وفي الاشتراكية وفي المرأة ، وفي مثل هذه الشؤون الاجتماعية ، غير متعمد في كل ما كتبه اظهار براعة أو التباهي بمهارة وإنما غايته التي لا يحيد عنها هي فائدة القاري . وليست هذه بالميزة القليلة القيمة في وقت نرى فيه عدداً غير قليل من كتابنا لا يبغى من وراء كتابته الا ان يقول عنه الناس كما يقولون عن البهلوان « ما ابرعه ! » في حين كان يجب ان يقولوا « ما أفيده »

ولسنا نشك في اننا نخدم جميع قراء العربية بجمع هذه المقالات
النفيسة حتى يتيسر للحيل الجديد قراءتها والانتفاع بها دون ان
يحتاج الى الكد في البحث عنها في متفرق المجلات والصحف

يظهر في شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤

ويطلب من جميع المكاتب او من ناشره

الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية - بمصر

(صندوق البريد ٩٥٤)

وتمنه عشرة قروش مصرية والبريد ثلاثة قروش

اخضراء الدمين

روايه الخير والشر

تظهر في شهر يناير سنة ١٩٢٥ - فاطمها عند ظهورها

مَسَارِحُ الْأَذْهَانِ

مجموعة أدبية فنية روائية في حقيقة الحياة، تأليف الاستاذ المتقن البارع

هابل بيرس (صاحب مجلة النفائس)

هي قصص صغيرة لذيدة مصورة، جمعت من كل فن، وضربت بكل سهم، في الادب والاجتماع، والحب والفلسفة، في لغة سلسلة هي السحر الخلال، واسلوب رائع هو الشعر المشور

ولا ريب أن الاستاذ بيدس، صاحب النفائس والمؤلفات العديدة، قد أثبت بكتابه الجديد « مسارح الأذهان » قدرة فائقة في فن الرواية، وكعباً عالياً في عالم القصص مما يجعله بحق في الصف الأول من كتاب العربية والمتصدين لخدمة الناطقين بالضاد (يظهر في شهر اغسطس سنة ١٩٢٤)

يطلب من ملتزم طبعه ونشره (الياس انطون الياس)

صاحب المطبعة العصرية

بشارع علوي رقم ٥ - بصر

وثنه عشرة قروش والبريد ثلاثة قروش

خواطر حمار

وهو

مذكرات فلسفية وأخلاقية

على لسان حمار

كتاب نفيس وضعته باللغة الفرنسية الكاتبة الشهيرة الكونتس دي سيجور وترجمه الى اللغة العربية الكاتب العصري حسين افندي الجمل (بمصر الجديدة) وهو من أحسن ما اختاره الادباء لمطالعة ناشئة الفتیان والفتيات ومحبي الفكاهة ولذة المسامرات لما احتواه من الحكمة البالغة ، في الفكاهة السائغة ، والنقد الرائق ، في الاسلوب الشائق .

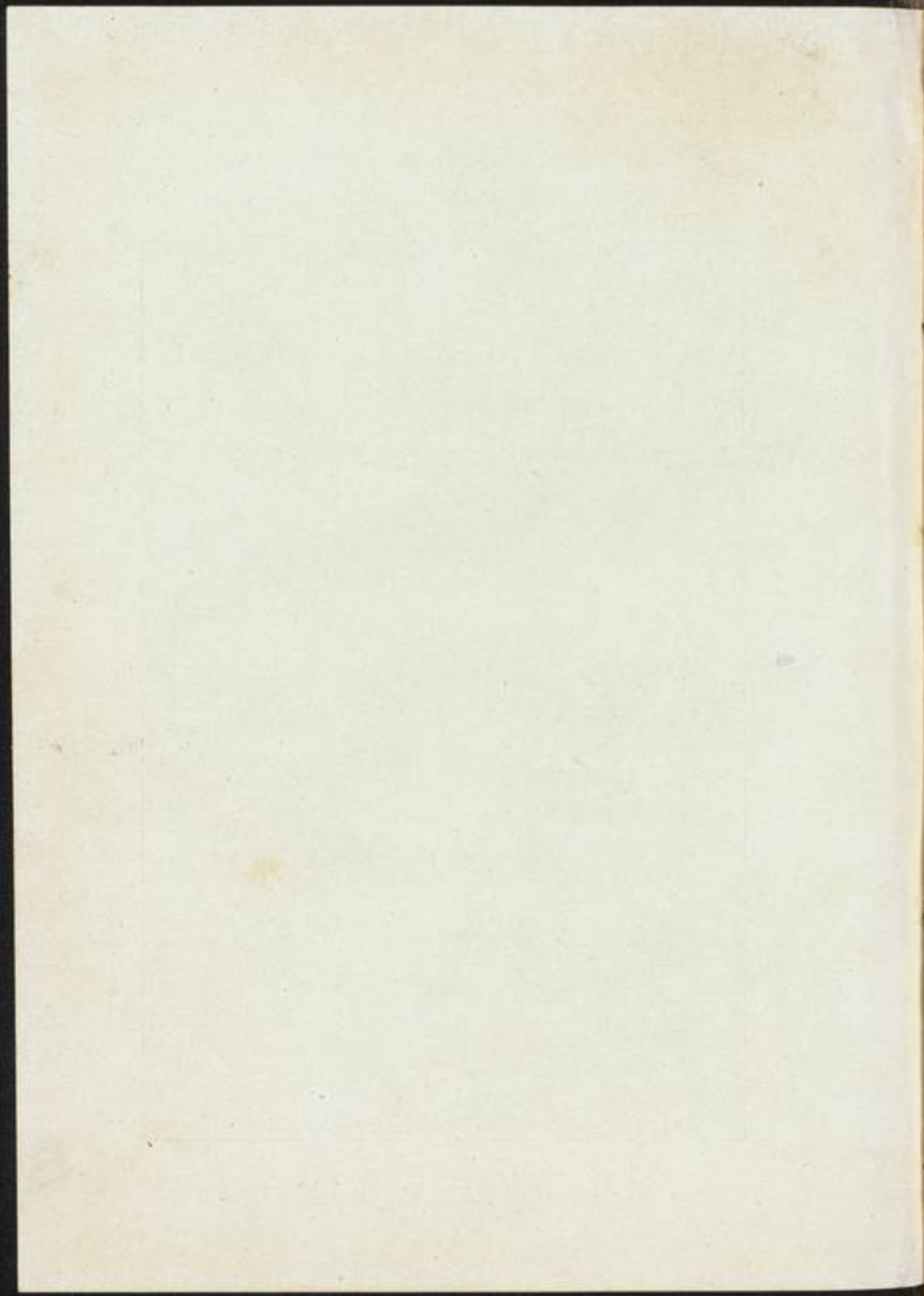
إذا قرأت هذا الكتاب وأنت على رأي الناس في قولهم :
جاهل كالخمار ، عنيد كالخمار ، بايد كالخمار ، انتهت منه وأنت على رأي المؤلفة تقول : زكي كالخمار ، وديع كالخمار ، عالم كالخمار .

وهو يُطلب من جميع المكاتب في مصر وسوريا وفلسطين والعراق ، أو من ملتزم طبعه ونشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية - بصر (صندوق البريد رقم ٩٥٤)

مطبوعات المطبعة العصرية بمصر

	ح
القاموس العصري عربي وانكليزي تأليف الياس انطون الياس	١٠٠
» » » » انكليزي وعربي	٧٠
» » » » قاموس الجيب عربي وانكليزي	٢٥
» » » » انكليزي وعربي	٢٠
» » » » وبالعكس	٣٥
» » » » القاموس المدرسي	٥٠
» » » » التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية	١٠
» » » » الهدية السنوية	١٢
» » » » القاموس عربي وانكليزي (بالفظ) تأليف سقراط سبيرو	١٠٠
القصص العصرية (٨٠ قصة مصورة) ترجمة توفيق عبد الله	١٠
رواية تاييس مصورة (لاناتول فرانس) ترجمة احمد الصاوي محمد	١٠
» » » » الزنبقة الحمراء (» »)	١٥
التربية الاجتماعية	١٠
تأليف علي فكري	
خواطر حمار (مصور للاولاد والرجال) ترجمة حسين الجمل	٥
مسارح الأذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة) تأليف خليل بيدس	١٠
الحضارة المصرية القديمة (لغوستاف لوبون) ترجمة صادق رستم	١٠
» » » » مقدمة الحضارات الاولى	٨
المرأة وفلسفة التناسليات (مصور) ، تألف الدكتور فخري	٢٠
» » الأمراض التناسلية وعلاجها وطرق الوقاية منها	٣٠

رسائل غرام جديدة (مزين بصور) تأليف سليم عبد الاحد	١٠
الغربال ، بقلم مخائيل نعيمة عضو الرابطة القلمية بأمرىكا	١٠
علم الاجتماع (الجزء الأول في حياة الهيئة الاجتماعية) تأليف	٢٥
» » (الجزء الثاني في تطور الهيئة الاجتماعية) تقولا حداد	٢٥
اسرار الحياة الزوجية	١٥
ترجمة تقولا حداد	
ملقى السبيل (في مذهب النشوء والارتقاء) اسماعيل مظهر	٣٠
حصاد المهسيم (مصور) للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني	١٠
مختارات سلامه موسى (تأليف الكاتب الاجتماعي الشهير)	١٠
في أوقات الفراغ ، تأليف الدكتور محمد بك حسين هيكل	١٥
مراجعات ، في الأدب والفنون - للاستاذ عباس محمود العقاد	١٢
الدنيا في اميركا	١٥
للاستاذ امير بقطر	
أناطول فرانس في مبادئه - لصاحب العطفوفة الأمير	٢٠
» » » (ورق مخصوص) شكيب ارسلان	٢٥
كتاب الحقوق الوطنية كتاب مدرسي لفرنسيس مخائيل	٣
روح الاشتراكية تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعير	٢٥
فاتنة المهدي ، أو استعادة السودان (نشرت تباعاً في الاهرام)	١٠
رواية الانتقام العذب	٨
ترجمة اسعد خليل داغر	
رواية باردليان (٣ اجزاء متوسطة الحجم) ترجمة طانيوس عبده	٢٠
» » » (جزآن كبيران)	٢٠
» » »	
كايتان	١٦
» » »	
الساحر العظيم	١٦
» » »	
فارس الملك	١٠





عضرة الاستاذ عباس محمود المقاد

'A. al-Agḡād



مجموعات

في الآداب والفنون

بقلم مفضرة الطائب الكبير الأستاذ
عباس محمود العقاد

عني بنشره

الياز نطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية

بالفجالة، شارع الخليج الناصري رقم ٦
(صندوق البريد رقم ٩٥٤ - مصر)

(Arab)
PQ 2254
.T4 A9

حقوق إعادة طبع هذا الكتاب
محفوظة للناشر

Published by

E. A. Elias

P. O. Box 954

Cairo, (Egypt)

كلمة

في اسم الكتاب

في هذه المجموعة مقالات شتى نشرت أكثرها في
البلاغ أيام الأثنين التي وقفها على الكتابة الأدبية بعنوان
« في عالم الآداب والفنون » ونشرت القليل منها في بعض
الصحف الأخرى والمجلات . وتفضل الاستاذ صاحب
المطبعة المصرية فرأى أن يحفظها في كتاب يضمه الى السمط
الأنيق الذي يتولاه بعنايته وتنزيده ، فسميته « مراجعات
في الآداب والفنون » لانه بحث مستطرد في موضوعات
مختلفة في الآداب والفنون وما إليها ، ولأن المراجعة هي
طريقتي فيما اكتب من هذه المباحث على الاجمال
فالفكرة التي اكتب فيها ندر أن تكون بنت يومها
وقل ان تخلو من تاريخ سالف تنقل فيه كما يتنقل الكائن
الحي في أدوار حياته ، ولكل فكرة أثبتها ميلادها ونشأتها
وحوادث سيرتها وحظوظ أيامها ، فلا تزال تنمو وتكبر وترقى

في تكوينها وترتيبها حتى تبلغ تمامها وتوفي على غايتها . ثم
تجىء المناسبة لإثباتها فأراجع ماضيها وانظر إليها في هيئتها
الأخيرة كأنني أب ينظر الى وليده الذي يراه الناس فرداً
واحداً أو يراه هو ابناً عدة تقلبت بهم الطفولة والشباب وتعاورهم
النقص والكمال وتمثلوا له في صور متتابعة لكل منها مكانها
في قلبه وخاطره وذكرياتها من ماضيه وحاضره ، ولعل النقص
منها غير مقصر عن الكمال في موقع المحبة ومكان الاعزاز !
وسواء أكانت المناسبة التي تدعوني الى الكتابة كلمة
استوقفتني في كتاب أو رأياً سمعته من قائل أو مشاهدة
حركتني الى البحث فليس شيء من ذلك بفاصل الفكرة
عن جذوعها التي نبتت عليها ولا هو مخرجها عن الاصل الذي
امتزجت فيه أيامها بأيامي واتصلت سيرة حياتها بسيرة حياتي .
فلو أن للخواطر يوم بعث ترد فيه الى مناشئها خلّت أن
ستبعث معي في جسد واحد يوم ينفخ في الصور الموعود او
لعدت معي الى حيث كنا في الحياة ولو كان لها الف شبه
يربطها بأراء المرتئين وكتابات الكاتبين . فلما انا قد

عشتها وغذوتها فلا أتخيلني قائماً بغيرها كما لا يستطيع أحد أن يتخيل جسده قائماً بغير أعضائه أو يتخيل رأسه ويديه وقدميه وسائر جوارحه راجعة - يوم القيامة - إلى جثمان غير جثمانه !

ولقد يرى بعض الناقدین اني أتأثر بما اقرأ فيما اكتب واني أتحو هذا النحو او ذلك مما اعجب به من آراء المفكرين وأنماط التفكير . فليس لي أن أقول في هذا الرأي الا اني اعلم غير ذلك من شأني واني لا أحسب تفكير الانسان الا جزءاً من الحياة ونوعاً من الأبوّة . فليس يسرني أن تنمي اليّ أفكار كل من أقلتهم هذه الأرض من الادباء والحكماء والعمماء اذا كانت غريبة عني بعيدة النسب من نفسي ، كما ليس يسرني ان ينزل لي كل من في الأرض عن أبنائهم وبناتهم ولو كانوا أبناء سادة وذرية ملوك ! أقول ذلك لا أجد فيه ادعاء ولا عجباً ولكنني أقرر به حقيقة وأبين مذهباً . فمن شاء ان يمدد من الادعاء والعجب فله مشيئته وليس عليّ أنا أن انازعه فهمه وتفسيره

ان المراجعة اذن هي طريقي في البحث ولا سيما في مقالات هذا الكتاب . أراجع سيرة كل فكرة وأثوب بالنظر الى مصدر كل مشاهدة . وقد يحسن هنا أن ألم بأسلوب النظر الذي أميل اليه بالفطرة وأثره على سواه بعد التجربة ، فأقول في ايجاز اني أنظر الى الدنيا نظرة فيها من الشمول اكثر مما فيها من التفصيل ، وان الحياة والزمان والعالم من الاوائل التي لا أول لها الى الاواخر التي خاتمة لها كلها عندي جملة واحدة متماسكة ليست المظاهر الفردية فيها الا أجزاء عارضة تنال قيمتها بقدر ما تحتويه من ذلك « الكل » العظيم . وكأن الأشياء والشخوص الفردية في هذه الصفة عمله الورق التي لا قيمة لها بذاتها ولا بالذهب الذي تمثله ولكننا قيمتها الصحيحة بالجهد الحي الذي تساويه والثروة العينية التي تدل عليها . ومن شأن هذا الأسلوب ان يتخطى بعض الشيء مقاييس العرف وحدود الاصطلاح وتفاصيل الظواهر ، وفي ذلك تأويل كثير من الآراء التي

بسطتها في هذه المقالات ومنها تعليق الجمال بالفكرة الباطنة
قبل الاجسام والاشكال

قد يقال : ولكن اليس في هذا النظر مجافاة للواقع الذي
يبني عليه كل علم صحيح ؟ فأقول لا ! انما هذا النظر يوسع
الواقع ويمتد بحدوده الى آفاق أبعد من هذه الأفاق التي
نحصر فيها قيم الأشياء وأقدار الأحياء . ومثل ذلك اننا اذا
حكمتنا على قدر الرجل بنصيبه في العرف الدارج - أي بما
يسمونه « الواقع » - فقد يرجح المجرمون المداورون على
أعظم العظماء وأصلح المصلحين ، وقد يكون أفضل الناس
قدراً اولئك المخترعون والدعاة الذين يقضون حياتهم في هذه
الدنيا ولا يعترف لهم بنصيب من النجاح والجزاء . فالواقع ان
« رجال الاعمال » ومن يسمون أنفسهم برجال الحقائق
المحسوسة لا ينظرون الى « الواقع » المقرر ولكنهم ينظرون الى
جزء منه محصور في حيز الحاضر الراهن ، اذ ان الانسان الفرد لم
يحسب في خلقته حساب مكان معين أو فترة محدودة بل حساب

صلات كثيرة بالكون كله وأجيال الحياة كافة ، وهذا هو
الواقع الصحيح ولو عده اصحاب « الواقع الموه » ضربا من
ضروب الخيال وطلسم من طلسم الاوهام

بهذه المراجعة كتبت المراجعات ، وعلى هذا النظر
اعتمدت وأعتمد فيما أرى واكتب ، وعلى هذا العهد اتقدم
بهذه المجموعة بين أيدي القراء ما

عباس محمود العقاد

فهرس

			صفحة
١٤	ابرل ١٩٢٥	البلاغ	١٧
٢١	> ١٩٢٥	>	٢٦
٢٨	> ١٩٢٥	>	٣٦
٥	مايو ١٩٢٥	>	٤٨
١٢	> ١٩٢٥	>	٦٠
١٩	> ١٩٢٥	>	٧٠
٢٦	> ١٩٢٥	>	٨٠
٩	يونية ١٩٢٥	>	٩٠
١٦	> ١٩٢٥	>	١٠٠
٢٣	> ١٩٢٥	>	١٠٨
		بشار : —	
٣٠	> ١٩٢٥	>	١١٩
٧	يوليو ١٩٢٥	>	١٣٤
١٤	> ١٩٢٥	>	١٤٥
٢١	> ١٩٢٥	>	١٥٩
		المنفلوطي : —	
٢٨	> ١٩٢٥	>	١٧٠
٤	اغسطس ١٩٢٥	>	١٧٨
٢٩	سبتمبر ١٩٢٥	>	١٨٥
١٣	اكتوبر ١٩٢٥	>	١٩٦
٢٠	> ١٩٢٥	>	٢٠٥

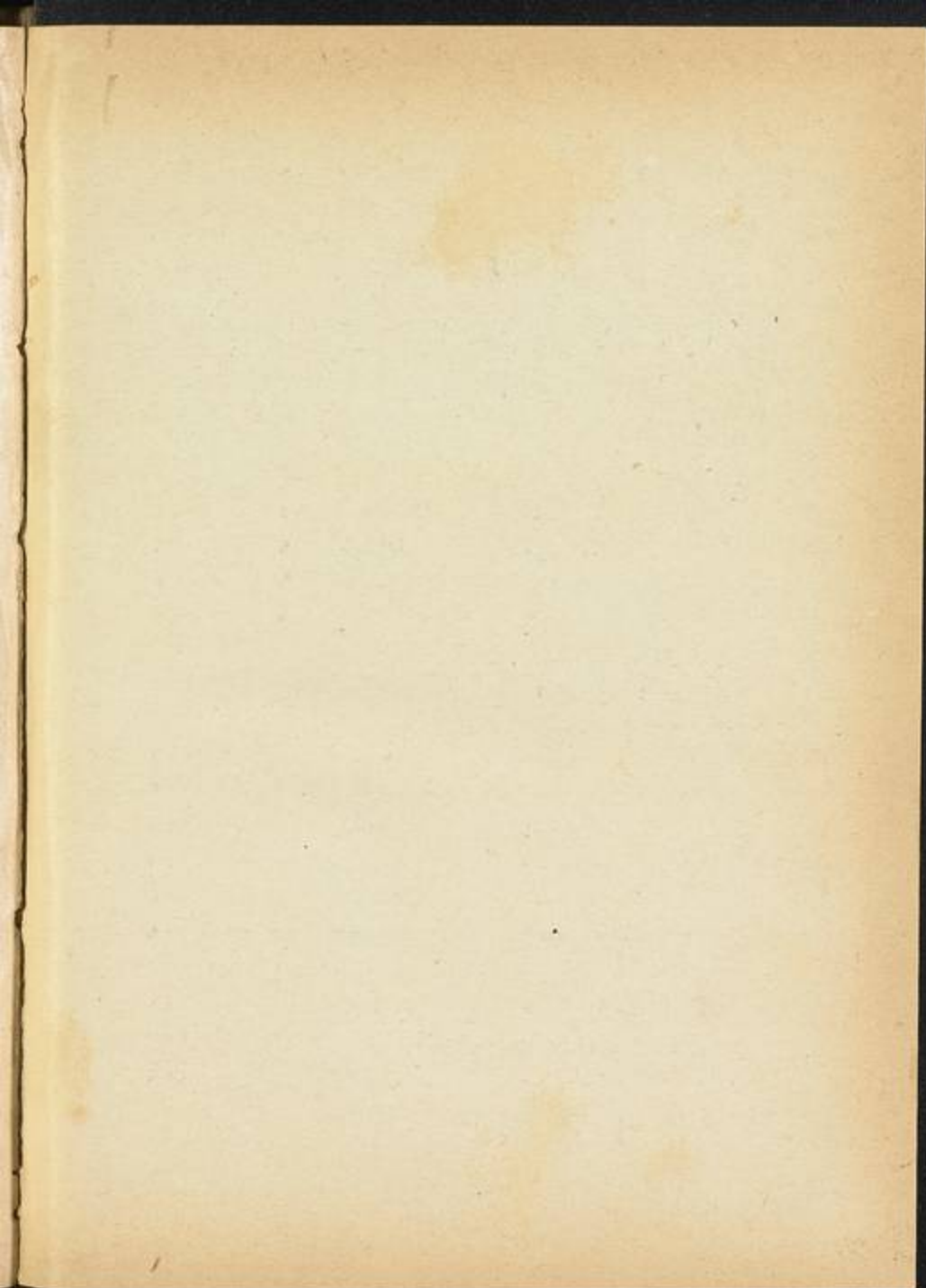
	صفحة
١٩٢٥ » ٦ البلاغ	٢١٤ عند الصحراء
١٩٢٥ نوفمبر ٣ »	٢٢٠ بائع القلوب
١٩٢٥ » ١٠ »	٢٣٢ صورة السعادة
١٩٢٥ » ١٧ »	٢٣٩ المعرفة
١٩٢٥ أكتوبر ٢٧ »	٢٤٥ أثر المحدث العربي
١٩١٣ البيان في سنة	٢٥٣ مذكرات الملبس
١٩٢٥ مجلة الهلال سنة	٢٦٩ المرأة الشرقية
١٩٢٥ العدد الممتاز لسنة	٢٧٣ الاصلاح الادبي مجلة السامح الامريكية



ثبت الخطأ والصواب

اثبتنا فيما يلي بعض الغلطات التي يحسن الالتفات اليها
في مواضعها قبل قراءة الكتاب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
النفمة الخفية	النفمة الخفية	١٤	٤١
مرسومة	موسومة	٩	٦٦
كما يبدو	كما يبدو	٦	٧٥
يجين	يجين	٥	١١٢
يفعل الانسان اكثر مما يجب ؟ وما هو الخطأ بالنقص عن الحد غير ان يفعل الانسان اقل مما يجب ؟	} يفعل الانسان اقل مما يجب	١١	١١٧
جسما ناحلا			
ان اصاب اعترم	ان صاب اعترم	٦	١٢٣
يشذ عن	يشذ على	١١	١٤٦
مصصفه	مصصفه	٧	١٤٨
اخادعه	أخادعة	١٤	١٥٤
كأحاد هذه الفئة	كأحاد الفئة	٧	١٨٩
الفرية	الرية	٢	١٩٧
على طريقته	عن طريقته	١٧	٢٤١
بسنة وشهور	بسنة واربعة شهور	١٦	٢٥٣
على لسان	عن لسان	١٣	٢٥٦





بين السياسة والأدب

كان من أسباب انصرافي عن الكتابة في الأدب هذه الفترة
أزمات السياسة التي شغلت الناس في هذا البلد عما سواها ، وشيء
من الشك تسرب الى عقيدتي في اصلاح الآداب العربية ألقى في نفسي
أن الفروق في فهم الأدب وتقديره بين قوم وقوم وبين مثال ومثال
أما هي فروق في العنصر والطبيعة قل أن يصلح منها الاطلاع أو يجدي
فيها الارشاد والانتقاد . وكنت أرى المقياس الذي تقيس به الشعر
والفن يختلف اختلافاً بعيداً عن مقاييسهما في عرف أكثر الخاصة
والعامه وذوي الثقافة من القوم والجهلاء الآخذين بالسماع
والتقليد ، فلعل أرقى ما يرقى اليه الأدب في رأيهم أنه زخرف هندسي
أو حلية تناط بجسم من الأجسام المشتهة... تنفصل عنه فتموت وتبدو
عليه فاذا هي أجمل منها في علبة الصائغ أو عيبة الجوهرى .! وليست

هي جمالا من جمال الحياة ينبض فيه الدم وتسري فيه العروق وينمو نمو الطبيعة الحية أو يسبقها في وثبات النمو ويفضلها في ناذج الجمال ! والأدب أن لم يكن كذلك فقد بطلت قداسته وتهدم هيكله وهزلت قرابينه وأصبح صناعة من صناعات السوق أرخص من سائر الصناعات ثمناً وليس بأشرف منها في المقاصد والأصول

وسأقول لك ماذا أعني بالزخرف الهندسي الذي أومأت إليه ، فالأنا أعني به ذلك التزييق الذي لا يمت الى الحياة بسبب ولا يعمل فيه غير المسطرة والبركار وذهن هو في الأذهان ضرب من المسطرة والبركار - رأيت العمارة العربية في بناية من بناياتها القديمة أو الحديثة ؟ هي جميلة في بابها ولا ريب . ولها من الروق ما يجتذب العيون ويستدعي التأمل ويقع في الأبصار موقع السجع والجناس في الأسماع ، ولكن هل رأيت فيها قط صورة من صور الحياة النامية من زهر أو ثمر أو قسمة وجه أو مشابه عضو من الأعضاء ؟ كلا ! أنك لا تجد فيها أثراً لهذه الصور ولا تقع فيها موقعها لو رأيتها

وكذلك نجد الأدب في رأي المتأدبين على هذا الطراز الهندسي الذي تحل فيه الألسنة والأقلام محل المساطر والبراكير : خلا من روح الحياة وغابت عنه دلالتها حتى لو أمكن أن تخلو ألفاظ الكتابة من أثر الحياة خلو حجارة البناء منها لما أطل عليك وجهه ناطق أو سمة متحركة من ذلك الأدب المزخرف الموزون ، وكأنما الفرق بين العمارة

والشعر في هذه المقابلة هو فرق ما بين طبيعة الحجارة وطبيعة الكلام
الملفوظ . . لا فرق ما بين الحياة في بناء الجدران والحياة في بناء الكلام
وقد تلقى الرجل تتوسم فيه العلم بالأدب الصحيح والبصر
باقدار الكلام والتمييز بين صادقة ومكذوبة ونفيسة وزهيدة ثم تصغي
الى حديثه في هذه المعارض فتسمع عجباً . تسمع رجلاً يتحدثك عن
آثار الفحول من شعراء الغرب وكتابه ويهش لما فيها من المحاسن
والآيات ويروي لك عن آراء النقاد في النظم والنثر والقصص والأخبار
ما ينبئ عن فهم مستقيم وحكم مصيب وتميز مسدد ، ثم تكاد
تنسى أنه ينقل اليك ما سمع وما قرأ حتى تخوض معه في حديث الأدب
العربي ويأخذ في مطارحاته ومساجلاته فاذا بك قد حككت جلد
الروسي فظهر لك التري القديم على قاب شعرة أو شعرتين
وإذا بك تسمع الألمي المعجب ببوليرودي موسيه وسان ييف —
لا بل المعجب بشكسبير وملتون وبيرون وهازليت ولسنغ وهيني يترنم
بيت أو أبيات من أسخف ما نظم ابن المعتز أو صفي الدين الحلبي في
تلك المعاني الهندسية والتشبيهات الشكلية والتعبيرات التي تقاس
بالمسطرة والبركار أو تخبرك في اسمي ما تسموا اليه عن أحياء كأنها
« تحت التمرين » لم تتأصل فيها الحياة ولم يوسع لها من الأفق الذي
تعيش فيه الى ان تقضي مدة التجربة « على ما يرام . . . !
أوربما تلقى الرجل يتحدثك في الأدب العربي فيهنأ بتلك

التشبيهاً ويزدرىها ويتفكه بالضحك من زورقها الذي أقتله حمولة
العنبر ودمعها الذي يجري بلون البنفسج وهالها الذي جعلوه في السماء
سواراً واحتاجوا الى النقد فرهنوه بدرهم !.. ويوافقك على هذه
المآخذ التي اشتهر أمرها وكثر عدد المتكرين لها فتقول نعم ! هذه
ضالة سبقت الينا . . . وما نخال صاحبنا إلا صيرفيًا حسن النقد عارفًا
بالجيد والردىء من آدابنا العربية ميمراً بين الطلاوة البراقة والمعادن
القيمة . فتقبل عليه وتأنس الى رأيه . لكنه لا يلبث أن ينشدك أبياتاً
من نظمه أو نظم غيره يستحسن فيها ما يستهجنه هناك ويحل فيها ما
كان يزدرىه أمامك قبل دقيقتين ! وقد يكون الشبه خفياً في بعض
الاحيان بين الأبيات المدوحة والأبيات المزدراة ، ولكن الذي
يدهشك ويخلف ظنك أحياناً أن ترى الأبيات في الحالتين على نمط
واحد من المعنى والصياغة والذوق والاحساس — إن اشتملت على
ذوق وإحساس . فما باله يثنى عليها هناك وينحي عليها هنا ؟ الأمر
واضح . إنه مقلد في استهجانه للتقليد كما إنه مقلد في الإعجاب
والاستحسان ، فهو مقلد مركب لعله شر من المقلد البسيط

وأناس آخرون نشأوا بين مقياسين للأدب لا أدري أيهما أحق
بالمقت والأعراض : الأول مقياس الأديب المصري في الجيل الماضي
يعشى المجالس بالنكات المبتذلة والنوادر الملفقة والمجون الذي يلتمس
به الخطوة ويتقرب به من ذوي الجاه والثروة . والثاني مقياس الأديب

الأوربي في العهد الأخير يزجي ملالة القراء من حين إلى حين بثرة
خاوية ونميمة عامة لا تختلف في شيء عن النميمة الخاصة وكلمات يسميها
أدباً وتقدأ وما هي الا هجسات لحظة وخطرات نعاس في اليقظة .
والأول آفة الأدب في عهد الاستبداد والثاني آفة الأدب في عهد
« الديموقراطية »

لقد كان للانسانية أسرة جامعة وكانت لها أبوة وأخوة ونسب
وقرابة في اللحم والدم تبيح الأمر والارشاد وتأذن بالغيرة والنصيحة،
فلما فشت آداب « العصر الحديث » ذهبت تلك الأسرة وقامت
في مقامها « شركة مساهمة » تستأجر ساداتها وحكامها وأنبياءها وكتابها
وتحاسبهم على أعمالهم وعدد كلماتهم كما تحاسب الشركة المديرين
والساسة والجباة والعمال ! فلاحق اليوم لصاحب فكرة في أن
يرشد الناس ويجهدهم ولا شأن له بصلاحتهم وفسادهم أو بصوابهم
وخطئهم ، وإنما اكل واجبه أن يسري عنهم ويخدمهم ويلعب أمامهم
كما دعوه للعب على هواهم . فاذا فعل ما يأمرونه به تقدوه وإن هو
ترفع عن هذه الصناعة طردوه ! وقل في أبناء هذا الجيل - بعد أن
سرت فيهم عقيدة المساواة التامة بين جميع الناس - من يظن أن
للأديب حقاً مقدساً في أن يرشد ويجهد وفي أن يجد ويبرم ، وقل
فيهم من يظن أنه يبذل درهمه ليشتري به ما قد يستعصى عليه أو
يسمو به فوق مكانه الذي أطمان اليه ، ولم السمو وفيهم المحاولة ؟

أليس الناس سواء؟ أليس لكل حرّيته في أن يظهر للملأ بعبوبه
وتقائمه وأن يبرز للقريب والبعيد « بشخصيته » ومقوماته؟ بلى...!
فما حاجة الانسان إذن الى المزيد المجهد من صفات الكمال ودواعي
الاحترام؟

فليس الأدب الآن رسالة الحياة التي توحى بها شعراً أو نثراً
على ألسنة المختارين من أصفائها، وليس الأدب الآن صلاة الروح
التي لا تنبس بها حتى تتطهر من صفائها وأدائها، وليس الأدب
الآن مناجاة الاسرة الواحدة يتلقاها اخوانها من اخوانها وابناؤها من
آبائها. وليس الأدب الآن نداء الرائد السابق يشير للأمام الى البعيد
المنظور من آفاقها وأجوائها، لا ليس الأدب شيئاً من ذلك ولا شبيها
بشيء من ذلك، وانما هو علالة السامة وتزجية الفراغ وبضاعة لا شك
أن بائعها هو الغابن وشاريها هو المغبون!

وليس من الصعب على النفس أن تهجر الكتابة في الأدب
الذي يفهمه الأكترون هذا الفهم وقيسونه بهذا المقياس. وكاتب
هذه السطور يقول ولا يجمجم في مقاله أنني لو علمت أن قصاري
ما أسمى اليه بالأدب أن أروح بأوراقى على وجه القارىء كما يروح
الخادم بالمروحة على وجه سيده المنصرف عنه بنعاسه وشجونته لما
كتبت حرفاً ولا فتحت كتاباً ولا اخترت - ان خبرت بين
الاثنين - أن يروح الناس على وجهي بدرهم أبذله على ان اروح

على وجوه الناس بما أبدل فيه كنانة نفسي وذخيرة عقلي وخلاصة ما
انفقت من انفاس حياتي ، ولكني أكتب وأعلم أن ليست كل
الواجبات على وحدي وأن ليست كل الحقوق للقارىء وحده ، وأعلم
أنني أكتب فأحدث بخير ما أحدث به لسامعي فمن حقي عليهم أن
يتقظوا لما أحدثهم به والا يكلفوني المضي في الكلام وهم بين
الأصغاء والتهويم !..

وأي أحمد الله أن ليس من قراء الأدب الذي أحبه وأدعو
إليه من يسومني أن أحمل المروحة في ساعة النعاس ، وأن ليس هؤلاء
القراء من القلة بحيث يبدو لنا لأول وهلة ، فقد عرفني رسائلكم
المتفرقة وتحياتهم الطيبة والتفاتهم إلى ما قدمت إليهم من كتيبي
ورسائلي أنني لم أكن أثقل عليهم حين كنت أخوض معهم في أحاديث
غير أحاديث البطالة والفراغ ، وحين كنت أتعمد أن أقابلهم في غير
موعد اللهو والتسلية ، وأنهم فئة يحسب حسابها ويؤبه لشأنها بجانب
الفئة الكبرى من طلاب المراحل والمرطبات وهواة اقتناء الأدباء
على طريقة اقتناء البيغاوات والثعابين ! ، وما أراني أسمر بنبأ من أبناء
مصر سروري بالنبأ الذي بلغني عنها من قبل هذه الفئة الصالحة
والآن وقد هدأت العاصفة السياسية بعض الهدوء وغلب
الأمل على وساوس الشك والفتور نعود إلى الأدب فنعطيه حقه

علينا يوماً في الاسبوع ونعذر اليه بعض الاعتذار — لآكله —
من تركه في الأشهر الماضية أو مشاركته فيما له من حقوق الاقبال
والعناية، فأني لا أحسبني قد تركته كل الترك أو اشتغلت عنه بالسياسة
كل الاشتغال


نعم لا أحسبني اشتغلت بالسياسة عن الأدب كل الاشتغال ولا نسيت
عهدي في هذا الغمار كل النسيان . فأن النفس التي تفرغت للأدب
تقصر عليه سرائرها وتمحضه زبدة ودائعها وتتخذ منه محرراً تتوجه
اليه ومعقلاً تلوذ به لن يسعها أن تصدف عنه الى غيره أو تسلوه جد
السلو في ساعة البعد عنه ، وقد يشتغل الانسان بالسياسة للسياسة
ويعمل فيها عمل من يتدله بطلعتها ويهيم بشئائها ومن يخيل اليه أن
العالم كله أصوات وأحزاب وقوانين وشرائع ومعارضة وتأييد وأن
الامور التي تطرح في معترك الأحزاب هي الامور التي تدور عليها حقائق
الحياة وأسرار الوجود وأحكام القضاء . . . ! ولكن للعمل في السياسة
على هذا المنوال اناساً خلقوا له لست أظنني منهم ، بل انا لا أرى
الذين ينكبون هذا الانكباب على السياسة الا كمن يطعن في الهواء
أو يقبض على الماء أو يجري في دائرة مسدودة بلا انتهاء

أما السياسة كما أعرفها وأميل اليها فهي على صلة بالأدب كما
أعرفه وأميل اليه ، لأنها تستهوي بالبيادى . الانسانية المطلقة لا ببيادى

العصبية الضيقة ، وتصباني بالنظرة الجمالية الفنية لا بالنظرة التي تحصر
الحياة في الأنظمة والقوانين

أيها القارئ ! أتذكر ما يخامر نفسك في ميدان الصراع أو
مضمار السباق ؟؟ أتذكر كيف يتشيع قلبك لأحد الموقفين في حادثة
من حوادث التاريخ أو قصة من قصص الخيال حين ترى
أحدهما في جانب الضعف والمروءة وترى الآخر في جانب القوة
والحنسة ؟؟ كيف تسمى تشيعك اللدني لذلك الموقف ؟؟ أتسميه
تشيعاً فنياً أو تشيعاً سياسياً ان كان لا بد من قسمة أنواع الشعور
الى هذين القسمين ؟؟ أما أنا فأقول إن ما يخامرك بين الموقفين
هو على الأقل من قبيل السياسة الأدبية أو من قبيل الأدب السياسي ،
وأن العدة التي ينزل بها الأديب الى ميدانه لا تختلف عن عدة السياسي
حين ينظر بتلك العين الى ذينك الموقفين . وكذلك كنت وأكون
في سياستي التي اشتغل بها . وكأن الأدب عندي شجرة طعمت
بغصن من السياسة فتغير طعم الثمرة بعض الشيء ولم تتغير التربة
ولا الجذور





الصيام

بين انظار الذات وتفكيرها

يقول قائل : وهل هذا من الآداب والفنون أيضاً ؟ وتقول
نعم ، ولم لا يكون كذلك ؟ فأما إن كان الصيام ليس شيئاً غير جوع
المعدة وتفتت الأعضاء فالحق أنه شأن غريب عن الأدب غرابته عن
الدين ، وأولى به أن يكون من شؤون الأطباء والطهارة الذين يعالجون
الجوع بالدواء أو بالطعام ! أما إن كان رياضة من رياضات النفوس
وباباً من أبواب التهذيب فللأدب فيه حصة كخصته في جميع ما يعرض
للنفس من الحالات والأطوار

وللصيام عند رجال الدين حكم يختلفون فيها ويستكثرون منها
تكبيراً لخطورة وتعظيماً لأجره . فيقولون إنه مران على الجوع ليشعر
الأغنياء المكفون بما يشعر به الفقراء المعوزون ، أو أنه تكفير عن
الذنوب بتعذيب الجسد الذي اجترح تلك الذنوب ، أو أنه تطهير
للجسم واستجمام له من آفات الطعام والشراب ، أو أنه رياضة للنفس

على احتمال ما تكره والصبر عما تحب ، وهذه - فيما نرى - هي الحكمة الجديرة بهذه الفريضة التي لو لم يفرضها الدين لوجب على كل انسان أن يفرض على نفسه لوناً من ألوانها ويأخذ بطريقة من طرائقها لرياضة النفس وتربية الارادة

وتقول « ألوانها وطرائقها » لأننا لا تقصر الصيام الذي تُقصد به رياضة النفس وتهذيبها على ترك الطعام والشراب وما اليهما من مطالب الجسم الكثيفة وحاجاته الشائعة بين الانسان والحيوان ، فان النفس لا تكبر ترك الطعام وما اليه إلا اذا كان الطعام حظاً كبيراً لديها . وأي حاجة الى الرياضة النفسية يشعر بها من يمتحن قدرة نفسه على مغالبة الهوي بقدرة معدته على مغالبة الجوع؟؟ فانما تبين قيمة النفوس بقيمة ما تقوي على تركه والصبر عنه ، وانما يعظم الترك والصبر بقدر نفاسة الشيء المتروك أو المصبور عنه على نفسك ، ومن ثم يكون الصيام درجات تترقي في الحقيقة حسب الترقى في الحاجات والأشواق ، وربما كان أسهلها وأهونها الأمسك عن الطعام والشراب . فهو لهذا فريضة شائعة مكتوبة على عامة الناس وخاصتهم بلا اختلاف ، ولو كانت أمثال هذه الفرائض تخصص بفريق دون فريق لقد كان الاحرى أن يخص صيام الطعام والشراب بمن يحسبون الامسك عنهما عظيمة مأثورة وتضحية شاقة وامتحاناً عسيراً للارادة ورياضة للنفس على مغالبة الأهواء ، وليست الأهواء كلها من شهوة الطعام والشراب

ولكنها كثيرة مستدقة قد يعجز عن مكالمة اضعفها من يقوي على الصوم شهوراً وأعواماً ولاء بلا انقطاع

ولم يكن أصل الصوم في نشأته الأولى رياضة للجسم أو للنفس على شيء من هذه الأشياء ، ولكنه على الارجح بقية من « عبادة الموتي » نشأ أولاً من استشعار الحزن لفراقهم وترك الطعام والشراب بعدهم ساعات أو أياماً الى أن تهدأ سورة الحزن وتبرد لذعة الألم ، ثم صارت للحداد أيام معدودة وشعائر معروفة وأصبح الصوم الطبيعي الذي لا كلفة فيه ولا مشقة صوماً مقررراً في العرف والعادة ، ثم اصطنع بصيغة الدين حين عبد الناس آباءهم الغابرين وأقاموا لهم القبور والهيكل والكهانات ، فانفصل شيئاً فشيئاً عن منشأة الأول واستقل على توالي العصور عن شعائر الحداد ، وان كنا نرى الى اليوم أن الحداد يتبعه الصوم عن كل الطعام أو عن بعضه أحياناً الى أمد يختلف بين الناس حسب اختلاف العادات

ولما ثبتت الكهانات وتفرغ التساك للعبادة كان الصوم أحد رياضاتهم الأولى التي راضوا بها نفوسهم على التقشف والزهد في الحياة وممارسة المكروه . ارضاء للآلهة التي كانوا يعبدونها ويتقربون اليها بالتوبة وهي لا تقبل في حكم الأديان كلها إلا مقرونة بما يؤلم النفس ويثقل عليها احتمالها ، ثم تجرد الصوم من هذه الأغراض وتهذب من ضلالاته الأولى حتى امتزج بالتصوف الفلسفي والتأدب الروحي

وفرضه بعض الفلاسفة الحكماء على انفسهم لقمع هواها أو تهيتها ملكاتها الباطنة لما يسمونه حالة « الاشراق والصفاء » ، التي تعينهم على الوصول الى الحقائق واستكناه خفايا الوجود ، وقد يقتدي بعضهم بالنسك والزهاد فيستعين بالصوم على « انكار الذات » ونسيان النفس تقربا الى الله وعزوفا عن ملاسبات الحياة

ولكن هل الصوم من دواعي انكار « الذات » المتنبهة او هو من دواعي اثباتها وتوكيدها ؟ وهل هو من أسباب نسيان النفس الشاعرة وسحق كبرياتها أو هو من أسباب تذكرها وتقريرها وجودها ؟ أكاد أقول أن الصوم بجميع درجاته وأنواعه حيلة نفسية خفية لتقرير وجودها وتوكيد عزتها ورفض كل ما يسيء الظن بها في نظر صاحبها . وما أيسر أن نعرف ذلك ! حسبنا أن نراقب الحالة التي تناقض الصوم لتهتدي الى الحقيقة من المقابلة بين التقيضين . فأنظر على سبيل المثال الى أي رجل تعرفه ممن أرخوا العنان لشهواتهم وأجابوا نفوسهم الى أهوائها واسترسلوا في الغواية بلا رادع ولا مقاومة فهل ترى هذا الرجل « واجداً » نفسه مكرماً لها أو تراه مبتدلاً نفسه فاقداً لها في غمار شهواتها وتيار أهوائها ؟ إنك لا ترى رجلاً كهذا إلا قد ارتسمت على وجهه علامة احتقار هي قبل كل شيء موجهة الى نفسه لا إلى سواه ممن لعله يحتقرهم لأنهم يشبهونه في معيشته ولا يهتمون في الحياة بخير مما

يهتم به ، وكأنه بما يبدو على وجهه من تلك العلامة يقول : أنني أعرف من أتم أيها الناس لأنني أعرف من أنا وأعرف ما أهتم به فلا أجد هناك ما أجله وأوقره . وتلك شهادة على نفسه لا يقصدها ولكنها تنطق بدلالاتها أرادها أم لم يردّها وأظهرها في ثوبها الصحيح أم أظهرها في ثوب الانفة والكبرياء

ولست أعرف معنى « للنفس » في حالة الاستسلام والاسترسال التي نشاهدها فيمن يلبون حاجات نفوسهم ولا يقفون لها في شهوة من شهواتها ، فإن حكم هؤلاء في هذه الحالة حكم الخشبة المنساقّة في تيار الماء أو الحجر الهابط الى الأرض أو الريشة المتطايرة في الهواء ، أي أنه هو حكم الجماد المفقود في تيه النواميس الكونية بلا ادراك ولا شعور ولا ارادة ، ولا يزال الانسان شيئاً لانفس له ولا استقلال لكيانه حتى « يمتنع » عن شيء يدفع اليه ويقف في وسط التيار الذي يحيط به . فهناك « يجد » نفسه بعد اذ فقدّها بالمطووعة ونسيان « الذات » ويشعر بمعنى رفيع هو اسمي معاني الحياة لم يسم اليه إلا الانسان بين سائر الأحياء

فالأقرب الى الصواب أن تقول أن الصيام بجميع درجاته وأنواعه هو احدى وسائل النفس العديدة التي تتوب بها الى وجودها وتستقل بها عما حولها ، وأنه اذا ظهر في بعض جوانبه بمظهر « انكار الذات »

فهو في أعماقه تقرير للذات واثبات لقيامها بنفسها واستغنائها عما هو خارج عنها

ومن التجارب المكررة عندي أنني كلما أمت في نوبة ضعف وهانت على نفسي لا استرد الرضي عنها ولا أفلح في تسرية غمتها حتى أوفق الى عمل معنت أجرب به قوتها أو رغبة شديدة أروضها على التغلب عليها . فاذا أفلحت التجربة اطمانت الى نفسي ورضيت عنها كما يطمئن المرتاب في قوة جسده حين يروض عضلاته بحمل الأثقال ومقاومة الشد والجذب ، وكلما كانت الرغبة أشد كان التغلب عليها أفعل في طرد الشكوك وأدعى إلى الغبطة وأقن أن أبيع لنفسي بعدها ما كنت أخشاه عليها في حالة الضعف والارتباب

ولى صديق كثير الاطلاع على كتب الفلسفة العربية صريح الفكر سديد المنطق يناقش كل شيء ولا يصدق بشيء قط على السماع ، وأعرف أنه لا يؤمن بالأديان ايمان اتباعها بها ولا تكاد تمضي ليلة عليه حتى يلهو بتحطيم برهان أو براهين من التي يبينها المناطقة المتدينون ويتحصنون فيها على المنكرين ، ويظل لا سلطان عليه لغير عقله المستقل وطبيعته المتينة حتى يجي شهر رمضان فيصومه صيام الاتقياء ويحرم على نفسه الشراب ويخلص في الصوم اخلاص من يبتغي به الجزاء ويعتقد فيه النجاة . وكنت أعجب لهذه الظاهرة النفسية الغربية وأسأله عن تعذيب نفسه في غير نية التدين أو الرياضة وأستطلع منه

العلة التي يعلل بها ذلك لعقله فيقول لي : أنني أستحي أن أرى في
النهار مدخناً أو آكلًا أو شارباً ولا أحب أن اضعف عن الصيام
وحولي من يقدرون عليه

وأسأله : فإذا خلوت بنفسك ألا تشرب الماء إذا عطشت أو
تأكل الطعام إذا وجدته على مقربة منك ؟ ؟

فيقول لا ! وهو صادق فيما يقول

وأسأله كيف يستقيم هذا في قياسك ؟ فيذكر لي أنه كان في شرح
شبابه لا يبالي أن يجهر بالأفطار حيث كان ولكنه جنح الى المجاملة
مع السن والخبرة فأصبح يصوم أمام الناس ويأبي أن يعترف لنفسه
ببراءتهم ، فيصوم في الخلوة ويؤدي للصيام كل حقه مخافة الرياء . . . !
وهذه ظاهرة من ظواهر الصراحة التي تفر من الرياء فتقع فيه ،
وهي ظاهرة تبدو غريبة لأول وهلة ولكنها في الحقيقة لا تعد غريبة
في النفوس المتيقظة التي تراقب خواطرها وتعتمد في تقديرها لذاتها
على مقياسها هي لا على قياس الناس لها . فإن هذه النفوس تفرق
أن يظهر ضعفها لها اشد من فرقتها من ظهور ضعفها لغيرها ، وتستخف
كل ألم يزيل شكوكها ويعيد اليقين - بأي شكل من الأشكال - الى
سريرتها ، اذ كان أكبر ما يهدها أن ترضى هي ضميرها الا أن يرضى
الناس عنها ، فهي لذلك تداري ضميرها أكثر من مداراتها للناس وتأبي
أن تسلم بأنها ضعفت أمامهم فتحمل الشدة بينها وبين ضميرها لتدفع

عنها مظنة الضعف أو تقدم له كفارة عما بدر له منه ، ولا يداري
الانسان نفسه إلا اذا كانت لها مقاييس للاخلاق والحياة غير المقاييس
التي يتواضع عليها الناس ، وهذا - أي استقلال الانسان بمقاييسه -
هو الصراحة بعينها وهو كما رأيت سبيل في بعض الأحيان من سبل
الرياء .! فما أعجب سرائر النفس وما أكثر ما فيها من البراقع
والسراديب والدروب

ويخيل الى أن الناسك الحقيقيين أصدق الناس شعوراً بذواتهم
وأعظمهم رغبة في الاستقلال عما حولهم والتمرد على ضرورتهم ، وقد
يبدأ الناسك منهم في الزهد والقناعة وشعاره في الحياة

إذا لم تملك الدنيا جميعاً كما تهواه فاتركها جميعاً

ولكنه قد يعلو في افقه حتى يرى في الزهد لذة إيجابية ويطلبه
لذاته لالانه وسيلته الباقية لارضاء نفسه بعد ان اعياه ارضاؤها بأن
« يملك الدنيا جميعاً كما يهواه » . . . بل اقول ان الزهاد الحقيقيين
لا يرضيهم من « تقرير الذات » ما يرضي الملوك وذوي السطوة
واصحاب المطاعم الكبيرة الذين يسحقون بأنانيتهم كل انانية تهض
في طريقهم . فأن هؤلاء يرضيهم ان يتغلبوا على الناس ويتحكموا
في ظواهرهم وقيسوا انفسهم بمقاييسهم ، اما الزهاد فلا يرضيهم هذا
وانما يطلبون ما هو اكبر منه في السيطرة والتحكم: يطلبون ان يتحكموا

في ضرورات الحياة ومطالب الفطرة ونواميس التكوين ، يطلبون ان
يذعن لهم كل شيء ، وان لا يدعنوا هم لشيء من قوانين هذا الوجود ،
وان احببت ان تستيقن من ذلك فمثل لفكرك زاهداً شرع في الزهد
ثم نظر فألغى نفسه نجاة قادراً على كل ما يريد مستغنياً عن كل ضرورة
متحكما في كل ناموس من نواميس الكون افتراه إذن يصمد على نية
الزهد ام يرى انه اصاب الكفاية مما اراد وان الزهد لا معنى له مع
القدرة التي اوتيتها في تسخير المقادير ؟

ومالنا والفرض والتمثيل . حسبك ان تلقي بالك الى المعجزات
والكرامات التي يرويها الناس عن الاحبار والنسك وما ينسبونه اليهم
من خرق الطبيعة وتحريك الجبال وتجنيف البحار وارسال الرياح
والأمطار والاستغناء عن الطعام والشراب واللباس والغطاء فتعلم طبيعة
الزهد وانها طبيعة الهية لأنها تطلب ما ليس يقدر عليه الا « الاله » !
فلا خطأ في قول القائلين ان نفس الزاهد تتوق الى مصدرها الأول
او تسمو الى « واجب الوجود » ولكن الخطأ كل الخطأ ان يقال
انها تنكر بالزهد ذاتها وتنفى عنها وجودها ، فما يكون لذي وجود ان
يدحض وجوده بحال من الأحوال حتى الاعراض الزائلة والصور
السطحية ناهيك بالنفوس الآدمية وضبعة كانت اورفيعة . غير ان
الفضائل تتفاوت في السعة والضيق وفي القرب من عنصرها الأصل
والبعد عنه . فما يسمي « انانية » عند قوم قد يكون التضحية التي

ما بعدها تضحية عند آخرين وما يبدو كالتقناع لأول نظرة قد يكون
الطمع الذي ما بعده طمع عند البحث في اصوله وغاياته . ثم اننا لا نقول
ان الزهاد يفعلون ما ينسب اليهم من المعجزات والكرامات او انهم
يدعون فعله وانما نقول ان الزاهد الصادق يأنف ان يخضع لما يخضع
له الناس جميعاً عن طواعية ورضي ، وانه ليس ذلك الذي يقنع بأقل
مما يقنع به الناس وانما هو ذلك الذي يطمح الى اعلى وادوم مما
يطمحون اليه



ومغزى ما تقدم ان الصيام — بكل نوع من انواعه وفي كل
درجة من درجاته — وسيلة من وسائل تقرير الذات لا يستغني عنه
احد في مزاوالات الحياة ولا بد لنا منه في كثير من الأحيان ، للشعور
بما فينا من علو على الجماد المسخر واستقلال عن تيار الضرورات



الزهر والحب

كان للطبيعة في الأسبوع
الماضي يومها المشهود عندنا في
« شم النسيم » ، وكان ذلك
اليوم عيداً من اعيادها في هيكالها
القديم الذي لا تنصل له صبغة
ولا يخفى له معلم ولا يزال مأموماً
مطروقاً على تعاقب الآلهة
وتناسخ الأديان وتبدل المصلين ،
وكان خليقاً من الناس بعبادة
اجمل واطهر من عبادتهم التي



يحيونه بها ، ولكنهم اذالوه كما يذيلون كل قداسة و اضافوا اليه كما
يضيفون الى كل دين و خلطوا السوق فيه بالهيكل كما يخلطون
اسواقهم بهياكلهم في كل زمان ، وجعلوه مائدة بطون منهومة وكان
اولى ان يستقبلوا منه نزهة ارواح وافكار وفرحة قلوب وابصار

وكان في الأسبوع الماضي معرض لأزهار الربيع جمع فيه العارضون
ثروة من الألوان والطور وذخراً من البشاشة والرواء ومحفلاً من
الأرواح الباسمة والخواطر الناعمة التي ترف حول الرياحين رفيف
الفراش حول المصاييح، والتي تعجب وانت تناجيتها وتحس قربها وتستروح
منها انس محضها هي تحية تبثها انت في الزهر ام هي تحية يبثها الزهر
فيك؟! وكنت اشهداها وأتقل فيها من خميلة الى خميلة او من طائفة
الى طائفة فيخيل الى اننا في موعد حسان تقبل اليه كل حسناء بزيتها
وتفتن فيه بفتنتها وتبرز للعيون بجمالين من الوشي والصباحة وسكرين
من النشر والهوي! ويلج بي هذا الشعور ويتسرب في مناحي النفس
وجوانب الخيال حتى لا تستغرب من الأزهار سكوتها وسكونها وأحسبه
وجوماً منها واطراقاً... فيبعد الشبه بينها وبين الحسان اللاعبات
الضاحكات المبديات للزينة إبداء النعمة والسرور المتبرجات بالجمال
تبرج المرح والدلال الطائعات فيما يبهجن به العيون من اشارات
الحسن وسمات السعادة ودلائل العطف والاقبال، وارى كأننا تلك
الأزهار المجلوبة من كل روضة معرض من معارض الجوارى الأسيرات
اللواتي يجلبهن باعة الجمال والشباب من كل رجا من الارجا
ويتزعنهن من احضان الأمهات والآباء ويفرون — بما يسبغون
عليهن من الحلي النفيسة والمطارف الغالية — انظار المساومين الغافلين
عما وراء هذه المحاسن من الحسرات والالام! واين الزهرة في الآنية

من الزهرة في روضتها الأريضة على غصنها النضير ؟ ؟ تلك حبيسة
مجلوبة مكفوفة الأمل محدودة الحياة تذكرها فتذكر ثمنها وتاجرها
وتفرج عليها كما تفرج على السلعة التي تقدرها بمقدار سعرها ،
وهذه طليقة عزيزة تغازل الشمس وتلاعب الهواء وتدين بدين الحب
والأمل وتقدرها انت بمقدار ما منحتك من السرور والاعجاب، وتنشدها
في روضها كما تنشد المليكة الجالسة على عرشها ! فهي الزهرة كما خلقتها
الطبيعة وهي البشرية التي تنطق بها الحياة في صوت من الاوراق
والالوان ومعني من النضارة والتماء ، وكذلك يعشق الزهر وكذلك
يعبد الجمال !

أما الزهرة في الآنية فتلك مخلوق مسكين في الطريق الوسط
بين الزهرة المصنوعة من الورق والزهرة المؤتلة في الرياض ، وهي بأن
تثير الاشفاق والرثاء أخرى منها بأن تثير الاعجاب والرجاء ، وكما ان
الرق يسلب الانسانية معناها ويحيل الانسان الكريم الرشيد آلة
للكد والسخره كذلك رق الآنية يسلب الزهرة معنى التطلع
والاستبشار ويحيلها آلة للزينة والتعلل لا تكاد توحى الى النفس من
فرح الحياة إلا بقدر ما يلصق بها من ذكريات الرياض والفضاء

والربيع ربيع في النفوس لا فيما تراه من زخرف والارض والسماء
— يحينا بازهار خفية تتفتح في ضمائرنا أجمل وأبهج وأحب لنا من

هذه الازهار التي تتفتح في الرياض ، ويحبونا بخصب في القلوب أغنى
وأوفر من ذلك الخصب الذي ينبت منه الشجر ويزكو فيه الثمر ،
ويصب في جوانحنا من حمياه كؤساً دهاقاً كالتي يسكر بها الطير
فيصدح ويحتسي منها التسميم فيخفق ويعب فيها الفضاء فيصفو ويتألق ،
ولولا الربيع الذي يشرق في النفوس لما أشرق الربيع في أرض
ولا سماء ، ولولا الطيور التي تهتف لنا في الخواطر وترفرف في فسحة
الامل لما أطربتنا الطيور التي تهتف على الاغصان وترفرف في
الاجواء ، ولولا الرياحين التي تتفتق عنها أكمام القلوب وترويهما أفويق
الحياة لما أقتنا لريحانة تنجم بها نازجة على الارض وتسقيها غادية في
الفضاء . فما يعجبنا ربيع الارض ولا يسحر عيوننا ويحرك أشجاننا
الا لانه صدي الربيع الذي في النفس ونعمة من نعماته ونفحة من
نفحاته ، أولان الربيعين معا — ربيع النفوس وربيع الرياض —
صدي قدره عظيمة مكنونة في كل شيء متغلغلة في كل مكان ونفحة
من نفحات ربيع سرمدى حافل بالنور والخير والجمال

وكثيراً ما يسأل السائلون : ماذا يعجبنا من الازهار والرياحين ؟
وكأنهم اذ يسألون ذلك السؤال يحسبون أنها خلقت لتعجبهم وتسهرهم
فيحيرهم ويضني عقولهم أنهم لا يعرفون كيف يكون ذلك الاعجاب
والسرور . . . ! وما خلقت زهرة واحدة من هذه الازهار لنا
ولكنها خلقت لنفسها ، وما لبست تلك الألوان والمحاسن لتروقنا

ولكنها لبستها لأنها لا محيص لها عن لبسها ، وإنما السري في كل ما يخامرنا من السرور بها أن للزهرة في الطبيعة معنى يوافق معنى في نفوسنا ويكون ظهوره دليلاً على السرور الذي شاع في الكون قاطبة — وشاع في نفوسنا أيضاً — لا خالقاً لذلك السرور ولا سابقاً له في الوضع والترتيب، فنحن لهذا نبتهج حين يبتهج الزهر ونشعر بنمو الحياة فينا حين تنميه الحياة وتتوفاي على موعد واحد من مواعد الطبيعة التي تعدها لامتاع أبنائها جميعاً بخير ما عندها من الهدايا والالطاف ، ونحن حين يشيع في نفوسنا الفرح بالحياة ويستخفنا الطرب بالوجود نستجمل كل شيء نراه — ولا نستجمل الزهر وحده — وننظر الى الموجودات كافة نظرة الخالدين الذين لا يرون فيها قبحاً ولا يحسون فيها نقصاً ، لأنهم ينظرون اليها بعين تنزهت عن الاحتياج الفاني والاعتبار الموقوت ، فلا يمحون فيها إلا كياناً كاملاً مطلقاً سكران ملء السكر بنعمة الوجود !

لماذا نطرب للزهر ؟ ؟ عجباً ! ألا تقول لماذا نطرب وكفى . . . !!
فاننا لا نطرب للزهر ولا الزهر يطرب لنا ، وإنما نحن جميعاً نكرع من معين متقارب ونشرب الطرب بأقداح متشابهة . وهل تظن أن الزهر أولى بأن يكون جميلاً بهيجاً محبباً محبوباً حياً نامياً منا نحن الأحياء الشاعرين في أوان الربيع ؟ ؟ أبيضوع الزهر ولا تضيع أرواحنا ؟ ؟ أيتفتح الزهر ولا تتفتح قلوبنا ؟ ؟ أينمو الزهر ولا تنمو شواعرنا ؟ ؟ أيجمل

الزهر ولا تجمل حياتنا؟؛ أيطرب كل شيء تحت السماء ولا نظرب نحن حتى يجيء الزهر فيطربنا بألوانه وأعطاره وما يترقق فيه من ماء النضارة والشباب؟ ذلك ما ليس يخطر ببال...، وأحسب لو أن الربيع بقي لنا وخلا وجه الأرض من كل ناجمة ونابته لما نقصت نشوتنا بجمال الحياة شيئاً ولا افتقدنا في خارج نفوسنا دليلاً من دلائل الغبطة والشوق ولا غاب شيء من تلك الدنيا التي تشتمل عليها الضمائر والقلوب



بيد أننا إذا نظرنا إلى الأسباب القريبة نجد للزهر جمالا يلقانا به من عنده قد يضاعف شعورنا بالجمال أو يوقظ فينا شعورنا الساهي في غمضة الإغفاء، وليس يلحظ هذا الجمال إلا نفوس يسري الشعور إلى عروقيها الدقيقة وينبض في أوتارها البعيدة ويكبر الهمس الضعيف فيها كما يكبر الصدى في بعض القباب المتجاوبة - هذه النفوس قد مرنت على الاحساس ودربت على الجليل والدقيق منه واتصلت مسالكها من أظهر منافذ الاحساس إلى أخفائها ومن أخفائها إلى أظهرها، قهرها النعمة الخفيفة حين ينام غيرها على قرع الطبول وتجوها الإشارة الطفيفة حين تمتع منافذ غيرها على غير الدفع والاقتحام. وكأن لبصائر هذه النفوس مجاهر وأبواقا تجسم بها الصغير وتقرّب بها البعيد فتبصر حين يغمض غيرها عينيه وتسمع حين يوصد غيرها

أذنيه ، أو كأن لها أثيراً روحياً يجتذب الاصوات من أبعد الإبعاد
كما يجتذب الاثير كلمات المتكلمين من وراء البحار السحيقة والسامعون
لها في مواضعها يحسبونها قد ضاعت مع الريح

فللزهر رسالة الى هذه النفوس تنقلها من قريب وهي في الوقت
نفسه توميء الى أبعد آماذ الطبيعة وأعمق قراراتها ، وهي تصني الى
تلك الرسالة قسمها على درجات متفاوتة من الوضوح والفهم ، فان
سمعت أصواتها فثلتها في ذلك كمثل الذي يسمع نبضات البرق بعلامات
الحروف دون أن يهتدي الى فك رموزها وتركيب الفاظها ، وان
زادت على ذلك فقد سمعت العلامات وفكت الرموز وركبت الالفاظ
وخلصت منها الى المعاني والاسرار ، وهي في الحالتين تتلقى من الزهرة
حياة قد يحتاج غيرها الى كل عدد الربيع وجنوده ليتلقى بعضها أو
يحس قربها ، ثم هو لا يتلقى ذلك البعض ولا يحس ذلك القرب إلا
على صورة غليظة شوهاء محرومة من دقة التفصيل ووضاحة التمييز

وربما تسنى لنا أن نحصر بعض صفات الجمال في الزهرة اذا
حصرنا عناصرها التي تبدو لنا من قريب ، فالزهرة لون وشكل وعتار
ولا تعدو صفات الجمال التي تشوقنا منها ان تكون في عنصر من هذه
العناصر أو في مدلوله الذي يدل عليه . فأى تلك العناصر أغلب في
جمال الزهرة ؟ وما المعنى الجميل من الألوان والاشكال والعتطور التي
تروقتنا في الازهار ؟

فأما اللون فهو النور في اصباعه المختلفة وهو أول ما يلفتنا الى الزهرة ويبهز أنظارنا منها، والنور إن رجعنا به إلى أصوله الاولى مادة كل شيء ومنبع كل حياة . أو لم يظهر للباحثين ان جميع ما في هذا الكون من الاجسام يتركب من خلايا وأن جميع الخلايا تتركب من ذرات وأن جميع الذرات تتركب من كهارب وأن الكهارب انما تستمد وجودها من الاشعاع والانارة أو انما هي النور الذي صح فيه على هذا الوصف قول الصوفية انه هو المرئي والرأي وأنه هو الوجود والهادي الى الوجود؟ وان رجعنا بالنور الى مظاهره السطحية فهو جلاء الابصار وغذاء الارواح يربوبه الجسم وتترعرع فيه الحياة ويداوي به ما ليس يداوي بغيره من الادواء

فهو في أصوله البعيدة ومظاهره القريبة لا عجب أن يبهز أبصارنا ويسحر نفوسنا ويشرح صدورنا ولا بدع أن يكون مصدر كل جمال ومبعث كل روعة ولباب كل سرور ، ولست أشك لحظة في ان شعورنا بالنور — أو قل بالحركة الاولى والحرية الاولى — هو أصل كل شعور بالجمال في نفوسنا، وان فرح العين بطالعة النور الرفيق عليها لا يختلف أي اختلاف عن فرحها بطالعة الزهر المتبرج في اصباعه وتقوشه ، وأن من شواهد ذلك ان جمال الزهر يكاد يتمشى على ترتيب الطيف الشمسي في أذواق المعجبين بالازهار . فتروقههم الالوان على حسب ما عندهم من السرعة والبطء في الالتباه ونري الذين يكفهم القليل من التنبيه

يميلون الى الالوان القريبة الى الظلام ويتدرجون في ذلك علي حسب اختلافهم في دقة الاحساس وسرعة الالتفات ، والمتخاطبون بلغة الازهار يرمزون الى قوة الاحساس الجميل الذي تمثله الزهرة وفاقا لترتيب لونها في ألوان الطيف الشمسي ، فمن الوردة الحمراء المتوهجة التي يمثون بها اتحاد الحب واضطراب آلامه الى البنفسجة الحزينة الساكنة التي يمثون بها الوداعة والسوداء — مجال واسع لتفاوت الاحساس بالزهر على درجات التفاوت في ألوان النور وامتزاج الاصباغ والنقوش

أما شكل الزهرة فقد يعجبنا منه التنسيق البديع أحياناً كما يعجبنا التنسيق في كل شيء، ولكن الذي يعجبنا منه حقاً - فيما اعتقد - هو الدلالة التي يرمز اليها لا التنسيق الظاهر الذي قد يتفق لبعض الازهار وقد لا يتفق . وأول ما تدل عليه الزهرة الغضارة ثم الالهفة التي ترافق في الذهن ذكرى زوالها السريع . فكأنما هي بشكلها الغضير الرقيق رمز الى فرصة العيش التي تنادي الناس باغتنامها وتدكرهم بسرعة فراقها . ومن هنا كانت في شعر الأم كلها رمزاً الى الشباب والى كل أمل جميل تتلف عليه

وأما الرائحة فقد يخلو منها بعض الازهار فلا يفوته شيء من الرواء والبهجة ، وقد تعجبنا الرائحة في الزهرة كما تعجبنا في سواها ، وهي بعد لغز يقول النباتيون والمشرحون أنه مجبول الغرض في الزهرة كما

أنه مجهول الغرض في جسم الانسان ! فان صح ما يقولون فقد يكون الشك محيطاً بغرضها ولكن أي شك يا ترى يمكن ان يخالنا في أثرها الذي تحدثه في نفوسنا ؟ فان اقل ما يقال فيها انها منبه لطيف للذهن يحرك التريخة ويسلس الاحلام ويرسل اعنة الخواطر ، وهي كالمبهمات في جميع خصائصها تطف قسر وتشتد فتؤلم ، وهي اذا اقتترنت بالذكريات المحبوبة واجتمعت الى ما في الرياض من صفاء واشراق ونضرة في الالوان والاشكال تم بها جمال الربيع

ثم ان الزهرة بلونها وشكلها ورأحتها رمز الى هوي في النبات يتلاقى في اغواره العميقة بهوي مثله في الانسان ، هي رمز الحب ! هي وسيلة التزاوج بين القريب والبعيد من النجوم والاعشاب والاشجار والادواح ، وهي لهذا حبيبة الى العشاق توحى اليهم اسراراً لا توحى بها لكل ناظر

ولكني لا أريد هنا ان ازعم كما يزعم النشوئيون وغيرهم من الباحثين أننا نرى الأشياء جميلة لاننا ننظر اليها بعين الحب أو بعين العاطفة الجنسية كما يقولون . فقد يكون العكس أقرب الى الصواب وقد تكون العاطفة الجنسية نفسها اداة من أدوات التكوين تمض بنا في طلب الجمال والكمال

والا فما هي تلك العاطفة الجنسية ؟؟ أي شيء مقصور على الانسان ؟ أي شيء مقصور على الحيوان ؟ أي شيء مقصور على

النبات؟ أهى شيء مقصور على الجماد؟ كلا! بل هى شيء شائع فى جميع هذه الكائنات وفىما هو اخفى منها عن العيان والتقدير: شائع حتى فى الكهارب التى تتعاقب سالبة وموجبة لتستوي بها الذرة الدقيقة التى لا تدرك الا بالحساب، وهى حيثما وجدت مظهر للرغبة فى التمام والدوام وهما أعلى ما يتصوره العقل من صفات الجمال فى الكائنات. فما من كائن فى هذا العالم الا وهو يسعى سعيه الحثيث الى ان يتم بصنوه المتم له ويلتمس الدوام بواسطة الاتصال به، وما من صفة مبثوثة فى الكائنات هى الصق بطبيعة التكوين من صفة الرغبة فى الجمال والدوام.

فليست العاطفة الجنسية هى التى تخلق الرغبة فى الجمال وانما الرغبة فى الجمال هى التى خلقت العاطفة الجنسية بمظاهرها المختلفة فى الكائنات، ولقد تعودنا أن نحسب العلاقة بين الذكر والانثى أصلا للحب بجميع صنوفه وألوانه. ولكننا اذا واجهنا الحقيقة من وجهة أعم وأعمق تبين لنا ان هذا الحب بين الذكر والانثى هو فرع طارىء من أصل الهى قديم شامل للموجودات مستقر فى طبيعة الوجود هو حب الجمال والدوام، وليس الحب بين الذكر والانثى غاية فى ذاته وانما هو واسطة من وسائل ذلك الحب الاصيل.

والزهرة يا صاح! الزهرة النحيفة التى تطويها فى يدك قد تروى لك من فخامة هذه الاسرار ما تمثلى به آفاق الارض وأبراج الشمس

والاقمار . فاذا أخذتها بين أصبعيك فاذا كر أنها رمز الحب ! واذا
ذكرت الحب فاذا كر أنه - في كل ما يحيط بنا من الظواهر والخفايا -
هو رمز الجمال الالهي والحلود السرمدي .



الاشكال والمعاني

قلت في مقال « الزهر والحب »
ان شكل الزهر « قد يعجبنا
منه التنسيق البديع أحياناً
كما يعجبنا التنسيق في كل
شيء ، ولكن الذي يعجبنا
منه حقاً فيما اعتقد هو الدلالة
التي يرمز اليها لا التنسيق
الظاهر الذي قد يتفق لبعض
الأزهار وقد لا يتفق . وأول



ما تدل عليه الزهرة الغضارة ثم اللفظة التي ترافق في الذهن ذكرى
زواها السريع . فكأنما هي بشكلها الغضير الرقيق رمز الى فرصة
العيش التي تنادي الناس باغتنامها وتذكرهم بسرعة فراقها

وقد لقيني أديب من المشغوفين بالتصوير فناقشني فيما أردت بهذه
العبارة . وكان منحى فكره ان الجمال كله « شكلي » لا سيما الجمال في
الفنون ، وان الفن كالشريعة « لها الظاهر » كما يقول الفقهاء وهو

رأي يقول به بعض محبي الجمال الصادقين في حبههم إياه ولكني أحسبهم يشغلون بلذة النظر اليه عن الانعام في أسبابه ودلالاته أو يصعب عليهم أن يجمعوا للجمال « نظرية » واحدة يفيتون اليها بتعليل كل ما يعجبهم من محاسن الاشكال ، فيأخذون كل شكل على حدته ويظنون الجمال عالقاً به لذاته لا لمعنى ينطوي عليه أو لدلالة يشير اليها . وربما صعب علينا أن نحيط « بنظرية » وافية للجمال تفسره في كل صورة وكل لحظة . ولكني لا أرى ذلك مانعاً لنا من القول في غير ما تحرز ولا استثناء بأن الجمال في الفن والطبيعة معنوي لا شكلي وان الاشكال لا تعجبنا وتجمل في نفوسنا إلا لمعنى تحركه أو لمعنى توحى اليه — لا فرق في ذلك بين أشكال الوجوه الآدمية والاعضاء الحية وبين مادون ذلك من الصور التي تخفي فيها معاني الحسن أو تبعد الشقة بينها وبين ما توميء اليه

فالوظيفة في الحياة تسبق العضو الذي يمثلها والجسم الانساني نفسه لا يسعك أن تتصوره إلا معبراً عن فكرة أو وظيفة مجردة ، ولا قيمة للاعضاء في ذاتها بغير الفكرة التي تعبر عنها والوظيفة التي تؤديها ، فلا فرق في الشكل مثلاً بين بروز الحدبة على ظهر الاحدب و بروز النهدي على صدر الكعاب ! ولكن الحدبة معيبة والنهد مستجمل مرغوب ، وما ذاك إلا لاختلاف المعنى بينهما لا لاختلاف الشكل

والصورة ولتباين الوظيفة التي يمثلها كلاهما لا لتباين الحجم والبروز .
وقد يعاب بروز التهد كما يعاب بروز الحدبة اذا كان في شكله ما يخل
بمعنى الصحة والشباب الذي يستجمل لأجله ، إذ من البدهاة أننا
لأنجب وزناً من اللحم والدم ولا رسماً من الهندسة ولا حيزاً في
الفضاء حين نحب الصدر الناهد المغم في شكله البارز المستدير ، ولكننا
إنما نحب الفتوة والصحة والنضج وبقظة العاطفة وما إلى هذه المعاني
من خواجج النفس ووظائف الحياة

وما من شكل تراه إلا يختلف موقعه في الذوق بحسب اختلاف
الدلالة التي يدل عليها والوظيفة التي يقوم بها . فمن ذلك ان الضمور
واليبس معياران في عامة الاحياء غير أننا لا نعييهما في كلب الصيد
الهرزيل المعقوف الذي لصق بطنه بظهره ودقت أطرافه وكادت تعرى
من اللحم أعضاؤه ، لاننا إنما ننظر الى ما وراء ذلك من خفة الحركة
وسهولة العدو ورشاقة الخطو ، ونغفل عن شكل « الهيكل العظمي »
التمثل لأعيننا حين نرى أمامنا حركة جميلة حرة منبعثة بلا وناء ولا
عائق متلبسة بجسد ذلك الحيوان الذكي السريع . ولو تأملنا في سر
ما يعجبنا من حركة الجواد الجميل حين يرفع عنقه ويشيل بذنبه
ويتبختر في مشيته لعلمنا اننا انما نعجب بالمرح والنشاط وامتلاء الوظائف
بالحياة واغتراب الحياة الشاعرة بنفسها ، إذ تبدو لنا مجسمة في الصورة
التي توأمتها والهندام الذي يطاوعها فيما تريد

ومن تعود النظر الى المعاني الباطنة وراء الصور الظاهرة استطاع أن يخلص فكره وقلبه من قيود ذلك التحميم الضيق الذي يخيّل الى أكثر الناس أن جميع ما نحسه من هذه الاشياء ان هو إلا قوالب مصبوبة أبدية لم تكن قط على غير الصورة التي نحسها ولن تكون أبداً على غيرها... كأننا كل صورة وجود قائم بذاته لا يدل على معنى ولا يتغير بتغير المعاني التي يدل عليها. ! وليس أشأم على العقل والنفس ولا أبطل لعلهما من حصر كل شيء في صورته وحبس كل شيء في ظاهره وافترض ان الصور سابقة للمعاني في ترتيب الوجود كما أنها سابقة لها في ترتيب المشاهدة والادراك. فان الحقيقة التي لا جدال فيها ان العقل المطلق لا يرى وجهاً ما لتحميم صورة من الصور دون غيرها ولا يمنع أن تظهر الحياة نفسها في ألوف من الأشكال المختلفة غير أشكال الآدميين والأحياء المألوفة في الأرض التي نساكنها. وكم ذا يختلف الانسان عن الانسان في اللون والحجم والادراك والعمر وسائر المزايا والصفات؟؟ وكم قد اختلف الانسان في حاضره عما كان في ماضيه البعيد المجهول أيام الوحشية والهيام بين الآجام؟؟ فما كانت صورة « الحياة الانسانية » واحدة في زمن من الأزمان ولا هي بالقالب المصوب الذي لا يقبل التغيير ولا يأذن بالزيادة والنقصان ، فلقد كانت هذه الحياة قابلة لأن تظهر في جسم ليست له هذه الجوارح التي تتمثل بها وظائفنا الآن، وقد كانت عسية أن تسلك في

تجسدها مسلکاً غير الذي سلكته واستقامت عليه من قديم العصور، وما أكثر الاعين التي نراها في الحشرات والدواب والطيور والاسماك وغيرها من أنواع الاحياء وأجناس الانواع وفصائل الأجناس؟ ثم ما أكثر الاختلاف بينها في الالوان والاشكال والمواقع والتراكيب؟ ولكن هل « النظر » في ذاته إلا وظيفة واحدة تستخدم جميع تلك الآلات وتبدو في جميع تلك الاشكال؟

وقد سألت نفسي كثيراً: هل ينتظر في مستقبل الاجيال البعيدة ان يتغير جسم الانسان عن تركيبه الذي صار اليه أو هل يرجي ان يستفيد من ذلك التغير جمالاً فوق الذي استفاده في تدرجه من أطواره الاولى الى هذا الطور الذي هو فيه؟؟ والجواب على ذلك نعم مادام مشتاقاً الى حرية الحركة راغباً في الجمال! فان الحرية والجمال معنيان لا ينفصلان فيما اعتقد ولا يتم أحدهما بمعزل عن الآخر. وأحال ان الانسان كان موشكاً ان يزداد جمالاً في الجسم واتساقاً في الهندام لولا اختراع الآلات والاستعانة بحيل الصناعة، فانه كان يصبو الى حرية الحركة فيعتدل قوامه وتنطلق وظائف جسمه وتزداد قدرته على استخدام أعضائه، فلما اخترع الآلات أصبح اعتماده على الفكر لا على الجسم في بلوغ ما يصبو اليه من سرعة الحركة واثقاء عاديات الطبيعة، وسهل عليه أن ينتقل من مكان إلى مكان وأن يطير في الهواء وأن يغوص تحت الماء دون أن يتحسن جسمه أو تزداد حرية

أعضائه ولباقة وظائفه . ولست أظن الجسم الانساني استفاد شيئاً يذكر من الحسن بعد ان ناب فكره مناب جسده في حرية الحركة والاستعداد للكفاح والتصون من أخطار الطبيعة والأحياء

وفي النظر الى الأحياء بهذه النظرة باب من المتعة الفنية لا يوصد وطريق من اللذة الحسية لانهاية له ، ففي وسعك أن تحول الدنيا في كل لحظة تختارها الى متحف لا اعداد لبدائعه ولا حائل بينك وبين آياته وروائعه ، وليبان ذلك هب أن طائفا من السماء طاف بالارض كما طاف بمدينة النحاس « في ألف ليلة وليلة » فترك كل من فيها اصناماً من المعدن أو الرخام كالأصنام التي ينقلها الفنانون عن نماذج الحياة ! أفلا ترى حينئذ بين يديك متحفاً فنياً حافلاً بالتمثيل لا تميزه عن أبداع ما صنع الصانعون ولا تمل النظر الى صورته ومعانيه ؟ فاعلم ان هذا المتحف بين يديك في كل ساعة إن شئت أن تستجلي أصنامه وتمثيله فأبدأ حيث بدأت في الطريق تجدها ماثلة أمامك تعرض عليك صوراً لا تحصى ومعاني لا تنفذ غير أنها تجمع الى جمال الفن جمال الحياة وتتحرك في ثياب من اللحم والدم بدلا من أن تسكن في ثياب من المعدن أو الرخام !..

ومتى التمتت المعاني الباطنة من صور الناس الظاهرة فقد طابت تلك الفكاهه وانفتح لك كنز التصور والخيال : هذه صورة آدمية لو أعيد خلقها في مصنع الحياة لخرجت منه ملكاً سماوياً لا ينقصه

حتى الجناح الذي تستعيره من لطافة روحها وطهارة أحلامها . وهذا آدمي آخر لو أعيد خلقه في ذلك المصنع لخرج منه نمرالا تنقصه حتى البرائن التي يستعيرها من شراسة طباعه وضراوة أخلاقه ، أو لخرج منه حماراً تام الخلق لا تبقى من جسمه ولا نفسه فضلة بعد خلق الحمار . . . ! فليست العبرة إذن بالصور الظاهرة وليست هي الفاصل بين درجات الاحياء وأنواع المخلوقات ، وإنما العبرة بالصفات التي ترسم عليها والمعاني التي تحمل شعارها ، حتى لقد تكون تلك الصفات والمعاني طائراً شادياً في فطرة أمية أو تكون ثعباناً قاتلاً في مسلاخ إنسان

ومن فكاهات هذه الملاحظات اني كنت ألقى صاحباً لي يلازمه في أكثر الأحيان عشير طائش الرأي سريع البطرية يجول بعينه هنا وهناك ويمتال برأسه اختيال البلاء ، فكنت أقول له : يا صاحبي أن في عشيرك هذا لشبهاً بالمعيز وما أحسبه الاجدياً متكرراً في زي الآدميين ؟ .. وكنا ندعوه لذلك « بالمعزوي » لا تحري في الكلمة صحة النسبة العربية ولكننا تقصد الفكاهة والمزاح ، ومضت على ذلك أسابيع ثم لقيني صاحبي وهو يغالب الضحك ويتكاف العتاب ويقول لي : أتذكر الشيخ فلاناً ؟

قلت نعم ! وما خطبه ؟

قال : أتذكر كيف كنت تدعوه « بالمعزوي » وتقول أنك لا تحسبه الا جدياً متكرراً في زي الآدميين ؟
قلت فماذا تستغرب الآن من ذلك؟ أوقد عاد الرجل الى أصله؟
قال : إي والله لقد كاد ان يعود . ولقد فضحتني معه بسبب ذلك اللقب فضيحة لا يغفرها لي ولا أزال أماريه فيها حتى اليوم ، وكنتُ دعوته منذ أيام الى منزلي وتركته عند الباب وسبقته الى غرفة الاستقبال لاهيـء المكان وأفسح له الطريق ، ثم أطلت عليه من النافذة أناديه ليصعد فوجدته قد برح موقفه الى ساحة بجوار المنزل تجتمع فيها جمهرة من المعيز لا يتخلف عنها كبير ولا صغير من معيز الحي .! ووقف ثمة يتأملها ويتفرس فيها وهو غارق في تأمله اناديه ولا يستمع للنداء ... فنزلت اليه وأنا أعجب لامره وصحت به مرة بعد مرة ! فأقبل على كمن أفاق من ذهول وهو يقول : سبحان الله يا أخي إنني أحب هذه المعيز واشتاق ان أنظر اليها حيث أراها ..!

قال صاحبي فذكرت في تلك اللحظة لقه بيننا ونظرت الى وجهه ولمحة عينيه والتفاتة رأسه وسحنة وجهه فوالله لكأثما رأيتهُ لأول مرة في تلك الصورة وكأثما مسخ أمامي لتوه جدياً ذا اضلاف وذنب !! فانفجرت ضاحكا وتحاملت مكظوماً وهو يستغرب ذلك ويلتفت الي بدهشة وكبرياء تزيدان وجهه شهما بالمعيز ... فأكابد من مغالبة الضحك ما لا يطاق وأحاول أن اتعلل له بسبب يقبله

فإلا يلومني الله سبباً مقبولاً. ثم صعدينا وقد بدت عليه بوادر الغضب فاعتذرت اليه بما حضرني وظللت يومها كلما خطر لي ذلك الخاطر صرفته عني بجهد جهيد وتحاشيت ان أقابل وجه الرجل لئلا تقع عيناي على عينيه فتعاودني نوبة من الضحك لا أدري كيف أفسرها له ، ولكنه لحظ على ارتبائي وتحاشي النظر اليه وسلم علي إذ فارقتني وهو حائر في أمري وأمره غاضب علي غضباً أذ هله عن توديع المعيز وهو يرمي بها في منصرفه . !

قلت هذه قصة لو عثر بها قدماء الهنود لقرأنها في كتبهم برهاناً وجيهاً بين براهين تناسخ الأرواح . !



وبعد فأرجو ألا يفوت القارى ما قصدت اليه من هذا الاستطراد والتشبيه ، فإننا أقصد أن الجمال لا يقوم بالاشكال المفرغة من المعاني ولا يتجلى للحس وحده دون القريحة . بل الشكل الجميل هو أداة المعنى الي الظهور وشأنه أن يتلاشي ساعة يبرز لك معناه وأن ينسيك نفسه كل النسيان حين يخلص بك الى ذلك المعنى المجرد . فأحسن الاشكال وأوقفها هو الشكل الذي تتخطاه الى دلالته ، وعالم الفن على هذا هو عالم المعاني المجردة لا عالم الاشكال الملموسة . وما الفنان إلا ذلك الانسان الملمه الذي يوفق بفطرته لاختيار أشكال تبرز المعاني وتخلو من العيوب التي تحجبها عن الخواطر

أو هو ذلك الانسان الملهم الذي يوفق لاختيار الاشكال التي تنسينا
الاشكال وتؤدي عملها وما عملها إلا أن تساعد المعنى على الظهور،
لا ان تشغل الناظرين بالظواهر عما وراءها من المعاني والدلالات .
وقد استحبوا البساطة في الفن واستدلوا بها على الطبع لانها شفافة
عما وراءها لا تعوق معناها عن الوصول الى الخاطر بعقبات التكلف
والتزييق وحواجز الاوضاع والتقاليد ، والجملة البليغة هي الجملة التي
تبلغ بك الي فخاها بلا مبالغة في التحليه تشغلك بصياغتها عن
دالاتها ولا قصور في التعبير يقف بك عند الفاظها فيثنيك عن مضامينها،
وكذلك قل في الصورة البليغة والزهرة البليغة والوجه البليغ

رأيت منذ أيام صورة « الام والابن » للمصور الانجليزي ه . ه . و .
دافيس - وهي صورة فرس مرضع تراءم مهرها الصغير - فما تمثلت حين
رأيتها الا « الأمومة وحنانها وتضحيتها » بغض النظر عن الأم هل



هي امرأة أو فرس وعن الولد هل هو طفل أو مهر؛ ولو وضع
المصور في موضع الفرس والمهر أمّا آدمية وطفلها لما اختلف شعوري
بها في جوهره لانني انما رأيت الحنان المائل في الصورة وتجاوزت
الشكل الظاهر الى ما وراءه ، أو لعل صورة الفرس والمهر أبلغ في
تمثيل الحنان لأننا نستغرب أن تحل هذه العاطفة في قلب حيوان
أخرس فيكون عطفنا عليه ألد وأعظم وتأملنا في عجائب تلك العاطفة
داعياً إلى الامعان في الشعور بها والتعمق في استحضارها . وتلك هي
بلاغة المصور الذي ألهم أن يختار ذلك الشكل لتمثيل الحنان في أبلغ
مظاهره وأعجبها ، فأثر صورة الحيوان في تمثيله على صورة الانسان



وربما بدا هذا « التجريد » غريباً لبعض الذين ينتحلون المادية
ويغرقون فيها على غير بصيرة، وربما عجبوا من هذا الولع بالمعاني
المجردة وهذا الاستخفاف بالاشكال الملموسة في كلام لا يراد به
التصوف ولا يكتب في مباحث التبعيد ! ولقد كان من حق المنتحلين
للمادية أن يعجبوا هذا العجب قبل جيل أو نصف جيل . فأما اليوم
فأي حق لهم في ذلك وقد ذهب العلم بتجريد المادة الى حد القوة
الخفية والحركة المطلقة وأصبحت الأجسام في أصولها فرضاً يقرب من
فرض الاثير أو هو أعجب في التصور من الاثير؟؟ وهب العلم لم يذهب
الى شيء كهذا فأني عقل سليم كان يستطيع أن يفرق بين تعريف القوة

وتعريف المادة عند النظر إلى حقائق الأشياء ؟ فكل تعريف صحيح للقوة تدخل فيه المادة بكل شكل من أشكالها وكل طبيعة من طبائعها ، اذ نحن لا نفرق بين المادة والقوة بأن الاولى جامدة والآخرى غير جامدة ولا بأن الاولى محسوسة والآخرى غير محسوسة . فان هذا تفريق لا يمس القوى والاجسام في جواهرها ولا يتناول الاشياء في ذاتها ، ولكننا إذا عرفنا القوة بأنها هي كل ما يقاومك اذا اعترضته



فقد نرى إذن أن القوة والمادة حقيقة واحدة أو أنهما كلمتان مختلفتان
لمعنى لا اختلاف فيه

ومتى كانت المادة نفسها قوى معنوية تتعارض فتبرز للحس
والعيان فاي عجب في أن يكون « الجمال » معنى حرا وانه لأقرب
في النفوس الى التجريد والتنزيه !؟



ولادة فينوس (الزهرة) الالهة الجمال والحب

معنى الجمال

في الحياة والفن



معنى الجمال واحد

في الحياة والفن لا يختلف

في جوهره وان اختلف في
أوصافه ومظاهره . وقد ألمت

الى هذا الرأي في مقدمة «المطالعات» فوافق

بعض الآراء وخالف بعضها وكان من المخالفين

الاستاذ ميخائيل نعيمة (١) أحد أدباء العرب

المعدودين في الولايات المتحدة ، فكتب إلي يقول

من خطاب مسهب رقيق :

« أما نظرتك الى الحياة نظرة فنية فأجاريك فيها الى حد

وأخالفك الى حد »

«مهما تسامى الفن يظل مقيداً بالمحسوسات ولا يكون فناً الا متى

اتخذ له شكلاً محسوساً . فاذا قصرنا الحياة على ما تتناوله منها

(١) . مؤلف كتاب « الغربال » المطبوع في المطبعة المصرية — بمصر

بالحواس امكن أن ندعوها فناً. غير ان في الحياة ما نشعر به ونعجز عن تأديته بكل ما لدينا من وسائل البيان الفني . وأي فن يقدر أن يصور لك خطرات فكرك - لأقول طيلة نهارك بل في دقيقة واحدة؟ بل أي فن يتمكن من تصوير كل تموجات الحب والبغض والايمان والشك - مولا أذكر سواها - في قلب بشري واحد؟؟ فإذا كان في الحياة البشرية وحدها ما هو أبعد من الفن وفوقه فكيف بالحياة الشاملة التي ليست البشرية الا بعض بعضها؟؟

وقد أجبنا الاستاذ بخطاب قلت فيه ان اعتراضه الذي أبداه على وحدة المعنى في الحياة والفن قد يكون وجيهاً حاسماً لو أنني زعمت ان الحياة فن انساني يخلق الانسان ما فيه من تموجات الحب والبغض وقواعد الايمان ووساوس الشك . ولكنني لم أقل ذلك ولا أخال أحداً يقوله . وانما قلت ان الفكرة التي تتمثل في جمال الحياة هي الفكرة التي تتمثل في جمال الفن ، أما صانع الحياة وصانع الفن فيختلفان صنعاً ويتفاوتان قدرة ويستمد أحدهما أسرار الجمال من الآخر ولكنه لا يخرج عن نمطه ولا يشذ عن فكرته .

فإذا سألنا سائل كما يسأل الاستاذ نعيمة « أي فن يتمكن من تصوير كل تموجات الحب والبغض والايمان والشك »؟؟ قلنا انه هو الفن الالهي الذي نحكيه نحن بفنوننا من وجهة ونسنتي ، غاياته البعيدة

من وجهة أخرى ، فلتنزم حدوده اذا حا كيناه ونضيف اليها ونوسعها
اذا نظرنا الى غاياته البعيدة

وقد أحببت أن أبين هنا ما أردته بوحدة الفكرة في الحياة والفن
فأقول أولاً : إن الحرية في رأيي هي العنصر الذي لا يخلو منه جمال في
عالم الحياة أو في عالم الفن ، وإنما مهما نبحت عن مزية تتفاضل بها
مراتب الجمال في الحياة لا نجد هناك الا مزية « حرية الاختيار »
التي يفضل بها الانسان الكامل من دونه من المرجوحين في صفات
النفوس وسمات الاجسام ، ثم يفضل بها الناس عامة الأحياء ، ثم
يفضل بها الاحياء طبقات النبات ، ثم يفضل بها النبات الاشياء
الجامدة أو المادة الصماء ، على أن المادة الصماء نفسها تتفاضل في الجمال
بحسب ما يبدو لها من حرية الحركة ومشابهة « الارادة » ، فتروقنا
النيران والرياح والامواه وتطلق في نفوسنا خوالج الحياة ونعاطيها شيئاً
من العطف لا نعاطيه لغير الاحياء ، وليس لها فضل ظاهر على عامة
الجماد الا بما تخيله الناظر من حرية الارادة ومحاكاة الحياة

ولكننا نعود فنسأل : كيف تكون هذه الحرية ؟ هل تتأني
لنا حريتنا في فضاء مطلق لا عائق فيه ولا قوة نزن بها قدرتها ونعرف
بها قيمتها ؟ وهل للحرية من معنى الا أنها تغلب العوائق التي
تصدها أو تختار بينها اذا هي لم تقدر على مغالبتها ؟ فنحن اذا أردنا
أن نمتحن « حرية » المسابق في العدو أقنله الحواجز وحددنا له

المسافة والوقت وقيدناه « بحريات » المسابقين الآخرين فألزمناه أن يبين سرعته بالنسبة الى السرعة التي تناظره وعرفنا مقدار حرите بمقدار القيود التي نهض بها والحدود التي تكلف مراعاتها . وكذلك الحياة فيما تمنحه من السعة لأبنائها انما تقيس حریتهم بما تسلطه عليهم من الضرورات والتكاليف وانما تخولهم إباحات الحقوق بحسب ما تحملهم من أوقار التكاليف والواجبات ، وتجلب لهم المسرات والافراح بقدر ما تحمله عليهم من الشدائد والآلام . ومن ثم ربما كان الأصوب والواضح أن تقول ان الجمال هو « تغلب الحرية على الضرورة » وإف هذه الفكرة هي فكرة الجمال في الحياة وفي الفنون كلها من موسيقى وشعر وتمثيل وتصوير ورقص ورياضة

ما الجسم الجميل ؟؟ لا أظننا مستطيعين أن نجيب عن هذا السؤال بأصدق ولا أوجز من أنه هو الجسم الحر الطليق . وسواء أنظرنا الى الجسم في جملة أم الى كل عضو من الاعضاء على حدته فاننا لا نرى له صفة جمال الا وفي طيها صفة حرية وطلاقة ، فالجسم يعاب اذا عطلت احدى وظائفه والعضو يعاب اذا زاد أو نقص عن حد حرته . وكل وجه تنكر منه وصفاً من الدمامة لا بد أن تحس بعد تأمله ان مانعاً يمنع وظائف الحياة فيه عن حرية الحركة فيزيد أو ينقص في لحظة من ملاحظه أو قسمة من قسامته . بل قد يتم « تناسب الشكل » في وجه قسيم صحيح ثم لا يعجبك ولا تنشط

اليه روحك لانك لا تحس فيه ما يدل على حركة الحياة في نفس صاحبه ، وذلك ما يسمونه بثقل الروح ، وهو تعبير غاية في الدقة والعمق لو أنعمت فيه لاستوحيت منه معاني لا يوحىها الدرس الطويل والتمحيص الدقيق ، لانه يدلك على حقيقة الاحساس بالجمال في طبائع الناس وانه شيء ينافي « الثقل » ويصاحب الخفة والطلاقة

فلا شأن للتناسب في « جوهر » الجمال وانما هو تبع لحرية الوظيفة وحركة الحياة في الجسم ، وقد يضحخ العضو في بعض الاحياء ويستدق في الاحياء الاخرى وقد يطول في بعض الانواع ويقصر في غيره ، ولكن الشأن الاول في استحسانه - على أشكاله المختلفة - لحرية الوظيفة فيه لا للضخامة والدقة أو للطول والقصر أو للنسبة بينه وبين الجسم الذي تركب فيه . فلا تعيب الغزال ولا العصفور دقة الساق مثلاً ولكنها تعيب الانسان اذا نمت فيه على الاعياء واختلال وظائف الاعضاء

ودع الاعضاء والاجسام وانظر الى الفضائل والاخلاق . فانك لا تجد خصلة معدودة في الخصال الجميلة المحمودة الا كان فيها معنى من غلبة الحرية على الضرورة وحكم الارادة الباطنة على البواعث الخارجية ، فالشجاعة والأنفة والصبر والعفة وما شاكلها من المناقب الماثورة لا تحمد في الانسان الا لانها دليل على انه مالك لحرية يقود

البواعث الخارجية ولا يتقاد لها ويتصرف في نفسه تصرف القادر في شئونه ، وانظر الى « التجمل » الذي يتصف به ذوو السمات والظرف تجده انما يظهر حيثما ظهر في هيئة واحدة : هي ألا يكون المرء مغلوباً على أمره في حركة من حركاته أو كلمة من كلماته أو سجية من سجايه ، فيكون حزيناً موجعاً ولا يظهر الحزن والتوجع ويكون مريضاً مدنفاً ولا يئن أو يتململ ويكون غاضباً مهتاجاً ولا يصخب أو يتغرز ، واذا اضطر الى التخفيف عن نفسه بحركة أو اشارة حاول أن يعطيها من هيئة الاختيار والتأنق ما يخفي الاضطراب والاندفاع فتلوح للناظر كأنها مقصودة موسومة وتعبر عن نفس لا تضيق بأمرها ولا ترخي قبضتها على زمام مشيتها .

وفكرة الجمال في الحياة هي بعينها فكرة الجمال في الفنون . فلا فن بغير تطلع ولا تطلع بغير حرية . ولكن ينبغي أن نذكر أن الحرية تستلزم المنع وان الجمال هو غلبة الحرية على القيود أو هو ظهور الحرية بين الضرورات وليس هو بالحرية الفوضى التي لا يمازجها نظام ولا يحيط بها قانون . فلا عجب أن يمثل « الفن » قيود الجمال وأنظمتها كما يمثل حريته وانطلاقه ، وأن نرى الفن حافلاً بالأوزان والأوضاع كما نراه حافلاً بالتطلع والرجاء .

والفن بعد هو صورة مختصرة من جمال الحياة نرسمها لأنفسنا لتنبعها بالأمل والاحتذاء ، وماذا تصنع أنت اذا أردت أن تختصر

المعاني والكلمات؟؟ انك تأخذ منها صفاتها البارزة وخلصتها الجامعة، وكذلك يصنع الفن إذ يجمع لديه في وقت واحد نظاماً أوضح من نظام الحياة وحرية أطلق من حريتها أو يستخلص من جمال الحياة عنصريه البارزين وهما النظام والرجاء.

وكأن الانسان قد أراد بالفن أن يتم حرية الحياة أو يستدرك عجزها عن قهر ضرورتها التي تثقل عليها . فقد خلق الفن للانسان أجنحة قبل أن يطير في الهواء، وأنشأ لنا في الشعر أجيالاً من الابطال هزموا نواميس الكون وأحكام القدر وجمع في جسم واحد من رشاقة الاعضاء وملاحة القسامات ما تضمن به الحياة على الكثير من الأجسام وأرسل أحلامنا في سماوات من الغبطة والكمال لا تفتح لأبناء الفناء، فتمت به آمال الحياة وأصبنا في علمه حرية لا نصيبها في عالم الحاجة والاضطرار

وصفوة ما تقدم ان الحرية المنظومة أو الحرية التي تظهر بين قيود الضرورات - هي سر الجمال في الفنون كما أنها سر الجمال في الحياة . وان أمنية الانسان القصوى التي يتطلع اليها من الحياة والفنون هي الحرية لا القوة ولا الغنى ولا السعادة نفسها، إذ هو يطلب القوة والغنى ليكون حراً وهو ينال السعادة بفضل الحرية ولا ينال الحرية بفضل السعادة . وقد يخطر لك أن تسأل من يطلب القوة لماذا أنت تطلبها وما هي غايتك منها؟؟ ولكنك لا تسأل من يطلب الحرية

هذا السؤال لان كراهة الموانع غريزة مركبة في جميع النفوس ان لم تقل في جميع الاشياء .

وبعد فقد يحسن أن ننبه الى أمرين ينظر فيهما من يود التوسع في نقد هذا الرأي ليستوفي بهما بيان الفكرة التي نذهب اليها . فالامر الاول هو أن الجمال ليس بصفة واحدة محدودة ولكنه صفات كثيرة متنوعة تتراعى لنا في الاشكال والالوان والاصوات والمعاني ، وقد تجتمع هذه الصفات معاً فيتم الجمال ويتسق أو تتفرق فينقص أثره ويختلف مدلوله - فمن ذلك انه ربما تهيأ لجسم حسن التكوين والهندام دلائل كثيرة على النشاط وحرية الاعضاء ولكنه لا يروق النظر ولا يعجبنا الاعجاب الأكمل لانه أسود اللون - مثلاً - ونحن نحب أن نرى تلك المحاسن في جسم مشرق البياض ، ولا يبعد أن يكون سر تفضيل البياض في هذه الحالة أنه يطلق سمات الجمال ولا يتمتعها ، إذ كنا قد تعودنا أن نستشف منه دم الجسم يسري في أعضائه وينضح على اهابه ويجلو لنا بشاشة الحياة التي تمنعها البشرة السوداء

والأمر الثاني التفريق بين الاحساس بالجمال والرغبة في الاستيلاء على الشيء الجميل . فان الاحساس بالجمال يطلق النفس من أسرها ولكن الرغبة في الاستيلاء على الشيء الجميل قد توقع النفس في أسر

الحاجة. فإذا سلب العشق حرية العاشق وقيده بأهواء معشوقه فليس ذلك بحجة على أن الجمال ينافي الحرية في صاحبه أو في الناظر إليه





رأي شو بنهور

في معنى الجمال في الفن والحياة

ارثر شو بنهور فيلسوف ألماني متشائم عبوس
الفكر يولكنه جريء على تشاؤمه ظريف على
عبوسة فكره . وهو أشبه الفلاسفة المحدثين
بالشعراء وأقربهم الى المتصوفة وأعرفهم بالحياة
على ما في مذهبه من الوله بدم الحياة



وكانه كان منكرًا للحياة لا شاكياً منها ، أو كأنه كان يعيب
خلقتها عيب الزميل الناظر في عمل زميله لا عيب الخلق الذي برحت
به صروف المقادير وثقلت عليه وطأة القضاء ، فهو لا يصبو سهمه
الى عصر من العصور ولا الى أنظمة الاحياء في جميع العصور ، ولا الى
صور الحياة وهيئاتها وما يتناوله التغيير والتحسين من عروضها وصفاتها ،
ولكنه يصبو السهم الى صميم الحياة نفسها بل إلى صميم كل حياة
متخيلة حتى حياة الكون العظمى ! وقل في الناس من يرغل هذا

الايغال ويجتريء هذا الاجتراء . فهو لا يُسمعك صرخة أم ولا ثورة
نفس ولكنه يبدي لك ملاحظة الناقد المتأمل الذي كأنما يلاحظ على
شأن بعيد عنه يعرضه العارضون عليه ، والذين يحسبون شو بنهور
كغيره من المتشائمين عبداً متمرداً على حكم الحياة صارخاً في قفاها
يظلمون مذهبه أشد الظلم ويقفون به عند منتصف طريقه . فانما هو
خصم عنيد للحياة صارخ « في وجهها » لم يعترف بسطانها ولم « يعتمد
أوراقها » ولم يسلم قط بحتوقها من أصلها حتى يقال انه متمرّد عليها !
واني لأرى في هذه الجرأة من الطموح وحيوية الفكر ما لست
أراه في تفاؤل الفلاسفة الآخرين الذين لا يكفهم التفاؤل شيئاً
كبيراً من جهد الفكر ورياضة النفس ، ولا يكونون فيه الا متقادين
القضاء اتقياد الصخرة لقوة الجذب والحيوان لغريزة الحياة ، ومن
الغرائب ان يحتاج الفكر الى الحيوية حتى في الاجتراء على الحياة
نفسها والانحاء عليها في أساس وجودها . ولكنها هي الحقيقة التي
لا مرأ فيها . وهي عبارة أخرى أن حيوية الفكر تظهر في انكار الحياة
والدعوة الى رفضها كما تظهر في انفاس المنغمسين فيها واعجابهم بمحوظها
ومحاسنها . وربما كانت حيوية شو بنهور في اجترائه على أصول الحياة
أكبر من حيوية تلميذه « نيتشه » في الاجتراء على أصول الآداب
وفضائل الاديان ، وان كان نيتشه قد تخيل انه أبعد النقلة ووثب من
التقيض الى التقيض حين تحول من انكار الحياة على مذهب شو بنهور

الى توكيد الحياة وازادة القوة على مذهبه هو الذي دعا اليه بعد ثورته على الاستاذ الكبير وعزوفه عن دين العدم وسنة الانكار ، وليس الفرق بين « لا » الكبرى التي كان يقول بها شوبنهاور و « نعم » الكبرى التي كان يقول بها نيتشة إلا كالفرق بين النهي والامر من فم الجبار القدير الذي ينهي ويأمر بقوة واحدة وحق واحد ، فكلاهما لا يفوه به إلا قائل مطاع في « لانه » زفي « نعمه » محول أن يشير بيده ذات اليمين أو ذات الشمال

ولشوبنهاور فلسفة واسعة زاخرة طرق فيها مباحث الفلسفة على اختلافها بحجاسة المتدين وزكاته المتصوف وبساطة الفنان ، وفصل فيها رأياً في معنى الجمال يشف عن غور عميق واحساس دقيق ونفس خلقت للحياة ولكنها صرفت الى انكارها بلفتة صغيرة في أداة من أدواتها أو بزيادة طفيفة أضيفت الى بعض مواهبها فحارت على بقيتها ، ورأيه في الجمال هو الذي يعنينا هنا وهو الذي أردنا أن نخصص له هذا المقال بعد أن بينا رأينا آنفاً في معنى جمال الحياة وجمال الفنون

وأقوم ما في رأي شوبنهاور في معنى الجمال الفني هو قوله ان مهمة الفن هي فصل الشكل « القالب » عن المادة لا أن يحكي لنا الشكل والمادة معاً حكاية صحيحة محكمة . لان الفن موكل بالصور الباقية والنماذج الخالدة لا بالكائنات التي توجد في الحياة مرة واحدة ثم تمضي لطيتها غير مكررة ولا مردودة . فاذا أراد المصور أن يمثل إنساناً لفت

نظرة فليس الذي يعنيه من ذلك الانسان انه فرد من أفراد نوعه مستقل ببادته وشكله وعمره ، ولكن الذي يعنيه منه أنه « قالب » يصلح أن يكون نموذجاً عاماً لافراد كثيرين أو للنوع كله ، وهذا النموذج هو الذي يأخذه المصور ويفصله عن مادته ليثله مستقلاً عنها إما في تمثال أو صورة أو قصيدة من الشعر تنسيك الرجل الغاني بما تروي لك عنه من الاشكال الانسانية الخليقة بالدوام ومعانيها التي تعبر عنها تلك الاشكال . ويقول شو بنهور: « ان ابراز الشكل وحده بغير مادته جوهرية في كل عمل فني . ولهذا لم يكن تماثيل الشمع أثر في النفس من الوجهة الجمالية ولم تحسب من هذه الوجهة بين أعمال الفنون ولو أنها حين تجاد صناعتها أقمن مئة مرة ان تحدع الناظر عن حقيقتها من أحسن تمثال وأجمل صورة ، فلو ان الخداع بمحاكاة الحقيقة هو غرض الفن لكانت تماثيل الشمع في المكان الأول بين الآثار الفنية ، غير أنها تبدو كأنها لا تمثل لنا الشكل وحده بل تنقل لنا الشكل والمادة معاً ، ومن ثم توهمنا ان الشيء المحكي ذاته مائل أمام أعيننا ، فتختلف بذلك عن أعمال الفن الصادقة التي تبعد بنا عن الشيء الذي يوجد مرة واحدة ثم لا يعود الى الوجود أبداً : أعني الفرد ، وتقترب بنا الى الشيء الذي يوجد بلا انقطاع في الزمن الباقي الذي لانهاية له وفي العدد المطلق الذي لا يحصر له وهو « الشكل » أو فكرته . فتمثال الشمع يبين لنا الفرد

نفسه أي ما يوجد
مرة ولا يعود الى
الوجود ولكنه
بمجرد من الحياة
التي تعطي ذلك
الوجود الزائل
قيمه . فهو يبعث
فينا قشعريرة
كأنها قشعريرة
الناظر إلى الجثة
الهامدة
ويشاهد ان
الصور المحفورة
على النحاس



الاسود تم على ذوق أكرم وأرفع من الذي تراه في المحفورات
المصبوغة والنقوش الملونة وان كانت هذه أحظى وأجمل عند من
يتقصم الذوق المهذب والنظر السليم . وسبب ذلك كما هو ظاهر
أن المحفورات السوداء تعطينا الشكل وحده في هيئته المجردة التي

يتناولها الادراك أما اللون فهو شيء متعلق بحاسة النظر أو بالتفاعل الخاص الذي يقع فيها »

ويجوز لنا أن نزيد على الشواهد التي أتى بها شوبنهاور ان الصورة الشمسية لا تعجبنا كما تعجبنا صور الفنانين الحاذقين لأنها تنقل لنا الشيء الحقيقي كما يبدو للحس في حين أن الصورة التي يرسمها الفنان تنقل لنا شكل ذلك الشيء كما يد في نفس عبقرية واعية تنظر الى معاني الاشكال المجردة لا الى مادتها المحسوسة ، ونزيد عليها كذلك ان الوصف الشعري الذي يعني باحصاء الموصوفات وترتيبها وحكاية أحجامها وسرد أعدادها وتقييد موادها وألوانها لا يعجبنا كما يعجبنا الوصف النفسي الذي ينفذ بنا لاول نظرة الى بواطن الموصوفات وطبيعة إحساس الناظرين اليها والمفكرين فيها . وليت شعراءنا الاحصائيين يفتنون الى ذلك ولا يعتنون أنفسهم في وصف الاشياء « كأنك تراها » فلا يبلغ من جهدهم في الوصف على هذا الاسلوب الا أن يمسخوا بطاقات البريد الشمسية التي تعيد المنظر « كأنك تراه » ولكنها لا تساوي في سوق الفن والتجارة اكثر من مليمين !!

أما رأي شوبنهاور في وصف الجمال فبني على رأيه في كنه الحياة وما وراء الطبيعة

فهو يقسم الدنيا « الى فكرة و ارادة » ويقول ان الدنيا « في

« الفكرة » هي الدنيا المكنونة قبل أن تظهر في حيز الاسباب والقوانين وعلاقات الاشياء بعضها ببعض ، وان الدنيا « في الارادة » هي هذه الدنيا التي نكابد أوصابها وقوانينها ولا ندوق السرور فيها الالسبب من الاسباب التي تدور عليها أغراضنا وشهواتنا . ولما كان سرورنا بالجمال سروراً بلا سبب ولا منفعة فهو من قبيل الفكرة المجردة التي تحسها النفس المجردة وتنظر اليها كما هي في عالمها المنزه عن الاسباب والعلاقات . والسرفي وضوح إحساسات الشباب وجمالها الكلي هو كما يقول شوبنهاور اننا في عهد الصغر نرى « فكرة النوع » وراء صورة الفرد إذ تلوح لنا لأول مرة ، لاننا نتمثل في كل فرد نموذجاً جديداً لم تسبق لنا معرفة به ولم تظهر لنا أية دلالة أخرى عليه ، فالشجرة الأولى التي نراها تمثل لنا فكرة الشجر كله أي نموذج هذا النوع الجديد الذي لا عهد لنا به قبل ذلك . ولا تقتصر على تمثيل شجرة واحدة زائلة كما هو شأنها عند من تواردت عليهم مناظر الاشجار الكثيرة ، « ولهذا نرى فيها الفكرة الافلاطونية التي هي في الحقيقة جوهر الجمال »

تلك خلاصة وجيزة جداً من رأي شوبنهاور في معنى الجمال تطلع القاريء على مجمل فلسفته في هذا الباب ولا تغنيه عن الرجوع الى مطولاته . فأين نتفق في هذا الرأي وأين نفتق ؟؟ وأين يتساوى القول بأن الجمال « فكرة » والقول بأن الجمال « حرية » ثم أين

يتعارضان؟؟ يتساويان حين نذكر أن «الفكرة» في رأي شوبنهاور لا بد أن تكون بعيدة عن عالم الاسباب والضرورات ومن ثم لا بد أن تكون مطلقة من أسر الاسباب والضرورات ، ويتعارضان حين نذكر ان الحرية لا تكون بغير ارادة وان شوبنهاور يخرج الجمال كله من عالم « الارادة المسببة » الى عالم « الفكرة » المجردة

وما الذي يرجح القول بأن الجمال « حرية » على القول بأن الجمال « فكرة » بعيدة عن عالم الارادة؟؟ يرجحه ان الجمال يتفاوت في نفوسنا ويتفاضل في مقاييس افكارنا ، ولو كان المعول على ادراك « الفكرة » وحدها في تقدير الجمال لوجب أن تكون الاشياء كلها جميلة على حد سواء

ونوضح ذلك فنقول : لو كانت الشجرة جميلة لأنها فكرة « فقط » لما كان هناك داع لتفضيل فكرة الانسان على فكرة الشجرة ولا صبح لنا ان نزعم ان الناس أجمل من الاشجار ، ولكننا نعلم ان فكرة الانسان غير فكرة الشجرة وان الفكرتين تتفاضلان في تقدير الجمال ولا بد ان يكون تفاضلها بمزية أخرى ، فما هي تلك المزية الأخرى؟؟

هي الحرية ! فالانسان أوفر من الشجرة نصيباً من الحرية ولذلك هو أجمل منها وأرفع في درجات الكمال ، وكذلك تتفاوت « الأفكار » فلا يغنينا القول بأن الجمال فكرة عن القول بأن الحرية

هي المعنى الجميل في الفكرة أو هي التي تهب الفكرة ما فيها من الجمال
ويقرر شوبنهاور ان المادة الصماء لا جمال فيها ولا أنس لديها
وأنها تقبض الصدر وتثقل على الطبع ، فلم كانت كذلك ؟ لأنها عارية
عن الفكرة ؟؟ كلا ! فما من شيء محسوس إلا له فكرة مكنونة في
رأي شوبنهاور . ولكنها تقبض الصدر وتثقل على الطبع لأنها تمثل
الركود والجود أو تمثل التجرد من الارادة والحرمان من الحرية
والخضوع المطلق للقانون والضرورة . وقد ذكر شوبنهاور نفسه بعض
هذه العلة وقال « ان الحزن الذي تبعته المادة « غير العضوية »
في نفوسنا آت من ان هذه المادة تطيع قانون « الجذب » طاعة تامة
في حيث تتجه الاشياء . أما النبات فان منظره يشرح صدورنا ويسرنا
سروراً كبيراً يزداد في نفوسنا كلما ترك وشأنه ، وسبب ذلك ان
قانون الجذب يبدو لنا كالمعطل في عالم النبات لأنه يتجه الى خلاف
الجهة التي يجذبه اليها ذلك القانون . وهنا تتخذ ظاهرة الحياة لنفسها
طبقة جديدة عالية بين طبقات الموجودات ننتمي نحن اليها وتتصل
هي بنا ويتوأم عليها عنصر وجودنا فترتاح اليها قلوبنا وتهش لها طبائنا ،
وأول ما يسرنا في منظر النبات استقامته واتصابه ويزداد منظره
بهجة اذا بسق من بين الاجمة الملتفة سرحتان عاليتان في الفضاء ،
وقد سميت شجرة الصفصاف بالبالية لأن فروعها تتدلى الى الارض
وتحنى فتطيع قانون الجذب بذلك الانحناء »

والى هنا يسبق الى ظنك ان شوبنهاور سيخلص من هذا القول الى تيجته القريبة فيقول ان الاشياء تخزننا بما فيها من معاني الخضوع وتفرحنا بما فيها من معاني الحرية ، أو أنها تخزننا كلما قل نصيبها من الارادة وتفرحنا كما عظم نصيبها من هذه الصفة ، ولكنه يدع هذه النتيجة القريبة الى نتيجة أخرى لا تؤدي اليها هي أن الاشياء تخزننا كلما ابتعدت عن عالم الفكرة واقتربت من عالم الارادة وأنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الارادة واقتربت من عالم الفكرة ، فيمشي مع « الحرية » شوطاً بعيداً في وسط الطريق ولكنه يفترق عنها في مبدأه ومنتهاه

ولعلنا بعد إذ بينا ان الآداب والفنون هي أسمى مطالع الحرية وأصدق تراجيحها نكون قد بينا أيضاً ان الأمم المغلوبة تنشد الاستقلال حين تنشد الجمال ولا تختلس من رسالة الحرية وقتاً تفقه في رسالة الآداب والفنون





أصل الجمال

في نظر العلم



ألمنا في المقال السابق برأي أحد الفلاسفة في أصل الجمال ونريد الآن أن نلم برأي بعض العلماء في هذا الموضوع أو بالرأي الذي يراه العلم أقرب من غيره الى تعليل أصل الجمال وسر الشعور به ، وخلاصته ان الجمال وليد الغريزة الجنسية وعنوان أهواء التناسل ، أو الرغبة في حفظ النوع ، كما يسمونها في اصطلاح النشويين

يقول ما كس نوردو : « كل

أثرينه في الدماغ — بأي شكل

من الاشكال — مركز التناسل ، سواء أكان هذا التنبيه مباشراً أو

آتياً من تداعي الفكر وتساوق الخواطر فهو الأثر الجميل . وصورة
الجمال الأول في نظر الرجل هي المرأة في سن النضج الجنسي
والاستعداد لتجديد النسل ، أي المرأة في عنفوان الشباب والصحة .
ففي محضر هذه المرأة يختلج مركز الغريزة النوعية من نفس الرجل
بأقوى الاحساسات وأشد الخواطر وتثير رؤية « الظاهرة » وتصورها
عنده أقوى بواعث السرور التي يمكن أن تستفاد من مجرد النظر أو
التصور . وقد تعود الطبع أن يقرن بين صورة المرأة وفكرة الجمال
فيغريه السرور الذي يستمده من ذلك بأن يصور كل ما يروقه أو
يرى فيه معنى من معاني الجمال في صورة امرأة . فالأمة والشهرة
والصداقة والمحبة والحكمة وغيرها وغيرها إنما تمثل للحواس في هيئة
مؤتة ، ولكن لا أثر لكل ذلك فيما تدركه المرأة وتتصوره ، لأن
رؤية شخص من جنسها لا تحرك بأي شكل من الاشكال مركز
النسل من غريزتها ولا تجد المثل الأعلى من الجمال إلا في الرجل

أما ما يشاهد من ان المرأة تكاد تقيس الجمال كله بمقياس الرجل
فسببه ان الرجل لتفوقه عليها في القوة يستطيع ان يوحى اليها برأيه
وان يسيطر على أفكارها التي تخالف فكره ، ومع هذا نرى في
الواقع فكرة الجمال عند الجنسين تتقارب ولا تتماثل كل التماثل . ولو
أتاحت للمرأة القدرة على الاستقلال بالنظر وتحليل ما تشعر به ووصف

ما يدور بوجودها لا تثبت منذ زمن بعيد ان مذهبها في الجمال يختلف من وجوه أساسية شتى عن مذهب الرجل فيه «
وهذا الرأي الذي أجمله ما كس نوردو هو رأي الكافة من العلماء الاطباء الباحثين في المسائل الجنسية ، وهو المعول عليه عند جمهورهم في تفسير ذوق الجمال والشغف بالفنون . فلا تفسير عندهم للفن والجمال إلا انه ميل مثقف من ميول الغريزة الجنسية ولا مكان للجمال في العالم - على هذا القول - ان لم ننظر الى الحياة بعين الرجل الذي يشتهي الانثى أو بعين الانثى التي تشتهي الرجل . ولا سبيل - على هذا - الى التحقق من ان الجمال شيء مستقل عن العاطفة الجنسية إلا على شرط واحد هو ان يكره الرجال النساء وان يكره النساء الرجال . . . وان تمتع بينهم الصلة التي تشيء النسل وتبعث الحب ، ثم ننظر بعد ذلك الى الدنيا فان رأينا فيها صورة جميلة فهناك « فقط » يحق لنا ان نقول ان الجمال شيء والعاطفة الجنسية شيء آخر وأن ليس حب الرجل المرأة أو حب المرأة الرجل هو أصل الجمال في كل ما اشتملت عليه الحياة ! وأنت تعلم ان هذا الشرط غير ميسور ولا معقول فلم يبق لك إلا ان تسلم بأن الحياة نفسها لا جمال فيها وانما يأتيها الجمال من الوسطة التي تؤدي اليها . . . أي من العلاقة بين الذكر والانثى ! ولم يبق لك إلا ان تسلم بأننا لم نعط الحياة لنشعر فيها بالجمال بل أعطينا الجمال لسكي نلد الاحياء البعيدين

عنا ليس إلا...! ولم يبق لك إلا أن تسلم بأن النظر بطبيعته لا بد أن يرى الأشياء كلها دميمة شائبة... إلا إذا كان نظر « ذكر » أو نظر « أنثى » فعندئذ يجوز له أن يرى الدميم جميلاً والشائبة قوياً ويسوغ له التمييز بين الصور والالوان والمعاني والخواطر التي تفرق بينها الفوارق وتختلف فيها الاوضاع والاصناف...! فهل علمت الآن الى أين يذهب منطق العلماء الذين يحصرون المعرفة والادراك في المعامل والارقام ولا يسمحون للفكر ولا للاحاساس ان يخطو خطوة وراء التشریح والتحليل؟؟ وهل علمت الآن قيمة الحياة عند هؤلاء العلماء الذين لا يجعلون للحياة نفسها قيمة وانما يجعلون القيمة كل القيمة لأن تتولد الحياة من اختلاف جنسين وان تنشأ من اجتماع حيين منفصلين؟؟

ان الغريزة الجنسية لا ريب من أقوى غرائز النفس وأعمقها وأكثرها تفرعاً وتوزعاً في جوانب الاحساس ودخائل التفكير، وانها ولا جدال على اتصال وثيق بشعور الجمال ومطالب الفنون لا تراها منعزلة عنها فيما ينظمه الشعراء ويمثله المصورون ويغنيه المنشدون، ولكن ليس معنى ذلك انها هي أصل كل شعور بالجمال وان الحياة نفسها لا جمال لها إلا من حيث انها علاقة بين ذكر وأنثى ووسيلة لاعطاء الحياة لمخلوق جديد، فان الحياة غاية الغريزة الجنسية وليست هي الجسر الذي نعبه الى الحب والجمال. فان كانت الحياة في ذاتها

خلوًا من معنى جميل أو مقضياً عليها بالحرمان من رؤية الكون في
هيئة تسرها وترضيها وتوسع لها من أكناف الأمل وتضاعف لها من
بهجه الوجود ، فأى شيء يزيد عليها من انقسام الأحياء الى قسمين ؟
ثم ما فضل البقاء المشوّه الذي تتوسل اليه باختلاف ذينك القسمين
أو ذينك الجنسيتين ؟؟

أما اننا نصور الامة والشهرة والصدقة والمحبة والحكمة وغيرها
في صورة مؤنثة فانما يدل على ان للجمال في أذهاننا معاني كثيرة غير
معنى الأنوثة واننا نصور تلك المعاني في صورة المرأة لانها « الشخص
المحسوس المحبوب » الذي تقدر الفنون على إبرازه للعيان . ولولا
ذلك لما جاز التشابه بين مثال المعاني في الذهن ومثال المرأة في النظر
ما دامت المرأة قد استأثرت بكل صفات الجمال في هذه الحياة .

ويقابل هذا أننا نصور الخواطر القوية في هيئة الرجولة ولا
نستخلص من تصويرها كذلك ان العلاقة بين الرجل والمرأة هي
أصل كل مافي الحياة من بأس وقوة وسبب كل ما يتصوره العقل من
قدرة ونفاذ ، على ان تماثيل الرجال في الفن اليوناني والروماني لا تقل
عن تماثيل النساء والاعجاب الفني بجمال جسم الرجل لا ينقص عن
الاعجاب الفني بجمال جسم المرأة . فلماذا يعجب الفنانون بأمثلة الجمال
في أجسام الرجال ان كان في غريزتهم أن لا يحبوا الجمال ولا يتخيلوه
الافي أجسام النساء ؟؟ أقول هنا أيضاً ان المرأة لتفوقها على الرجل

في القوة استطاعت ان توحى اليه برأيها وأن تسيطر على أفكاره التي تخالف فكرها؟؟ أم تقول ان المصورين والممثلين انما عنوا قديماً بجمال الرجولة لتعجب به الناظرات من النساء دون الناظرين من الرجال؟؟ ثم علام يدل تصويرنا بعض المعاني المحببة الى النفس في صور الاطيار والغزلان وما نحا هذا النحو من فصائل الاحياء؟؟ وعلام يدل تمثيلنا المجاعة والقسوة والضعينة والتميمة في هيئة الانوثة وليست هي مما يرتبط بالغريزة الجنسية ولا هي مما يخطر على الذهن من قبل العلاقة بين الرجال والنساء؟؟ وهل كان من اللازم ان نتخيل جميع المعاني المحبوبة والمكروهة في صور الرجال ليقال ان هذا التصور لا يتوقف على غريزة النسل وغرام الذكور بالاناث؟!



وفي مشاهدات الحياة كثير مما يدحض ذلك الرأي ويلفت القائلين به الى مواطن الزلل فيه . فالغريزة الجنسية مودعة في جميع الاحياء والنبات ولكن جمال الاشكال والالوان لا يقسم لها جميعاً ولا يكون حظها من الجمال على قدر حظها من الغريزة الجنسية ، والزهرة التي تجتذب الذبابة اليها بألوانها وتقوشها لتقل منها اللقاح الى أناتها هي أجمل في شكلها ولونها من تلك الذبابة التي لا تحتاج الى الالوان والتقوش لتجذب الى أناتها ، ولو كانت الغريزة الجنسية هي سر

التفاتهما الى الالوان والنقوش لوجب أن تطلبها في أناتها قبل أن تطلبها في الازهار والانوار

وقد عرفنا بالخبرة ان أحب الناس للجمال هم أرفعهم نفوساً وأسلمهم أذواقاً وأحسنهم تهذيباً وأشوقهم الى المتع المعنوية والخصال الكريمة ، وعرفنا بالخبرة كذلك ان الغريزة الجنسية قد تتم وتقوى في أناس لا حظ لهم من رفعة النفس وسلامة الذوق وحسن التهذيب ومتعة الروح وكرم الخصال ، ولا يزيد الانسان في حب الجمال والفتنة اليه بنسبة الزيادة في الغريزة الجنسية ولا يكون نصيبه من النسل بقدر نصيبه من لذة المحاسن الطبيعية والفنية أو قدرته على فهمها وابتكارها ، فغريزة التناسل قد توجد بمعزل عن حب الجمال ، وحب الجمال قد يوجد بمعزل عن غريزة التناسل ، ولا معنى لأن يقال اننا نستجمل المرأة لان غريزة التناسل تسوقنا اليها وتضطرنا الى حبها، اذ لو كان الامر كذلك لأغنتنا تلك الغريزة عن الجمال ولاصبحت كلمة « المرأة » مرادفة لكلمة المرأة الجميلة وأصبح وصف الجمال فضولاً لا يضيف الى الأنوثة شيئاً من عنده ، وانما الاولى أن يقال ان غريزة التناسل تعجز بفردتها عن سوق الاحياء اليها فتتخذ من الجمال شركاً توقعيم به في أسرها وتستميلهم به الى حظيرتها ، وكلما عجزت الغريزة عن تبييه النفس وحضها على مؤاتاتها زادت حاجتها الى معونة الجمال وعظم

اعتمادها على هذا المدد الغريب عنها ، فكأنه الحلوى التي يكسى بها
الدواء لتشبيهه النفس اذا عجزت المنفعة البحتة عن الترغيب فيه .



ومما لا مراء فيه ان الحب يرينا من فتنة الحياة مالا نراه بغيره
وان جمال المرأة أعلى محاسن هذه الدنيا المشهودة . بيد أن الحب
لا يخلق فتنة الحياة وليس جمال المرأة هو كل ما في الدنيا من المحاسن ،
ولكنهما يصبغان الدنيا بهذه الصبغة لانهما يوقظان القلب ويذكيان
الشعور ويبعثان كوامن الوجدان فيفتح لما حوله ويرى ما لم يكن يراه
ويستوعب ما كان يلمحه بطرف العين ويستحسن ما كان في غفلة
عن حسنه قبل أن تتراءى الدنيا لحواطره في ثوبها الجديد . وكذلك
تفعل الخمر حين تركض بالشعور وتلهب الدم فانها تري النشوان من
المحاسن ما لم يكن يراه في صحوه وتضاعف إحساسه وعطفه فيشعر
بسرور هذا العطف في داخل نفسه ويشعر في الدنيا ببهجة تخفى على
من حوله . ولذلك قيل ان الحب سكر أو أنه ضرب من الجنون

وقد أشرنا الى أن الغريزة الجنسية وسيلة لا غاية وجزء من
الحياة وليست كل ما في الحياة ، أما الغاية الحقيقية فهي التمام والبقاء
وليست البقاء لمخسب ، لأن الانواع تتقدم وتجمل ولا تبقى على حالة
واحدة . ومتى كان التقدم والتحسن غاية من وراء الغريزة الجنسية

فلماذا نحصر الجمال كله في نظرة الجنس الى الجنس ولماذا تقول ان الجمال تابع لغريزة النوع - ولا تقول ان غريزة النوع تابعة للرغبة في الجمال؟؟ كيف نعلل ان هناك نوعاً أجمل من نوع آخر ان لم يكن هناك مقياس عام للجمال غير المقياس الذي ينظر به كل نوع الى نفسه؟؟ وكيف نعلل الاختلاف بين الامم العالية والامم الوضيعة في تذوق محاسن الطبيعة ولذات الفنون ان كانت حاسة الجمال مقصورة على غريزة النسل التي قل أن يمتاز فيها انسان على انسان بل قل أن يمتاز فيها الانسان على الحيوان؟؟ فان الامم العالية تدرك من آيات هذا الوجود مالا تدركه الامم الوضيعة ولكنها لا تفضلها في قوة الغريزة الجنسية ان لم تقل أنها دونها في قوة هذه الغريزة ، ولا يسعنا - وان غلونا في جمود العلم - ان تقول ان النظرة النوعية وحدها هي التي تجعل الاوروبي يرى امرأته أجمل منظراً وأحلى شمائل من الزنجية المتبدية في خرائب خط الاستواء

ولسنا نخطيء حقائق العلم المقررة إذا قلنا ان « الجمال » هو غاية الحياة وان الغريزة النوعية هي إحدى وسائله - أو هي أقوى وسائله الى تلك الغاية . ان هذا لأصدق من القول بأن الفنون الجميلة نزع جنسية محولة عن غايتها كما يزعم الباحثون في المسائل الجنسية من جماعة الاطباء « والنفسيين »

وان الغريزة النوعية لا تفهم الا على أنها مظهر جسدي للرغبة

في التمام والبقاء وهي هي الرغبة التي يسعى اليها الفن من طريقه فيسبق
اليها الغريزة بمراحل لا تعبرها الا في الزمن الطويل ، فالحب والفن
يسعيان معاً الى وجهة واحدة ويتعاونان معاً على المسير في سنن واحد،
ولهذا يشتاق الحب الى الفن ويشتاق الفن الى الحب ، ولهذا يجور
الشغف بالفن أحياناً على غريزة النسل فلا يهنا الفنانون بالنسل الموفق
السعيد . ولا ينمو حب الجمال في الفنانين على حساب الغريزة النوعية
الا لهما شريكان متكافلان يزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر،
فلا بأس على هذا المعنى أن تقول ان الغريزة الجنسية هي نزعة فنية
ظاهرة في ثوبها الجسدي وليست النزعة الفنية هي الغريزة الجنسية
الحائدة عن الطريق





كنت أتصفح الرسائل الأدبية التي كان ينشرها « أناتول فرانس » في صحيفة « الطان » فانهيت الى المناقشة التي دارت بينه وبين شارل موريس على الأدب الحديث وأساليب المستقبل وفيها يقول بعد كلمات اقتبسها من رسالة ذلك الأديب : « كلما أنعمت النظر بدا لي أنه لا جميل إلا السهل ! فقد فرغت من ذوق الغوامض وصرت أرى ان الشاعر أو القاص الذي لا يعاب هو الذي يتجنب ان يكلف قارئه أي تعب ولو كان هيناً وان يحشمه أية صعوبة ولو كانت طفيفة . وخير له ان يفاجئ التفتات القارئ ولا ينتزعه منه انتزاعاً وان يحذر التعويل على صبر القراء المطلعين وان يعتقد أنه لا يُقرأ إلا اذا قرئ سهلاً . فللعلم حق الاتباه والتأمل علينا وليس للفنون ذلك الحق لأنها بطبيعتها تسر ولا تفيد ووظيفتها ان تعجب ولا وظيفة لها غير ذلك . فيجب ان تكون جذابة بغير شرط ... » ثم

قال «وهناك فرق بين قصيدة تغنى ومقالة تكتب في الهندسة الوصفية،
ومن الواجب ألا تكلفنا مسرات الفنون أقل مشقة»
وفي وسعك ان تقول ان أنا تول فرانس لم يبد هنا مذهبه في
أسلوب الفن وحده وإنما أبدى مذهبه في كل شيء من معضلات
هذه الحياة التي ينبغي — على رأيه — ألا تكون لها معضلات على
الاطلاق! فلا يعنيننا ان نحس من هذه الحياة خيراً وراء الظواهر
التي تتراءى لنا بنفسها ولا تفرض علينا أكثر من النظر اليها. وإذا
قليل لنا ان في الكون أسراراً لايسهل التأدي اليها وان للنفس اغواراً
لا تطفو على وجه الحروف الأبجدية ولا تطير على السنة الشعراء
والقصاص، وان للجمال معاني محجبة لا تبرز للناس في ثياب الحمام
في كل حين — فذلك لا يضيرنا ولا يزعجنا عن رأينا ولا يمنعنا ان
نتمطى على الكرسي الوثير ونطبق اجفاننا الكسلى وننفث قليلاً من
الدخان في الهواء تبعه بآهة لطيفة تم على الذوق المترف والطبع
الأنيق! ثم تقول: «لا! لا! لا! أي حق للطبيعة أو للحياة في ان تتعبنا
وتثقل علينا؟؟ إنما حقها الوحيد ان تدعنا نتململ قليلاً اذا نحن شئنا
ان نتخذ من ذلك دليلاً سهلاً على الرشاقة المدللة والتخث المحبوب!
أما اذا هي أبت ان تعرض علينا محاسنها كلها ونحن خادرون في بهو
السمر فلتذهب بها حيث تشاء ولتحجبها عن الانظار أو تعرضها على
الاشقياء الذين يطيقون فتح الاجفان والسعي على الاقدام! فإننا

لا نرى فرقاً بين الطبيعة والقهرماننة التي نقدها أجزها على ان تجلو أمامنا كل ما عندها من التحف والمطربات ونحن في مقاعدنا سادرون بين الاقداح والدخان وألحان التهويم والفتور . وليس من شأن الظرفاء الناعمين ان يشغلوا أنفسهم بمصاعب الحياة أو يمسحوا لخواطرهم الوادعة ان تسألها عن خباياها واسرارها وتشاظرها همومها وأشجانها وان يتألموا وينقبضوا اذا قيل لهم ان الدنيا عبث عبث وان يجتهدوا وينقبوا اذا قيل لهم أنها جد خطير مستور المقاصد والغايات . كلا ! كلا ! فما نحن وما ذلك ؟؟ وما للحياة وللناس تشغلهم بما يشغلها وتمتحن ضمائرهم بما تمتحن ضميرها ؟؟ انما على الناس واجب واحد هو ان يسروا وهم نائمون غافلون ، وعلى الحياة واجب واحد هو ان تسرهم ولا تتقاضاهم ثمناً من الفكر أو من الاحساس لذلك السرور ؛ فان تجاوزت هذا الحد وأبت ان تنقل محاسنها لكل من يصفق لها بيديه وهو مستلق على سريره فجزاؤها الاعراض والاهمال وعليها ان تبحث عن الجن والملائكة لتريمهم ما عندها . . . ، أو تنشىء لها خلقاً جديداً غير الآدميين تتسلى بهم الى ان يقبل هؤلاء ان يتنزلوا بعض التنزل فيعاملوها بغير ما يعاملون به الخادم التي تحمل لهم المائدة وتنتظر الأمر على أضعف همسة وأقرب اشارة !

إننا لا نشوه فلسفة أناطول فرانس إذ نصورها في هذه الصورة

الهزلية وإنما نحكي ملاحظتها على الهيئة التي تستحق بها نصيبها من السخرية والضحك ، والحقيقة ان من اسخف السخف ان يقال ان مسرات الشعر والكتابة والفنون عامة لا تحتاج الى التأمل والانتباه. وأنها مطالبة بأن تعرض نفسها على الناظرين ليلتفتوا اليها حين يشاءون بلا جهد ولا استعداد

نعم ان الجمال سهل ومعجب ولكن سهل على من؟؟ وبعد ماذا؟ على الذين يقدرونه ويحبونه ، وبعد الخبرة والممارسة والتذوق والتهديب، فليس معنى السهولة في جمال الفنون انه رخيص مباح لكل من يرمقه بجانب عينه ولا أنه غني عن التأمل والتفكير، ولكن معناه انه سهل سائغ لمن يستعد له استعداده ويبدل فيه ثمنه ، وكذلك الثمرة الشبيهة سهلة سائغة لمن يشترها ويفرسها ولكن ليس معنى ذلك أنها تمطر من السماء أو تطرح على التراب أو تنمو كما ينمو نبات السحر الذي لا يسقي ولا يتعمد ولا يقام عليه بالعلم والاختبار. وان سهولة الفنون لغالية « صعبة » على من يريد الوصول اليها مبتكراً أو محتثاً بل هي قد تغلو وتصبح حتى تستدعي من التأمل والانتباه ما لا تستدعيه الهندسة الوصفية وما هو اعضل منها في المعلومات والمعقولات

ولو كان الغرض من اشتراط السهولة في الجمال ان يكون سهلاً على كل من يطلبه بلا تفاوت في الدرجات والمواهب لما كان في الشعر

كله قصيدة واحدة جميلة أو حقيقة بأن توصف بالجمال . فان شعر شكسبير سهل على بعض القراء ولكنه من الألفاظ والمعجمات على أناس آخرين ، وان هؤلاء الآخرين قد يطيب لهم شعر بيرون ولكنه اذا قرئ على من دونهم في الفطنة والشعور عابوه واستقلوه او كابدوا في فهمه الصعوبة التي تنفي صفة الجمال في رأي أناتول فرانس ومن جرى مجراه ، ونسوق الشواهد من شعراء العرب فنقول ان المتنبي مثلا صعب على من يستسهل البحري والبحري صعب على من يستسهل الشعراء العذريين ، والشعراء العذريين صعب على من يستسهل ابن معنوق والبهاء زهير ، وهكذا الى ان نهبط الى طبقة تستصعب شعر هؤلاء جميعاً ولا تجد السهولة « الجميلة » إلا في الازجال الغثة والأناشيد الوضيعة وما في منزلتها من الشعر المبذل الركيك . فاذا جعلنا السهولة ميزاناً لنا في الفنون واتخذنا الشيوع عنواناً على السهولة فقد تمادى في ذلك حتى يصبح لئغ الاطفال في عرفنا نماذج البلاغة العليا ثم تنحدر البلاغة « سفلاً ! » حتى تنتهي الى فجول الشعراء وأئمة الكتاب والفضحاء !

فلا بد لنا إذن من التسليم بأن كثيراً من الشعر والكتابة قد يوصف بالجمال وهو مع ذلك صعب معلق على طبقات كثيرة من الناس ، وان أسهل الشعر ربما كان أشيعه وأسيره ولكن لا يلزم

من ذلك انه هو أبلغه وأقربه الى الجمال والاتقان . وان ليست المعاني العامة هي أصدق المعاني وأولاها بأن تنظم في القصيد وتوصف في البيان وإلا لحسبنا على كل شعور رفيع يختص به العلية المثقفون بأنه شعور كاذب ومعنى غير صحيح ، وان الشعر الذي يسهل فهمه على سواد الناس ربما كان أسعد حظاً من الشعر الذي يفهمه النخبة القليلون ولكنه لا يكون من أجل ذلك أجود عنصراً ولا أحق بالاصغاء والانشاد

وانما تمدح السهولة في الأدب ثم تدل على النبوغ والمقدرة اذا أدى بها الأديب المعاني التي يؤديها غيره بمشقة واعتساف . أما اذا ضرب صفحاً عن تلك المعاني فلم يشعر بها ولم يعالج نظمها وتصويرها وتعداها الى غيرها مما لا يصعب نظمه وتصويره فأبي فضل له في سهولته وأي مقدرة له في اجتناب المأزق الذي تختبر به المقدرة وتستبرأ به الدعوى ؟ ذلك كالرجل الهزيل الذي يبصر الجبار الضليع يرفع الصخرة من الارض ويسير بها الهويناً وهو يتصب عرقاً ويتماسك جهداً فيقول لا ! حاشاي ان اتصب مثله عرقاً أو أتماسك جهداً ! انني لارياً بنفسي عن ذاك ! انني لارفع هذه الحصاة من الارض وأعدو بها أمامه وهو محني الظهر مثد في مشيته وأنا منتصب القامة خفيف القدمين !

يبد ان السهولة لا تجد لها نصيراً أسوأ من أولئك الذين يجعلونها
وحدها أساس البلاغة ومخورها ويقولون أنها هي دون المعنى كل ما
يطلب من الشعر الرائق والنثر المستعذب ، ويوردون على ذلك آياتاً
اتفقت الأذواق على استحسانها والاعجاب بها ولكنها في زعمهم
خلت من المعاني ولا فضل فيها لغير « الصياغة اللفظية » وطلاوة
العبارة ، وأشهر ما يوردون من ذلك قول كثير :

وما قضينا من منى كل حاجة	ومسح بالاركان من هو ماسح
وشدت على حذب المطايا رحالنا	ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا	وسالت باعناق المطي الاباطح
تقعنا قلوباً بالاحاديث واشتفت	بذاك قلوب منضجات قرائح
ولم نخش ريب الدهر في كل حالة	ولا راعنا منه سنيح وبارح

أو قول العتايي في وداع جارية :

ما غناء الحذار والاشفاق	وشأيب دمعك المهرق
ليس يقوى الفؤاد منك على الوج	د ولا مقلتا طليح المآق
غدرات الأيام منتزعات	ما جنينا من طول ذاك العناق
ان قضى الله ان يكون تلاق	بعد ما تنظرين كان تلاق
هوني ما عليك واقنى حياء	لست تبقين لي ولست بياق
أينا قدمت صروف المناسيا	فالذي أخرت سريع اللحاق

عُر من ظن ان تفوت المنايا وعراها قلائد الاعناق
كم صفيين متعا باتفاق ثم ريعا بغبرة وافتراق
قلت للفرقدين والليل ملق سود أكنافه على الآفاق
أبقيا ما بقيتا سوف يرمى بين شخصيكما بسهم الفراق
والقطعتان ولا ريب من أعذب الشعر وأسلسه وهما كذلك
خلوما تعود النقاد ان يسموه « بالمعاني » في الشعر ، ولكننا لا نقول
مع القائلين أنها طلاوة لفظية ليس إلا . . . ولسنا نحسب الفضل في
استحسانهما للحروف والكلمات كما يحسبون ، فان في الشعر شيئا غير
الألفاظ « والمعاني » الذهنية وهو « الصور » الخيالية وما تنطوي
عليه من دواعي الشعور ، وأبيات هاتين القطعتين حافلة بتلك الصور
التي تتوارد على الخيال كما تتوارد المناظر للعين في الصور المتحركة ،
فيكاد القاري ينسى كلماتها وحروفها وهو ينشدها لما يستشفه فيها من
الأخيلة المتلاحقة وما يصحبها من الخواطر الحية المتساقطة . ولو أن
الآبيات الأولى نقلت الى اللوحة لملاّت فراغاً من الشريط المصور
لا يملأه أضعافها من قصائد « المعاني » وقصص الوقائع ، لأنها تنقل
لك صور الحجيج غادين رآحين يجمعون متاعهم ويشدون رواحلهم
ويحشمهم الشوق الى أوطانهم بعد ان قضوا فريضتهم التي فارقوا من
أجلها ديارهم وأصحابهم ، ثم تنقل لك صور البطحاء تعلق فيها أعناق

الابل وتسفل وتنساب أحياناً كما تنساب الأمواج كرة بعد كرة وفوجاً بعد فوج ، ثم تنقل اليك في المنظر نفسه صور الركبان أقبل بعضهم على بعض جماعات جماعات يتجاذبون أطرافاً من الحديث ويتطرحون آلافاً من الروايات والأنباء ويذهبون في ذلك كل مذهب تلم به الأذهان في حشد كثير مختلف الاوطان والأعمار متباين التجارب والاطوار ، ثم تنقل اليك صورة القائل وما في نفسه من الشجن واللوعة وما يحركه من ذاك الى التسلي بالحديث واللياذ بغمار الناس ، ولا تفوتك من تلك الصورة قصة كاملة تنبئك عنها « القلوب المنضجات القرائح » وتدل عليها رائحة السامة التي تنسم عليك من قوله « ومسح بالاركان من هو مسح » . . . كأنما تمسح الأركان لم يكن هم الذي يعنيه من تلك الرحلة وكأنه كان يتوسل به الى مأرب يشغله عن الاركان ومن يمسخها من الماسحين ، والى جانب هذه المناظر والخواطر حواش شتى يضيفها الخيال وتلمها البديهة . فاذا أنت من الأبيات الخمسة في واد يموج بالمشاهد ويتتابع بدواعي الشعور ، وفي ذلك على ما نرى شيء غير اللفظ السهل الذي يحسب قوم من النقاد انه كل ما في هذه الابيات من فضيله الجودة ومزية الاعجاب أما أبيات العتابي فتروي لك قصة وافية من موقف وداع بين فتاة غريرة لا عهد لها بشدائد الأيام ولا صبر لها على مصانعة الحوادث ورجل مستسلم للخطوب عنده من لوعة الفراق مثل ما عندها ولكنه

يسري عنها ويخفض من جأشها ويريد أن يحمل على كاهله وحده مصيبتها بفراقه ومصيبته بفراقها ، فيعوذ بالصبر حيناً وبالْحكمة أحياناً ويستجمع لهذا الموقف كل ما أفادته التجارب من العبر وما علمته الصروف من التجمل ، ثم يغلبه لاعج الهم ويضيق به التأسي فلا يكفيه منه أن الناس يفترقون في الحياة ويلتقون ولا يرضيه أن العشاق يتمتعون بالصفاء ويحرمون ، بل يذهب الى التأسي بفراق المنايا ، بل الى ذلك القضاء الأبدى الذي يضرب بين الفردين بسهمه وان أملى لهما في البقاء ومد لهما في آمامد اللقاء ، وحول ذلك الموقف تاريخ نفسين يحول الخيال من ماضيهما القدير وحاضرهما الاليم ومستقبلهما المريب في مسرح يتعاقب عليه الحب والصفو والأمل والشجو واليأس والعذاب وكل ما يحيك بالنفس ويدور بالخلد من ضروب الاحساس والتفكير في هذا المجال . وليس ذلك كله بالبداهة لفظاً بحتاً وكلاماً سهلاً خلا من كل معاني الجمال إلا حلاوة السهولة التي فتن بها أناتول فرانس وأمثاله من فلاسفة الاندية الناعسة والكراسي الوثيرة والجمال الذي يشتري هو الناظرين ولا يشتريه الناظرون ! .

وغير ما تقدم ان الصور الخيالية والمعاني الذهنية هي الاصل في جمال الاساليب في الأدب والفنون ، وان الفنان لا يطالب بأن يكون سهلاً لكل انسان ولا يقيد بالمعاني والخوارج التي يتساوى في التفطن لها والتأثر بها جميع الناس

(في الاساليب)

٢

الاسلوب الافرنجى

الاسلوب الافرنجى هو كل اسلوب معيب في رأي فئة من النقاد يحسبون في هذا العصر أنهم حذقوا ملكة اللغة وورثوا سليقة البلاغة العربية ، وكل أسلوب ركيك مستضعف فهو عند هؤلاء النقاد من الاساليب الافرنجية التي طرأت على اللغة بعد اختلاط الشرق بالغرب ومعالجة الترجمة من لغات الافرنج الى لغة العرب ، كأن الركافة شرط أصيل يشترطه الافرنج في كلامهم ولا يقرون البلاغة عندهم إلا اذا شئت بشيء منه .! وليس الأمر كذلك ولا هو مما يخطر على بال ناقد رشيد ، فان الافرنج يعيبون الركافة كما نعيبها وينتقدون ضعف التأليف كما تنتقده ويعنون أشد العناية باجتنب الخطأ في النحو والصرف والقواعد الأساسية المتفق عليها . ولكن تقادنا الذين يجهلون اللغات الافرنجية يفوتهم ذلك ويختصرون المسافة اذا استعرضوا الاساليب ، فما استحسنوا منها فهو للعرب خاصة وما استهجنوا فهو للافرنج عامة ! ويحسبون ان الصحيح القويم من العبارات لا يمكن ان يكون إلا عريباً وان السقيم المعوج منها لا يمكن

ان يكون إلا أعجمياً ، بطبيعته في اللغات لا تتحول عنها ولا يد فيها
للمتكلمين بمفرداتها وتراكيبها . وهذا هو الخطأ الذي نود ان نكتب
عنه لنرد العيوب الى أصولها ونوجه بنقد الاساليب الى وجهة أقرب
الى الهداية وأقن بالتوفيق للأسباب الصحيحة



كان قراء اللغة العربية وبعض اللغات الافرنجية يحسبون ان
كثرة الفصل بين الجمل خاصة من خواص الاسلوب الافرنجي
تطرقت الى لغتنا من الترجمة أو من محاكاة كتاب الغربيين في رصف
الجمل وتقسيم العبارات . ولست أشك في ان الافرنج أقل منا استعمالا
لحروف العطف والصلات اللفظية الظاهرة وان بعض المقتدين بهم
تقلوا عنهم هذه العادة الى الكتابة العربية فاحسن منهم من احسن
وأساء منهم من أساء . ولكني اعتقد ان الفصل بين الجمل خاصة من
خواص التفكير قبل ان تكون خاصة من خواص حروف العطف
وصلات الالفاظ ، وأرى ان كتاب الافرنج اكثر منا عناية بوصل
المعاني وترتيب الموضوعات وان ظهر على ترجمة أساليبهم أنها أقرب الى
التفكك والانتطاع بين الجمل وال فقرات ، وأرى من ناحية أخرى ان
البلاغة العربية لم تخل من الفصل الكثير في أساليب أفصح الفصحاء
وأقدر الكتاب والمنشئين ، بل هذا القرآن الكريم تتوالى فيه
الآيات أحياناً بلا صلة لفظية بينها غير الصلة التي تفهم من سياق الكلام

وتؤديها علامات الترقيم احسن أداء . وسأفتح المصحف الساعة على
أول الآيات التي تصادفني وهي هذه الآيات من سورة آل عمران :
« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم
يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا
بهم من خلفهم ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من
الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين - الذين استجابوا لله
والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتفوا أجر
عظيم . الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم
الله إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » وهي آيات تقع منها علامات
الترقيم موقع حروف العطف في اكثر مواضع الفصل والوصل
ولا يؤخذ عليها ذلك عند قارىء من قراء العربية الأقدمين او المحدثين ،
وقد حفظها الناس ومثلوا بها للبلاغة العالية قبل ان تنفل أساليب
الافرنج الى اللغة العربية بعدة قرون

وتارة يصفون بالافرنج كل اسلوب لم يخذ فيه صاحبه حذو العرب
الجاهليين والمخضرمين الذين سبقوا الكتابة والكتاب وغبروا في
عهد البداوة على فطرتهم الأولى البعيدة عن العجمة والحضارة
وقد فهم غرضهم من ذلك اذا قصدوا الرجوع الى اسلوب النظم

في الجاهلية ، لأننا نحفظ من شعر ذلك العصر قصائد وأبياتاً يجتمع
لنا منها نمط في الشعر يصح ان يسمى اسلوباً يقتدي به ويطلع
على غراره

أما اذا قصدوا الرجوع الى اسلوب النثر في الجاهلية فأين هو
ذلك الاسلوب وأين هي الكتب والرسائل التي وضعت فيه ؟؟ أنا
لا نروي من كلام الجاهليين المنشور إلا فقرات متبورة وأمثالا موجزة
وخطباً مشكوكا فيها هي في ذاتها فقرات وأمثال لا صلة بينها ولا وحدة
بين أجزائها ، ويمكن ان نستخرج من هذه البقايا المشتتة رأياً في ذوق
البلاغة الموجزة عند العرب ولكننا لانستطيع ان نستخرج منها
مذهباً في الاساليب المسهبية والمباحث المستفيضة التي تجري فيها المعاني
والمعلومات شوطاً أبعد من غاية المثل السائر والكلمة العائرة

وليس الذي نرويه من قصائد الجاهليين بالتمودج الذي يقتدي
به في النظم لانها في الغالب أبيات مبعثرة تجمعها قافية واحدة يخرج
فيها الشاعر من المعنى ثم يعود اليه ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة
ولا ترتيب مقبول . وفي تلك القصائد - غير التفكك وضعف الصياغة -
كثير من العيوب العروضية والتكرير الساذج والاقسار المكروه
والتجاوز المعيب الذي يؤخذ من روايتهم له ان الشعر لم يكن عندهم
فتناً استقل به صناعه الخبيرون به وانما كان ضرباً من الكلام يقوله
كل قائل ويروي المحكم منه وغير المحكم على السواء

وأضعف من القول السابق في التفريق بين الاسلوبين الافرنججي والعربي ان يجعلوا من خصائص الاسلوب الأول استعمال الكلمات الدخيلة التي لم تسمع عن العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، فان أمثال هذه الكلمات قد دخلت في شعر الجاهلية ونثرها وفي القرآن الكريم وسمعت في الخطب المأثورة التي نقلت عن الصحابة وبلغاء الامويين ، ولم يخل منها كتاب واحد من أمهات كتب الأدب في عصر من العصور ، وربما وجدت في قصيدة واحدة للاعشي أو لطفرة بن العبد أكثر مما تجد من هذه الكلمات الدخيلة في قصيدة عصرية ، ولا نذكر جماعة المتأخرين من الشعراء والكتاب في أبان الدولة الاموية أو الدولة العباسية التي نقل فيها من اسماء الثياب والطعام وأدوات الزينة ومصطلحات العلوم والفنون ما قد يربي على جميع ما نقلناه نحن في العصر الحديث

وبعضهم يأخذون على ما يسمونه بالاسلوب الافرنججي قلة المحسنات البديعية والاستعارات المجازية يظنونها من مزايا بلاغة العرب وهي في الحقيقة قسط مشاع بين جميع اللغات اذا هي صدرت عن الطبع المرسل ولوحظ فيها الاعتدال والذوق السليم. فما كان العرب أكثر مجازاً واستعارة من أمم الغرب ولا عهد في بلغاتهم المطبوعين

الولع بهذه المحسنات التي أفرط فيها المقلدون وطلاب البلاغة على جبل بأسرارها وعجز عن التقليد الصحيح فيها . ولقد عاب النقاد والثقات الاكثار من المحسنات الصناعية وعدوها بدعة مستحدثة على اللغة العربية واستحبوا فيها ان تكون في الكلام « كالحيلان في الوجات او كالحلية في الثياب » وان تجيء عفواً بلا كلفة مصنوعة ، أو تقصد قصداً ولكن لتوضيح المعنى وتجميله وليس للعرض على الانظار والمباهاة بالاحتيال والاقتدار



ولكن أوجه كلامهم في اختلاف الاسلوب الافرنجي عن الاسلوب العربي هو ما يرجع الى الذوق والملئكة ، إذ يقولون ان اللغة العرب ذوقاً خاصاً وملئكة مستسرة في تراكيها هي أشبه شئ بالملامح الدقيقة التي تراها العين ولا يصفها اللسان ، أو هي روح اللغة التي تسري في معانيها وتنظم تراكيها ولا تحدها الضوابط والتعريفات . وذلك كلام قديم قيل في اللغة العربية كما قيل في غيرها . وكتب فيه ابن خلدون فوفى الغرض حيث قال : « ان المتكلم بلسان العرب والبلغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده . فإذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملئكة في نظم الكلام عن ذلك الوجه وسهل عليه أمر التراكيب حتى لا يكاد ينحرف فيه غير

منحى البلاغة التي للعرب . وان سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى
مجه ونبأ عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر إلا بما استفاده من
حصول هذه الملكة . فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها
ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل . ولذلك يظن كثير من المغفلين
ممن لم يعرف شأن الملكات ان الصواب للعرب في لغتهم ارباباً وبلاغة
أمر طبيعي ويقول : كانت العرب تنطق بالطبع . وليس كذلك . وانما
هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت وظهرت في بادىء
الرأي أنها جبلة وطبع ، وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام
العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه . وليست تحصل
بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان . فان
هذه القوانين انما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة
بالفعل في محالها . واذا تقرر ذلك فملكاة البلاغة في اللسان تهدي البليغ
الى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب ولغتهم
ونظم كلامهم . ولورام صاحب هذه الملكة جيداً عن هذه السبيل
المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا واقفة عليه لسانه لأنه
لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده . واذا عرض عليه
الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض
عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم . وربما
يعجز عن الاحتجاج لذلك كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانية .

فان ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم «
فهذا الكلام على كونه غامضاً لا يصلح الاحتجاج به كما يقول ابن خلدون هو أوجه آرائهم في هذا المعنى وأجدرها بالبحث والتدبر. فالملكة العربية هي الفارق الاكبر بين الأساليب الأصلية في اللغة والاساليب الطارئة عليها ولا سيما في أنواع الكتابة الانشائية التي تقتصر العناية فيها على صياغة الجمل القصيرة ولا يلتفت فيها الى إطار المعاني وسياق التفكير. فان أظهر ما تكون البلاغة العربية في الجملة القصيرة وفي الخطب التي هي سلك مجموع من الجمل القصيرة كما قدمنا. ولكن ما مزايا هذه « الملكة العربية » ولأي شيء نحتفظ بها ونجتهد في تحصيلها؟؟

ان من مزايا هذه الملكة ما هو مستمد من أسلوب التفكير الذي خص به الذهن العربي دون أذهان الأمم الأخرى ، كالسحنة التي تعرف بها وجوههم واللون الذي يميز بشرتهم واللهجة التي تنطق بها ألسنتهم ، فلا فضل فيه غير أنه تفكير عربي وليس بتفكير مصري أو هندي أو أوربي ، وليس من الضروري أن تكون هذه المزايا حسنة كلها وان يحتذي الكتاب والشعراء حذوها في الصفات والكبائر إلا اذا كان من الضروري ان نجعل لنا أنوفاً كأنوف العرب ورؤسا كرؤسهم وأعضاء تحكي أعضاءهم في الشكل والحجم

والحركة . ولا يقول بذلك أحد ولو كان من أشد الغالين في حب العرب والتعصب للشمال العربية ، وإنما الشأن للعادة في استحسان المزايا اللغوية التي من هذا القبيل فإذا تغيرت العادة تغيرت معها اسباب الاستحسان

ومن مزايا الملكة العربية ما يحسن في الذوق لأنه يفيد الكلام قوة ووضوحاً ويزيد المعاني صقلاً وبياناً ويعصم اللسان من الاسفاف والركاكة ويمده بذخيرة من أساليب التعبير ينفق منها في النظم والكتابة . فهذه المزايا هي التي نحتفظ بها وتوسع فيها ونضيف اليها ما يوائمها وتمشى معها من مزايا اللغات الأخرى ، وتصرف فيها تصرف صاحب الدار في داره فلا تقف حياها مقيدين مأسورين كأننا نترجم عن غير أنفسنا ونلفظ بغير أسنتنا ونفكر بغير عقولنا التي ركبها الله في رؤسنا ، وما من شرط في كل ذلك غير المعرفة والاحسان لنذكر أننا في عصر « انساني » لجميع الناس حصة فيه - وفي اللغات خاصة - فلا نحسب ان عالم القول والكتابة مستقل عن عالم الحياة الذي اشتركت فيه المعالم والازياء وتقابلت فيه الأمم من كل جيل ومكان





(تأليف ارسطو - ترجمة احمد لطفي السيد)

من العقول ما هو بالظواهر الطبيعية أشبه والى معالم الكون أقرب . تطلع عليه ولولم تكن لك فائدة من الاطلاع عليه ، وتحب أن تراه كما تحب أن ترى نجم القطب أو جبال هملايا أو شلالات نياغرا ، وتشده كأنه عقل « الناس » الذي لا يستأثر به انسان دون انسان وليس بعقل شخص من الأشخاص كان حياً على ظهر هذه الارض في يوم من الايام . فهو منظر لمن يراه ويدرسه ويستعيره لنفسه ساعة التأمل فيه وليس بحصة موهوبة لصاحبه الذي يُنسب اليه ، وهو هبة انسانية عامة لكل شعب ولكل فرد ، بل هوهبة طبيعية يؤتاها الانسان كما يؤتي النور والهواء وخصائص الحياة ، فلا نصيب لصاحبها منها غير نصيب الأمين من الأمانة التي أودعها ليوصلها الى ذويها ، وكأنه لا امتياز له في الأمر إلا أنه هو الذي وقعت عليه القرعة في حمل تلك الأمانة فكان لذلك أمينها المجتبي

لها بغير اجتناء! وقد يبدو لك أنه لاحق لمن كان كذلك في أن
يفتخر بالعقل الذي عهد اليه لأنه عقل لا ترى عليه طابع الملكية
الشخصية ولا يمنعك مانع أن تدعيه مع صاحبه وأن تأمنه على حصتك
فيه. ! فهو منحة الهية عامة لأنه أكبر من أن يكون صفة شخصية
خاصة. وكذلك كان عقل «ارسطو» الكبير الذي لو ظهر
عقل بغير واسطة لكان هو أولي العقول أن يظهر للناس مجرداً من
واسطة الجسم مستغنياً عن أدوات الحواس والاعصاب

عرفت اللغة العربية ارسطو قبل عدة قرون وأخذت بنصيب
من هذا العقل الشائع كما أخذت بنصيب من المدنية والتاريخ ، ولكنها
لم تحفظ لنا أثراً من آثاره الكاملة ولم تبق لنا من قضاياها وآرائه
الاما تفرق في أثناء الكتب من نبد مبتورة تنسب اليه تارة وتغفل
من النسبة تارات. فلا نحطليء اذا قلنا ان أكمل آثاره في اللغة
العربية هو هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن ، وهو كتاب
علم الاخلاق الذي نقله عن الفرنسية الاستاذ الفاضل احمد لطفي السيد
وأتم طبعه في العام الماضي ، فبر به لغته أصدق البر ورد اليها حقاً وافيةً
من حقوقها بين اللغات في المعلم الاول ، وجاءنا بدليل جديد على ان
هذه اللغة أصلح في عصرنا حالا وأوفر قسماً في العلم والأدب مما
كانت في إبان المدنية العربية والدولة الاسلامية . لاننا تقابل بين

ترجمة كتاب الاخلاق وبين ما اطلعنا عليه من بقايا ارسطو في الكتب المتفرقة فنجد التفاوت واضحاً بين الترجمتين ونرى مواضع كثيرة يبرز فيها الاستاذ لطفي من تقدموه في الدقة والفهم وصفاء العبارة ، وقل أن نرى موضعاً ينعكس فيه هذا الحكم ويظهر فيه فضل المتقدمين على الاستاذ في هذه الامور

ولا يفهم من قولنا أن عقل ارسطو من العقول التي تحب ان تطلع عليها ولو لم تكن لك فائدة منها ان كتب الحكيم قليلة الفائدة أو أنها مكتوبة لغير قراء هذا الزمان . فأن مباحث ارسطو تحمل فائدتها لكل زمان ويقرأها المتأمل وهو على يقين من أنها تنفع ذهنه وتفتق قريحته ولو لم تكفل له الوصول إلى الحقيقة والمنفعة العملية في كل حين . ولست استثني من ذلك المباحث التي عني فيها الحديث على القديم وسلكت فيها التجارب العصرية طريقاً غير طريق الفلاسفة اليونانية . فان العقل الكبير لا يضل كل الضلال وان نقصته الوسائل وقصرت به الأسباب . ولا يزال عقلاً كبيراً حتي في الخطأ الكبير الذي يقع فيه ، فهو كيفما كان «موضوع» خالد لا يسهل علينا اجتنابه ولا يجعل بنا أن نحكم عليه بظروفه دون طبيعته التي هي أزم له وأدل عليه من الظروف ، وربما كانت فائدة كتاب الاخلاق لنا نحن المصريين خاصة أكبر من فائدته لليونان الذين كتب لهم وللشعوب

الغربية التي تعني به الى هذه الايام على وفرة ما لديها من آثار
الفلاسفة في الاخلاق والآداب

ذلك أن سواد الأمة المصرية - وكثيرا من الشرقيين - يفهمون
من الاخلاق أنها فضائل سلبية تبعد الانسان عما يشينه وتناهيه أن
يقتل وأن يسرق وان يعتدى على غيره وان يبخل أو يجبن أو ينقاد
لشهوته ويستغل بصغاره

ويفهمون من جهة أخرى أن القانون الاخلاقي سواء أ كان
أمراً بالفضائل أم ناهياً عن الرذائل هو سيطرة خارجة عن الانسان
تملى عليه ما يفعل وما يترك وتحيز له او تحرم عليه ولا شأن له هو في
جميع ذلك غير الطاعة والاذعان. ولا نعرف شيئاً أو بل على الاخلاق
ولا أشد إيذاء للهمم من تمكن هذه العقيدة المنكوسة في الضمائر
واعتبار الانسان عبداً للقانون يساق الى الخير أو قوة سلبية لا تحسن
من الاعمال الا ان تجتنب التبيح وتبتعد عن الضرر. وهذه هي العقيدة
التي يحوها مذهب ارسطو في الاخلاق جهد ما تستطيع المذاهب
الفلسفية أن تحو أمثال هذه العقائد. فان أجمل ما في كتاب ارسطو
انه سجل فيه خلائق اليونان الايجابية وجعل الفضيلة كلها في العمل
والانشاء لا في التخلي والسكون، وهذه هي مأثرته التي يعدها له
شراحه قبل كل مأثرة في هذا الكتاب

فالعمل الخاص للانسان باعتباره كائناً مختلفاً عن النبات والحيوان

إنما هو وحي الانسان من داخل نفسه وقانونه الذي تمليه عليه فطرته وهو عند ارسطو « فاعلية النفس واستمرار افعال يصابها العقل » ثم يجب أن نحقق هذه الشروط « طول حياة تامة بأسرها . لأن خطافة واحدة لا تدل على الربيع ، لا هي ولا يوم صحو واحد . فلا يمكن أن يقال ان يوم سعادة واحداً بل ولا بعض زمن من السعادة يكفي لجعل الانسان سعيداً محظوظاً » ويزيد على ذلك أن « ليس سواء البتة أن يوضع الخير الأعلى في حيازة بعض الملكات أو في استعمالها ، أي في مجرد القابلية ، أو في الفعل ذاته . ان القابلية يمكن أن توجد في الحقيقة من غير أن تنتج أي خير . مثال ذلك في رجل ينام ، أو في رجل يبقى غير عامل لأي سبب آخر . أما الفعل فهو على ضد ذلك لا يمكن البتة أن يكون في هذه الحالة ما دام أنه بالضرورة يفعل وانه فوق ذلك يفعل حسناً - ان الأمر هنا كالحال في الالعب الاولمبية . فليس أجمل الرجال وأقوامهم الذين يأخذون التاج . انه لا يأخذه إلا المتنافسون الذين يشتركون في المنازلة . فينبهم فقط يكون الظافر . كذلك أولئك الذين يسرون سيرة صالحة هم الذين يستطيعون أن يتطلعوا في الحياة الى المجد والسعادة »

فلا فضيلة إلا في قيام « الانسان » بعمله الخاص الذي يمتاز به على عامة المخلوقات ، ولا سعادة لذلك الانسان بغير الفضيلة

وارسطو أقرب الى العلماء منه الى الفلاسفة . فهو لا يبحث عن
العلل الاولى والاسرار الخفية ولا يعني بغير تقرير الوقائع واستقراء
الحوادث . ولم يدع هو انه وصل الى علل الاخلاق الاولى واسرارها
الخفية بل قال في صراحة « ان سبباً مماثلاً للسابق يضطروننا ان لا نبغي
الصعود الى العلة في جميع الاشياء على السواء . فإنه في كثير من
الأحوال يكفي أن يبين بجلاء وجود الشيء كما يفعل بالنسبة
لمباديء ، لأن وجود الشيء هو مبدأ وتقطعة ابتداء . ومع ذلك فان
من المباديء ما قد اكتشف وعرف بالاستقراء ومنها ما اكتشف
بالحساسية ، وأخرى بنوع من العادة ، وأخرى تأتي من أصل آخر .
فينبغي تعلم معالجة كل واحد من هذه المباديء بالطريقة التي توافق
طبعه ، وذلك أفضل ما يبذل من العناية لتحديد بيانها . ان هذه
المباديء أهمية كبرى في الاستنتاجات وفي النتائج التي تستخرج منها .
فقد أصاب من قال : ان المبدأ أو البداية هو أكثر من النصف في
كل شيء ، وانه وحده يكفي لايضاح كثير من النقط في المسائل التي
يتناقش فيها »

ولهذا لا تجدي في كتاب ارسطو أريحية الشعر وخشوع الايمان
ولا تلك الفلسفة الجميلة المنفومة التي برع فيها استاذة أفلاطون
وامتزجت بجميع آراء فيثاغوراس . بل هو أول من فصل بين

الرياضيات الرمزية والفلسفة الصوفية وبين حقائق الاستقراء وعلوم
الاختبار والاحصاء. وآراؤه في الاخلاق مأخوذة كلها من مراقبة الحياة
العملية في بلاد اليونان والقياس على ما يفعله الناس وما يمدحونه وما
يذمونه من الفضائل والعيوب. ولكنه مع هذا لم يخل من « مثل
أعلى » للفضيلة هو أسمى ما يرتفع اليه العقل ويصبو اليه الخيال .
فإن من دواعي العجب ان مذهبه العملي هذا في طلب السعادة
ينتهي به الى تقرير غاية للانسان لا يعدها الخيال وان جمع ولا يطمح
النظريون الى أبعد منها وان أوغلوا في التخمين والتنزيه . فالانسان
الفاضل عنده هو الانسان السعيد . ومن ثم يجب ان تصدر الفضائل
منه عن سجية وطواعية لا يشوبها ألم ولا اقتسار ! والى أين يذهب
الانسان بالخيال أبعد من هذا المقام الرفيع ؟ اننا لنعلم أن من الفضيلة
أن يقدم الانسان على ما يكره قضاء للواجب ، وان الواجب الذي
يلزمك أن تعمله لا فضل لك فيه . وارسطو لا ينسى ذلك في بعض
كلامه فيقول : « حينئذ يشترط فيمن يسمى شجاعاً الصبر على
المشقات المؤلمة كما قد قيل . لذلك نرى ان الشجاعة لكونها أمراً صعباً
جداً يكون الثناء عليها هو في غاية الانصاف . لأن احتمال الألم أصعب
من الامتناع عن اللذة ، ولكنه يعود فيقول : « ومع ذلك ينبغي ان
نفهم ان غاية الشجاعة هي دائماً شيء لذيذ جداً ، وان الظروف
الحديثة بها هي وحدها التي تحجب عنها جاذبها القوي . يمكن أن يشاهد

بسهولة شبه هذه الظاهرة في مباراة الجباز . فان الغاية التي يقصدها المصارعون هي حقاً لذيدة جداً لديهم . انما هي التاج ، انما هي الكرامات التي يطمعون فيها ، غير ان الضربات التي تصيهم مؤلمة ، لان المصارعين على كل حال هم من لحم وعظم . وكل التعب الذي يلقونه حقيق بأن يكون شاقاً جداً « ثم يعنى في ذلك فيقول « .. يكون الموت والجروح عند الرجل الشجاع اموراً شاقة ، وانه لا يتعرض لها الا اذا كان مكرهاً . انه يقتحمها لان اقتحامها جميل ولأنه يكون من العار ألا يفعل ، ولكن كلما كانت فضيلة كاملة وبالبيع سعاده تامه كان أسفه من الموت أشد ، لأن الحياة بالنسبة لرجل كهذا لها كل قيمتها ، وحرمانه النفس أنفس النعم التي هو يقدرها حق قدرها . ذلك انما هو ألم شديد ومع ذلك لا ينقص من شجاعته شيء بل ربما زادت لأنه يؤثر على كل هذه النعم الشرف الذي يكسبه في الحروب » وإذن - على رأي ارسطو - لا يكون الانسان في شجاعته الا مختاراً بهذه الكيفية بين أمرين أو عدة أمور ! »



ولانصراف ارسطو عن البحث في علل الفضائل الأولى الى البحث في الأعمال الفاضلة المشاهدة بالحس كان معياره الارجح للأخلاق ان يوازن بينها بالدرجات والمراتب لا بالكنه والمصدر . فكل فضيلة عنده حد وسط بين رذيلتين ، وكأن الاختلاف بين

الفضائل والردائل في تفسيره لا يكون الا من قبل الاختلاف بينها في الدرجات والزيادة والتقصان — وهو رأى منتقد عابه عليه كانت بحق فقال : « ان الاختلاف بين الفضيلة والرذيلة لا يمكن أن يكون مسألة درجات بل لا بد أن يعتمد على معادنها الطبيعية أو قوانينها . ولنطبق هنا مذهب ارسطو فنقول ان القصد حد وسط بين رذيلتين هما الاسراف والبخل ، فهل نرى أن البخل لا يعود بخيلاً اذا زاد مقدار نفقته ؟ ؟ أو هل ترى ان المسرف يصبح فاضلاً اذا نقص مقدار ماينفقه من الثروة ؟ ؟ ان التفسير (أولاً) لا يبين لنا الحد الذي يجب على كل منهما أن يقف عنده و(ثانياً) هو في الواقع تحصيل حاصل اذ أن ارسطو يقول « ان الانسان يجب عليه أن يجتنب الخطأ بالزيادة عن الحد والخطأ بالنقص عنه » فما هو الخطأ بالزيادة عن الحد غير أن يفعل الانسان أقل مما يجب . فكأن النتيجة ان الواجب هو أن لا تفعل أكثر ولا أقل من الواجب » وهذا هو تحصيل الحاصل كما يقول « كانت » لأن تعريفنا الواجب بأنه شيء لا يزيد ولا ينقص عن الواجب هو من اللغو الذي يشبه قول القائل :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

إلا اننا نقول مع هذا ان ارسطو قد اتبع أسلم الطريقتين ونجا من أكثر الأخطاء التي يستهدف لها الباحثون في فلسفة الاخلاق ،

وانه حين تساهل في تحري العلل الاولى واجتهد في الاستقراء القريب
والمشاهدة المحسوسة غبن الفيلسوف اللدنى فيه ولكنه أنصف العالم
المدقق وعوض على القراء من ذلك الغبن أحسن عوض ، وانه كان
قيناً أن يستهدف لاكثر من ذلك من الاخطاء لو انه عاج العلل
الاولى ثم أخذ نفسه بالتأليف بينها وبين الاخلاق في جميع الدقائق
والتفاصيل ، فمانعه التساهل في استقصاء العلل الاولى ان يصحح لنا
نماذج الفضائل وأن يصور لنا تمثالا متقن الصنعة من الانسان الكامل
في عالم الوجود وفي عالم الخيال - وليس يغض من عمله هذا انه كان
يلحظ الانسان من الجانب اليوناني الذي كانت تجلوه آداب عصره
وتوار يخه ومأثوراته ، فتلك سنة لا محيد عنها أن يتخذ المصور نموذجاً
له من الهيئات التي يالفها والبيئة التي يعيش فيها . على ان الاتفاق بين
الناس في حدود الفضائل العامة أيسر من الاتفاق بينهم في أذواق
الملامح والألوان التي يترممها المصورون .





بشار

شخصيته

لبشار شخصية ذات مفتاح قريب يدلنا على مذهبه في الشعر والحياة
ويفسر لنا الكثير من أخلاقه ونوادره . ومفتاحها هذا هو وضعه الجمالي
الذي اتفق عليه مترجموه وطابقتهم عليه بعض آياته وأشعاره . فقد وصفوه
بانه كان ضخماً الجثة مفرط الطول تام الالواح ، ورووا أن أديباً « دخل
عليه وهو نائم في دهليزه (كأنه جاموس) فقال يا أبا معاذ : من القائل
ان في بردى جسماً ناحل لو نوكأت عليه لانهدم
فقال أنا ؛ فقال ، من القائل أيضاً :

في حلتي جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا
قال أنا . قال : فما حملك على هذا الكذب ؟ والله اني لأرى لو أن
الله بعث الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك ! »

وقد عاش الرجل سبعين سنة ومات بضرب السياط المبرح
لا يمرض أصابه ولا يضعف الشيخوخة . سمعوه يؤذن وهو سكران
في غير وقت الأذان فأتوا به وجلدوه حتى أشرف على التلف ،
فهو في تلك السن التي تسكن فيها النفس وتهداً فيها شرة الطبع
وتقترن زوات الحياة لم يزل كأنه في سن الفتوة ومجانة الصبا ودفعة
الحيوية العارمة . فكان وافي الجمانية شديد الحيوانية من اصحاب
ذلك المزاج الذين يغلب عليهم الهوى والفجور والشغف بالذات والملاهي
وما تسوله غواية اللحم والدم وتعري به المطالب الجسدية والشهوات
الحسية ، فما كان له إلا أن يطبع طبيعته الحيوانية وينغمس في ذلك
التيار الذي تدفعه اليه ، ولكن اتى له بذلك وقد ولد أعمى وليست
مجالس الهوى والمجون مما يليق بالعميان وأصحاب الآفات ولا هي
بالموضع الذي يزاحمون فيه أهله فيفلحون في الزحام؟ فكيف تراه يضع
أيقهر طبيعته حذراً من العبث به والسخرية منه وإيثاراً للوقار الذي
يجمل بنكبته والتدين الذي يطمئن به الى مصيبيته ؟ ذلك وجه قد
يخطر له لو كان حب الوقار والكرامة أرجح لديه من لذة القصف
والدعابة ، ولو انه ولد كالمعري في بيت التقوي والعلم ونشأ من طفولته
نشأة مهيأة للدرس والتوقر لجاز أن يكبح نفسه وان ينهه من بواعث
طبعه ، ولكنه نشأ في بيئة أهون شيء عليها الوقار والكرامة . فكان
أبوه مولى طيئاً من السبي وأمه امرأة ترضى أن تتخذ عبدها زوجاً

لها ، وكان الفقه في الدين أبعد ما يتصور من أبي بشار وأغرب ما منى به الناس منه ! - قيل انه كان يضرب بشاراً ضرباً مبرحاً لهجوه الناس « فكانت تقول له أمه : لم تضرب هذا الغلام الضرير ؟ أما ترحمه ؟ فيقول : بلى والله اني لا رحمة ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه الي ، فسمعه بشار فطمع فيه وقال : ان هذا الذي يشكونه اليك مني هو قولي الشعر وأني ان أتمت عليه أغنيتك وسائر أهلي . فاذا شكوني اليك قتل لهم : أليس الله عز وجل يقول « ليس على الأعمى حرج » فلما أعادوا الشكوى على أبيه قال لهم ذلك فانصرفوا وهم يقولون : فقه برد أعيظ لنا من شعر بشار ! »

فطبيعة بشار وتربيته قد أرادت ان يكون كما كان ماجناً خليعاً مستجيباً لشهوات الحس ومطالب الجسد . وكان لا بد له ان يوطن نفسه على ما يلقي من السخرية والعبث في سبيل ذلك ، وان يستهدف للضحك والابتسام والولع به والتغامز عليه ، وان يخلع الحياء فلا يبالي بشرف ولا دين ولا يراقب الناس في أمر من الأمور التي تجذبهُ وتستهويه والتي يضاعف الحرمان من النظر رغبته فيها وتكالبه عليها ، فلم يكن أحد غيره أحق بأن يقول

من راقب الناس لم يظفر بجأته وفاز بالطيبات الفاتك الهيج
ومن عادة التماذي في اللهو أنه يضعف التقية ويضري بخلع الحياء
وقلة المبالاة . فأولى بالذي يمنح الى اللهو - وهو قليل المبالاة بفطرته -

ان يزداد به هذا الخلق رويداً رويداً حتى لا يعنيه مدح ولا قدح
ولا يزعجه شرع ولا ضمير ولا يحفل حرمة من الحرمات التي يقدها
الناس ويستعينون بها على النزوات والأهواء . وقد بلغ الأمر ببشار -
الى هذا الحد فكان لا يستبق نسباً ولا مودة ولا ديناً ولا سمعة إلا
ما يمس منه الضرر ويحول بينه وبين ما يريد . فهو يهجو سيوبه
فيقول فيه

« سباويه يا ابن الفارسية ما الذي

« تحدثت عن شتي وما كنت تنبذ! »

وبشار نفسه ابن فارسي من الموالي !

وهو يهزأ بمكان الشعراء ولا يخرله بغير الشعر الذي يتكسب
به . فقد سمع عقبة بن ربيعة يقول : أنا وأبي وجدني فتحنا الغريب
للناس واني لجدير ان أسده عليهم . فقال بشار : ارحمهم رحمك الله !
فقال عقبة : استخف بي وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر ؟ فقال
بشار إذن أنت من أهل البيت الذين « أذهب الله عنهم الرجس
وطهرهم تطهيراً » يريد ان يتهم بحسب الشعراء ويزدري ذلك
النسب الذي افتخر به صاحبه !

وربما كان من هذا الاستخفاف نظمه الشعر في الاغراض
المسفة الركيكة كقوله في مدح جاريته

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت
ومنه أنه كان لا يتخرج من تكلمة الكلام بما يحضره من
الاسماء والمفردات التي لا وجود لها في اللغة . فقال في بعض غزله
صبيت هوائك على قلبه فضاقت وأعلن ما قد كنتم
وقالت هويت فت راشدأ كما مات عروة غمًا بغم
دستت اليها « أبا مجلز » وأي فتى إن صاب اعترم
فما زلت حتى أنابت له فراح وحل لنا ما حرم
فسأله سامع : ومن هو أبو مجلز ؟ فقال وما حاجتك إليه ؟؟
ألك عليه دين ؟ أتطالبه بطائلة ؟؟ هو رجل يتردد بيني وبين معارفي
في رسائلي . !

ومات حمارة فزعم أنه رآه في النوم فأنشده
سيدي خذ بي أتانًا عند باب الاصفهاني
تيمتني يرم رحنا بثناياها الحسان



ولها خد أسيل مثل خد الشنفراني
فقيل له : وما الشنفراني ؟ فقال ما يدريني ؟ هذا من غريب
الحمار ، فإذا لقيتموه فاسألوه عنه !
وكان كثيراً ما يحشو شعره بهذه الاسماء الملفقة لقله صبره على
التجويد والتنميق

وإن من الهزل ان يحسب لبشار رأي في الدين والعصية فيقال
أنه كان معتزلياً أو مسلماً على هذا المذهب أو ذاك . فما كان لذلك
كله شأن عنده يشغله أكثر من ساعة سمر أو كلمة يرسلها في قطعة
من الشعر للمداعبة والاغراب وأغاظة بعض المتحرجين على عادة
المتهتكين والخلعاء في العبث بمن يظهرن العفة والصلاح ، وقد نشأ
بشار في أوائل عهد المدينة العباسية أي في ذلك العهد الذي راجت فيه
الأزياء الفكرية والذوقية كما تروج الأزياء عامة في عهود المدينة
والعمران ، وكانت الذندقة من أزياء الظرفاء أو كان الظرف من أزياء
الزنادقة كما قال ابو نواس « تيه مغن وظرف زنديق » ! فكان بشار
يتخذ له كل يوم زياً من هذه الأزياء التي يتحلى بها ظرفاء عصره
ورواد مآلفه ، ويعشى مجالس المعتزلة ليتلقف منهم ما يخوضون فيه
من النحل الغربية وما يتحدثون به من الأقاويل المعتسفة . فتارة
هو على رأى القائلين ان ابليس خير من آدم

ابليس اكرم من ايكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار
النار عنصره وادم طينة والطين لا يسمو سمو النار

فهل هذا جد يسمي بالمذهب في الفلسفة أو الدين !! وما لبشار
ولآدم ان كان أفضل من ابليس أو كان ابليس أفضل منه ؟ ! ومن
هم معشر الاشرار الذين يحنق عليهم بشار لغضهم من قدر ابي الشياطين

ورفعهم من قدر ابي اخوانه الأكدميين؟؟ هذه تسلية ودعابة وزبي من
أزياء النظر لا أكثر ولا أقل

وتارة هو على مذهب الجبرية الذين يسقطون الحساب والتكاف:
طبعت على ما في غير مخير هو اي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطي وأعطي ولم أرد وقصر علي أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما اعقتب الا التعجبا

ويعود فاذا هو مؤمن شرعي يذكر الموت ويخشى الحساب
كيف يبكي لحبس في طاول من سيفضي لحبس يوم طويل
ان في البعث والحساب لشغلا عن وقوف برسم دار محيل
وأبلغ من ذلك في هذا الباب قوله :

بدا لي ان الدهر يقدح في الصفا وأن بقائي ان حيت قليل
فعرش خائفاً للموت أو غير خائف على كل نفس للحمام دليل
خليلك ما قدمت من عمل التقى وليس لأيام المنون خليل
وما ذاك لان الايمان أو الكفر يكرثه ويعنت فكره فيطول فيه
قلبه ويحثه ولكن لانها دريئة تنجيه من الأذى وخواطر يتفكه
بها «الظرفاء» و يوسعون بها على أنفسهم من قيود الادب والشريعة،
وقد رووا أنهم وجدوا في أوراقه كلاماً يقول فيه أنه هم بهجو رجل
ثم ذكر قرابته من رسول الله فعفى عنه . ويستدلون بذلك على أنه
كان متشيعاً صادقاً في التشيع لآل البيت . ولكن الرواية في ذاتها

لا تصدق لاننا لم نعهد في شعراء العرب ان يدونوا خواطرهم ونياتهم
ولا سيما من كان مكفوفاً يحتاج الى من يكتب عنه . ولا نفي تشيع
بشار العلويين فانه كان من البصرة وفيه عرق من الفرس ولم يكن راضياً
كل الرضي عن دولة بني العباس ، فاذا تشيع فلا غرابة في ذلك . ولكن
الغرابة ان تظن به الحماسة للشيعنة أو لغيرهم وهو من تعلم من المجون
وقلة المبالاة

وأنت لا تجد حتى في هجو بشار أثراً قوياً لمرارة البغض الصادق
والغليظ الشديد على من ينحي عليهم بالهجاء ، فلما كان هجوه صناعياً
وفنياً كما تقول نحن في هذا العصر ، وكان أشبه بالعصا التي يذود
بها من يتعرض له ثم يلقىها من يده الى حين الحاجة . وربما تبرم
بالدنيا وصدق فيه قول الاصمعي إنه « كان من أشد الناس تبرما
بالناس » وإنه كان يقول : « الحمد لله الذي حجب بصري » فقيل
له لم يا أبا معاذ ؟ فقال لئلا أرى من أبعض . ولكننا حريون ألا نبالغ
في هذا الخلق الذي وُصف به وألا نرى فيه أكثر من أنه عادة
أصحاب الله إذ يستقلون من الناس من لا يجدون عندهم حظاً من
السرور والسمر ، ثم لا يكلفون انفسهم مؤونة الحقد عليهم والتغليظ
منهم ، ولا شك في أن بشاراً كان ينقم على العمي أحياناً ويشعر
بالحسد للذين رزقوا البصر من حوله فيضجر من الناس ويتبرم بالدنيا
كلما ألم بنفسه ذلك الخاطر ، غير انها نوبات لا تطول عند صاحب

هذا المزاج ولا تتعمق في سريرة نفسه ، فما كان بشار بالرجل الذي يجعل من المصيبة حراماً معزولاً يحفه بسياج من الوحشة ويحمله عن الذكر والعزاء ويتقدم اليه ليل نهار بقرايين من المفض والمكراهية ، وإنما هي لحظة عارضة يأسى فيها ما يأسى ثم تنقضي فيذكر مصيبته في شعر الغزل والمزاج ويتخذ منها لعبة يتفرج بها على الناس . قيل « أنه جلس على بابه وحده وليس معه خلق ويده مخصرة يلعب بها وقدامه طبق فيه تفاح وارجح . فربه رجل يقال له دهان الغلال فلما رآه وليس معه أحد تأقت نفسه الى أن يسرق ما بين يديه فجثا قليلا حتى مد يده ليتناول منه . فرفع بشار المخصرة خلصة وضربه ضربة على يده كاد يكسرها . فقال الرجل : قطع الله يدك يا ابن ... ! أنت أعمى ؟ ؟ فقال بشار يا أحمق ! فأين الحس . ؟ ! »

وقيل « أن رجلا سأله عن منزل ذكره له فجعل يفهمه والرجل لا يفهم . فلما يئس منه بشار اخذ بيده وقام يقوده الى المنزل الذي يبتغيه وجعل ينشد في طريقه

اعمى يقود بصيراً لا ابالكمو قد ضل من كانت العميان تهديه
وظل يقوده حتى وصل به الى المنزل ثم دفعه الى داخله وقال
له هذا هو المنزل يا أعمى ! »

وما من حب في الخير جشم بشار نفسه ان يهدي الرجل الى

المنزل الذي ضل عنه، ولكنها فرصة أتاحت له فأراد ألا تفوته حتى يسخر بالعبي وبالصر في آن واحد !

ويقل في فكاهة بشار السخر الذي مصدره الاهتمام بالأمر والجد في شئون الحياة ، كسخر ابن الرومي النافذ الحاد أو كسخر المعري الشاحب الرزين ، ويكثر في هذه الفكاهة السخر الذي مصدره اللعب وقلة الاكتراث وذلك الأيذاء الأبليسي الذي يبدر من النفس عفواً بلا تعمل ولا حماسة ولا التهاب ، وليست تقصه أسباب هذه الفكاهة . لأن الذكاء وممارسة الهجو وفتور النخوة والتعرض لدواعي المزاح والتناقض بين معيشة الانسان والمعيشة التي ينبغي له وتنتظر منه — كل أولئك من أدوات الفكاهة التي اشتهر بها بشار وأعانتها عليها الفطرة والعادة فخببت الناس فيه واخافتهم منه . ومن دأب ذوي العاهات الذين ينغمسون في غمار الحياة ان تكثر فيهم الدعابة المضحكة لأنهم عرضة لها في كل حين ، فلا بد لهم من سلاح حاضر يتقون به ما يصيبهم منها ويديرون به الفكاهة على من يقصدهم بها ، وبمثل هذه الدعابة سار ذكر بشار بين الظرفاء والظريفات في عصره وصار بما اشتهر به من الغزل ووقائع الغرام أعجوبة في احاديث الناس يودون رؤيتها والتعجب منها ، وبلغ من ذلك ان جوارى المهدي — وكان من أشد خلفاء بني العباس غيرة على المحارم — « سأله ان يريهن بشاراً وقلن له : لو أذنت له يدخل

الينا يوانسنا وينشدنا فهو محجوب البصر لا غيره عليك منه ؟ فأمره
فدخل اليهن واستظرفنه وقلن له : وددنا والله يا أبأ معاذ أنك أبونا
حتى لا نفارقك ! قال نعم ونحن على دين كسرى . ! » ونوادره في
ذلك كثيرة لا نظنه كان يفرغ منها

أما شعره فرصين صحيح في الاكثر الأعم مما وصل الينا منه ،
وهو يقسمه قسمين بدوي تغلب فيه الجزالة والجفوة وحضري تغلب
فيه الرقة والنعومة . فاذا نظم في اغراض الشعر القديمة كان أقرب
الى لغة الأعراب التي لا تشوبها دماثة الحضارة واذا نظم في الغزل
والمجون كان أقرب الى اللغة المألوفة الشائعة التي رقت حواشيها
وسلسلت عباراتها ، ولا اختيار له في ذلك وانما هو اختيار الموضوعات
وحكم الصياغة وما يوائمها . وقد كان يدل بسلامة لفظه وجودة نظمه
ويقول لمن يسأله في ذلك : « ومن أين يأتيني الخطأ وقد ولدت هنا
ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد
يعرف كلمة من الخطأ ؟ وأما نساؤهم فأفصح منهم . وايفعت فأبدت
الى ان أدركت ، فمن أين أذن يأتيني الخطأ ؟ »

وروح شعره هو الروح الذي يعرف به أمثاله من ذوي الطبيعة
الحيوية والمزاج الديني الذي يتخيل الاشياء كما يحسها في عالم الواقع
القريب ويراها كما تبدو في صور المعيشة المعهودة وحقائق البيت

والسوق ، فلا الهام في شعره ولا حنين ولا أشواق ولا بدوات ولا خيال ، ولكنها تجربة الدنيا تملى عليه ما ينظم من الحكمة والوصف والغزل والهجاء فلا يمتاز فيها عن سواد الناس بغير اللسان اللبق والقدرة على النظم والتعبير ، وأحسبه أصلح أدباء العرب لأن تؤخذ من شعره الشواهد الكثيرة على أساليب « الطريقة الطبيعية الواقعية » التي اشتهر بها بعض أدباء فرنسا على الخصوص في القرن الأخير .
فاذا قرأت له هذه القصة الصغيرة في قوله :

هل يجيد النعت مكفوف البصر	عجبت فاطم من نعتي لها
بين غصن وكثيب وقر	بنت عشر وثلاث قسمت
ما زها التاجر من بين الدرر	درة بحرية مكنونة
من ولوع الكف ركاب الخطر	أذرت الدمع وقالت ويلتي
ووشاحي حله حتى انتثر	أمتي بدد هذا لعبي
.....	فدعيني معه يا أمتي
واعترها كجنون مستعر	أقبلت في خلوة تضر بها
دمع عين غسل الكحل قطر	بأبي والله ما أحسنه
وسلوني اليوم ما طعم السهر	أيها النوام هبوا ويحكم

أو قرأت له قصته الأخرى التي يقول فيها :

حسبي وحسب الذي كلفت به	مني ومنه الحديث والنظر
.....

أو عضة في ذراعها ولها
أو لمسة دون مرطها بيدي

.....

واسترخت الكف للعناق وقا
انهض فما انت كالذي زعموا
يا رب خذلي فقد ترى ضربي
أهوى الي معضدى فرضضه
لصق بي لحيه له خشت

.....

أقسم بالله لا نجوت بها
كيف بأمي إذا رأت شفتي
قد كنت أخشى الذي ابتليت به
قلت لها عند ذلك يا سكتي
قولي لها بقه لها ظفر

فكأنك تقرأ صفحة من زولا أوجي دي موباسان ، ومثل
هذا الغزل لا علو فيه ولا هيام لأن الشهوة فيه أغلب من الحب
والعطف والمناجاة ، وغير عجيب مع هذا أن يقال أن الشيوخ
والزهاد كانوا يهيبون بالمهدي أن يكف بشارا عن الغزل وأنه نهاه عنه
وحرمه جوائز المدح التي كان يحتال على دس الغزل فيها

وربما كان من العبر التي لا بأس بالتنبيه اليها أن بشاراً هذا على ما علمت من قوة جسمه واتساق خلقه وطول عمره لم يسلم من فدية الادب التي يفرضها على أبنائه والتي يقول بعض الكتاب الاطباء انها حق للفن على الفنان يأخذه من عقله أو من نسله أو من حواسه أو من خلقه ولا يعني منها أحد له اشتغال مطبوع بالآداب والفنون ، وأما فدية بشار فهي بصره الذي فجع فيه وهو جنين في بطن أمه ، فكان ذلك أول خلل اعتراه في التركيب وقد تكون له علاقة حميمة بالمزاج والاعصاب ، ونسله الذي فقده في حياته ورثه منه في هذه الصفحات ولدأً وبتناً صغيرين ، ولم نعرف بعد من سيرته أنه أعقب غيرها خلفاً من الذكور أو الاناث

ولا يتسع المقال الان لاكثر من هذه العجالة فلنرجي الكلام المفصل في بشار الى فرصة أخرى ولنشكر الأديب الذي اجتهد في جمع ما اهتدى اليه من شعره شكراً يكافي جهده وقصده . وبودنا لو استطعنا أن نقف عند ذلك ولكننا مضطرون الى أن نلاحظ له بعض المآخذ في مجموعته : منها أنه لم يدقق في رواية بعض الايات وان كانت قليلة لا تعيب المجموعة ، ومنها أنه أورد فيها آياتاً كان الاجمل حذفها والاعراض عنها لافراطها في الفحش والبداء . ولا يجوز الاحتجاج بكثرة أمثال هذه الايات في كتب الأدب المعدودة فان لكل عصر أدباً غير آداب العصور التي تقدمته . وهذا فضلاً عن

أن كتب الأدب في عصور الدولة العربية كانت تخط من يعتمد
نسخها ولا تطبع للامة بعشرات الالوف ، فهي أشبه بالرسائل الخاصة
منها بالكتب المعروضة لجميع الانظار





٢

- غزله -

عاش بشار أيام حياته كما قال

قد عشت بين الندمان والراح والمز
هر في ظل مجلس حسن

وكان كثير الشعر عامة وكثير الغزل خاصة . فلم يبق من شعره
ولا غزله الا القليل المشتت الذي عفت عنه الايام وسلم من ضغينة
الامراء المهجورين وحجر الفقهاء المنتسبين ، ونسي أكثره في حياته
وبعد موته لاشفاق الادباء والظرفاء من روايته والتغني به ، ولكن
القليل الذي بقي من غزله فيه دلالة الكافية للناقد الادبي وان لم
يكن فيه الغناء للرواة والمستطلعين

ولا ينتظر القارىء أن يسمع من غزل بشار تلك النعمة الساحرة
التي ترتفع بالنفس الى عالم الاحلام والاشواق وتسبح بها في
فراديس الافراح والاشجان ، ولا يرج أن يطالع منه وصفاً للحب
كأوصاف اولئك الشعراء الكمالين الذين يجعلون المرأة المحبوبة
أقنوماً مائلا للعيان يجمعون فيه كل ما خامر نفوسهم من المعاني الخفية
والآمال المنوعة والمحاسن التي لا أسماء لها في لغة اللسان والمواجد

العطشى الى غير مورد . فكل اولئك غريب عن طبعه بعيد من مشربه كما قلنا في الفصل السابق . وانما كان غزل بشار وصفاً للذات الحس التي يباشرها أو يشاقق اليها ، وكان حبه حباً « للنساء » لا حباً « للمرأة » . . أو هو كان حباً للانثى التي يراها واحدة في كل امرأة على اختلاف الصفات وتعدد الاسماء ، فليس يحتاج الشاعر إلا لأن يكون « حيواناً » ذكياً لينظم مثل ذلك اغزل ويجيد فيه أحسن الاجادة ، بل هو قل أن يحتاج الى البصر - فضلاً عن النفس - ليهديه الى من يؤثر بالحب ويختار للمتعة . فرجما أغنته عن ذلك طبيعته الحيوانية التي ترضيها كل طبيعة حيوانية تقابلها وتكنن له ثم وراء تباين الافراد وتغير الاسماء والصفات

وقد ترى كثيراً من العشاق الشهبانيين يتطلعون الى ما وراء الحس ويلجأون الى الخيال يستعيرون منه محاسن أو صاف يضيفونها الى محاسن الوجه الظاهرة وشمال الجسد المرموقة ، ليضاعفوا من السرور بلذاتهم ويفرقوا في الاستمتاع بصبواتهم . أما بشار فقد أخذ الحس عنده مكان الخيال واغراه فقد البصر باستحضار ما فاته من « المحسوسات » التي لا يقنع بها المبصرون ، فاذا طمح المتغزلون الذين يشهبونه في الذوق والمزاج الى سمة معنوية محلاة بزينة الخيال يخلعونها على الصور المنظورة والملامح المألوفة - فحسبه هو أن يطمح بوجهه الى ما وراء السمع واللمس من محاسن العيان التي حجب عنها ،

وأن يجعل تلك الصور المنظورة والملامح المألوفة أقصى شأو الظنون
وغاية شوط الخيال ، فلا يخرج التوهم عن حيز الحواس وان غلا فيه
وأبعد الرحلة في بواديه

ومن هنا ترى أن مكان « المحاسن المتخيلة » من شعر بشار
قد خلا وصفر إلا من فلتات قليلة يقلد فيها غيره على السماع ولا
يعتمد فيها على الشعور والابتكار ، وشغل ذلك المكان كله بتصور
الألوان والاصباغ واستنشاق الروائح والطيوب ، فكان لا يشب
بامرأة الاتخيلها في ثيابها ووشمها ولون بشرتها وصبغة ما عليها من
الزينة والحلي . وهو صاحب المثل السائر في قوله

وخذي ملابس زينة ومصبغات فهو أخضر

وإذا دخلت تقنعي بالحر . ان الحسن احر

وله من هذا النوع يصف طيفاً في المنام

ولقد تعرض لي خيالكم في القرط والخلخال والقلب

وفي وصف حسناء

ومصفرة في الزعفران جلودها إذا اجتليت مثل المفرطة الصفر

وفي أمنية

وما حاجتي لو ساعد الدهر بالمني كعاب عليها لؤلؤ وشكول

وقوله في فتاة

كأنها صورت من ماء لؤلؤة فكل جارحة وجه برصاد

وفي هذا المعنى :

وتخال ما جمعت عليـه ثيابها ذهباً ودرا

وفيه :

وحوراء من حور الجنان غريرة يرى وجهه في وجهها كل ناظر

وقد ينقل الوصف أحياناً مما يُرى الى ما يُحس فيصف الهوى

والجمال كأنهما شيء « مصبوب » على القلب والجسم . كقوله :

إذا نظرت « صبت » عليك صباية

وكادت قلوب العاشقين تطير

وقوله :

« صبيت » هوألك على قلبه فضاقت وأعلن ما قد كنتم

وقوله :

من فتاة « صب » الجمال عليها في حديث كلذة النشوان

وأكثر من ذلك ولعه بالطيب فإنه يدخله في الغزل والمدح

ويلهج به ويستنشق فيه العرف الذي يشمه والوجه الذي يتصوره ،

فهو عنده رائحة ومنظر ولذة حسية وخبر عما لا يراه . ويبلغ من ولعه

به انه يذكره في وصف نعال المهدي وهو يمدحه فيقول :

تشم نعلاه في الندى كما يشم ماء الريحان منتها

أما في الغزل فقد ذكره في مثل هذا المعنى فقال :

إذا وضعت في مجلس لك نعلها توضع مسكاً ما أصاب وعنبرا

وقال وقد زاره فتيات خمس يسألنه شعراً ينحن به :
باكرن عطر لطيمة وغمسن في الجادي غمسا
وقال في عبدة :

هو صاحبي ربح الشمال وانه لأشفي لقلبي أن تهب جنوب
وما ذاك إلا انها حين تنتهي تناهي وفيها من عبدة طيب
وقال فيها :

عبدة مالك مسلوبة وكنت معطرة حالية
وقال يوصي زائرة :

وتوق الطيب ليلتنا انه واش اذا سطعا
وقال :

يارحمة الله حلي في منازلنا
حسبي برائحة الفردوس من فيك

وحتى بيته الذي عيب عليه وهو :

واذا أدنيت منها بصلاً غلب المسك على ربح البصل
لما جاءه من ناحية هذا الروع الشديد بالطيب وتعوده أن يجمع
فيه صور الملاحظة المغيبة عنه

على انه قد برع في الاستدلال بالمشمومات والمسموعات على
محاسن العيان حتى لقد كان يدرك بسمعه ما لا يدركه إلا البصراء .
قيل انه كان في مجلس فيه نساء وكانت احداهن تكثر الضحك

فالتفت بشار الى جاره وقال له : أرايت فلانة هذه ؟ ألتست تراها
حسنة الأسنان ؟؟ فقال له جاره ويحك ! وكيف عرفت هذا ؟؟
قال انما تكثر من الضحك دون صوحيجاتها لتبدي جمال ثناياها !
وكان أنزه ما يتغنى به بشار من محاسن النساء الحديث والسمر ،
وكان يحب أحاديثهن ويكرر وصفها ويفتن في تجميلها والترنم بها .
وهي أبعد لذاته من المحسوسات وأقربها الى المعنويات . ومن قوله
في ذلك :

وحديث كأنه قطع الروض وفيه الصفراء والحمر
ومنه :

ودعجاء المحاجر من معد كأن حديثها ثمر الجنان
ومنه :

ولها مبسم ككثغر الاقاحي وحديث كالوشي وشي البرود
ومنه :

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسبن زهرا
وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا
ومنه :

لقد عشقت أذني كلاماً سمعته رخيماً وقلبي للمليحة أعشق
ومنه :

واني ليجري بيننا حين نلتقي حديث له وشي كوشي المطارف

ومنه :

وبكر كنوار الرياض حديثها ، تروق بوجه واضح وكلام
ولكنك ترى من هذا الشغف بحديث المرأة انه كان يسمع
منه ويرى في وقت معاً ، وانه كان يشرك فيه حاستين بحظ حاسة
واحدة ، ويصغي اليه أصواتاً مسموعة ثم يتصوره ألواناً منظورة فيها
الصفراء والحمراء وأصباغ المطارف والازهار والثمار ، لأنه - كما قلنا -
كان يصرف الخيال الى استيفاء ما فاته من حظ البصر ويتم على
هذا النحو ما يقصر عنه اللمس والشم والسمع



وقد كان أناس في عصر بشار يعجبون لتشبيهه بالنساء وميله
الى مجالسهن ويخيل اليهم أن من فقد البصر فقد معه أداة الغزل
وسبب استحسان المرأة واستوت عنده جميع النساء في كل شيء .
وليس العجب إلا أنهم يعجبون من غزل الأعمى ويحرمونه الطبيعة
الانسانية لأنه حرم الاحساس بعينيه ، إذ ليس بصر العينين إلا رائدأ
لتنفس إلى اختيار شكل من أشكال « المرأة » وترجيح صفات منها
على صفات أخرى ولكنه لا يوجد الاشكال والصفات ولا يخلق
الميل بين الرجال عامة والنساء عامة ، وليس هو بعدُ بالوسيلة التي
لا وسيلة غيرها للاختيار والترجيح . ولبشار أقوال شتى في تنفيذ لوم
اللائمين لا نخال أحداً من الشعراء قال أصدق منها ولا أبلغ في تعليل

عشق العميان بل المبصرين من بعض الوجوه ، ونجتزىء منها بقوله :
وما تبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الاذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا
وألف بين العشق والعاشق الصب

وقوله :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
وليس هذا الكلام من قبيل « حسن التعليل » الذي أغرم
به البيانيون ولكنه هو التعليل الصحيح الذي نعرف مصداقه في
جميع العاشقين والمعشوقين سواء منهم المكفوفون والمبصرون ، فما
أكثر ذوي الأبصار الذين يسلطون قلوبهم على عيونهم وأسماعهم
وعقولهم فلا تبصر إلا ما تراه ولا تسمع إلا ما تودده ولا تعقل إلا
ما تشبهه وتمناه ! فإذا هم أحجى من المكفوفين بتصديق حكمة بشار :

وما تبصر العينان في موضع الهوى

ولا تسمع الاذنان إلا من القلب

ان العشق شوق من انسان إلى إنسان آخر قائم على اختلاف
الجنسين ، أو هو في الحقيقة قائم على اختلاف الصفات التي يمثلها كل

من الجنسين ويتم بها كلاهما ما ينقص الآخر . وهذا الاختلاف بين الذكورة والأنوثة عريق في طبائع الأشياء أحسب أن المادة نفسها لا تخلو منه وأن اقسام الذرات الدقيقة إلى كهارب موجبة وكهارب سالبة إن هو إلا ضرب من « الجنسية » الاولى التي تدعو الى التآلف بين جميع الأجسام . فاذا تركنا تقسيم الأحياء إلى ذكور وإناث وقلنا في موضع ذلك التقسيم أن الاشياء كلها ترجع الى طبيعتين احدها فاعلة مؤثرة والأخرى قابلة متأثرة — ففي وسعنا أن نقول حينئذ أن الذكورة والأنوثة شائعة في جميع الكائنات ابتداء من الموجب والسالب وانهاء الى الرجل والمرأة ، وجاز لنا أن نقول ان من صفات الذكورة ما يوجد أحياناً في النساء كما ان من صفات الانوثة ما يوجد أحياناً في الرجال ، وسواء أنظرنا في الاختلاف بين الرجل والمرأة الى الخصال الجسدية أم الى الخصال الأدبية فأول ما يظهر لنا انه اختلاف بين صفات فاعلة مؤثرة تبدو في العزيمة والبأس والصلابة والعمل والغلبة وصفات قابلة متأثرة تبدو في الصبر والحنو والعطف والنعومة والتسليم ، فطبائع الرجل مبتدئة نافذة وطبائع المرأة ملية قابلة ، والعشق بينهما هو الشوق الذي يجمع بين طبيعتين تسكن كل منهما إلى الأخرى ولا تتم وتهدأ إلا بالارتياح اليها وقد كان بشار من أحسن الناس بالأنوثة الجسدية وأرغهم في الاتصال بها والاستراحة اليها والاستماع إلى حديثها ، وكان في كثير

من غزله يمثل المرأة « مؤثمة » متكسرة باكية تالين لشدة الرجولة
وخشونتها وتستعذب الخضوع لسطوتها وأثرتها . فانظر الى قصيدته
التي أوردناها في الفصل السابق والتي يقول منها :

أذرت الدمع وقالت ويلتي من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتي بدد هذا لعبي ووشاحي حله حتى انتثر
فدعيني معه يا أمتي :
أقبلت في خلوة تضربها واعتراها كجنون مستعر
بأبي والله ما أحسنه دمع عين غسل الكحل قطر
أو قصيدته الأخرى التي يقول منها :

واسترخت الكف للعراك وقا لت إيه عني والدمع منحدر
انهض فما أنت كالذي زعموا أنت وربي مغازل أشر
يارب خذلي فقد ترى ضربي من فاسق جاء ما به سكر
أهوى الى معصدي فرضضه ذو قوة ما يطاق مقتدر
الصق بي لحيه له خشنت ذات سواد كأنها الأبر
الح الخ

فانك ترى في هذه الأبيات رجلاً حيواناً يصبو الى المرأة
الحيوان وجسداً مذكراً يشتاق الى جسد مؤنث يجاوب طبعه ويرضي
أثرته . فلم تكن به من حاجة إلى النظر بالعين والتفريق بين هيئات

النساء لأنه خالص من جسد المرأة الشاخص للعيان الي انوثتها وطراوة
طبعها ، وتقل الي هذا الشعور بها كل لذات النظر ومحاسن المشاهدة
فهو يفهم « الانثى الجسد » ذلك الفهم الخليق بطبيعته الحيوانية
ولذاته الحسية ولكنك لا تقرأ له بيتاً واحداً يسمو به الي ادراك
« النفس » الأثوية وما فيها من حلاوة صافية ورحمة سماوية وكنوز
عطف تغذي بها وجدان الرجل وترضعه بها روح الحياة طفلاً كبيراً
كما أرضعته من قبل وهو طفل صغير . ذلك ضرب من الغزل لا تقرأه
في شعر بشار وأمثاله ولا تجده في الشعر العربي إلا آياتاً متناثرة في
مئات الدواوين ومعاني هائلة بين قصائد العذريين





٣ بشار والهجاء

كان أول ما نظم بشار من فنون الشعر الهجاء . قيل انه نظمه وهو في السابعة وإنه كان يهجو الناس فيشكونه الى أبيه فيضربه ضرباً مبرحاً فلا ينتهي ويقول لأبيه « أن هذا الذي يشكونه اليك مني هو قول الشعر واني ان أتممت عليه أغنيتك وسائر أهلي » ! وكان آخر ما روي له من الشعر الهجاء . فقد اقدح في ثلب الخليفة المهدي فوشي به الوزير يعقوب بن داود لحقده عليه ، فما زالوا يتعللون له حتى سمعوه يؤذن وهو سكران في غير أوان الاذان فضربوه حتى أشرف على التلف ومات من ألم الضرب ، فهو قد أصاب بالهجاء وأصيب به من مطلع حياته الى خاتمتها ، ولكنه مع هذا لم يكن هجاء مطبوعاً ولا كان هذا الباب من الشعر مجاله الذي برز فيه بين الشعراء

وأريد بالهجاء المطبوع ذلك الشاعر الذي يولد بفطرتة ناقماً

هاجياً لا يرضي عن شيء ولا يستريح الى مدح أحد ولا يكف عن
النقد والعيب ، كلفاً بهما واندفاعاً اليهما لا جلباً لكسب أو درءاً
لمساءة . أو ذلك الشاعر الذي أوتى من الفطنة وسعة الخيلة
واستعداد الطبع ما يفتح له معاني الهجاء إذا أرادته ناقماً أو غير ناقم
ومعمداً ما يقول أو عابثاً فيه . ولست أعرف في الأدب العربي غير
شاعرين اثنين نابهين بهذه الصفة هما : دعبل بن علي الخزاعي ،
وعلي بن العباس « ابن الرومي »

أما دعبل فقد كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع النابية النافرة
التي تخرج على « المجتمع » وتثور به ولا تزال في حرب معه
لا مسالمة فيها ولا مهادنة إلى أن يوارىها الموت في ثراه ، وكان غاضباً
أبدأ على الناس ينكر عرفهم ويشذ على اجماعهم ويهجو أفرادهم
بأسمائهم وهو انما يهجو الناس جميعاً في أشخاص اولئك الافراد .
وهو القائل

إني لافتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً !!
وكان يهيم على رأسه في البلاد سنين عدة تنقطع فيها أخباره
وتخفى آثاره ثم يظهر حيث كان فجأة وقد أثرى وغنم لبيد ما جمعه
في اللهب والقصف ثم ينقلب الى شأنه من الابق والتطواف في
ارجاء الارض ، وربما لقي الشراة أو قطاع الطريق في بعض رحلاته
فيجالسهم ويؤاكلهم ويأمر غلاميه أن يغنيا لهم ويعرفهم ويعرفونه

فلا يمسونه بأذى ولا يذكرهم بسوء ، لأنهم أبناء نحلة واحدة يؤلف
شملهم النفور من الناس ويوفق بينهم الشذوذ عما تواضعوا عليه من
الآداب والذساتير . فهو قاطع طريق بفطرته التي ولد عليها وان لم
يحمل السيف ولم يخرج للفتك والغيلة ، بل لقد قيل أنه قطع الطريق
في بعض أيامه فعلا « وانه كان يمكن للناس بالليل فرصد يوماً صيرفياً
طمعاً بما معه ففتك به ولم يجد في كفه إلا ثلاث رمانات في خرقة
فخرج هارباً من الكوفة لاشتداد الطلب عليه » وما كان هجوه
لو بحثت في أسبابه الا ضرباً من قطع الطريق على الناس اشتهاً في
أكثر الاحيان للذة الصيد والتمنص ونزوة المطاردة والتخويف
لا طمعاً في المال أو طلباً للترات . فما اتفق الناس على امام إلا هجاه
وألح في هجائه وان أحسن اليه واجزل له العطاء . ولا ترك أميراً ولا
وزيراً ولا والياً إلا ناله بلسانه عرضاً أو قصداً ولو كان من أبناء قبيلته
ومن خاصة المفضلين عليه ، فلما مات الرشيد ودفن بطوس الى جوار
قبر الرضا قال فيه :

قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرهم . هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر
وقال في المأمون
أيسومني المأمون خطة جاهل أو ما رأى بالامس رأس محمد
اني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذك من الحضيض الاوهده
ولما نهض ابراهيم بن المهدي للخلافة - وكان عاكفاً على
الغناء - قال يتهمكم به وباجناده .

يا معشر الاجناد لا تقنطوا وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينة يلتذها الامرء والاشمط
والمعبديات لقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق قواده خليفة مصحفه البربط

وقال في المعتصم :

وقام امام لم يكن ذا هداية فليس له دين وليس له لب
وما كانت الانباء تأتي بثله يُملك يوماً أو تدين له العرب
ولكن كما قال الذين تتابعوا من السلف الماضين إذ عظم الخطب
ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتتا عن ثامن لهم الكتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة خيار إذا عدوا وثامنهم كلب
واني لأعلي كلهم عنك رتبة لأنك ذو ذنب وليس له ذنب

وجاءه نعي المعتصم وقيام الواثق فارتجبل هذين البيتين

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء اذا أهل البلى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد
وقال في المتوكل :

ولست بقائل قذا ولكن لأمر ما تعبدك العبيد!

وهذا هجاءه للخلفاء واحداً بعد واحد ، أما الوزراء والولاة والقواد فكان كأنما يجتري عليهم ويولع بهم على قدر ما عرفوا به من الغضب والسطوة وحدة الخلق . فكان المأمون يقول : أترون رجلاً يجتريء علي أبي عباد ولا يجتريء علي ؟؟ وأبو عباد هذا هو الذي يقول فيه دعبل :

أولي الأمور بضیعة وفساد أمر يدبره أبو عباد

.....

وكأنه من دير هرقل مفت حرد يجر سلاسل الأقياد

وهو رجل « حديد جاهل » كما وصفه مولاه المأمون

وقد روجع دعبل في هذه الاهاجي التي كان يقتحم بها غضب الملوك والأمراء وأخطار العداوات وأحن الصدور فكان يقول : « أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة لست أجد أحداً يصلبني عليها » وقال له أبو خالد الخزاعي الاسلامي : « ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كففت عن هذا صرفت هذا الشر عن نفسك ! فقال ويحك ، أي تأملت ما تقول فوجدت أ أكثر الناس لا ينتفع بهم الاعلى الرهبة ولا يبالي بالشاعر وأن كان مجيداً اذا لم يخف شره . ولئن يتقيك على عرضه أ أكثر ممن يرغب اليك في تشريفه ، وعيوب الناس أ أكثر من محاسنهم ، وليس كل

من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجوذ والمجد والشجاعة — ولم يكن ذلك فيه — انتفع بقولك . فاذا رآك قد أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر ! »

وهذا كلام يقبله العقل من حيث ينظر اليه دعبل ، ولكنه قد أخطأ طبعه ولم يعرف نفسه إن كان قد ظن أنه هجا من هجاه لهذه العلال التي اتحلها وأودعها فلسفة الهجاء العربي كله ! فانه لم يُعَف من الدم مسيئاً ولا محسناً ولم يبق من وجوه عصره على بخيل ولا كريم ، فلم يكن قدحه في المطلب بن عبد الله بن مالك الذي ولاه ولاية أسوان ووهبه الجزيل من الهبات دون قدحه في الوزراء والولاة الذين حرموه وتعقبوه لأنه بدأهم بالدم والتشهير ، مع أن المطلب بن عبد الله من خزاعة التي هو منها ، فهو يمت اليه بصله من القرابة وصله من الاحسان ويستشفع اليه بكل شفاعة تنجيه من ذلك اللسان ، ولكنه هكذا خلق هاجياً مطبوعاً لا يأوي الى الناس ولا يكف عن ذمهم والعيب عليهم ولو غمرته الثروة وبات أغنى الخلق عن عطاء الممدوحين والمذمومين ، وكان كثيراً ما يعرض بأصحابه في الهجاء لغير علة يعرفونها كما قال وهو يهجو ابن أبي دواد

ولو سكت ولم تخطب الى عرب لما نشبت الذي تطويه من سببك
عد البيوت التي ترضي بخطبتها تجد فزارة العمكلي من عربك
فلقيه فزارة العمكلي وقال له : يا أبا علي ! ما حملك على ذكري

حتى فضحتني وأنا صديقتك قال : يا أخي والله ما اعتمدتك بمكروه .
ولكن كذا جاءني الشعر لبلاء صبه الله عز وجل عليك ! ومن
هذا أنه هجا أبا نصر بن جعفر بن محمد بن الأشعث فقال فيه :

ما جعفر بن محمد بن الأشعث عندي بخير أبوة من ععث !
فلقية ععث وقال له : « عليك لعنة الله ! أي شيء كان بيني

وبينك حتى ضربت بي المثل في خسة الآباء ؟ » فضحك وقال

« لا شيء والله الا اتفاق اسمك واسم ابن الأشعث في القافية ! أو لا

ترضي أن أجعل أباك وهو اسود خيراً من آباء الأشعث بن قيس ؟ ! »

وكانت في دعبل تلك الدعابة التي تجدها في هؤلاء الناقلين

المتهرمين الذين تضيق صدورهم وينفذ صبرهم فيضحكون بالناس

ويضحكون الناس منهم . وكان قوم من خزاعة يدعون أن جددهم

كلم الذئب وانه جاء الى النبي عليه الصلاة والسلام « فحدثه أن

الذئب أخذ من غنمه شاة فتبعه فلما غشيه بالسيف قال له : مالي

ومالك تمنعني رزق الله ؟ قال : فقلت يا عجباً لذئب يتكلم ! . . فقال

أعجب منه أن محمداً نبي قد بعث بين أظهركم وأتم لا تتبعونه ! ! فنوه

يفخرون بتكليم الذئب جددهم » فكبرت هذه الحماقة على صبر

دعبل وضاقت بهذه الدعوى فقال يهجوهم

تهم علينا بأن الذئب كلمكم ! فقد لعمرى أبوكم كلم الذئب

فكيف لو كلم الليث الهصور اذن أفنيتم الناس ما كولا ومشروبا

هذا السندي لافضل ولا حسب يكلم الفيل تصعيداً وتصويبا
ومن دأب أصحاب هذه الطبائع النافرة الملول أنها تنفس عن
نفسها بشيئين : بهذه الدعابة التي تخفف مرارة الجذ وترقق حواشي
البغضاء ، وبالعقيدة التي يتخذونها من قوة ما يجيش بقلوبهم من
السخط والكراهية . والعقيدة سواء أكان منشؤها الحب أم البغض
انما تقوم بأمل يحميها ويثبتها ويعينها على حبها او بغضائها . فما
كان من السهل على دعبل - أو أي انسان مثله - أن يسخط
على الناس ويهجوهم وينكر جميع حالاتهم بغير أمل يتوق اليه
ويصب عليه كل ما في نفسه من قوة الشعور النافر والعطف المعكوس ،
فمن لم يؤمن بشيء لم يثابر على حب ولا على بغض ولم يصبر على
رضى ولا على تقمة . ومن أضع الأمل أضع الايمان ثم أضع الشعور
بنوعيه من خير وشر ومن حذب ونفور . وكذلك من أضع الشعور
فقد فتر أمله وتراخى جلده وسدت دونه منافذ الايمان

ولكن دعبلا كان رجلا شديد الشعور بالتقمة فلم يفتر ايمانه
وانعدت هذه الشدة في نفسه على التعصب لآل البيت من العلويين
والامل في انتصارهم وظهور أمرهم وغلبتهم على أعدائهم ، وجمع تقمته
على « المجتمع » كلها في كراهة من يكرهون العلويين ويفصبون حتمهم
ويقعدون عن نصرتهم . وخيل اليه أنه لم يكن ينبو بالناس الا لأنهم
أجحفوا بآل البيت وخذلوهوم والأوا عليهم أعداءهم ، والحقيقة أنه لم

يتعصب لآل البيت الا لأنه كان ينبو بالناس ويمجد في اعتقاد الظلم الذي حاق بآل البيت معواناً له على كراهة الظالمين والسخط عليهم والشوق الدائم الى تبديل حالهم . ولو أفلح هؤلاء المظلومون في أيام دعبل لرأينا أن ذلك السخط على « المجتمع » لم يذهب من نفسه ولم يطف من نزوة الهجو التي في طبعه ، ولسمعنا له في هجائهم مثل ما سمعنا من هجائه لظالمهم ، فهو « هجاء مطبوع » قد ولد ليذم ويغض ويصل الى المدح والحب من طريق الدم والبغضاء ، وهو في تكوينه كله قصيدة هجاء حية تلقي الناس أبدأً بالتجهم والعبث والشذوذ



أما ابن الرومي فلم يكن مطبوعاً على النفرة من الناس ولم يكن قاطع طريق على « المجتمع » في عالم الادب ، ولكنه كان « فناً » بارعاً أوتي ملكة التصوير ولطف التخيل والتوليد وبراعة اللعب بالمعاني والاشكال ، فاذا قصد أحداً أو شيئاً بهجاء صوب اليه « مصورته » الواعية فاذا ذلك الاحد أو الشيء صورة مهيأة في الشعر تهجو نفسها بنفسها وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها كما تنطبع الاشكال في المرايا المعقوفة والمحدبة ، فكل هجوه تصوير مستحضر لاشكاله أو لعب بالمعاني على حساب من يستثيره . كقوله في هجو صاحب حية طويلة

ولحية يحملها مائق
لو قابل الريح بما مرة
أوغاص في البحرها غوصة
وفي آخر :

ان تطل لحية عليك وتعرض
علق الله في عذاريك مخللا
لو غداً حكها الى لطارت
وفي مغنية :

تضغط اللحن الذي تشدو به
فأذا غنت بدا في جيدها
وفي أصلع :

وأوجه يأخذ من رأسه
وفي أحذب :

قصرت أخادعة وطال قذاله
وكأنما صفتت قفاه مرة
وفي قصير أعور أصلع :

أقصرٌ وعورٌ

شواهد مقبولة

تخبرنا عن رجل

مثل الشرايين - اذا أشرعا
لم ينبعث في خطوه أصبعا
صاد بها حيتانه أجمعا

فالمخالي معروفة للحمير
ة ولكنها بغير شعير !
في مهب الرياح كل مطير

غصة في حلقها معترضة
كل عرق مثل بيت الارضة

أخذ نهار الضيف من ليله

فكأنه متربص أن يصفعا
وأحسن ثانية لها فتجمعا

وصلع في واحد ؟

ناهيك من شواهد

مستعمل المقافد

أقاه القفد فأض حى قائماً كقاعد

وفي مغن معلم صبيان :

أبو سليمان لا ترضى طريقته
له اذا جاوب الطنبور محتملاً
عواء كلب على أوتار مندفة
وتحسب العين فكيه اذا اختلفا
وفي طويل الأنف :

واذا نهضت كبا بوج
ان كان أنفك هكذا
واذا جلست على الطريق
قيل السلام عليكما
بهك للجبين المعطس
فالليل عندك أفضس
ق ولا أرى لك تجلس
فتجيب أنت ويخرس

وفي ثقيل :

كأن بغداد لدن أبصرت
مستقبل منه ومستدبر
طلعته نائمة تلتدم
وجه بجيل وقفا منهزم

وفي طيلسان :

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا
طيلسان اذا تنفست فيه
تتغنى احدى نواحيه صوتاً
فأذا ما علذته قال مهلاً !
يتجنى على الرياح الذنوبا
صاح يشكو الصبا ويشكو الجنوبا
قتشق الاخرى عليه الجيوبا
لن يكون الكريم الا طروباً

وفي وجهه هو

أهيم بالخرد الحسان وما يصح
لح وجهي إلا لذي ورع
كي يعبد الله في الفلاة ولا يشهد
فيها محافل الجمع
وهكذا وهكذا مما ازدحم به هجوه ومدحه ووصفه وعامة شعره
من هذه الاشكال السهلة الصحيحة التي تكاد تسلكه في عداد
الرسامين كما سلكه نظمه في عداد الشعراء . فلو نقل المصور ديوانه
يريشته لملأ به مجلدات ضخاماً من خير ما تستنبطه القريحة الفنية من
صور الهزل والجد ومعاني التهجين والتحسين . ومثل هذا الشاعر
يهجو حيث شاء بأداته الحاضرة كالرسام الذي يحمل « مصورته
الشمسية » ليلتقط بها المناظر التي تروقه وتسترعيه أينما كان

أما بشار فلا هو من طراز دعبل ولا هو من طراز ابن الرومي ،
لم يكن عنده من مرارة الخلق وحدة العقيدة ما يقيم حربه على الناس
فيهجوه صادقاً في شعور الحفيظة عليهم وان أخطأه الصدق فيما
ينعتهم به من المساويء والعيوب ، ولم تكن له أداة ابن الرومي من
ملكة التصوير المطبوعة التي لا تتخذله في مواقف التمثيل والتشويه .
ولكنه كان رجلاً يحب المجتمع وينغمس فيه . وكان هجاء كل
بضاعته من الهجاء أن يجمع أقبح العيوب وأشين الرذائل التي تزري
بصاحبها فيقذف بها على من يهجوهم ويصوغها شعراً تسهل روايته

وتتقى معرفة انتشاره ، فإذا هو هجاء لا عمل فيه لتقريحة الشاعر غير
نظم الكلمات وجمع العيوب ! وكلما أعوزته البراعة وصدق الشعور بالغ
في الاقذاع وأغش في الهجروء بكلام لا يصلح منه للنقل في الصحف
والكتب المهذبة إلا القليل الذي لا طعم له ، وما كان ليخيف الناس
لو لا شناعة المثالب التي يلصقها بهم وخبث الدعاوي التي يفترها
عليهم ، أما قدرته على التصرف في معاني النقد وفنون الهجو فلم تظهر
في شيء من شعره الذي تخلف في الكتب ولا نظنها ظهرت في شعره
المفقود وحده ثم لم يبق لها أثر يدل عليها في هذه البقية المحفوظة .

وإنما أكثر بشار من الهجو على قلة أدواته عنده وضعف سليقته
فيه لاسباب شتى دعاه اليها عصره وميل نفسه وحالة معيشته : منها
أنه أدرك الشعراء الهجائين في صدر الدولة الأموية وسمع روايات
الناس عن مناقضاتهم ومباهلاتهم وعرف هوى الرواة في حفظ
مساجلاتهم ورغبة الامراء والولاء في التحريش بينهم ، فأحب أن
يقتدي بهم لينبه ذكره وينقل شعره وروى عنه انه قال : « هجوت
جرباً فأعرض عني واستصغرنى ولو أجابني لكنت أشعر الناس . ! »
ومنها أن الهجاء كان باباً من أوسع أبواب الكسب في ذلك
الزمان ، وهو كان يقول اذا ذكرت له كثرة أهاجيه « إني وجدت
الهجاء المؤلم آخذ بضعب الشاعر من المديح الرائع . ومن أراد من الشعر
أن يكرم في دهر اللثام على المديح فليستعد للفقر وإلا فليبالغ في الهجاء

ليخاف فيعطى». ومنها ان الهجاء كان في عصره كالاتحان للشعراء المتنافسين يكون أقدرهم وأبلغهم في رأي الناس من يفهم خصمه ويسير على الألسنة تقده وذمه. فإذا كثر الشعراء في بيئة واحدة حول مرتزق واحد فلا ندحة لهم عن التهاجي والتباهل ليعرف أيهم أمضى لساناً وأكثر افتناناً وأجدر بأن يمنح ويقتي وأن يحفظ كلامه ويروي، ومنها ان الايقاع بين الشعراء كان من لذة بعض الأمراء والولاة ليلهو بالتغاير بينهم والاستماع الى نوادرهم وأهاجيهم على نحو مما كان معروفاً شائعاً في مصر الى حين قريب من الايقاع بين المجان والخلعاء في ليالي الافراح والمواسم، ومنها أن بشاراً كان أحوج الشعراء الى أن يخافه الناس ويسكتوا عنه ويحذروا الاستخفاف بشأنه، وكان سليطاً لا يستحي ولا يخشى على عرضه ولا على أعراض الناس فلم يكن يمنعه من الوقوع فيهم مانع ولا يتكلف في ذلك منازعة نفس أو مصاداة لائم. فقد تمت له بذلك أسباب الميل الى الهجاء والاكثار منه وان لم تتم له فيه سليقة مسعدة وملكة مجيدة





مثل من التصوير في شعر

ابن الرومي

علاقته بطيرته

أشرت الى ملكة التصوير في هجو ابن الرومي وسائر
شعره ، وقلت في مقدمة مختاراته انه « ينظر الى الأشياء
بعين مصور صناع لا يفوتها لون من الالوان التي تنسجها خيوط
الشمس في ائتلاف أو اختلاف وفي سطوع أو خفوت ، فاذا أضفت
الى ذلك مقدرته في تصوير الحذب والصلع والقصار وأصحاب اللحى
الكثيفة والأنوف الغليظة أمكنك أن تقول أيضاً : ولا يفوتها
شكل من الاشكال . فهو فنان لا تنقصه إلا الريشة واللوحه بل
لا تنقصه هاتان لأنه استعاض عن الريشة بالقلم وعن اللوحه بالقرطاس .
فاكتفى بهما وأثبت في النظم البديع ما لا تثبته الألوان والأشكال »
وقد استشهدت بابن الرومي في هذه الخصلة لان ملكة

التصوير الصادق أظهر ما تكون في شعره بين عامة شعراء العرب من المشاركة والمغاربة والأقدمين والمحدثين ، ولا أعرف شاعراً يسبقه في هذه الحصلة البارزة المتجلية على غير قصدٍ في كلامه الجيد والرديء على السواء ، والتي أحسبه من أجلها قد خلُق على فطرة المصور وطبع على الاتقان في صناعة الرسم لو ساعفته أسبابها وأملت له البيئة في دواعيها . فلو انه نبغ في أمة تروج فيها هذه الصناعة لشهدنا من آثار ريشته مثل ما نشهد الآن من آثار لسانه ولضارع المصور منه الشاعر ان لم يفقه ويفغره بالشهرة والاتقان .

ولست ملكة التصوير غريبة عن الشعر . فان النفس الفنية جبلة واحدة تختلف ولكنها تتفق في المعدن الأصيل الذي يجمع بينها عند دقة الاحساس وحب الجمال ، وهي انما تختلف من ناحية « الحاسة » التي تَبْلُغها رسائل الجمال والوسيلة التي تعبر بها عما يخامرها من إلهاماته وخواطره . فالشاعر لا يخلو من ملكة الألوان والأشكال والفتنة الى الحركات والأنغام ، والمصور لا يخلو من معاني الشعر واصداء النغم التي تراها العين معكوسة على صور الاشياء ، والموسيقي لا يخلو من السرور بحاسن المناظر والمعاني التي يترجم عنها في أصواته والحانه ، وكلهم - لو أمكننا أن نتخيل قرائحهم بمعزل عن الأبصار والأسماع والأيدي والألسنة - أسرة من التوائم لا تعرف الواحد منها إلا حين يرتدي علامته من اللباس !

أما ابن الرومي فقد كانت الملكتان فيه - الشعر والتصوير -
متقاربتين أيما تقارب ممزوجتين أيما امتزاج ، وكان لا يعجب بشيء
إلا وملكمة المصور نصيب من ذلك الاعجاب ، ولا يشتهي شيئاً إلا
وللنظر حظ منه حتى الطعام ! ولقد شهروه بالنهم لكثرة وصف
الطعام في شعره ولكنني أراه منهوماً بحواسه ومذاوقه - وبالنظر
منها على التخصيص - أكثر مما أراه منهوماً بمعدته وأحشائه
فانظر الى قوله في الأكلة التي يشتهيها

خذ يا مرید الماء کل اللذیذ	جرداقتی خبز من السمید
لم تر عین ناظر مثلیهما	ققشر الحرفین عن وجهیما
.....
حتى ترى بينهما مثل اللبن	مقسومة كأنها وشي اليمين
واعمد الى البيض السابق الاحمر	فدرهم الوسط به ودنر
وترب الاسطر بالملح ولا	تكثر ولكن قدراً معتدلاً
وردد العينين فيه لحظاً	فان للعينين منه حظاً
ومتع العين به ملياً	واطبق الخبز وكل هنياً

أو انظر الى قوله في « الزلاية »

رأيتہ سحرأً يقلي زلاية

في رقة القشر والتجويف كالتصقب

كأنما زينة المقلبي حين بدا
كالكيمياء التي قالوا ولم تصب
يلقي العجين لجيناً من أنامله
فيستحيل شبايكاً من الذهب

أو قوله في الرقاق :

ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر
بل انظر الى كل ما قاله في أوصاف الطعام تجد منهم النظر
والذوق منه أشد من منهم المعدة والاحشاء ، وسرور المصور فيه
حاضراً عند كل سرور يتملاه وكل لذة يشواق إليها . وهذه هي الملكة
الشاعرة المصورة الشفافة التي تحدثك عن شعور وحياة في أجد الجد
وأهزل الهزل بلا اختلاف بين الموضوعات والاطوار

وقد أحببت أن أورد له في هذا المقال نجماً من قصيدة واحدة
في المدح آيتين بها الفرق بين الشاعر الذي ينظم ويقلد ولا ينظر
والشاعر الذي يستوحى نفسه وينظر الى الدنيا حتى في قصائد المدح
التي نغدها أحلى الكلام من أغراض الشعر ومعاني الحس
وبدائع النظر الفنان ، ولو شئت لأتيت على عشرات من مدائحه
كلها تصلح للاستشهاد بها في هذا السياق ، ولكنني أتقل ما يتسع

له المتعام وأعني النونية التي قالها في تهنئة عيد الله بن عبد الله يوم
المهرجان . وهذه بعض أبياتها على غير اطراد :

مهرجان كأنما صورته كيف شئت مخيرات الاماني
واديل السرور والبهو فيه من جميع الهموم والاحزان
لبست فيه حفل زينتها الدن يا وزافت بمنظر فتان
واذالت من وشيها كل برد كان قدماً تصونه في الصوان

زُحرفت يوم نعمه حجرات جدّة موطوءة من الضيفان
ونرات بها تهاويل رقم قائمات بزينة المزدان
ثم قام الكماة صفين من ك ل عظيم في قومه مرزبان
كلهم مطرق الى الارض مغض وعلى سيفه هنالك حان
وتجلى على السرير جبين ذو شعاع يحول دون العيان
يمكن العين لحظة ثم ينهي طرفها عن ادامة اللحظان
فله منه حاجب قد حماه كل عين ترومه بامتهان
فاستوى فوق عرشه بوقار وبجلم من الخلوم الرزان
ثم قام المجدون مثولاً ضاربين الصدور بالاذقان
ليس من كبرياء فيه ولكن كل وجه لذلك الوجه عان
فتشوا سؤدد الامير وعدوا فيه آلاءه بكل لسان
وقضوا من مقالهم ما قضوه ثم آبوا بالرغد والحلان

ثم سام الامير سوم الملاهي وخلا بالمدام والندمان
وقيان كأنها امهات عاطفات على بنيتها حوان
مطفلات وما حملن جنيناً مرضعات ولسن ذات لبان
ملتقات أطفالهن ثدياً ناهدات كأحسن الزمان
مفهمات كأنها حافظات وهي صفر من درة الالبان
كل طفل يدعى باسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان
أوتي الحكم والبيان صبياً مثل عيسى بن مريم ذي الخنان
لو أسلى به حديثه رزء لشفى داء صدرها الحران
عجباً منه كيف يسلي ويلهي مع تهيجه على الاشجان
فترى في الذي يصيح اليه أمرات المحزون والجدلان
وتغنته بالمدائح فيه كل غيداء غادة مفتان
ذات صوت تهزه كيف شاءت مثل ما هزت الصبا غصن بان
يتثنى فينفض الطل عنه في تثنيه مثل حب الجمان
جهوري بلا جفاء على السمع مع مشوب بغنة الغزلان
فتأمل هذه الأبيات هل ترى فيها إلا صوراً تتوالى عليك
بالمناظر التي تبصرها العين والخواطر التي تتلقاها النفس والحركات
التي تؤلف بين ما ترى وما تحس تأليف الشريط المتحرك لما انطبع

عليه من الاشكال والفصول ؟ وتأمل الشاعر هل تراه في
قصيدته إلا كالرسم الذي بسط أمامه لوحته وأقبل على الوجوه
والأشكال يتفرسها ويطيل النظر في ملامحها وشاراتها وما تشف عنه
من المعاني وتشير اليه من الدلائل ويراقبها في التفاتاتها ومواقفها
وحركاتها لينثني بعد ذلك الى لوحته فيثبت عليها ما توارد على بصره
وقريحتة من الالوان والمعارف والهيئات من حيث هي تحفة فنية
تستهوي الحواس والاذواق ! ؟ فهو يبدأ برسم زينة المهرجان
واختيال الدنيا بمنظرها فيه وبرود الوشي التي أذاتها للناظرين والهوى
والسرور الذي شمل كل شيء وأدليل له من جميع الموم والاحزان ،
ثم يرسم حجرات الأمير بزخارفها وتهاويلها وقيام الكمة فيها صمًا بعد
صف مطرقين الى الأرض مغضين بالأبصار حانين على السيوف ،
ثم يرسم الامير على سريره وقد طلع على الجمع بوجه مهيب يمكن العين
منه لحظة ثم ينهاها عن ادامة اللحظان فيه ، وعليه وقار الامارة
وسمات الحلم والرزانة بين قوم يعنون له ويجلون قدره من الحب
والتبجيل لا من الصلف والكبرياء ، ثم يرسم المادحين بين يديه
يرتلون عليه الثناء « ضاربين الصدور بالاذقان » وينصرفون من
حضرتة بالعطايا والحملان ، ثم يرسم القيان الكواعب حانيات على
العيدان حنو الامهات على الاطفال بنهود مغمات ولكنها « صفر
من درة الالبان » ، ثم يرسم أثر الغناء على وجوه السامعين فاذا هو

شجن وسلوى وأمرات من الحزن والجذل وطرب يشوبه السكون
وسكون يشوبه الطرب ، ثم يرسم الصوت نفسه فإذا هو يهتز
« مثما هزت الصبا غصن بان »

يتثني فينفض الطال عنه في تثنيه مثل حب الجمان
جهوري بلا جفاء على السـ مع مشوب بغنة الغزلان
فلا تزال في القصيدة تنقل بين آياتها من صورة الى صورة
ومن منظر الى منظر ومن حركة الى حركة حتى تأتي عليها وقد
استعرضت في خيالك متحفاً واسعاً من الاشكال والخطوط عملت
فيه التريجة والنظر واشترك فيه الفن والاحساس وروى لك أصدق
الرواية عن عين تلمح فتعي ونفس تحس فتستوعب وخيال يدخر
الجمال المنظور فيثري بالالوان والسمات ، ولو وقف مصور في موقف
ابن الرومي من ذلك المهرجان لما زاد عليه بعد ذلك التفرس الانعام -
إلا أن يجري الريشة على اللوحة بصورة بعد صورة مما قد امتلأت
به عينه وانطبع في قريحته

وإذا بلغ من تهافت النفس على التهام الأشكال المختلفة هذا
المبلغ فلا جرم تترك فيها أثراً قوياً من حسننها وقبحها ومما توجيه من
بواعث الفرح والنشاط أو بواعث الفزع والوجوم ، فأما الحسن في
تلك الاشكال فيزدهيها ويطربها ويحث أمالها وتأنس منه البشري

الجميلة والفأل السعيد ، وأما التبيح فيقبضها ويروعها وتتوجس منه العاقبة السيئة والطالع المشؤم ، وهي إذا غلت في الاتقباض خليقة أن تطير بالتبيح وأن تقرن بينه وبين كل شر تتوقعه وكل نذير تحشاه ، ومن هنا خطر لي أن « التشاؤم » الذي اشتهر ابن الرومي بالافراط فيه قد يكون قريب العلاقة جداً « بذوق الجمال » الذي طبع عليه أو « ملكة التصوير » التي تفتأ تزحم خياله بالمناظر والهيات

ولم أقرأ نادرة من نوادر « التشاؤم » التي تروى عن ابن الرومي إلا رأيت السبب الأكبر فيها للتشاؤم أحد عاملين اثنين : هذه « الملكة التصويرية » وملكة أخرى فنية هي « تداعي الفكر وتساق المعاني » التي كان ابن الرومي يؤلف بها بين أقصى الخواطر وأقصاها بحرف يصحفه أو معنى يعكسه أو مناسبة تهيوها له قريحته المتوثبة الخافلة

فيؤر كان يتشاءم « بالتشويه » حيث رآه ، وكان يكره أن يقع نظره على أحدب أو أعور أو دميم أو أصلع . بل كان يكره أن يطالع الناس منه على الصلع حين أصابه « فكان لا يزال معتماً ويفض إذا سئل عن ذلك ، وسأله بعض الرؤساء لم تعتم ؟ فقال بديهياً »
يا أيها السائل لأخبره عني لم لا أراك معتجراً
أستر شيئاً لو كان يمكنني تعريفه السائلين ما سترأ
وممن كان يتشاءم منهم ابن طالب الكاتب وفيه يقول :

أزيرق مشثوم أحمير قاشر
وهل أشبه المريح إلا وفعله
وهل يتارى الناس في شئوم كاتب
ويدعى أبوه طالبا وكفانم
ألفاهر بوا من طالب وابن طالب
ومن قوله « ان الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثنان »
ونظمه شعراً فقال :

لا تهاون بطيرة أيها النظا
قف اذا طيرة تلتكت وانظر
فلما اغاب عن عيونك عنوا
فهو يربط بين الظواهر والبواطن بذلك الرباط الموهوم ولا يرى
الظاهر التبيح إلا عنواناً لحادث مشثوم ينذر به الزمان
وقال ابن الناجم « دخلت عليه في علة التي مات بها وعند
رأسه جام فيه ماء مثلوج وخنجر مجرد لو ضرب به صدر خرج من
ظهر ، فقلت : ما هذا ؟

قال الماء أبل به حلقى فقلما يموت انسان إلا وهو عطشان ،
والخنجر ان زاد على الألم نحرت نفسي . ثم قال : أقص عليك قصتي
تستدل بها على حقيقة تلي . أردت الانتقال من السكرخ الى البصرة
فشاورت صديقنا أبا الفضل ، وهو مشتق من الأفضال ، فقال : اذا

جئت القنطرة فخذ عن يمينك وهو من اليمن ، واذهب الى سكة
النعيمة وهي من النعيم ، فاسكن دار ابن المعافى وهو مشتق من
العافية . فخالفتُه لتعسي ونحسي .!

« وشاورت صديقنا جعفرأ وهو مشتق من الجوع والفرار ،
فقال : اذا جئت القنطرة فخذ عن شمالك وهو من الشؤم ، واسكن
دار ابن قلابة وهي هذه .! لا جرم قد انقلبت بي الدنيا .! وأضرما
عليَّ العصافير في هذه السدرة تصيح سيق سيق . . . فيها أنا في
السياق . . . »

وهذا مثل من الطيرة التي كان يوسوس له بها « تداعي الفكر »
- وهي ملكة تكثر في أصحاب الفنون يضمون بها الخاطر الى
الخاطر بتصحيف يسير في اللفظ أو المعنى وبمناسبة دقيقة من الخيال
الصحيح أو الوهم الكاذب . فيصلون بها بين الطرفين يراها عامة
الناس على أشد البعد والتناقض ، ويلتمسون بها المشابه والمغازي
حيث لا شبه ولا مغزى لمن لم يوهبوا هذه السرعة في توارد الفكر
وتساوق المعاني والالفاظ

فغير بعيد أن تكون « طيرة » ابن الرومي مبالغه منحرفة من
ذوق الجمال وسرعة الخاطر تنأى بها الى هذا الشطط خبل الأعصاب
ومضاضة الغبن وقلة فهم الناس إياه وطوارق أحداث لم تدعه حتى
أسلمته الى ذلك المصرع الحزين .

أدب المنفلوطي

لم أكتب عن أدب المنفلوطي على أثر وفاته لأسباب شتى يرجع بعضها الى شواغل السياسة وبعضها الى التحرج من مناقشة الحزن بالتقد والتقدم الى تشریح الفقيد الراحل في موقف التشيع والتأبين ، فأبيت أن أقول فيه غير ما أعلم . أو أن أكذب على الموت مداراة لجلاله وتوقيراً لقطوبه وهيبته ، وكرهت أن أشيعه الى مرقده الأخير بغير ما يجعل في ذلك الموقف من الثناء والعزاء لأني أراه أكرم وأجدر بالرفق والمجاملة من أولئك الذين تقال فيهم كلمة الحق وتستخلص من حياتهم عبرة الاخلاق وحكمة الحوادث وهم بين أيدي النعاة والمشيعين . فالآن وقد مضى على وفاته عام وأيام وقد سألتني بعض الادباء أن أخصه بكلمة من الكلمات التي أكتبها في هذه الصحيفة - أرى من الأراجب على أن أعرض له بالنتد والتقدير لأقوم له ببعض حقه وأدل على مكانه من أدب العصر الحديث في رأيي . اذ لا شك ان المنفلوطي قد كان صاحب «مكان» في هذا الأدب يُعتمد به ولا يحسن اغفاله

لقد كان المنفلوطي أحد أولئك الادباء القلائل الذين أدخلوا

« المعنى والقصد » في الانشاء العربي بعد أن ذهب منه كل معنى
وضل به الكاتبون عن كل قصد

وليس يظهر فضل هذه الخطوة المباركة الا للذين وقفوا على
بقية من أساليب الانشاء في الجيل الذي غبر قبل نبوغ المنفلوطي
واخوانه ، فقد كانت الكتابة في ذلك الجيل قوالب محفوظة تنقل
في كل رسالة ويُرْج بها في كل مقام وتُعرف قبل أن يمَس الكاتب
قلمه ويليق دواته ، وكانت للمعاني القليلة المحدودة صيغ وقوالب
لا يعتمدها التصرف والتبديل الا عند الضيق الذي لا يحصى عنه
والافلاس الذي لا حيلة فيه ، وكانت أغراض الكتابة كخطب
المنابر تعاد سنة بعد سنة بنصها ولهجة القائلها ووحدة موضوعاتها ،
كأنها تعاد من آلة حاكية لا تفقه ما تقول على آلات حاكية مثلها
لا تفقه ما تسمع ! وانحصرت الذخيرة اللفظية- التي تتناول منها الأقلام-
في أسجاع مبتذلة وأمثال مرددة وشواهد مطروقة وآيات من القرآن
تُقْتبس في غير معارضها ويحذر المقتبسون أن يغيروا مواضع نقلها
وترتيب الجمل التي تسبقها وتلحق بها كحذرهم من تغيير حروفها
وكلماتها . فاذا جمعت هذه الذخيرة المحفوظة بين دفتي كتاب فقد
جمعت عندك كل ما خطه المنشئون من قبل وكل ما في نيتهم أن
يخطوه من بعد واستغنيت عن الأقلام والاوراق والمحابر وأدوات
الكتابة كلها ومنها المنشئون والمحبرون !

هكذا كانت حاله الأثناء في الجليل الذي سبق جيل المنفلوطي
واخوانه من المنشئين . غير انها لم تكن كذلك حين أخذ المنفلوطي
في الكتابة وظهر في عالم الأدب . لأن الكتابة في الصحف والمجلات
وترجمة المؤلفات الغربية وانتشار الاساليب المختلفة من أسفار الآداب
العربية القديمة اضطرت الأقلام قبل ذلك الى اختيار الالفاظ
المقصودة واقتسرت المترجمين والكاتبين على العناية بالمعاني التي
يفهمونها ، فنشطت الكتابة في تعثر وسلكت على نهجها القديم في
بطء وتخير ، وبقي فيها أثر من ذلك الجمود كأثر النقاهاة في الوجه
تعرفه في نزارة المادة وصعوبة التوفيق بين المعاني الطارئة والعبارات
الميسورة وفتقر الكتاب وعجزهم عن التصرف فيما بين أيديهم
من ثروة التعبير

فزية المنفلوطي في هذا الدور الناقه الهزيل انه بريء من آثار
تلك النقاهاة ومشى بقدمين على النهج الجديد الذي دخل فيه المعنى
وانقصد على الانشاء العربي . وقُل ما شئت في تينك القدمين وفي
ذرع خطوهما واستقامة سيرهما على النهج الجديد : ليكن فيهما ما فيهما
من الضعف والعيب أو ليكن عندهما ما عندهما من الرخاوة والكسل ،
فانهما بعد كل ما يقال فيهما قدما آدميتان وليستا بعضوين من
الخشب المنجور

وقد تقدم المنفلوطي الى هذه المزية أدباء قليلون في مصر أشهرهم

المويلحي الكبير فلمويلحي الصغير. وكانا كلاهما أذكي منه جنائناً وأعرف بفنون الادب وأقدر على النقد الاجتماعي وأظن الى الفكاهة وأوسع اطلاعاً على شؤون الحياة، ولكنه كان أحدث منهما عهداً وأبعد من ذلك العصر الذي وصفناه فقال الى الاسلوب المرسل وسلم من تكلف السجع وتقل الصيغ والقوالب، فكان لذلك أدنى الى الكتابة الحديثة المطلقة وأسعد حفظاً بهذه المزية التي أحرى بها أن تُحسب لآيامه لا لجرأته وحسن اختياره. أما المويلحي الكبير فكان يعتمد السجع حين يحتفل بالتفخيم والتسميق، وأما المويلحي الصغير ففعل الذي قيده بالسجع في كتابه «حديث عيسى بن هشام» انه وضعه على نسق المقامات واختار له اسم راوية كأسماء روايتها فالتزم فيه ما كانوا يلتزمونوه في مقاماتهم من الاسجاع والاوزاع



ذلك هو مكان المنفلوطي في أدب العصر الحديث على وجه الاجمال. ولكن ما مكانه في عالم «الادب» عامة اذا أردنا ان ننظر الى الأدب من وراء البيئة والظروف بل من وراء الاجناس واللغات؟؟ أقول أولاً ان المنفلوطي منشيء وليس بكااتب، أو هو يحسب مع أصحاب الانشاء اذا قسمنا الادباء الناثرين الى كتاب ومنشئين والفرق بين الكاتب والمنشيء في عرفي هو: ان الكاتب «انسان» قبل أن يكون حامل قلم وصانع كلام، وفضيلته فضيلة نفس شاعرة

مدركة لا فضيلة لسان وعبارة ، وأحسن مواهبه تبقى له كاملة ناطقة
اذا هو رُجم من لغة الى لغة أو حيل بين قارئة وبين بلاغة لفظه
وأسلوب ادائه

وأنت تعجب بالكاتب لصفة تأنسها في نفسه وعقله ثم تعجب
بأسلوبه لانه وسيلة الى ابراز تلك الصفة في الصورة التي توأمتها ، فاذا
سُئلت أن تفصل بين الكاتب وكتابه في تقديره لم تدري كيف تفصل
بينهما لأنك تحس حينئذ أن كتابته جزء منه وعضو من أعضائه ،
بل هي الصق به من جميع أعضائه وجوارحه لأنها خلاصة حياته وزبدة
نفسه وعقله وتاريخ خلايا جسمه وروحه

وفي كل كاتب شيء من طبيعة النبوة ، لأنه يحمل رسالة
« خاصة » من لدن الحياة الى اخوانه في الحياة . ولهذا كان لا بد
للكتاب من هبة خارقة يحس بها ما لا يحسه سواد الناس ويفهم بها
ما لا يفهمون من أسرار هذه الدنيا ومعجائب الغيب والشهادة ، فان
لم تكن له هذه الهبة ففوقه قدح هبانه المألوفة وتستفزها الى البروز
والاحتدام وتتجافى بها عن سبيل أمثالها المعبد في نفوس الآخرين
فتبدو كأنها أجنبية غريبة عما يألّفونه بينهم من هذه الهبات ، فان لم
تكن له تلك القوة فخائب من جوانب الطباع يراه الناس فيه
مكبراً مشروحاً يدرسون عليه ذلك الجانب من النفس البشرية
كما يدرسون الاعضاء الدقيقة وراء المجاهر المعظمة وعلى الرسوم

الواسعة المفصلة ، فإذا كان التيمن أو التشاؤم أو الحب أو البغض أو
الدعة أو الكبرياء أو الحسد أو البر أو غير ذلك من الخلال خفياً
ضامراً في عامة النفوس فربما كان فيه ظاهراً مفسراً يتيح لك أن
تأمله وتفحص عن بواعثه وتستقصي غاياته كما لا يتاح لك ذلك من
مراقبة ألوف من الناس ، فان لم يكن فيه جانب من هذه الجوانب
المكبرة فلكمة تصبغ المشاهد الدارجة بلون لا تراها به كل عين ولا
تخلعه عليها كل بصيرة . وقد تتفق هذه المزايا كلها للكاتب أولاً
يتفق له إلا بعضها ، ولكنه لا بد أن يكون على الحالين نموذجاً خاصاً
يحمل رسالته التي لا يعني عنه أحد في ابلاغها والتي تشعر وأنت
تقرأها انها رسالة « وشفر » في آن واحد ، وانها لو انفصلت عن
صاحبها لضاع معها الشفر الذي يفك رموزها وتتوقف عليه فوائدها
والكاتب جماله في الاسلوب جمال المعدن الصحيح لا جمال
الزيف والطلاء ، فيياضه بياض الفضة وحمرة حمرته نحاس واصفراره
اصفرار الذهب ولمعانه لمعان الماس . وكل شيء فيه له قيمته الطبيعية
التي لا مبلغة فيها ولا تمويه عليها . فهو يذكرك أبدأ بالطبيعة الصادقة
واللباب المكنون

أما المنشيء فيختلف عن الكاتب في هذه الخلال . فانك تقرأه
وكأنما تشعر بالقشرة المطلية تحت يدك ويؤتي اليك أنه يخذعك
ويحاول أن يبيعك الشيء الزهيد الذي تراه في كل مكان باسم غير

اسمه وقيمة أغلى من قيمته ، فأنت تبصر فيه لون المعدن ولا تسمع رتته وتروز ثقله ، وتعلم أن السر كله في الصقل الظاهر ولا يعجبك أن تتطلع الى اللباب المستور وراءه ، ويخيل اليك أنها صناعة آليّة قد يبرع المخترعون غداً فيحدثون للآداب آلة تصقل الكلام كالآلات التي اخترعوها لصقل المعادن ! وقد يعن لبعض المنشئين أن يفتح له مكتباً لتوشية كلام غيره كهؤلاء الكتبة الذين يدبجون الرسائل للمستكتبين في أغراض نفوسهم التي لا ينوب عنهم فيها سواهم .

وليس للمنشيء رسالة خاصة يؤديها من لدن الحياة ويضع شفرها اذا لم يتم هو بادائها ، ولكنه — على أحسن ما يكون — صاحب زينة يسرك أن تنظر اليها وتجري يدك عليها ، وتقدها كلها اذا أردت أن تنقلها من لغتها التي كتبت فيها الى لغة أخرى تحفظ معناها وتنفي قوالبها وألفاظها ، فليست فضيلته فضيلة « انسان » يخاطب جميع الناس بلغة الحياة ولكنها فضيلة حروف لا حياة فيها واصداً لا ارتباط لها بمعانيها

وخير ما يكون المنشيء ان يكون تزويقه في أسلوب الفكر وأسلوب الصياغة معاً ، كما كان « أوسكار وايلد » في انجلترا و « تيوفيل جوتييه » في فرنسا و « بديع الزمان » في اللغة العربية . فهؤلاء قد تبقى لهم بعض ملاحظتهم اذا نقلوا من لغة الى لغة وخسروا وشي أساليبهم ورنة ألفاظهم ، لأن سوانح أفكارهم قد تبهر النظر

بالاعيينها ورقصاتها ولا لاء أصدافها كما تبهر الآذان نعمات كلماتهم
وتراكيب عباراتهم . على ان المعاني المزوقة قلما تنجلي عن قيمة
نفيسة وجمال دائم

والمفلوطي اذا نظرنا اليه بهذا النظر لم تقل فيه إلا انه منشيء
لبق الصناعة كثير التزييق في الصياغة قليلة في المعاني والأفكار ،
أو هو — اذا بالغنا في انصافه — أقرب الى جماعة المنشئين منه الى
جماعة الكتاب



المنفلوطي والنفس الانسانية

قرأت في بعض ما رُئي به المنفلوطي أنه كان « كاتب النفس الانسانية » يريد القائل أنه كان رحمه الله يبكي آلام النفس ويستبطن أهواءها وأشواقها ويعطف على آمالها وهمومها ويكشف عن فضائلها وأدوائها، كما يُروي عن كبار الكتاب الملمين الذين سبروا أغوار الطبائع واخترقوا حجب الازهار والبصائر وعرفوا من سرائر « النفس الانسانية » انماطاً لا يدركها الحصر وأحوالاً تحسب من تصفحها ان الانسان في هذه الحياة خلاق لا نهاية لها ولا مشابهة إلا على البعد بين أنواعها وفضائلها

ولست أرى في كل ما وُصف به ذلك الفقيد صفة هي أبعد من الحقيقة وأدل على الجهل بالنفس من هذه الصفة التي يُظن لأول نظرة أنها أصدق صفاته وأحراها بالقبول .

ولا أقول ذلك لأن المنفلوطي كان قليل البكاء في قصصه ومقالاته أو كان مغلق النفس على الحزن والاسى بطبيعة مزاجه ، ولكن لأنني أرى أن غزارة الدموع شيء والاحساس بمصائب النفس الانسانية شيء آخر . فالاطفال هم أكثر الناس بكاءً وأغزرهم دموعاً

ولكنهم أغرب الناس عن الحزن وأناهم عن لواعج الآلام وتجارب الأيام ، والنفوس التي تلقي الحياة بالوجوم والانتقاض ولا تعرف فيها غير الشكوى والاشفاق إنما هي نفوس عجزت عن تجربة الحياة وابتلاء ما فيها من الخير والشر والفرح والحزن فقنعت منها بتلك الخشية الضعيفة التي تبدو للنظر القريب في ثوب الرأفة والحنان وتلك التشعيرية المجفلة التي تسري في الجلد لأدنى الملامسة وأهون المقاومة ، مثلها في هذا مثل « السابح » المرقور يقف على شاطئ البحر فيقترب منه في خوف وحذر ويغمس فيه أطراف أصابعه في تردد وأناة ثم تسري في جسده قشعريرة الماء فيرتد عنه ويحجم عن خوض عبابه وهو يتهم البحر ويرثي للسابحين فيه ! فليس ذلك الرثاء رثاء السابح الذي جرب البحر وصارع أمواجه ومارس حيتانه واقترب من أعماق قيعانه وارتفع على متون أثباجه وتذوق فيه نشوة السباحة مرة وشارف فيه وهالة الغرق مرة أخرى ، ولكنه رثاء السابح الذي لم يجرب البحر ولم يعرف منه الا تلك القشعريرة الجلدية التي هي أول حدود البحر في عالم الاحساس ! وأحرى بمثل هذه القشعريرة أن تسمى « رحمة الجلد » لارحمة القلب وصوت الشاطئ اللين لا صوت البحر الواسع العميق ، ولو أن ذلك « السابح » قذف بنفسه في الماء قبل أن يجسه بأطراف أصابعه وتحرك فيه بلاء قوته قبل أن يقف على شاطئه لعلم أن صرخة البحر الجائش غير صرخة الرمل

البليل ، وان الرثاء الذي خامره على حافظه هو الحقيق من السابحين
بالرثاء ، وان الحزن في غمار الماء قوة وشعور ولكن على الحافة
النديّة خوف من القوة وهرب من الشعور

وربما كان أدب المنفلوطي أصدق الأمثلة وأقربها الى توضيح
الفرق بين ليونة الطبع — وان شئت قتل دمايته — وبين صدق
الاحساس وسرعة العطف على الآلام والاشجان ، فان كثيراً من
الناس يخيل اليهم أن الطبع الذي يصفونه بالدمائة والرقّة هو أصدق
الطبائع حساً وأسرعها الى العطف على مصائب النفوس والاصاخة الى
شكاية البائسين والمحزونين ، وليس أخطأ من هذا الخطأ في فهم
حقيقة العطف الصحيح الذي انما يتفجر من سعة الاحساس وغزارة
العواطف ويقظة القلب لا من تلك الدماية التي تقفأ باكية شاكية
أو من تلك الرقة التي تشفق أن تذوب من الهباء !

وانظر الى أبطال المنفلوطي في قصصه ومقالاته فكيف تراه يعطف
عليهم ويرثي لآلام نفوسهم وأشجان ضمائرهم ؟ أتراه سريع الاحساس
بما يعترى النفوس ويخامر الضمائر أم تراه لا يلتفت اليها ولا يشعر بحالها
حتى يبلغ بها الرزء أقصى ما تنتهي اليه الأرزاء ويجرعهما الدهر صباية
العذاب وقرارة الكدر والبلاء ؟ وما ظنك بقلب لا يستدر العطف
على المصاب حتى يجمع عليه بين ضحك الفاقة وتبريح السم ويأس

الحب ووحشة العزلة وذلة اليتيم وسائر ما يحيق بأشتات المعذبين في الأرض من صنوف الشقاء وضروب الهوان والحرمان؟ وما ظنك بعين لا تجود بالدمع على السكير أو المقامر أو المنكوب حتى تخرجه من الدنيا شريداً مسلوباً أباً لأيتام يتضورون من الجوع وزوجاً لأيم تبلغ بطن العناب؟ أتظن أن قريحة تلده هؤلاء الأبطال المساكين وتسال لهم الزأفة بتلك الكوارث والأهوال قريحةٌ تجيب داعي العطف القريب وتسرع الى الاحساس بالألم الضئيل أو هي على خلاف ذلك قريحة لا تبصر من مصائب النفوس إلا ما جل وعظم وأوشك أن يتساوى فيه القساة والرحماء وأن يتلاقى عليه الأعداء والاصدقاء؟

فأشقياء المنفلوطي كلهم إما فتى مات أبوه وجار عليه كفيه ورض عليه بابنته التي يحبها ونجبه ونبذه من بيته إلى حيث لا مال ولا مأوى فما زال به الفقر والوله حتى أسلماه الى اليأس والسقم وما زال به اليأس والسقم حتى أسلماه الى الموت العاجل في ريعان الشباب، وإما رجل غره الرفقاء وزينوا له الخمر فشرب منها كأسه الأولى فأدمنها فتلف بدنه وضاع مورد رزقه وغدر به أصحابه ورققاؤه واصطلحت عليه آفات الفاقة وأوجاع العلل وعثرات الجد ثم طال ثواؤه في البيت بلا طعام ولا فراش ولا عزاء حتى ثوى في مضجعه الأخير، وإما فتاة غوت فقاداتها الغواية الى الفجور وقادها الفجور الى الداء وانتهى بها الداء الى العدم فالنسيان فالموت الشائن المبهين، وهكذا وهكذا.

بحيث ترى أن ليس للناس عند المنفلوطي مصائب غير هذه المصائب الجسيمة وأشباهاها التي يبصرها الأعمى ويسمعها الأصم ويجتمع فيها الجوع والداء والذل والموت بلا افتراق ولا تنوع ، وهي على فداحتها وثقل وطأتها ليست مما يسمى بمصائب « النفس الانسانية » وآلام الضمائر الحية لأنها مصائب وآلام يشترك فيها الانسان والحيوان ويعرفها كل من يعرف الجوع والمرض والموت من هذه الاحياء .

وانما مصائب النفس وآلام الضمير تلك التي يتفرد بها « الانسان » الشاعر وهو تام المآرب من طعام وشراب ومتاع وسلطان ، وهي تلك التي تجلبها له نوافل الكمال التي يعلو بها عن الأحياء الدنيا وعن بني آدم الذين يشبهونها في المطالب والهجوم . وليس من الضروري أن يمتنى الانسان بالجوع والضر والتبريح جميعاً ليجرع من كأس الشقاء ويأخذ بنصيب من لذات الحزن والضيق وأشجان الأسف والكآبة . فربما ملك وساد وقت له نعمة المال والبنين ودانت له المتعة والصحة وهو في ضميره مع هذا في سورة لا تهدأ وحرب لا قرار لها ولا سلام ، وربما عشق وأسعده العشق وهو في حيرة السعادة نفسها على حال من القلق يشبه الكرب والشقاء ، وربما شيب له الصفو بالكدر لأنه بلغ غاية الصفو أو مذاق له النعيم بالسامة لأنه أوفى على مدى النعيم ، وربما كانت خلاصة هذه الآلام الرفيعة ألماً واحداً يتخللها جميعاً وترى فيه كأنما

« الانسانية » تشتاق الى مرتبة فوق مرتبتها وسعادة فوق سعادتها وحاجات من العيش والوجود فوق حاجتها ، فهو ألم التشوف الى ما وراء الانسانية من حظ الحياة والحنين الى « المجهول » الذي لا يحده الحس ولا تحيط به الأفكار . وذلك هو الألم الذي لم يعطف عليه المنفلوطي قط ولم يجعل للانسانية نصيباً منه في كل ما ألف أو ترجم

* * *

ونظرة المنفلوطي الى الاخلاق من فضائل وذرائل كنظراته الى ألوان الشعور من مسرات وآلام . أي انها نظرة لا تنفذ الى بواطن « النفس الانسانية » ولا تشملها بالعطف الواسع والفهم السديد والادراك السليم ، لأن الانسان عنده إما صاحب فضيلة وإما صاحب رذيلة ولا وسط هنالك بين الخالتين ، والعمل من الاعمال عنده إما أبيض وإما اسود ولا مزيج هنالك بين الصبغتين ، وحدود المحاسن والمساوي عنده كأنها مقسومة على رقعة من الورق لا في طبيعة حية يتصل بعضها ببعض ويتوشح فيها الخير بالشر والحسنة بالسئنة والقوة بالضعف والصعود بالهبوط ، فليس من الجائز في عرفه أن تكون النفس الواحدة معتركا للفضائل والذرائل تنتصر فيها هذه تارة وتنتصر فيها تلك تارة اخرى ، وأن يكون العمل الواحد خليطاً من الخير والشر يميل بعضه الى الصلاح والسكالم ويميل البعض الآخر الى الطلاح والقصور ، وذلك لأنه يحكم على الاخلاق والطباع

بأسماؤها وتعريفاتها لا بما يحسه من العطف عليها وعلى أصحابها، فيخطيء هنا في تفصيل الاخلاق كما يخطيء هناك في تصوير الشعور، ومصدر الخطأين واحد هو ان « النفس الانسانية » التي يعهدا ويعطف عليها نفس ساذجة محدودة يقل فيها التركيب وتعدد الجوانب ويبلغ مداها في الغور والذروة بأقرب مسبار

♦ ♦ ♦

ولكننا تقدر المنفلوطي ولا تريد أن نبخسه حقه وننكر عليه أثره. فلا بد لنا أن نقول إن النفوس التي يعهدا ويعطف عليها أكثر عدداً واحوج الى التثقيف والتعليم من النفوس التي لا عهد له بها ولا صلة عطف بينه وبينها. وان نظرته الى الاخلاق والشعور أقمن أن تفيد قراءه وتحظى لديهم من كل نظرة سواها، ولعلها — لولا ما نأخذه عليه من الليونة والرخاوة في أكثر كتاباته — أصلح زاد لهم من غذاء الفكر والعاطفة، بل لعلهم كانوا في حاجة الى منفلوطي يظهر لهم لو لم يظهر لهم هذا المنفلوطي الذي عرفوه وأقبلوا عليه





في مثل هذا الشهر ، منذ عامين ، مات السيد درويش . واذ
قلت السيد درويش فقد قلت إمام الملحنين وناطقة الموسيقى المفرد في
في هذا الزمان . مات والقطر كله يصغي الى صوته . وسمع نعيه من
سمعوا صوته ومن سمعوا له صدهاء من مرتلي ألحانه ومرجعي أناشيده ، فما
خطر لهم - إلا القليلين - أنهم يسمعون نبأ خسارة خطيرة
وان هذه الأمة قد فجعت في رجل من أفذاذ رجالها المعدودين

كان ذلك النابعة الفقيه رحمه الله قد نبه ذكره قبل موته
بعامين أو قراب ذلك ، واشتهر اسمه وذاعت أغانيه وألحانه فطافت
القطر أجمعه وطبقت المدن والقرى وانبسطن منها مائدة سرور
واسعة الاكثاف تناول منها كل غاد ورائح وتضيفها كل طارق
وواغل ، وكان لكل قلب في عالم السماع نصيب من قلب صاحبها
ولكل لسان حظ من وحي لسانه ولكل مسمع خبر من أخبار روحه
الهائم في أسعد ساعاته وأجمل أوقاته ، فكان يرسل اللحن في الرواية

أو القصيدة أو الأغنية الصغيرة فما هي إلا أيام حتى تتجاوب بها الأصدا في أنحاء البلاد فيهتف بها المنشدون على الملاعب وترتم بها العازفات في أندية الأُسْر ومجالس البيوت وينطلق بها الصبية في السبل والاسواق وتغدو مصر السامعة كلها كأنها فرقة واحدة وقف منها السيد في منصة الاستاذ فهو يملئ عليها وتسمع وهو يبدأ لها وتتبع: كلُّ على قدر طاقته من الفن وعلى حسب حفظه من جمال الصوت وحسن الاداء والاصغاء ، وما بالقليل على الرجل الفرد في هذه الدنيا أن يمون أمة كاملة بهذه المؤنة المحيية وأن يجلب لها سروراً لا تجلبه لنفسها بما تصبغ فيه وتسمي من جهاد الحياة ، وأن يهدي اليها ساعات صفو وأريحية ترتفع بها الى ملاء الغبطة والنعيم وترجع بأعوام تنقضي في شقاء العيش وأعمار تمضي في أسر كأسر الأنعام وقيود كقيود السجناء ، إي والله ان ساعة سرور واحدة لهي ساعة حياة بل هي ساعة خلود ، وان ساعة خلود لهي أنفـس من عمر مسخر وأغزر من وجود كوجود الجماد يستوي فيه الدهر الطويل واللحظة القصيرة ، وأجدى على النفس الشاعرة من كنوز الأرض وذخائر البحار . وما بالقليل على السيد درويش أن يمون أمة كاملة بهذه المؤنة العلوية يوماً واحداً لا أعواماً عدة ولا بعض عام .

ولكن الأمة الكاملة — مع هذا — عجزت عن قضاء حق الرجل الفرد فمات بينها وهي لا تعلم أنها أصيبت من فقدته بمصيبة

قومية ولم تبال حكومتها أن تشارك في تشييع جنازته واحياء ذكره كما تبال بتشييع جنازات الموتى الذين ماتوا يوم ولدوا والمشييعين الذين شيعتهم بطون امهاتهم الى قبر واسع من هذه الدنيا يفسدون فيها من اجوائها ما ليست تفسده العظام النخرات والجثث الباليات

أقول مع هذا؟؟ بل ما لنا لا نقول ان الرجل قد أهمل في حياته وبعد مماته ذلك الاهمال القبيح لأجل هذا؟ أوليست آدابنا هي تلك آداب الشرق الجامد الذليل الذي تعاورته الرزايا ووران عليه الطغيان؟؟ أوليست آداب هذا الشرق المسكين تعلمنا أن العزيز العظيم من يسيء الى الناس وأن المهين الحقير من يتوخى لهم الرضى ويوظئ لهم أسباب السرور؟ أوليس من شرع الاستبداد وسنن آدابه أن يكون الرجل عظيماً لأنه يطغى ويقهر ويكسر النفوس ويحني الظهر ويعفر الوجوه؟

أو ليس هذا أعظم ما رأينا من العظمة في هذا الشرق الآفل منذ علم أبناؤه انهم صغراء حقراء فلن يكون الذي يتقدم اليهم بالرضى والسرور إلا أصغر منهم صغراً وأحقر منهم حقارة؟؟

بلى وآسفاه! ان دفائن الاستبداد ما برحت عالقة فينا بدخيلة السرائر ننفضها فلا تنتفض إلا ذرة بعد ذرة ونزن المنفوض منها فاذا هو لا يزيد في الهباء ولا ينقص راكد ذلك التراث الدفين! فما يزال العظيم عندنا عظيماً بازرائه من الآخريين وما يزال تمحيض

السعادة لطلابها عندنا عملاً من أعمال الأذلاء الماهنين ، وأنت لا تعرف أنك في أمة أحرار حقاً كارهين للاستبداد حقاً إلا إذا رأيت بينهم لعطاء المطربين شأنًا لا يقل عن شأن أندادهم ذوي المواهب والأعمال والاقدار . فان المرء في مثل هذه الامة لا يكبر إلا بما يحض الناس من صفو وسعادة ولا يسعدهم أحسن السعادة إلا بما يحيي فيهم من نبيل الشعور وجميل الأمل ورفيع التفكير والتخييل . فهو إذا غناهم أحسن الغناء كان عندهم كمن يفتح لهم أحسن الفتوح ويسوسهم أحسن السياسة ويعلمهم أحسن العلم ويصلي بهم أحسن الصلاة ، وهو كبير بنفسه لأنه كبير الأثر في نفوس الآخرين بعيد المدى في تشریف الحياة وتطهيرها وتهذيب أبنائها وتحبيدبهم في محاسنها ومطامحها ومسراتها . أما الأمم التي لا حظ لها من الحرية ولا يد لها في تعظيم العظيم منها لأنه يعظم بينها غضبت عليه أو رضيت عنه وأعجبت به أو أنكرته فتلك ماذا يبلغ من شأن المغني المطرب بينها ؟ بل ماذا يبلغ من شأن كل من يسعددها ويسري عنها كروبيها ؟ ان كروبيها لكروب حقيرة ، وان أحقر منها لسعادتها وان أحقر من هذه وتلك لمن يمسح عنها تلك الكروب ويحلب لها تلك السعادة ! فلا غرو يكون فيها « الفنان » عامة والمغني خاصة خليعاً من خلعائها وماجنًا من مجانها ، بضاعته أن يضيع عليها وقت اللهو الذي هو فضلة من وقت العمل الضائع . . . أو العمل الذي لا يستحق أن يعمل

ولا يبيح الانسان أن يعلوبها من مراتب الحيوان ، وهو انما يضع عليهم وقت اللهب باحياء الردى ، فيهم من الشعور والذميم فيهم من الأمل والوضيح فيهم من التفكير والتخييل . فلا غبن عليه ولا تكران لحقه أن يعيش في هذه الأمم زحافة آدمية تمشي على بطنها وتحمد الله انها لا تسحقها باقدامها ، وكذلك عهدنا المطربين والمغنين في مصر الى زمن غير بعيد .

ولو كان السيد درويش واحداً كآحاد الفئة لما ليم كبير ولا صغير على اهماله ولا لحق هذه الامة ضير من غفلتها عن تثير ملكاته وتكميل شوطه . ولكنه رأس طائفة وطليعة مدرسة : رأس طائفة لم يتقدمها متقدم وطليعة مدرسة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الموسيقى المصرية ، ولا أحاشي أحداً ممن اتصل بنا نبأهم في العصر الأخير

فضل السيد درويش - وهو أكبر ما يذكر للفنان الناهض من الفضل - انه أدخل عنصر الحياة والبساطة في التلحين والغناء بعد أن كان هذا الفن مثقلاً بجميع الفنون الأخرى بأوقار من أسجاعه وأوضاعه وتقاليده وبتدعياته وجناساته التي لا صلة بينها وبين الحياة . فجاء هذا النابغة الملمم فناسب بين الالفاظ والمعاني وناسب بين المعاني والالحن وناسب بين الالحن و « الحالات النفسية » التي تعبر عنها ، بحيث تسمع الصوت الذي يضعه ويلحنه ويفنيه فتحسب ان كلماته ومعانيه وانغامه وخواجه قد تزوجت منذ

القدم فلم تفترق قط ولم تعرف لها صحبة غير هذه الصحبة اللزام
ولم يكن الغناء الفني كذلك منذ عرفناه وانما كان لغواً لا محصل فيه
والحاناً لا مطابقة بينها وبين ما وضعت له . فربما كان « الدور »
مقصوداً به الحزن والشجو ولحنه أميل بالسامع الى الرقص واللعب ،
أو مقصوداً به الجذل والمزاح ولحنه أميل الى الغم والكآبة ، ولم تكن
الأنغام والاصوات عبارات نفسية وصوراً ذهنية ولكنها كانت
مسافات وأبعاداً تقاس على كذا من الآلات وترتبط بكذا من المفاتيح
ثم لا محل فيها بعد ذلك لقلب يتكلم ولا لقلب يعي عنه ما يقول —
وعلى هذه السنة درج الغناء عهداً طويلاً الى أن أدركه المغنيان
الشهيران عبده ومحمد عثمان فتقحا بعض التنقيح بيد أنهما لم يخرججا
به من حيز التقليد ولم يردا اليه نسمة الحياة ، وكانا فيما صنعاه في هذا
الفن كالذي يطلق الطائر السجين من قفصه وينسى انه مقصوص
الجناحين كليل العينين يحس قضبان القفص حوله أينما سار



حدثني بعض أصدقاء الشيخ سيد الذين حضروه في تلحين
أدواره ومقاطيعه انه كان اذا قصد التلحين أخذ الورقة التي
كُتِبَ فيها الكلام شعراً أو نثراً فقرأها في نفسه قراءة متفهم
متأمل يستشف روح معانيها وإيماءات ألفاظها ومضامين اغراضها ، ثم
يتلوها جهره لتصحيح كلماتها وفواصلها ، ثم يرفع الصوت مؤدياً كل

جملة بما يوائمها من لهجة الدهشة أو الغضب أو الحنان أو الفرح أو
الزهو أو الوجوم . فإذا تم له ذلك هداه اختلاف اللهجات في تلاوة
الجل الى اختلاف الالخان التي تناسبها ، فيخلو بنفسه هنيهة ثم يعود
الى رفاقه وقد أفرغ عليها الخانها الدائمة فلا يستبها بعد ذلك التفهم
والانعام ملابسة الأهاب المشرق الصحيح لجوارحه السليمة التوية ،
قسمةها كأنك تسمع تفسيراً موسيقياً لدقائق المعاني وكوامن
الاحساس أو ترى صوراً طيفية تنسجها لك الموسيقى من خيوط النغم
ونياط القلوب ، وطريقته في استحاء الموسيقى طريقة العبقريين
الغريبين إذ يستفتحون أبوابها بين مناظر الليل والنهار واصداء الرياح
والأمواج ولحات البروق والنجوم ، فكثيراً ما كان يبيت عند
شاطيء البحر ليالي متواليات يصغي ويتوسم ويفغمم ويترنم الى أن
يسلس له النشيد كما يريد ، وكثيراً ما أحيى الليل الى الفجر يستقبل
أنداءه وأنواره ويرجمها شداً بديعاً يطلع على الأسباع بمثل الفجر في
حلل الانداء والانوار ، ولحنه في رواية هدى حيث تظهر أشباح
الأجداد عند القناطر الخيرية في مطلع الفجر قد صيغ في ذلك
المكان في تلك الساعة بعد ليلة ساهرة لم يغمض له فيها جفن ولم
يكف لحظة عن التهيؤ « للقدر » المأمول والوحي السعيد

وكان الشيخ سيد يستعير بعض الانعام القديمة ليعيدها على أغان
جديدة هي بها أشكال وعليها أكيس وأجل ، ثم لا يخفي الاستعارة

ولا يدعي ما ليس له على عادة بعض الادعياء عندنا ، فأذا وضع
اللحن مبتكراً أو مستعاراً حرص غاية الحرص على أن يؤديه
المنشدون كاملاً مضبوطاً كما أوحى اليه وتقل عنه ، فلا يطبق أن
يتصرف فيه متصرف أو يعث به عابث من عشاق التزويق
والترطيب . وبلغ من فرط غيرته على صناعته انه سمع ليلة احدى
الفرق تنشد الحانه في بعض الروايات فهاله ما وجد فيها من التحريف
وجن جنونه من الغيظ والهياج وجعل يصيح : أهذه موسيقتاي ؟
أهذه موسيقتاي ؟ ثم أعجمي عليه لتوه وقيل لى انه ظل بقية حياته
يرغبونه في العمل مع تلك الفرقة بالأجر الغالي والتوسل الكثير وهو
يأبى عليهم أشد الاباء



وترى السيد فترى منه رجلاً موسيقياً بخلقته وخليقته . فكان رحب
الصدر قوي الخنجرة أهرت الشدقين واسع المنخرين عالي الجبين ،
وكان ما شئت من جزالة الصوت ووفائه وتجوفه وامتداده ومطاوعته
إياه في أصعب الاحزان وأسهلها مطاوعة لم نسمعها لمغن غيره ،
وجبل الرجل على شدة الايمان وطيب القلب فكان يتصدق على
الفقراء ويصفح عن أساء اليه ويؤثر الخير والحسنى ويتعد عن
اللباجاة والاذى ، وآفته الكبرى انه استهتر ببعض المخدرات في
أول شبابه فأفسدت صحته على ما فيها من قوة عظيمة وصلابة نادرة

وطالج الاقلاع عن هذه العاده الوبيلة قبل موته فاعتزم التوبة الصادقة عن المخدرات جميعاً . ولكن لم تفده هذه النية لأنه مات بعد ذلك بأيام قليلة في شرح شبابه ولم يتجاوز الثلاثين من عمره

اما مولده فكان في الاسكندرية في سنة ١٨٩٣ م من أبوين فقيرين ، وكان أبوه نجاراً معنياً بتعليم أبنائه فأدخله مدرسة تسمى شمس المعارف يتعلم فيها التلامذة تجويد القرآن وانشاد القصائد وتمثيل الروايات الصغيرة في ختام السنة على عادة أكبر المدارس في ذلك العهد ، فظهرت هناك موهبته الغنائية وزين له بعض اخوانه إحياء الليلات الخاصة ففعل ونجح فيها نجاحاً أغراه بالمثابرة والمزيد ، ثم انتظم في مسجد ابي العباس لتلقي الدروس الدينية فمكث فيه الى أن توفي أبوه وتركه ولا عائل غيره لصغاره وأهله ، فعمل مع صهره في بيع الأثاث أياماً ثم اختلفا فانفصل عنه واشتغل بالنقاشة فلعطارة يحترفها بالنهار ويحضر الليالي الساهرة والموائد التي يدعي اليها للغناء وترتيل المولد عند ابناء حيه الاقربين ، وكان يعطى في الليلة عشرة قروش في ذلك الحين ! ثم تألفت في الاسكندرية فرقة تمثيلية فاتصل بها مطرباً لها وسافر معها الى الشام ولقى هناك الشيخ الموصلي وبعض أساتذة الصناعة فاخذ عنهم الكثير من اصولها وفوائدها ؛ وعاد من ثم وقد كلف بتعليق علامات النوطة والاطلاع على كتب الموسيقى والتوفر على

دراسة مراجعها الميسورة لقراء العربية، وأنشأ له فرقة للغناء في القهوات فاستقل بنفسه في تأليف الادوار وتلحينها ونبغ في ذلك نبوغاً لفت اليه عشاق هذا الفن وأساتذته، فأعجبوا به وشجعوه وذكروه بالثناء ويعرف أخصاؤه انه وضع كل دور من أدواره في حادثة من حوادث غرامه فلم يخل من فضل للحب عليه في اذكاء قريحته وتهذيب فنه وإغرامه بصناعته، وكأنه طبع على حب التجديد وسلامة الذوق فكانت نفسه تعاف لوازم المغنين التي طفقوا زمانا يرددونها في جميع الأغاني والأناشيد « كياليل وياعين » وما شابه ذلك مما هو في الغناء كوصف الطلول والنياق في الشعر والادب، وقد عدل عنها بته في أدواره الأخيرة ونبتد التكرير الذي لا معنى له فلا تسمعه منه الا في « اسطوانات » يؤخذ فيها بملاً صفحاتها الأربع وقد لا تحتاج مادتها الى أكثر من صفحتين أو ثلاث، ولما اشتهر أمره في الاسكندرية نصح له بعض عارفيه بالانتقال الى القاهرة فانتقل اليها وعُرف فيها فضله وبدأ فيها صناعة التلحين المسرحي الجديد في اللغة العربية، فبذل كل منافس وجاءت له في هذه الصناعة آيات بارعات تشهد له بجودة الفهم ودقة الذوق وخصوصية الخيال، وما زال يتفرد في تلحين الروايات المختلفة حتى عرض عليه اربعمائة جنيه في تلحين رواية قبل موته بشهور

ولم يكن هذا الاقبال وهذا الاعجاب ليخدهاه عن جلالته فنه الذي

وقف عليه حياته أو يميل به الى الدعة واستمراء هذا الريح الوافر

المضمون ، فتاقت نفسه الى التبحر في فنون
الموسيقى العالية وأجمع عزمه على ادخار المال والسفر

الى معاهد الغرب المشهورة ليستقصى
فيها اصول الموسيقى وفروعها على كبار
الاساتذة المنشئين . ولو أملى له في العمر
حتى ينجز هذه العزيمة لكان لمصر
منه نابعة في فن الموسيقى وعلمها لا يقصر
عن أكبر النابغين بين اعلام الغربيين ،
ولكنه فوجيء بالموت الباكر وهو
يتأهب على ابواب مستقبلة المجيد ،
فذهب بموته ذلك الاجتهاد المكسوب
وذهب معه ذلك الأمل المنظور



على انه اذا كان قد فاته أن يسبح في آفاق الموسيقى العالية
وان يهبط الى سراديب أسرارها الخفية فأف له لحسنات في بعض
الأغاني والالحان الصغار لا ندرى كيف كان يسبقها السابقون ولو
اجتمع لها كل من في الارض من المنشئين والعازين



خواطر في الاخلاق

حول شخصية غريبة - الطاغية

من الأبيات المنظومة التي يحفظها كل تلميذ مصري في صغره
هذا البيت المشهور في تزكية علم التاريخ
ومن وعي التاريخ في صدره أضاف أعماراً الى عمره
ولكننا نظن ان التمثيل اولى بهذه التزكية من التاريخ . لأنه
يعرض لنا الأعمار وأطوار الحياة فنشربها نفوسنا وتتغذى بها أرواحنا
ونعود بعد رؤيتها وكأننا عشنا كل عمر من تلك الأعمار واستخلصنا
لأنفسنا كل طور من تلك الأطوار . وإذا وُجدت للنفس حالات
وطبائع يعز على الحياة أن تصوغها في قالب واحد من اللحم والدم
فقد يخلق التمثيل ذلك الشخص الذي عز على الحياة فيخرج لنا الطبائع
النفسية والمواهب العقلية كاسية بالجسد المنظور تعمر في الاذهان مالا
يعمره المولودون في الاجساد



ومن «الشخصيات» التي عرضها علينا التاريخ
والتمثيل معا شخصية «قيصر بورجا» الربية
العجيبة التي ظهرت في ايطاليا في عصر النماذج
(قيصر بورجا) النادرة من رجال السيف والريشة والقلم ، والتي عد
منها التاريخ في نحو جيل واحد أسماء كاسماء ليوناردو دافنسي
وميكالا أنجولو ورافائيل وسافانرولا ومكيا فيلي وكولبس ! وكلهم - بعد
استثناء روفائيل - كانوا أبطالاً غريبين عجيبين قل نصيبهم من
«الانسانية» واشتد التقارب بينهم وبين الخلائق العلوية أو السفلية .
فهم في الحيز والشراما مرده جيايرة تعنيهم «الفكرة» التي استحوذت
على قلوبهم اكثر مما يعنيهم الاحياء الدين يعيشون بينهم ، وأما
سحرة أبالسة يتقبلون في جو الحبث والجريمة كما تتقلب السمكة في الماء
بلا استغراب ولا تهيب ولا ندم . فليوناردو الذي كان يترك المدينة
تحترق تحت عينيه وينظر الى السماء ليرصد حركات الطيور ويستخرج
منها قوانين الطيران ، وميكالا أنجولو الذي كان يخلق العالقة في الابدان
والصروح ، وسافانرولا الذي كان يبغض الفن الجميل حباً للتكشف
واحتراراً لهذا العالم الفاتن المطرود من رحمة الله ! وما كيا فيلي الذي كان
يبشر الملوك والامراء بدين الفتك والقسوة وكتاب الخديعة والنفاق ،

وكولبس الذي كانت تضيق به الارض لانه يتبعي فيها طريقاً الى الغرب من بحر الظلمات وينشد الهند فتعثر قدماه بعالم جديد ! كل اولئك كانوا في مختلف المناهج والدروب وواد عوالم جديدة أو كانوا هم أنفسهم عوالم خاصة تمشي في أبواب رجال . وما كان للنابهن في ذلك العصر الا أن ينبتوا كما نبت أولئك الجبارة اخلاطاً من القوى العلوية والسفلية لا يعنيتها أمر الناس كما تعنيتها مقاصد السماء وجهنم . او لم يكن العالم كله في عصرهم ميدانا تتقاتل فيه السماء وجهنم بما لديهما من الملائكة والشياطين ليهوي به الظافر الى مغاور ظلام أو ينجو به الى معارج نور ؟



أما «قيصر بورجا» فكان نموذجا غريباً غامضاً بين هذه النماذج يستحق أن يخلق في الدنيا ليكون طرفة من طرف الفن ان لم يكن رجلا من رجال التاريخ ! كان وسيما رشيقاً قوياً يحسن الرقص ويركب الخيل ويصارع الثيران ويتلهى في ساعات الفراغ بطي قضبان الحديد بين يديه ! وكان فارساً شجاعاً وسائساً حصيفاً وحاكماً رفيقاً برعاياه جميل الادارة والتصريف ، وكان الى كل هذا قاتلاً مجرماً بفطرته يقتل في هدوء وراحة بال كاجرام الذئب والثعبان أو كاجرام السيف الذي يقطع الأعناق والفأس التي تهشم الرؤوس بلا كلفة ولا تبكيت ضمير . قتل أخاه وهو في العشرين من عمره على

أثر ليلة راضية قضياها عند أمهما يودعنا قبل السفر! ثم قتل زوج
اخته وقيل إنه أتما قتله وقتل أخاه من قبله لانهما كانا يقاسمانه سرير
تلك الاخنت التي كانت تضمم بين الاخوين! ولم يكن هذا الفتى الرشيق
من طلاب المجالس وعشاق الملاهي والصبوات كدأب أمثاله «الدينويين»
ولكنه كان في حياته الخاصة كثير الخلوه يميل الى اعتزال الرجال
والنساء ولا يقبل على موائد الشراب ، فهو دينوي لا يألف الناس
ومجرب مطبوع شديد الضراوة لا ينفر من سريره كما ينفر المحرمون
من سرائرهم ، وهو عبد مخلص لمطامعه ولكنه سيد للجريمة يسوقها
الى يده غير منساق اليها بدافع من الغضب والاضطراب ، وهو
وسيم الطاعة ممسوخ الطوية ولكنه قادر على اخفاء ما في قلبه فلا
ينضح على وجهه الصبوح أثر من خبايا ذلك القلب المظلم الكنود ،
أولعله لا قلب هناك ولا مجاهدة في الاخفاء بل خواء أصم لا يشعر
بنفسه ولا يدري بما يقع فيه

هذه صورة مجمله حفظ التاريخ خطوطها لذلك الطراز العجيب
من الآدميين . غير ان المؤلف الذي أظهره على المسرح أراد
ان يحو من تلك الصورة بعض الظلال وان يصقل ما بقى من
سوادها بصقال المعاذير . فكان قيصر بورجا الذي أنشأه روفائيل
سباتيني في رواية الطاغية (١) خلقاً آخر غير الذي أنشأه التاريخ ،

(١) مثلت هذه الرواية للمرة الاولى في الاسبوع الماضي على مسرح روميس

وربما كان أجمل وأقرب الى الآدمية من الرجل الذي عاش بين
أواخر القرن الخامس عشر وأوائل تاليه وبقيت لنا اخباره ونوادره ،
ولكننا نفضل الصورة الأثرية الغامضة على هذه النسخة الجديدة
اللامعة ! ونرى ان مؤلفنا الطيب هذا لم يرزق من خصب الخيال
وصدق الفراسة ما رزقه زميله الروسي « مرجكفسكي » الذي ألهمته
البداهة والذوق الفني مالا تلهمه « الاخلاق » والمداراة لسباتيني ومن
على شاكلته . فجاء في روايته « الرائد » بأقن « بورجا » وأقن
« مكيافلي » يهتدي اليهما الاختراع ويرضاهما الواقع المحفوظ

قلنا إن « قيصر بورجا » كان أنموذجاً غريباً بين الآدميين ،
ولكن استاذ الشكوكيين وشفيع النقائص في زمانه (أناتول فرانس)
يقول ان بورجا موجود في كل مكان مخبوء في كل انسان . كالظلم
في طبائع الاحياء القوية تظهره والضعف يخفيه ، ويزعم « ان هؤلاء
الأسبان الرومانيين (يعني أسرة بورجا) لم يخلقوا - على قدر ما نعلم -
بقلوب مخالفة لقلوب كافة الناس ولا بعقول مخالفة لعقولهم ، وان عادة
الاجرام التي طال فيهم عهدا لم تستأصل جذورهم من أرومة الانسانية
ولم تقطع ما بينهم وبينها من عروق دامية يمتون بها اليها . . .

« . . . كلا ! ان البورجيين ما كانوا أعاجيب في الخلق
بمعنى هذه الكلمة الصحيح ، وما كانت طبيعتهم الخلقية مشوبة بأية

آفة دخيلة مستسرة في تركيب البنية . فانهم لم يختلفوا في أفكارهم ولا في شعورهم عن أبناء سافيلي وجايتاني واورسيني الذين كانوا يعيشون حولهم . وانما كانوا خلائق عنيفة في ابان عنفوان الحياة . وكانوا يشتهون كل شيء وما كانوا في هذه الخلة إلا من بني الانسان ، وكانوا قادرين على أن يفعلوا كل شيء ، وهذا الذي أخرج منهم اولئك الجناة المرعبين ، ألا ان من الخطر أن نعبي أنفسنا عن هذه الحقيقة . فان في الجماعات الانسانية كثيراً جداً من البورجيين : أعني كثيراً جداً ممن ركب في طباعهم سعار الشره الى المال واللذات . ولا يزال في جماعتنا عدد كبير منهم يجوزون فيه بينية شائعة دارجة ويخشون من رجال الشرط ! انها هي الحضارة التي تستنفد دوافع الطبيعة . أما الاساس في الانسان فذاك لا يتغير وذاك فظ شديد الاثرة والغيرة مطبوع على الشهوة والضراوة «

أفكذلك الانسان حقاً ؟ أو يبعد الانسان من مثل الانسانية وينفصل عن أساسها كما ابتعد من مثال قيصر بورجا وانفصل عن طرازه ؟ ان الآراء لا تتفق في هذا ولكن الرأي الذي نقلناه من مقالات أناتول فرانس شبيه به بل شبيه بالنعمة التي أذاعتها في هذا الزمان العقول المستنيرة التي أطفأت كل نور غير ما تسميه نور العلم الحديث !! وفي طبيعتها زمرة العقول الفرنسية لأنها عقول الطلاوة والحقائق التي يستبد بها الفكر ويأبى عليها أن تلجأ الى حمى السريرة

وحفايرة المجهول . فالقول الفصل عند جمهورهم الآن ان الاخلاق طوارئ لا أساس لها في غير العرف وضعف تبرأ منه الطبايع القوية والارادة السليمة ، ويقول جورج دوماس وهو باحث فرنسي آخر « ان حالة الغم والتعب تلاثم بزوغ الندم . فتتقض عقائد العرف في هذه الحالة على الروح المتعبة لتغمرها ثم لا تزال بها تتقلب فيها وترتع في جوانبها . والندم هو العلامة على ان عقائد العرف - وان شئت فسمها العادات الاخلاقية - قد ظفرت بغير انزنا ولا يتم هذا الظفر على الأغلب إلا في نوبات الغم والفتور ، ومن ثم يسوغ لنا أن نصل الى هذه النتيجة وهي : ان الحياة الصحيحة « غير خلقية » بطبيعتها وان الضعف والمرض والآداب الخلقية متزاملة بطبيعتها »



وقد يكون من اللغو هنا أن نرجع الى أدوار الهمجية الأولى لتتخذ منها حكماً على اصول الأخلاق ومثلها العليا . إذ كيفما كانت أخلاق الانسان في تلك الأدوار فليس من المسلم به أن حالة الهمجية هي الحالة الطبيعية الصحيحة بأي معنى من معاني الصحة في الجسد أو العقل ، ولا من المفروض انها الطبيعة كأحسن ما يمكن أن تكون . فماذا يريد أن يقول ذلك الباحث الذي ينقب عن الضمير والآداب والاخلاق في الفطرة الهمجية فلا يجدها أو يجدها على غير ما نعرفه في هذه الازمان ؟ انه لا يستطيع أن يصل من ذلك التقيب

الى نتيجة تنفي أي شيء مما يثبته نصراء الأمثلة العاليا في الآداب
والأخلاق

ولا يفيد الغاضين من أصول الآداب والأخلاق في تلك
المباحث العقيمة والحقائق الناقصة أن يستكشفوا لنا رجلاً قوياً ميت
الضمير أو غبقيراً عظيماً يقترف الجرائم ويستبيح الموبقات . فان هذه
الكشوف المكشوفة للجميع لا تنتهي بهم إلا الى نتيجة بدهية من
قبيل تحصيل الحاصل . لأنها لا تختلف عن القول بأن سوء الخلق
عيب قد يكون في العظاء الأقوياء كما يكون في الصغار الضعفاء ،
ومن الذي قال غير ذلك ؟ من الذي كان يحسب ان العظمة تنفي
جميع العيوب ؟ على أن ما يلاحظ على اولئك العظاء قد يقابل
بملاحظة أخرى هي أصح وأجدى ، وهي ان عيوب الخلق تنفوس
في الضعفاء كما اشتد بهم الضعف وعجزوا عن مكافحة الاغراء
والتحريض ، واننا يجوز لنا أن نبنى على ذلك أن الخلق قوة واضحة
وأن الجريمة والغواية ضعف وستم

ومن خطأ التفكير أن يفهم باحث كجورج ديماس ان الأخلاق
مزاملة للضعف لأن الندم يظهر على النفس في نوبات الغم والفتور .
فان الندم ليس بأول ما يشعر به الانسان من بواعث الأخلاق
ولكنه عاقبة تأتي بعد شعوره بقوانينها وتمكن تلك القوانين من
ضميره وإحساسه . وسواء أكان الندم أول الشعور الأخلاقي أم

كان هو آخره فما لا ريب فيه أنه ليس بالشعور الوحيد الذي تظهر به
النزعة الأخلاقية في نفس الانسان . فان من الناس لمن تراه أقوى
ما يكون حين تأخذه النزعة الأخلاقية وحين يقدم على المكروه أو
يقمع هواه عما يجب بسطان من القوة لا يقدر عليه الواهن الهزيل .
وليس في استطاعة أحد أن يقول ان الضعف يخلق الآداب لأنه
والندم يتزاملان أو يتجاوران . فمن قال ذلك كان كمن يقول ان
ضعف الأبدان يخلق جرائم الأمراض لأن هذه الجرائم تسطو
على الضعفاء وتجتنب الاقوياء

لا ! ليس قيصر بورجا بالمثل الشائع للنفس الانسانية وليس
من الطبيعة الصحيحة أن يتجرد الانسان من العطف بينه وبين
الطباع الأخرى حين تتاح له أسبابه . ولتتكر « الحفريات »
و « وظائف الاعضاء » كل واجب يثبت الضمير وتؤمن به البصيرة
فلن يسمها أن تنكر هذه الحقيقة الجامعة وهي أن الواجب أساس
الحياة واننا نصون الحياة ونحبها لأننا مقيدون بواجبها لالاننا مختارون
فيما نحب ونكره منها . وما دامت للانسان حياة فعليه واجب ، وما
دامت تحيط به في هذه الأرض قوة اكبر من قوته وحياة اكبر
من حياته فعليه — شاء ذلك أو لم يشأ — واجب فوقه ومثل عال
أعزم من الحياة

الاعتراف بالعيوب

قال لي صاحب معجب بأناتول فرانس - أو مقدس له - على أثر ما كتبتَه في الاسبوع الماضي « عن قيصر بورجا » : اذن أنت من دعاة التستر والمداراة في الاخلاق ؟؟ وقبل أن يسمع جوابي في ذلك سألني : أو ليس الأفضل للعلم والبحث والأجدر بكرامة العقل والنفس أن نعرف « الطبيعة الانسانية » على حقيقتها وأن ندرسها كما هي على بينة بكل حسناتها وعيوبها

قلت ذلك أفضل ولا ريب . ولكن أنت على يقين أن هؤلاء الكتاب الذين يسمون أنفسهم تارة « بالطبيعيين » وتارة « بالواقعيين » ويسهبون في شرح شهوات الانسان وتهوين شرها وتوطنين النفوس على الاقرار بها والارتياح اليها - أنت على يقين أن هؤلاء الكتاب يعرفون « الطبيعة الانسانية » على حقيقتها ويدرسونها على بينة بكل ما فيها ؟

والحقيقة اننا لا نرى جهلاً بهذه « الطبيعة الانسانية » اكبر من الجبل الذي يحرك تلك الاقلام باسم العلم والمعرفة والبحث

الحديث والدرس الصحيح . فما كانت « الطبيعة الانسانية » قط
خلواً من حيز كبير فيها تهيمن عليه « الحقائق المطلقة » التي لا يحيط
بها العلم وتنهض وتهض الطبيعة الانسانية كلها الى طلب الكمال
والتفدية بالراحة واللذة ابتغاء ذلك المطلب المتجدد . ما كانت الطبيعة
الانسانية قط خلواً من جانب موقوف على « المجهول » يوحي اليها
أن ما تعلمه من شأنها أقل مما تجهل وان حياتها في هذه الأرض خاضعة
لذلك « المجهول » كل الخضوع من جميع جهاتها وان كانت هي لا تعرفه
ولا تملك الوسائل التي تسلك بها الى معرفته . فأين مكان هذا
« المجهول » في آداب الطبيعيين والواقعيين ؟ أي حساب في كتاباتهم
يحبسونه لذلك العالم المستتر الذي لا يفيدنا أن نعوض الأعين عنه
وأن نفترض بيننا وبين أنفسنا انه في حكم العدم لأننا لا نقيسه بالأشبار
ولا نزنه بالدراهم ولا نطرحه على مائدة التشریح ؟ أي شيء تراه في أقوال
اولئك الطبيعيين والواقعيين يدلك على انهم يدركون اننا نقيم في دنيا
تسير بنا من حيث لا نعلم الى حيث لا نعلم وليس في دنيا نسيرها نحن
الى ما يسرنا ويرضي شهواتنا وتقف بها نحن عند ما يؤلمنا ويسوءنا ؟ ان
اولئك الطبيعيين والواقعيين يصفون لك الانسان كأنه مخلوق مقتضب
من الدنيا التي نجم فيها لا يطالب بأن يحسب فيها حساباً لشيء غير ما يعلم
ويفهم ولا أن يتمتع من شيء إلا ما يعرف له علة ظاهرة من المبدأ
الى الختام ولا أن يسعى الى شيء إلا ما فيه له سرور وحظوة .

ويسألون : ما بال الانسان يحرم على نفسه اللذائذ التي تسره وتعجبه ؟
فان وجدوا لذلك مانعاً فلا يكون ذلك المانع إلا انها تصيبه بضرر
عاجل أو آجل في جسده !! ويفوتهم ان تلك اللذائذ لو كانت انما
خلقت لتسره وتعجبه — لا لأمر آخر وراء هذه الغاية — لما صح أن
يكون فيها ضرر له ولا محذور يصده ، ولكانت مباحة له مأمونة
العاقبة كما سره أن ينال منها ما ينال

فكأن الانسان الطبيعي الواقعي هو ذلك الانسان الذي يعترف
بالشهوات ويدين بها ويطمئن اليها ولكنه لا يعرف ان مجاهدة
الشهوات ونكرانها من مطالب الطبيعة والواقع في بعض الاحيان !
وحجته في هذا أن الشهوات موجودة قوية في الغرائز والميول !!
كأنه كان يريد أن يسلم بمجاهدتها وهي معدومة أو ضعيفة لا تحتاج
الى المجاهدة ..! وهذه هي الطبيعة الانسانية كما يفهمونها .! الطبيعة
التي تجحد كل ما لا تفقه وتأبى أن تبذل « للمجهول » حصّة من
حظوظها ومسراتها لأن هذا المجهول لا يظهر لها ولا يقنعها في المعامل
الكيميائية والمجالات الدورية بحقه الدائم المفروض عليها ! هذه هي
طبيعتهم الانسانية فهل هي « الطبيعة الانسانية » على حقيقتها؟ وهل هم
يدرسونها كما هي على بينة من كل ما فيها ؟

لا . فما طبيعة الانسانية في هذا العالم المسيطر عليها إلا كالجندي
في الجيش الكبير . لا بد له فيه من طاعة ليس يعرف لها

سبباً وليس يلتمس لها علة. وسيقى الانسان كذلك - وان قال بلسانه غير ذلك - ما بقي جزءاً محكوماً في هذا العالم المجهول . وسيقى « للحقائق المطلقة » حصتها فيه سواء عليها أ أصلح بينها وبين تفكيره ومعلوماته أم وقف كلاهما من صاحبه على طرفي النقيضين

وما كانت شهوة من الشهوات الشيطانية التي يخرجها من قماقها في هذا العصر كتابُ الواقع والطبيعة معدومةً أو منسيةً في العصور الماضية - أي في تلك العصور التي قضت عليها الأديان والعقائد أن تسدل الستار على شهوات الجسد أو تنظر إليها بعين الريبة والتوجس ، ولا كانت اللذائذ بغیضة الى الناس أيام كانوا يعفون عن ذكرها بهذا البذاء الذي تورط فيه كتاب العصر الحديث ، ولا كانت « الطبيعة الانسانية » التي يلققونها سرّاً مدفوناً مكتوباً عليه أن يلبث في قبره الى أن تبعثه معجزات « الريالزم والناترازم » في القرن العشرين ! كلا ! ما كان شيء من ذلك كذلك وانما الذي كان ان القدماء قد أحسوا ما نحس وأحبوا منه ما نحب وأبغضوا منه ما نبغض ثم زادوا علينا أن جعلوا للمستقبل نصيبه ورصدوا للغيب المجهول قربانه . وكانت علومهم ومعارفهم لا تناقض « الحقائق المطلقة » في أزيائها التي ظهرت لهم يومئذ بها . وبعبارة أخرى لا تناقض الأديان والعقائد وما هو في حكمها من المذاهب

والفلسفات . فلما جاءنا العلم الحديث يخلع تلك الأزياء ويمزقها ويرد كل لحمة فيها وسداة الى نسيجها حسبنا أنها كانت أثواباً لغير لابس وأغطية قائمة على هواء وخلطنا بين الحقائق التي لا وجود لها والحقائق التي لا تقبل الحصر والاحصاء والتي ستظل أبداً مطلقة من كل قيد لا تبدو للأعين إلا في كساء من الرموز والسكنايات . ومن حقنا نحن أن ننفي كل ما تقدر على نفيه بالدرس والبحث والتفكير ولكن هل من حقنا - مهما بلغ الغرور منا - أن نؤكد ان الحقائق يجب أن تكون كلها محدودة محصورة قابلة للترتيب والتبويب لأننا نحن لا تقدر على أي ادراك للحقائق في غير هذه الهيئة وبغير هذه الوسيلة ؟ أفي العقول السليمة عقل واحد يشك في ان « الحقيقة المطلقة » موجودة وان كنا نحن لا نستوعبها ولا يمكننا أن نصل الى استيعابها ؟ ومتى كانت هذه الحقيقة موجودة بيننا محيططة بنا فأبي عقل سليم يحيك فيه الظن بأنها بعيدة منا مغلولة الأيدي عن الوصول الى عقولنا ونفوسنا والظهور في أخلاقنا واعمالنا واتخاذ الاشكال المحدودة المحصورة التي تستوي بها بين أفكارنا وهو اجسنا ؟ ؟ أقول ان العلم الثابت المقرر لا يقبلها على هذه الصفة ولا يدري كيف يوفق بينه وبينها ؟ حسن ! لنضع العلم اذن وشأنه فيما يدريه وما لا يدريه ، ولنعلم اننا نحن نملك هذا العلم ونسخره فيما نريد أما الحقيقة المطلقة فهي تملكنا وهي

تسخرنا فيما تريد، ثم هي التي تلهمنا أن نوفق بينها وبين العلم على بعد ما بين الظواهر من خلاف

لقد ظهرت « النسبية » على يد « إينشتين » في أوائل هذا القرن ونعتقد نحن أنها ظهرت على النفوس مشرباً في الأخلاق قبل أن تظهر على الورق مذهباً في العلوم . ومضى على الناس قبل « النسبية » زمان طويل كفروا فيه بكل رأي مطلق في الفضائل والمحامد وقاربوا بين أعلى المحاسن وأوضع المساويء بسلم ملتوي الدرجات من الشبهات والاحتمالات . فلا فضيلة تحمد على اطلاقها ولا رذيلة تذم على اطلاقها . لا شيء - وان عظم - إلا وفيه جانبه من الصغر ولا شيء - وان صغر - إلا وفيه جانبه من العظمة . إفعال ما شئت فلك مشبه في فعالك بين الكبراء والممدوحين ، واترك ما شئت فلك مشبه في تركك بين العاملين والمقتدرين . وقد يضر الخير وقد ينفع الشر وقد تحسن النية والثمرة زرية قبيحة وقد تقيح النية والثمرة شهية جميلة . وهكذا وهكذا من فروض هذه « النسبية » التي مشت فيها المحامد الى جانب المثالب ولحقت فيها المساويء بأذيال الكملات ، والتي سجلتها الاخلاق قبل أن تسجلها العلوم فأصبح لكل مليح وجه من الدمامة ولكل دميم وجه من الملاحه وبطل الجهد في طلب الاتم الاكمل مذ صار أرفع العلو قريباً من أوهد الحضيض في هذا الاعتبار

وتقدمت « الديمقراطية » قبل ذلك فوسعت للفرد من الحرية الى حدها الاقصى وجعلته غرض نفسه يفعل ما يروقه وينبذ كل حق للأمة أو للانسانية عليه فيما يخصه . فأصبح السرور هو دين العهد الجديد لأنه مطلب يعرفه كل فرد ويتوق اليه بسائق من طبعه غير ناظر الى عواقبه فيما بعد لذته وحرية .

وربما كان من آثار الديمقراطية في الاخلاق - غير هذا - انها أزاحت الستار عن أسرار سياسة الأمم فزال غشاؤها الذي كان يحجب فضائلها وخبائثها واشترك الصغير والكبير في فهم ضروراتها وحبائلها وعلم العلية والسفلة ما يمكن وراء الفتوح والغزوات والألقاب والمظاهر من الخسائس والدنيا فالتبس عليهم الأمر وضعف الوازع الأدبي في ضمائرهم وساءت ظنونهم بأصول الاخلاق ومقاييس الاقدار ووقر في أذهانهم أن مقادير الأمم - بله الافراد - لعبة في أيدي الشهوات والاكاذيب بعد أن كانت ولا سلطان عليها في رأيهم لغير الله والمجد والشرف والأبهة والجلال

ومن دأب المدنية أنها تعقد التآلف بين تقاض النفس الواحدة كما تولف بين أشتات الأمم البعيدة واخلط الشيع المتنافرة ، فيلتقي خير ما في النفس وشر ما فيها وجهاً لوجه في كل حادثة وكل يوم ويتعود الانسان أن يطعن الى عيوبه المعهودة وان ترتفع الكلفة

بين خصاله المشروعة وعاداته المحظورة ، فلا يتجهم حميدها لذميمها ولا ينجبل شريفها من وضعها . ثم لا تلبث الحواجز بينهما أن تقترب أو تتصل ولا تزال العادة تُضعف النفرة وتمحو الغضاضة حتى يجرؤ أردأ ما في النفس وأسوأ ما تحتويه من الخبايا المكتومة على البروز جنباً إلى جنب في وضوح النهار مع أشرف سجايها وأفخر مكارمها وطيباتها

وهذه العادة المدنية هي سر التسامح الذي يمتاز به الحضري على سكان الريف وابناء الامم الجافية ، وانما مداره كما رأيت على التسامح بين أجزاء النفس الواحدة والتفاهم بين الجانب المشرق الظاهر منها والجانب المظلم المستور

ولكن لا تسامح المدنية ولا تبذل الديمقراطية ولا انهباء العقائد القديمة القائمة على أسس « الحقائق المطلقة » - لا شيء من ذلك بقادر على أن يخرس في الفطرة الصادقة القوية ذلك الصوت الأمر الذي يفتأ يهتف بالانسان في أعماق اخلاذه أن « للمجهول » حساباً يحسب ، وأنه هو جزء محدود من كل لا حد له ، وأنه بعد أن يُوقَى نفسه حظها وبعد أن يرعى للمجتمع حقه وبعد أن يرضى في هذه الأرض من يلزمه الرضى - يبقى وراء ذلك دين دائم لافسكك منه يتقاضاه صاحبه من سرورنا وأهوائنا وآمالنا وأفكارنا . وما صاحبه إلا ذلك الدائن الذي يلف النفس و « المجتمع » والانسانية والحياة بأسرها في اطواء قدره

وقضائه ، والذي لا يمكن أن يكون معدوماً موهوماً ثم لا يمكن أن يكون موجوداً حقيقياً ولا يتفاضانا قربانه المختار من صفوة ممالك ونخبة مانحج



أن الانجيز يعلمون كل ما يعلم الفرنسيون من المعارف ويمارسون كل ما يمارسه أولئك من الشهوات ويفهمون كل ما يفهم جيرانهم الاذكياء من « الطبيعة الآدمية » والحرية الديمقراطية ، ولكنك لا ترى في مسارح لندن ما تراه في مسارح باريس ولا تقرأ في اللغة الانجليزية ما تقرأه في اللغة الفرنسية من كتب الخلاعة والمجون ولا تشعر بالاباحة في بيئة الانجيز كما تشعر بها في بيئة الفرنسيين ، ولم ذاك ؟؟ أمحض رياء ونفاق كما يقول ظرفاء فرنسا الهازلون ؟ كلا ! وإنما جعل الانجيز كذلك من جعلهم من أصدق الناس إيماناً وأصدقهم شعراً وأصدقهم رزانه وأصدقهم بداهة في استكناه طبائع بني الانسان ، جعلهم كذلك خلق متين يذكر الحرية ولا ينسى الحدود ويمس بالجانب المحجوب في هذه الدنيا كما يحس بالجانب المكشوف

لنا أن نعرف « الطبيعة الانسانية » ولكن علينا ألا ننسى أن الانسان لم يصعد في سلم الخلق انساناً ليظل حيواناً في كل شيء . ولنا أن نعترف بالشهوات والعيوب ولكن علينا ألا نتخذ من هذا الاعتراف نشيداً تتغنى به غناء الافتخار ونحرق حوله بخور البشرى والاتصار



صحراء المازله القريبة الى المدينة لا الصحراء الكبرى التي
يستوي فيها الخراب على عرشه الأكبر ويقم حوله من الوحشة
والخوف أغوال الخيال حُرَّاساً لم يذلها القيد ولم يروضها اللجام .
وهذه الصحراء « المازلة » ليست بالصغيرة في مساحتها ولا بالهينة
في مراكبها لأنها تبدأ عند تخوم القاهرة وتضرب الى الشرق في وادي
الشام وجزيرة العرب . ولكنها - لتقربها الى المدن واحاطة العمار
بها في كل موضع - تبدو لوهوم كأنها الوحش المكبوح أحرق به
نطاق الأسر من كل صوب ! أو كأنها صحراء بيتية صناعية أعدها
الناس حول ديارهم لا يباحش أنفسهم من فرط الأنس بالعمار كما
يعدون الشلالات والغياض في ساحات البيوت وأرباض المدن ،
محاكاة لشلالات الطبيعة النائية وغياضها المتأشبة في مجاهل الأرض
والزمان

وتارة تعكس هذه الصحراء الصغيرة من روحها على المدينة الجديدة التي نبغت في جوارها نبوغ الجزر البركانية في عرض البحار ، فيخيل اليك أنك تنظر حياها الى مضارب خيام في العراء نفتحها ناخفة من السحر أو تنزلت عليها كلمة من كلمات الله فانقضت في أما كتبها عمائر وقصوراً ومنائر وبروجاً يوشك أن يزول عنها السحر فتطوي عن النظر وتدع الشاخصين اليها يعركون الجفون دهشة وذهولاً . فأنت ان شئت من هذه الصحراء في بادية بيتية ، وأنت ان شئت من هذه العمائر في مدينة بدوية ، وكلا النظرين يوفق لك من غريب الشعور ما لا يتفق في المدينة ولا في الصحراء !



والصحراء - ككل منظر جليل - تريك الحياة على وجهين مختلفين أبعدا الاختلاف : هذا غاية في العظمة والسمو وذلك غاية في الصغر والمهانة . تنظر الى النملة الضئيلة فيها وهي تدب على الأرض الموات بين الشقوق والأخاديد فتملاً من نفسك فراغاً شاسع الأطراف عميق الأغوار خفي الشعاب مجهول البداية والنهاية موصولاً بالأبد الذي لا أول له ولا مقياس لقربه وبعده : فراغاً تدركه على حين غرة قائماً أبداً كالهوية المسدودة بين الجماد الميت الذي تراه ثم حيناً وليت يبصرك وبين هذه المخلوقة الصغيرة التي تبصر وتسمع وتأمل وتحشى وتحب وتبغض وتعرف لها وجوداً تؤتمن

عليه وتستقل به وتواجه به الكون قاطبةً في فترة عابرة من الزمن ، فتقوي عليه بحياتها أكثر مما يقوي هو عليها بأرضه وسمائه ومائه وهوائه وحره وبرده وكل حركة من حركاته وناموس من نواميسه ، وتقف هذه المخلوقة الصغيرة في جانب وتلك الصحراء المترامية في الجانب الآخر فإذا هي أعظم منها قدراً وأهول منها سراً ، وأضخم من كل ما فيها من الآكام والهضاب والزلازل والاعاصير ، وتحديق أنت بعينيك هذا البرزخ السحيق الذي لا يُعبر ولا يحُد قستعيد في ضميرك سياحة الحياة من آزالها المجهولة وأصولها المستورة ، وتعلم أنها ان كانت تقاس بالعمر بسبعين أو ثمانين أو مائة دورة من دورات الأرض في الفضاء فإنها بالكنه والطبيعة سياحة لا مبدأ لها ولا ختام ولا أوج لها ولا قرار

إن الحياة في المدن رخيصة مبتدلة لأنها كثيرة مألوفة يقاس بعض بمقياس بعض . أما في الصحراء فلا مسحة على الحياة من ذلك الابتدال ولا هي تقاس إلا الى الموات المنتشر في كل مكان الذي بينه وبينها مالا يحُد ولا يدرك ولا يتخيل . وما رأيت حياة في صحراء الا تصورت المعجزة الكبرى تعاد فجأة على مشهد مني في ومضة من نور النجوي والاطلاع : معجزة الحياة تظهر لأول مرة بين أحضان الجود والعماء ! ويالها من ومضة بارقة تنير الاكوان كلها في طرفة عين بنور نافذ كمنظرة الله . فهل لمحتها ؟ هل تخيلتها ؟ هل شعرت بها ؟

إن لحظة تضيئها في استحضار تلك المعجزة لتجزينك عاجلاً بسياحة الحياة التي حدثتكم عنها كاملة شاملة تفيء اليك جملة واحدة كأنك أعطيت حياة كل حي ووجود كل موجود وبلغت العمق الذي لا تكون الحياة فيه الا الـ « حياة » مطلقاً مجردة لا أنواع فيها ولا أفراد ، فلا هي حياة انسان ولا هي حياة حشرة ولا هي حياة شيخ ذابلة ، ولا هي حياة طفل نامية ولكنها هي الـ « حياة » التي يعجب فيها جميع الأحياء في جميع الأحيان على حد سواء . وإذا ألهمتكم الحشرة الدارجة في الصحراء هذا الشعور فقد أكبركم ورفعتمكم وأطلمتكم على أصمة الرحم التي بينك وبينها وأرتك في كل جسم حي هيكلأ مقدساً ينبغي أن يصاب كأنه طراز مفرد لا مثيل له في هذا الوجود .



وتنظر الى الصحراء من وجه آخر فتهون عليك الدنيا وما فيها وتصغر عندك الحياة ومن يحرص عليها . ترى أمامك فضاء يحمر عنه الطرف على هذا الكوكب الذي يسكنه الانسان بين كواكب لا عداد لها في السماء ، وتراه قد فقد ذلك الانسان ولم يشعر له بفقدان أو وجود ولم يعأله بحياة أو ممات ولم يحفل بمقام أو مغيب . وترى الى جانب ذلك الفضاء الغامر بقعة ضيقة من الأرض يحشد فيها الانسان جموعه وينشد لديها آماله ويفرق فيها من أوجاله ويحصر

لديها همه في العالم، ويحسب ان هذا العالم الذي لانهاية له خواء بلقع
إن لم يسعد هو بما يصبوا اليه في تلك البقعة المكتظة بمن يزاحمون
عليها ويدودونه عن أبحاثها، وما هي؟ بقعة كسائر البقاع لو أقيمت
في الصحراء لضاعت في جوفها كما تضع فيه ألوف النجاد والوهاد،
وماذا يدع بعده عليها مما يميزها عن تلك النجاد والوهاد؟ لا شيء.
أوشيء كلاشيء!.

• • •

والقمر مأنوس المحضر حينما ظهر، متبوع الخطوة أينما خطر،
تبسم لك نضرته على الحدائق والمروج وتروعك طلعتة على البحار
والامواج ويستخفك لألاؤه في مجالس الصفو والجبور، ولكنه في
بعض لياليه - ولا سيما في المدن - يلوح لك انه يهبط بالسماء الى
الارض ويقترّب بها من منازل البشرية الوضيعة ويقوم لها في عليائه
مقام الخادم الحامل المصباح للملاهيها والمضيء لها الطريق في غواياتها
ودياجيبها، ويعرّي للناس وجهها المحجب بالظلام المحروس بجنود
الكواكب فتقول هذه السماء وهذه الارض قريب من قريب
تلمسها الاعمى وتهم بها الاكف! فلا حجاب هناك من ظلمة
الغييب المتراكب ولا تلك العيون التي لا عداد لها تهولك بالسر
المكنون الذي تفتح عليه جفونها سرمداً بلا هداية ولا وجهة ولا
دلالة

أما في الصحراء فالقمر أبداً مهيب السميت موفر الحرمة يفض
من الانظار ولا تعض منه الانظار ، ان أخطأته حلية الجلال لم تحطه
حلية الحزن والألم . وأبصره على تلك السهوب الهامدة فريداً شاحباً
مشدوهاً يتنقل في أجواز الفضاء بلا أمل ولا مقصد ولا اطمئنان
فيشبهه لي هيئة الحسنة الواهية جنت من الحزن على حبيب فقيد فجعلها
الموت في متعة عطفه وأنسه فلاذت بالقبور تهيم بينها على غير هدى
وتحملها اللوعة الكاسفة الى غير قرار . ويجتمع لي ذلك الشبه الكئيب
من شحوب القمر وانفراده وطوافه الذي لا يهدأ واقترانه بسمه
الملاحه وخاطر الجنون في آداب الأمم ومن موات الصحراء وسكون
المقابر الذي يخيم عليها، فيعوض هذا الحزن الشامل عندي ما غاب من
هيئة السماء في ليالي الظلام



ان الصحراء تريك نفسك في منظار الحقيقة من طرفيه المتقابلين ،
تريكها كأعظم ما تكون وكأصغر ما تكون ، وهي لا تعرفك الى أحد
ولكنها تعرفك الى نفسك ! ولا تقدم اليك صديقاً جديداً ولكنها
تقدمك الى صديقك الذي بين جنبيك على غير ما تراه كل يوم .
وكفي بذلك داعياً يكتب عليك فريضة الحج اليها كلما استطعت
اليه سيلاً

بائع القلوب

حدثنا جبهة الاخبار قال : هبطت في بعض أسفاري مدينة من مدن الغرائب ، فسمعت أن بالمدينة ساحراً قديراً يبيع القلوب قديماً وحدثها ويحتلبها من حيث كانت لمن يبذل له الثمن الذي يريد . ولقيني بعض سمسارته الكثيرين فقال لي : ألا ترد على الرجل مع الواردين قشيري لك قلباً من الطراز الذي يعجبك ؟ فالقلوب عنده من كل طراز والناس مقبولون عليه من كل صوب ، ولم يبق في المدينة أحد غيرك لم يجرب حظه في هذه البضاعة العجيبة ! فقال جرب أنت حظك فاعلمك محمد التجربة أو ترجع منها نبأ طريف ! قال جبهة : فقلت للسمسار : اليك عني يا هذا ! لا حاجة لي بقلب آخر غير هذا القلب الذي لم أذمه ولم أحمه ولا أكاد احتاج اليه كله : رأيت في وجهي أمانة على فتور في الدورة الدموية فأنت تعريني بشراء قلب آخر غير الذي ينبض في جانب هذه المعدة ؟ لا والحمد لله ! « وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » ... وصدق الله العظيم

قال جبهة : ومضت أيام بعدها أيام وسنون تتلوها سنون ، وطوفت في الشرق والغرب وعرفت من طبائع الناس وأبناء العالم مالم

أكن أعرف ، وعلمت أن الانسان قد يجوب من المدن ما يسعه
فضاء الله ويبقى في نفسه بعد ذلك فضاء يجبهه ويضل فيه إذا نزل
بين مفاوزه وبواديه . وكنت أجوب الارض ولا ألتقي بالا الى ذلك
الفضاء الذي أحتويه بين جنبي . فلما اثبتت اليه راغي ما رأيت
وهالني ما جهلت ، وضحكت مني كيف كنت أرضى بقلب واحد
أحمله ولا أكاد أحس به وعلى قيد خطوات تاجر للقلوب يبيع
للناس ما يرتضون ! فقد عرفتني الرحلة بعد الرحلة والتجربة بعد
التجربة أن من يعيش بقلب واحد انما يعيش بغير قلب ! وان القلوب
كالأحذية لا تصلح بفردة واحدة . . ! وخير للانسان أن يمشي
حافياً من ان يمشي بحذاء ذى لونين . !

ونذرت لله لئن عدت الى تلك المدينة ليكونن بائع القلوب
أول من أقصد من سكانها ، وليكونن القلب الذي أنشده الى جانب
قلبي أول ما اشتري من بضاعتها . وكنت قد استخلصت لنفسي من
تجارب الأيام أن القلوب في هذه الدنيا واحد اثنين : فأما قلب
ينسيك نفسك وتنسيه نفسه ، ويمتزج بقلبك فاذا هما شيء واحد لا
يفصل شطر منه عن شطر ولا تعرف له بداية من نهاية ، ويجري
في الوثام على مذهب القائلين أن الحب اجتماع نفس كاملة من جزئين
متشاكلين يتعاطيان السرور والحزن من معين واحد . ففي مثل هذا
الحب لا تحسب الذنوب ولا تشكر الهبات ، لأن الانسان كأنما

يهب نفسه حين يهب صاحبه السرور الذي يستطيعه ، وإنما ينتظر
الشكر من يعتقد أنه يعطي كل شيء ولا يأخذ شيئاً يعدل
عطاءه ، وليس يدوم حب على هذه العقيدة . بل ربما كان شعور
الحب الصادق أنه يأخذ كل شيء من حبيبه ولا يعطيه هو شيئاً
يستحق عليه شكراً

وإما قلب يتم لك وجودك ويكمل فيك « أنانيتك » ويستثير
من قوتك ما كان خافياً عليك ويشبعك من إحساسك بكل جوانب
نفسك ، ويجري على مذهب القائلين أن ليس الحب أن تمنحي
شخصيتان في شخصية واحدة كما يهجس في خيال الشعراء ، وإنما
الحب أن تكمل كل من الشخصيتين بالاتصال بالآخرى ، فتشدد الغيرة
في الحب لاشتداد شعور الانسان بنفسه ويفتقر الحب كل شيء
إلا أن يُشارك في ذرة من عطف حبيبه .

وتخبرت بين الطرازين فاخترت الطراز الاول لأنني عرفت فيما
عرفت أن خير الكمال ما ينمو فيك دون أن تشعر به أو تقصد الى
طلبه . كذلك ينمو الطفل الصغير وكذلك ينمو كل طفل صغير في
عالمى الاجسام والمعاني

فلما نزلت بمدينة الساحر يمت دكانه نصا وما نفضت عني غبار
السفر ، فاذا هو أحفل ما رأيت وأعجب ما شهدت في الدكاكين .
زحام على الأبواب لا ينتهي حتى يعود كما بدأ ، وقلوب معروضة

لا يتائل منها قلبان في الخصائص والألوان ، فمن قلب ناصع البياض الى قلب حالك السواد ، ومن قلب أحمر قان الى آخر أصفر فاقع الى آخر لا لون له الى آخر كعنق الحمامة يبدو في كل لون ! ومن هذه القلوب المحترق المتوهج والبارد المتلوج ومنها الصحيح السليم والكسير المثلوم ، وأسعارها غاية في الشذوذ لا تدري كيف يقدرها الباعة والشراة - فهذا قلب محترق يكثر عليه الطلب ويغلو فيه البائع ، وذلك قلب كسير يعلو بقيمته على أضعاف ثمن الصحيح . وكل له آنية يحفظ فيها لا تشبه الآنية التي تصلح لغيره . فمنها ما يحفظ في صندوق من الذهب ومنها ما يحفظ في علبة من الحديد ومنها ما يحفظ في غلاف من الورق ومنها ما يحفظ في كوب من الماء . ومنها ما يحفظ في الهواء الطلق بلا آنية ولا وقاء ، والناس على الدكان بين ذاهب وآيب يصيحون ويهتفون ويعطون ويأخذون وهم فرحون أو متفارحون !

فانتظرت حتى سكت اللجب وخف الزحام وهدأ التاجر من حركة البيع والشراء ، فتقدمت اليه فتلقاني ببشاشة الساحر الذي تعود اصطيداد القلوب : وقال :

يلوح لي أنك قادم الينا من بلد بعيد . فهل من طلب نفيس نخدمك فيه ؟

قلت : في ذلك أتيت ، ولا أطيل عليك فانك قد مارست
التجارة وخبرت أصنافها وعرفت أوصافها فاذا ذكرت لك طرفاً من
الصفة التي أريدها فقد أغنيتك عن الاسهاب في تفاصيلها . أليس
كذلك ؟

قال : أرجو أن أكون عند حسن ظنك ! أتريد قلباً ؟

قلت : نعم ! قلباً يمزج بقلبي وأنسى فيه نفسي وينسى في
فلم يهملني الرجل ان أتم كلامي الوجيزة ، وضحك في شيء من الاشفاق
والسخرية اللطيفة ، ونظر الى صاحبه في الدكان . . . : فلان ! هذا
طالب جديد للمستحيل الرابع . . فهل عندك ما يرضيه ؟

فالتفت اليّ صاحبه متهانفاً وهو يقول : لقد انقطع عنا هؤلاء
الطلاب منذ زمن بعيد ، وما احسبك الا غريباً عن المدينة ! فانظر
ما تقول واعلم انك تروم منا مرأماً عسيراً لا تقدر عليه ولا يقدر عليه
أحد . أفلا يعنيتك عن القلب الذي تنشده قلب سواه من لونه وان
لم يكن من صنف بضاعته ؟ ان الذين سبقوك الى هذا الطلب قد
اتموا بعد اليأس الى القناعة بذلك ، ووجدناهم راضين عن الصفقة
أو مكرهين على الرضا . فكأن أنت مثلهم واطلب منا مثل ما يطلبون ،
انك سترضى عن نصيبك ان شاء الله أو إن شئت ان تريح نفسك
من عناء الامتحان بعد الامتحان والحياة بعد الحياة
والتفت الى الساحر وقال :

لو جئنا قبل الآن لخدعناك وزينا لك من البضائع التي عندنا
غير ما تصف . ولكنك جئنا والتجارة رائجة والمطلوب أكثر من
المعروض فلا حاجة بنا الى خداعك . مر بما تشاء من هذه الاصناف
التي نبيعها ، فإن الدكان وما فيها جميعاً بين يديك
قلت : أحكي لك حكاية

قال : حسن . هات حكايتك !

قلت : زعموا أنه كان في مدينة لندن تاجر يدعى القدرة على
كل شيء والاستعداد لتلبية كل مطلب . وزعموا ان ظرفاء المدينة
كانوا يهزؤون منه ويعبثون به ويتفننون في تعجيزه بالمطالب الغريبة
النادرة وهو لا يعجز ولا يني عن المحاولة والنجاح . فكان هذا يطلب
منه فيلا في كذا من العمر وذلك يطلب فاكهة في غير أوانها
وغيرهما يطلب نبتاً لا يفرس في بلاد الانجليز وهو يجيبهم واحداً
واحداً ولا يزيد على أن يستمهلهم بضعة أيام أو أسابيع اذا اسرفوا عليه
في الشطط والتعجيز ، فجاءه ذات يوم مداعب خبيث يطلب اليه
حقيبة من البراغيث في أيام قليلة وحسب انه لن يقبل البيعة ولو
أسنى له الثمن وبالغ في الترغيب ! غير ان الرجل قبل كعادته وأرسل
أعوانه في كل مكان ليأتوا له بحقيبة البراغيث في الموعد المحدود . فحاسوا
في كل مكان واحتالوا بما وسعهم من الحيلة على اقتناص هذه المخلوقات

الصغيرة التي تشبه القلوب في سرعة القلب والانتقال . فجمعوا منها عدداً عظيماً وعادوا به الى صاحبهم وأفرغوه في الحقيية فأذا هو لا يملاً منها إلا النصف ولا سبيل الى الزيادة المرغوبة قبل انتهاء الموعد . . فاسقط في يد الرجل وهم بالاقرار بالعجز والاذعان للفشل لولا أن خطر له ان البراغيث لا تعيش بغير هواء وان الفراغ الباقي في الحقيية لا يقبل الامتلاء الا اذا أراد الطالب براغيثة ميتة وهو لا يريد لها إلا حية تتفزز وتلسع . . ! وبذلك نجأ من المأزق على غير قصد منه وفاز بسمعة التاجر الذي لا يقول « لا » لمقترح عليه وان تعسف في الاقتراح

فضحك الساحر ثم قال وهو يقبض بأصابعه على لحيته :
حكايئك هذه ظريفة ! أظنني فهمتها . فأنت تريد منا الآن أن نبدي لك من المهارة في جمع القلوب الشاردة ما أبداه ذلك التاجر العنيد في جمع البراغيث الطيارة . . ؟ حسن ! فاعلم اذن اننا سنفعل الطاقة وما فوق الطاقة وسنرضيك جهد الرضى وان كان لا ينبغي عليك ان القلوب اكثر شروداً وأسرع طيراناً من أطيش البراغيث . . . حسن يا صاح ! عد الينا بعد أيام فستجد عندنا قصارى ما نستطيع في هذه الصفقة . وليتنا نستطيع أن نحتال لك بقلب نصفه كما تهوى ونصفه الآخر من الهواء !!

وانتظرت أياماً ثم عدت اليه فلم يسرع الى مقابلتي بتلك البشاشة

التي رأيتها على وجهه في المرة الاولى. فأوجست شراً . ولكنني دنوت منه وسألته سؤال من يتهياً للانصراف ، فأطرق قليلاً . ثم قال لي كأنما يخاطب نفسه : لقد أتعبتنا يا بني وكلفتنا ما لا نطيق . ولكنني آمل أن يوافقك هذا القلب الذي صنعناه لك في مصنعنا باشراف مهندسنا الاكبر ومخترعنا الأواحد ونطاسينا المدرب في جبر الكسير وترميم العتيق من القلوب !

فابتدرته سائلاً : العله قلب نصفه هواء ؟

فقال لا تعجل ! بل هو قلب من عدة قلوب . جمعناه لك من كل خصلة شريفة في القلوب التي لدينا وأخذنا الاخلاص من جانب والثبات من جانب والجمال من هنا والذكاء من هناك . وأتلفنا مائة قلب ثمين لنستصفي لك قلباً واحداً من خيرة ما فيها من الطيبات والشمائل الحسان . فعساه بعد هذا التوفيق والتنسيق يعجبك ويفنيك أو يقنعك بعض القناعة ولو الى حين

قلت : هذا يا سيدي مرقعة وليس بقلب ! هذا ليس بقلب واحد ولا هو بعدة قلوب . وماذا أصنع يا ساحري العزيز بمضغة من أشلاء الفضائل الممزقة جمعها الهندسة ولم تجمعها الحياة . ! على انكم قد تعبتم فيه كما قلت فهاته أتفرج عليه واشتريه لأبيعه في غير هذه المدينة لهواة التحف المصنوعة والعاديات المهجورة . انهم قد

يشترونه ويفخرون به كما يشترون كل زهيد رخيص من سقط الاشياء
بالكثير الغالي من المال

وجاءوني به في مثل الفائف التي تطوى على الجثث المحنطة .
فاقشعر جسدي واستعدت بالله ! ولم أتمالك أن أصيح بالرجل : يا هذا
ان أرخص قلب عندكم في هذا الدكان لأنفس من هذه المضغة التي
لقتموها من مائة قلب مسكين ! ومددت يدي اليه فسقط الف
قطعة . . . وسقطت معه عناية الحكمة والهندسة والتجارة والاختبار !
وصرخ الرجل لا حول ولا قوة إلا بالله ! يا ضيعة القلوب ! يا حسرة
على المال ! يا خسارة الاختراع ! ونظر إلي حائقاً وهو يتهدج :
أيسرك هذا يا سيدي ؟ أما كان لك في هذا الدكان الواسع سلوة
عن ذلك القلب الذي جشمتنا صنعه الأمرين وضيعته أنت علينا في
لمحة عين ؟

وحررت في أمري لا أدري ماذا أقول وماذا أفعل وذكرت انني
جنيت على الرجل هذا الغرم الفادح في غير اساءة أتى بها ولا منفعة
أصابها ومن العدل أن أعوضه عن الغرم أو اشاطره حملة ، فطبيت
خاطره وهدأت روعه ، وقلت له انني موفيك الثمن الذي تقترحه في
ذلك القلب المحطم . فاقترح ما تشاء !

وكان الرجل قد تماسك وعاودته سكينه الشيخ ورضانة الساحر ،
فهب لي وتلطف في الاعتذار وقال : بورك فيك من رجل كبير

القلب كبير الطلب . كلانا خاسر أيها الصديق بغير فائدة ! ولست أقبل ثمنا تبذله دون أن أعوضك عنه بعض العوض من بضاعتي الكثيرة الباقية . هذه قلوب الدكان كلها فتأملها وتفرس فيها وخذ لديك نموذجاً لكل طراز يعجبك منها ، ثم جربها عندك أياماً أو شهوراً وتريث في التجربة ولا تغل في الاشتراط فلعلك بعد أن عاينت عاقبة القلب المحطم المجموع من شتى القلوب تخفف من الغلواء وتعتبر بين أصنافنا على قلب جميل ان لم يكن هو بغيتك الموموقة فليكن هو أذن اليها من سواه

ونادى مساعده في الدكان : يا فلان ! هات لصديقنا نموذجاً لكل صنف منفوس به على عامة الشراة ودعه ينتقي منها الأقوم الأقوم واحمله له ما ينتقي الى مأواه



قبلت الفكرة متفانلاً وحملت الهدية شاكرًا ، ورجعت بالتماذج الى مأواي وفي نيتي ألا أعود الى الدكان إلا وفي يدي قلب اختاره واجتريء به عما لا ينال . وطفقت أنزل بالمعيار درجة بعد درجة عسى أن يعلو في نظري ما لم يكن عاليًا ويحمل عندي ما لم يكن بالجليل ، حتى لقد خشيت أن أعكس الأمور فأسيغ السكريه وأمج السائغ وأرى البياض في موضع السواد والسواد في موضع البياض . ثم تمرت نفسي على فجأة فسئمت النزول بالمعيار الى ذلك الحد

وسئته وسئته وأبئت أن أخدع نفسي بأشد من خديعة التاجر لي
لو أنه عمد معي الى التمويه والترويج

قال جهينة : ولا أثقل عليك بتفصيل ما رأيت فإنه مرير اليم .
وماذا أقص لك وماذا أدع من قلوب عيوبها أثبت من فضائلها
وأكاذيبها أصدق من حقائقها ؟ فكلها من طينة واحدة في الصميم
وكلها في الهوى سواء ! ورب قلب يحس ولا يعلم وقلب يعلم ولا يحس ،
وقلب آخر يحس ويعلم ولكنه لا يصفو ولا يقنع ، ورب قلب يحب
ولا يقول وقلب يقول ولا يحب وقلب آخر يحب ويقول ولكنه
يتكلم بالأحاجي وينطق بألف لسان ! وجميعهم يلتقون في نهاية
تخلف الآمال وتخيب الظنون

وعدت الى الساحر ولم ينقض الأجل المنتظر بيني وبينه فتهال
واستبشر وحسب انني ظفرت ببغيتي واكتفيت بما وجدت فأسرعت
اليه قبل الأوان المنظور . فبدأني بالتحية وصاح بي : مبارك يا صديقي
مبارك !

قلت بارك الله فيك على كل حال . وخجلت من مجابته
بالرفض لأول وهلة فبادرته بالكلام وعطفت عليه وأنا أقول : إنك
قد أعطيتني هذه الثلوب لأسعد بواحد منها . فما قولك فيمن قد
عاف السعادة ؟ ما قولك فيمن يريد له قلباً يستحق أن يشقى لأجله ؟
فأدرك حقيقة الامر وأطرق غير قليل ، ثم جعل يهمس بين

شفتيه كأنه في حلم : أو تحسب الفرق كبيراً بين قلب يقدر على أن
يسعدك وقلب يستحق أن تشقى لأجله ؟ كلاهما يا بني واحد
في المعدن والقيمة . فإذا عدت هذا فقد عدت ذلك ، وإذا
انطويت على اليأس من أحدهما فلا أمل لك في صنوه الذي ينبت
معه على أرومة واحدة

قلت : فاقترح أخيراً عرضه عليك . فهل لك في سماعه ؟

قال : هات ما عندك فما في ذلك ضير

قلت : قلبي هذا الذي بين جنبي . قد غنيت عنه الآن فخذ

اليك ! وأصنع به ما أنت صانع !

وكأنما بوغت بهذا الاقتراح فبدت الحيرة في عينيه وقال : بكم ؟

فأجبت كما يجيب الصدى . بكم ! ؟ واستولت عليّ سخرية

كالغضب فنظرت إليه متعجباً وقلت له متهمكاً : أنت ساحر ؟

أنت تاجر ؟ بكم ؟ بكم ماذا ؟ ؟ أي شيء يساوي قلب لا يجد بين

هذه الخلائق التي لا حصر لها قلباً واحداً يستحق أن يشقى لأجله ؟

خذ يا شيخ هذا القلب الذي لا يساوي تعب حمله ! خذ عني

يا شيخ وأنت المغبون ! خذ واذا كر قول ابن سينا :

إني عظمت فليس مصر واسعي لما غلا ثمني عدمت المشتري !



صورة السعادة

لي صديق مصور كلف بتصوير المعاني النفسية والتعبيرات
الغريبة على وجوه النابيين والعطاء . قال لي مرة إنه شرع في تخيل
صورة مبتكرة للسعادة وأراني مسودة من ملاحظها في خياله . فاذا هي
صورة فتاة في نحو العشرين ممشوقة القد مرهفة الجوارح مستهامة
بالسرور وضعت قدماً على الأرض ما تكاد تمسها مساً ورفعت
الايخرى كأنها ترقص أو تتهياً للرقص ، وسطح في عينها بريق من
نشوة الجبور كبيرق الخمر في عيون السكرى ، وتهدل شعرها مشوراً
يطير في الهواء حول جيدها ورأسها كالأشعة المذهبة حول الجذوة
اللامعة ، وفي يديها دف ممزوق تنقر عليه في عنف وخيلاء ، وعلى
الصورة كلها سمة التوثب والجوح تتراءى في نظرات العين كما تتراءى
في حركات الأصابع وهزات القوام

وكان يريني المسودة ويشرح لي مقاصده منها ومواضع التعديل التي ينوي أن يدخلها عليها . فأعجبت بالصورة ولم أوافق على الاسم الذي اختاره لها . وقلت له : لو غيرت الاسم لمت الاجادة وأمنت الانتقاد . سمها الطرب أو الفرح ، أما السعادة فلا أتخيلها يا صديقي على هذا المثال

وكانت معرفة الصديق المصور بخواج النفس وعبارات العواطف أكبر كثيراً من معرفته بمفردات اللغة ومعاني الكلمات ، فقال لي وما الفرق بين الطرب والسعادة ؟

قلت : أنا اتصور أن السعادة هي الاكتفاء واليقين . وليس في هذين الشعورين معاً ما يجمع بقياد النفس ويثور بالاعضاء ، انما تكون النفس إذا اكتفت وأيقنت قريرة باسمة ووديعه حالمة ، وراضية في سكون وغبطة ومسترسلة في هناة مضمرة ، اذا بدا منها أثر على الوجه فقد يكون ذلك الأثر أقرب الى السوداء والخشوع منه الى الابتهاج والعريضة ، أما الطرب فهو نوبة تملك النفس وتستفزها فتخرجها عن صوابها وتدفع بها الى الحركة في ثورة هياجها . فالنفس فيه مسخرة من خارجها لا تستطيع أن ترجع الى باطنها ولا تطيق أن تخلو الى ضميرها ، ولن يكون الانسان سعيداً وهو نافر من الخلو بنفسه مضطر الى إسكات الالم بالحركة وإخفاء القلق الذي يفعم الخاطر باللجب الذي يساور الاعضاء . السعادة راحة صديق ناعمة

تمسح على الوجوه والقلوب أما الطرب فهماز راكب يجور على مطيته
وينحي عليها بسوطه . السعادة مظلمة وارفة أما الطرب فساطع متلهب .
السعادة ملك رحيم يرافق السعيد ويهديه ويسقيه من شرابه في
صمت وسكينة وجمال أما الطرب فشيطان مريد يستولى على الطروب
فيتحبط به ويعتسف قياده ويضله عن هداه

انني قد أتصور الوحش الفاتك طروباً ولكني لن أتصوره
سعيداً ، وقد أتصور الآله الخالد سعيداً ولكني لن أتصوره طروباً ،
فالسعادة كمال وأنس والطرب حاجة وقلق ، وبينهما من التباين
ما يوشك أن يجعلهما من طبيعتين مختلفتين أبعد اختلاف
قال : وكيف تتخيل السعادة اذا أردت أن تصورها ؟

قلت : أول شيء لا أتخيلها في العشرين من العمر ، وإنما أختار
لها سناً يكثر فيها الوعي والدراية ويقل فيها الجهل والغرارة . لأن
السعادة شعورٌ عاقل متزن سميح . وليس هذا الشعور مما تحسه بنت
العشرين ولا هي تراد لأجله حين يعشقها العاشقون . إن الطرب
أغلب على هذه السن عاشقة كانت أو معشوقة ، أما السعادة فلها
بعد ذلك سن يضيء عليها نورها الساحي العميم ولا يدع الاضاءة فيها
كلها لومضات البرق وخطفات اللهب

قال : وبعد

قلت : وبعد فاني اختارها ملامح الرضى الذي يشوبه الحزن ،
والامل الذي تطفه الذكرى ، واللذة التي يطهرها الحنو ، والنشاط
الذي يلوح عليه التعب ، وأجلوها في شارة لو جلست بها في مأتم لما
ظهرت عليها غرابة ملحوظة بين شاراته . واصور سرورها الى داخل
نفسها الذي تدركه البصائر وتناجيه العاطفة وليس الى خارج أعضائها
الذي تسمعه الآذان وتزعج له الحواس ، وأتوسمها حاملة في يقظة
شاعرة ، وليست جامحة في غيوبة الجنون وسورة الهياج

قال : إذن ما هي السعادة عندك ؟

قلت : انني لا أحاول تعريف السعادة حين أرسم صورتها أو
استحضر ذكرياتها ، ولكنني هكذا أشعر بها حين أظني سعيداً ،
وأخال اننا لا نخطيء في الشعور بالسعادة ولا في طلبها إلا يوم تدخل
علينا التعريفات والحدود ونبدأ في فهمها بالرأي قبل أن نالها بالتذوق
والاحساس . وقد يخيّل الى الناس أن السعادة نهاية ما يختلج به
قلب الانسان من الفرح والبهجة فهي على هذا طرف في هذه الجهة
والغم الشديد طرف مقابل لها في الجهة الاخرى ، وهي تشير الانسان
طرباً وهو يثيره حزناً وهلعاً . وليست السعادة فرحاً شديداً يقابل
الغم الشديد كما خيّل الى الذين عرفوها هذا التعريف ، ولكنهما يقين
كاف في النفس لا يشور ولا يثير



والحق إننا إذا بحثنا عن السعادة بالتعريفات والحدود فقد
نطلبها وهي تطرق بابنا وقد نعرض عن طلبها ونحن أحوج الناس إليها .
وأحسب أن سعادات الصبا كلها من قبيل تلك السعادة المتكررة التي
نستمع بها ولا نعرف ما اسمها ولا يخطر لنا أن نرفع القناع في تلك
اللحظة عن محياها ، وكأنني كنت في حالة قريبة من هذه الحالات
يوم قلت في نحو الثامنة عشرة أخاطب السعادة

مه يا سعادة عني فما أنا من رجالك
لا تطمعي اليوم مني بالسعي خلف خيالك
فقد سألتك حتى ملت طول سؤالك
وقد جهلتك لما سحرتني بجمالك
إن الحبيب بغيض إذا استعز بخالك
فلا تمرى بيالي ولا أمر بيالك
أشقى الانام أسير معلق بجمالك

ثم علمت لما انقضت تلك الأيام أن سعادة من السعادات التي
نطلبها ونلح في طلبها قد زارتني يومئذ مراراً وسألتني حتى ملت
طول سؤالي خلافاً لما زعمت من انني قد سألتها حتى ملت سؤالها ...
وكان خطأي أنا انني لم أستقبلها بمقاومتها التي تستحقها ، وكان خطأها

هي أنها لم تعلن لي حقيقة اسمها . ومضت كما قلت بعد سنين « كأنها
قبلة في ثغر مخمور » !

ولما تجاوزت الثلاثين وضح لي رأي جديد في السعادة الانسانية
فقلت انها هي شيء خلق لنفسين اثنتين تشعران بها معاً لالنفس
واحدة تشعر بها منفردة . وأننا إذا طلبناها وحدنا فقد شطرنائها
شطرتين فلا تقع في حوزتنا الا وهي سعادة ميتة...! وذلك إذ أقول :

أن السعادة لن تراها في الحياة بمقتلين
خلقت لاربع أعين تحظي بها ولمهجتين
لك مقاتل ومهجة أترى السعادة شطرتين ؟

على انك قد تغير رأيك في السعادة من عام الى عام ومن فترة
الى فترة ولكنها هي فيما بين ذلك لا تحرمك زيارتها المختلصة
على غير مذهبك أنت في آداب هذه الزيارات ، فانتظرها في كل
زي وفي كل لحظة ! أو لا تنتظرها على الاطلاق ! فانها تجيئك في
أكثر الأحيان على غير انتظار

وهناك سعادة واحدة تنفق عليها جميع التعريفات وتتوافي لديها
جميع الآراء . تلك هي السعادة المطلقة . أو هي سعادة الاكتفاء التام
الذي لا يتوق الى شيء واليقين الدائم الذي لا يعتره شك ولا
اشتباه . وليست تلك السعادة منا ولا نحن منها . لأنها فيما نظن هي
سعادة الربوبية الغنية عن كل أمل والخلود الآمن من كل آفة . وهل

نطمع نحن في هذه الامنية؟ بل هل نريد نحن في هذه الحياة أن نكتفي فلا نأمل وان نوقن فلا ترتاب؟ كلا! هذا ما لانحبه ولا نريده ولا نناله اذا أردناه . فانما طلبتنا نحن معلقة بغير السعادة التي تتفق عليها التعريفات وتتوافق لديها الآراء — وإذا تركنا هذه السعادة المطلقة جانباً فقد بقيت لدينا سعادات كثيرة بغير حصر ولا تعريف وليس سعادة مفردة يحدها تعريف واحد . وكل واحدة منهن كالمرأة التي تحبها هي خير النساء وأجلهن في الساعة التي تتجلي فيها على قلبك وخيالك ! وكلهن ثمينات أن يصاحبن أغرب خوالج النفس وأبعدها عن فكرة السعادة الدارجة في أوهام الناس . ولكنهن لا يخلون أبداً من علامة ثابتة تميزهن بها بين اخواتهن السعادات الدعيات الكاذبات ، وتلك هي علامة اليقين والاكتفاء !



المعرفة

«... ليس لك بي معرفة سابقة . لكن اسمح لي أن أسألك

سؤالاً في غاية الأيجاز وهو :

يمكن الانسان أن يفكر في الاشياء التي له عليها تأثير فعلي (وقد) يكون تفكيره وحكمه عليها صحيحاً لأنه هو المسيطر عليها . ولكن كيف يمكنه أن يحكم حكماً صحيحاً على الاشياء التي تسيطر عليه مثل الكون ، والفضاء ، والطبيعة ؟ أن هذه الاشياء التي نسميها بتلك الاسماء ليست في متناول يد الانسان بل هي على عكس ذلك لها كل التأثير عليه وعلى تفكيره . وقد يقول قائل إن الإنسان له (عقل) يصل الي حيز معلوم من الادراك ولكنني أقول له إنه لو كان كذلك لما اخطأ في أمر ما وان ما نسميه عقلاً كثيراً ما يخطيء في حكمه على الاشياء التي بين أيدينا ، فكيف يمكنه ادراك الاشياء البعيدة بل الموهومة . وأخيراً ما هو الخطأ ؟ وما هو الصواب في التفكير ؟ وما الدليل المادي الذي يقوم كميزان لهما ؟ هذا سؤال فارجو اجابتي عليه ولكم الشكر والتناء الجزيل ما
حبيب عوض الفيومي

سؤال الاديب الفاضل واسع الاطراف عويص الموضوع . ولكني أجب عليه بقدر ما يسع المقام واقول له من مبدأ الامر اننا لا نعلم

علماً صحيحاً مطابقاً قل أو أكثر عن « كنه » شيء قط مما في هذا
الكون

فأما أن كان المراد بالادراك أو المعرفة أن نلم بأوصافٍ واعراضٍ
مما نحس وجوده في الكون فقد نصل الى حد من المعرفة ينفعنا في
الحياة العملية وفي موضوعات التفكير التي ترتبط بها ، وقد نصل الى
علمٍ ما عن الاشياء المحدودة وعن الكون الذي لا نعرف له حداً ،
ويكون الفرق بين المعرفتين أن احدهما لها مقياس من الوقائع
المحدودة تقاس به وأن الثانية لا مقياس لها ولا يفصل فيها بين اصول
الخطأ واصول الصواب .

وأما إن كان المراد بالمعرفة أن ننفذ الى حقائق الاشياء من وراء
أوصافها وأعراضها فنحن لانعرف معرفة صحيحة عن أي شيء في
الكون فضلاً عن الكون الذي يحتوي جميع الاشياء . بل نحن لا
نعرف كيف تكون المعرفة الصحيحة عند « العقل المطلق » الذي
يقدر عليها ويعلو في هذه القدرة على طاقة عقل الانسان

هناك شيء موجود وهناك عقل يعرف . والمعرفة الانسانية هي
علاقة بين ذلك الشيء الموجود وذلك العقل العارف ، ولكن ما هي

المعقوص بشكل بديع . وكان ثوبها الشفاف يمتد الناظر من رؤية تقاطيع جسدها الراقية . أما ثغرها وصدرها فقد نازعا الأزهار بهاء الصنع وجمال التكوين . فلما تأمل بافانوس فيها ، غض من بصره ، وأجاب « الصوت » بقوله :

— لماذا تأمرني بمشاهدة هذه الصور؟ انها ولا شك تمثل الحياة الترابية للكافر الدفين هنا تحت قدمي ، في قاع جب ، في تابوت من صخر بركاني أسود . انها تعيد حياة رجل ميت وتذكر به . وهي على الرغم من ألوانها البراقة ليست سوى أظلال ظل ، حياة رجل ميت! .. فيا للغرور! ..



فردَّ عليه «الصوت» بهذه الكلمات:

— انه ميت ولكنه قد عاش ،
وأنت سموت ولن تكون قد عشت .

من ذلك اليوم لم يذق بافانوس
طعم الراحة قط . واستمر الصوت يكلمه

بلا انقطاع . ونظرت اليه الضاربة بالطنبور محذقة من تحت أهداب
عينها الطويلة . ثم كلمته قائلة :

— انظر ! اني خفية وحسنا . فاحبيني . وأفرغ في حضني

الهوى الذي يضيئك . انّ خوفك لا يجديك نفعاً ، ولن تستطيع
الفرار مني . أنا جمال المرأة . فيا أيها المعتوه أين المفترّ ؟ سوف تجد
صورتني في بهاء الأزهار ، في أناقة النخيل ، وطيران الحمام ،
وقفز الغزلان ، وتموّج الغدران ، وضوء القمر . واذا أغمضت
عينيك ، وجدتني في سويداء قلبك وقرارة نفسك . منذ ألف سنة
ضمني الى صدره الرجل الراقد هنا ، ملفوفاً بأكفانه ، فوق مضجع
من حجر أسود . منذ ألف سنة تملّى القبلة الأخيرة من في ولا
يزال رقاده معطراً بشذاها . انك تعرفني يا بافنوس حق المعرفة .
فكيف تتجاهلني ؟ اني أحد تجسّدات تاييس التي لا تعد . وانت
راهب راسخ في العلم والمعرفة ، وقد سافرت ، والسفر خير معلم ،
وكم من يوم يُقضى في الغربة ويأتي بطرف وفوائد لا تُنال في
عشر سنوات تقضى في الوطن . لقد طرق سمعك أن تاييس
عاشت قديماً في بلاد اليونان باسم « هيلانة » وكانت لها حياة
أخرى في مدينة طيبة ، وأنا التي كانت تاييس طيبة . فكيف غاب
عنك هذا الامر ؟ لما كنتُ على قيد الحياة ، اشتركت في اكثر
خطايا العالم ، والآن وان كنتُ لست سوى خيال ،
لا أزال قادرة على الاشتراك في ذنوبك وحملها عنك أيها الراهب
الحبيب . فما مصدر دهشتك ؟ أيان تذهب ، تجد تاييس حتماً امامك .

هذه العلاقة وكيف تكون؟ أم هي انتقال الشيء المعقول برمته الى العقل العارف؟ لا ولا ريب. أم هي نفاذ العقل العارف الى جوهر ذلك الشيء المكنون وراء العوارض والظواهر؟ لا كذلك ولا ريب. أم هي انتقال أوصاف من الأشياء الى العقول يمكن أن يطرأ عليها الاختلاف اذا اختلفت العقول أو اختلفت الأوصاف؟ وظاهر أن إدراك الانسان هو من نوع هذا الادراك الأخير. ومع هذا لا بد لنا من التسليم بأننا لا نعرف كيف تنتقل تلك الاوصاف ولا كيف نضع الحد الفاصل بين الوصف العارض والكنه الثابت في ذاته، ولا نعرف ما هي طبيعة القدرة التي تجعل العقل « عارفاً »، ولا كيف يعرف العقل نفسه إلا كما يعرف الأشياء الأخرى التي قد يصيب فيها وقد يخطيء بمقياس الصواب والخطأ الدارج المألوف

• • •

لكن . هل في هذا الحكم ما يدعو الى اليأس من الوجود؟ أما أنا فأقول لا . لأن الوجود شيء، والمعرفة المعهودة شيء آخر، وليس من طبيعة الوجود المحتمومة أن يعرفه الانسان أو غير الانسان، فليست المعرفة هي الوجود أو الحياة وليس الجهل هو العدم أو الموت . وللانسان في هذا الكون شأن غير أن يعرفه ويحيط بسرّه ويدرسه بعقله عن طريقته المعهودة في درس معلوماته . شأنه في هذا الكون

أن يكون جزءاً منه وأن يحفظ الصلة بينه وبينه ، وهذه الصلة ليست كلها من طريق العقل ولا كلها من طريق الاحساس . وإنما هي صلة اكبر من ذلك . لأننا لا نتصور انفصامها في حين اننا نتصور انفصام ما بين الانسان وبين الكون من صلة العقل والاحساس

ومن خطأ العقل أن يحتم معرفته التامة بحقائق الكون أو إنكاره البات لتلك الحقائق . إن العقل لا يفهم حقيقة شيء في ذاته ، فليس امامنا إلا أن نفترض أحد فرضين : فاما ألا يكون هنالك حقيقة تُفهم ، واما ان العقل يضع نفسه في غير موضعه حين يتصدى لاستكناه تلك الحقائق . والفرض الأول بعيد التصديق ، فلم يبق إلا أن العقل غير منوط بفهم كل صلة بين الانسان وهذا الكون الذي نشأ منه ، وان الصلة موجودة وان لم تكن معقولة . إذ نحن لا نكاد نتخيل أن يكون الانسان وليد هذا الكون بكل ذرة من ذرات خلقه ثم يخلو من الاطمئنان الى حقائقه والايام بسره والاتصال بكنهه

هذه الصلة التي لا تدرك بالعقل هي الصلة التي يفسح فيها المجال للايمان والاطمئنان الى حقيقة الكون بحكم نشوء الانسان فيه لا بحكم سبب آخر . ولكي ندرك هذا المعنى أقرب إدراك مستطاع نتخيل أن هناك كوناً آخر مناقضاً لتركيب الانسان قد نُقل اليه الانسان بطبيعته التي هو عليها — فماذا يكون ؟ يكون انه لا يستقر فيه لحظة

ولا يطمئن اليه أي اطمئنان . فتقيض هذه الحالة هي الحالة التي بُني عليها الانسان في كونه هذا . وهي حالة الثقة : ثقة صاحب الدار في داره ، أو هي حالة العقيدة والايمان

والمعقل أن يأخذ منا ما أعطانا . وليس اطمئنان العقيدة من عطاياها فليدعه جانباً وليأخذ من معارفنا ما يشاء . وهو لا يمس ذلك الاطمئنان إلا في ظاهره ، ثم لا قوة له على باطنه الذي لا يسمع صوته ولا يحفل بقضاياه

العقيدة هي الثقة بالنفس أو بالكون وليست هذه الثقة مستمدة من العقل . وإنما هي مستمدة من طبيعة تركيب الانسان ومن كونه متصلاً بهذا الكون الذي هو فيه بصلة الوجود والحياة فهذه الثقة هي أساس العقيدة ، وأما الأديان والشعائر وفروض المعرفة الأخرى عن حقائق الوجود فتلك هي الاشكال التي تمثل بها العقيدة للفكر أو للخيال ، وهذه الأشكال هي التي تخضع لنقد العقل ومقاييس التفكير

وقد تختلف أشكال العقائد الظاهرة فتترد على الحس من الف مورد وتلبس للخيال لبوساً لا يلبث على حال واحدة ، ولكن أساس العقيدة في النفس يظل بنجوة عن هذه التقاض ويسلم من سطوة النقد الصحيح ، كما يسلم المعنى الصادق من اختلاف الكلمات التي

تعب عنه في لغات الناس ومن اختلاف الخطوط التي تسطر بها تلك الكلمات

وقد بدأت الجواب بقولي « اننا لا نعلم عالماً صحيحاً مطلقاً قل
أو أكثر عن كنهه شيء مما في هذا الوجود » وأختمه بأن العلم المطلق
لا يدخل في حاجة الانسان ولا في مقدوره ولا في طبيعة وجوده ،
وان للفكر عالماً ثابتاً بالنسبة اليه يستطيع أن يعتمد عليه كل الاعتماد
ما بقيت النسبة بينه وبين ذلك العلم محفوظة كما يقولون ، فهو اذا
أخطأ في فهمه فخطأه ثمة سهل التدارك والاصلاح ، لأن وسائله
المحدودة كفاء لتلك المعارف المحدودة . . أما اذا هو تجاوز هذا
الشاطيء الأمين الى غمر الحقائق المطلقة فهناك لا حيلة له ولا سلطان
على أصغر شيء من الأشياء ولا فرق بين الخطأ والصواب في تيه
ذلك الفضاء الذي لا مبدأ له ولا نهاية

ولنسلم بأن « الموجود » شيء أعم وأشمل من « المعروف » ،
وان الانسان لم يخلق ليعرف الوجود في حقائقه المطلقة ولكنه خلق
ليكون جزءاً حياً منه يتصل به بصلات كثيرة والعقل صلة واحدة من
بين تلك الصلات ، فحسبه في دنياه ان يكون ذلك الجزء الحي
المغروس في صميمها وأن تمتد صلاته بها من كل طريق والى كل
غاية . انه اذا استطاع أن يكونه فقد باء من الحياة بأصدق المعرفة
وظفر من الكون بأوفى نصيب



اثر المحدث في التأليف العربي

أما الجزء السادس من « مذهب الاغاني » الذي يصنفه
 الاستاذ محمد الحضري بك ترتيباً واختصاراً لاغاني أبي الفرج
 الاصبهاني . أفتحه فأجد فيه عشرين صفحة في ترجمة « ابن هرمة »
 أحد الشعراء من أدعياء قريش الذين أبقى ذكرهم ذلك الكتاب ،
 وأتصفح هذه الترجمة الطويلة فلا أعر فيها إلا على حديث استماعة
 وعطاء أو منع وهجاء كثيراً ما يقول فيه قولاً صريحاً إنه قد مدح
 من مدحهم لأنه أخذ منهم أجراً على ذلك أو هو يطمع في الأجر
 بعد المديح ! ومن هذا الكلام قصته مع السري بن عبد الله إذ
 نزل به وأنشده قوله « عوجا نحي الطالول بالكشب » الى آخر
 القصيدة . فلما فرغ راويته (ابن ربيح) من الانشاد قال السري
 لابن هرمة : مرحباً بك يا أبا اسحق ! ما حاجتك ؟ قال جئتك عبداً
 ملوكا . قال بل حراً كريماً وابن عم فما ذاك ؟ قال ما تركت لي مالا

الارهنه ولا صديقاً إلا كفته . فقال السري : وما دينك ؟ قال
سبعائة دينار ، قال قد قضاها الله جل وعز عنك ، فأقام أياماً ثم
قال يتشوق الى بلده ويمدحه بأبيات هذا بعضها
أما السري فاني سوف أمدحه

ما المادح الذاكرا الاحسان كالهاجي
ذاك الذي هو بعد الله اتقذني فلست أنساه اتقاذي واخراجي
ليث بحجر إذا ما هاجه فزع هاج اليه بالجمام واسراج
لأحبونك مما اصطفى مدحاً مصاحبات لعمار وحجاج
أسدي الصنيعة من بر ومن لطف إلى قروع لباب الملك ولاج
كم من يدلك في الأقوام قد سلفت

عند امريء ذي غنى أو عند محتاج
فأمر له بسبعائة دينار في قضاء دينه ومائة دينار يتجهز بها
ومائة دينار يعرض بها أهله ومائة دينار إذا قدم على أهله »

وقصته هذه مع السري مثل لجميع قصصه مع الأمراء والعظماء .
لم يصنع في حياته إلا أن يستجدي ثم يمدح أو يهجو بكلام كذلك
الكلام الذي قرأته لا براعة فيه ولا صناعة ، فما الذي أبقى ذكر هذا
الرجل اثني عشر قرناً بعد موته ؟ وبم استحق أن نسمع اليوم اسمه
وان يسمع به من تقدمنا بعد القرن الثاني للهجرة الى الآن ؟ وكيف

هان الخلود هذا الهوان فبلغه مثل ابن هرمة وهو أغلى ما تسمو اليه
الهمم وتصعد اليه الأبصار؟ أبهذا الشعر الذي لا خير فيه؟ أم بقدر
كان له يرفع من قيمة الشعر ما فاته من رفعة الاجادة؟ أم بمهابة
لشخصه تغنيه عن مهابه القدر وبلاغة الشعر؟ لا! فان ابن هرمة
كان دعيا منبوذاً في نسب منبوذ من أنساب قريش. ولعل أظرف ما
في ترجمته ما رواه الكتاب اذ روى أنه نزل بعبد الله بن حسن في
البادية وجاءه رجل من اسلم « فقال ابن هرمة لعبد الله: أصلحك
الله. سل الاسلمي أن يأذن لي أن أخبرك خبري وخبره. فقال له
عبد الله بن حسن: ائذن له! فأذن له الاسلمي

«قال ابراهيم: اني خرجت أصلحك الله أبغي ذودا لي فأوحشت
وتضيفت هذا الاسلمي فذبح لي شاة وخبز لي خبزاً وأكرمني، ثم
غدوت من عنده فأقمت ما شاء الله، ثم خرجت أيضاً في بغاء ذود
لي فأوحشت فضفته فقراني بلبن وتمر، ثم غدوت من عنده فأقمت
ما شاء الله ثم خرجت في بغاء ذود لي فقلت لو ضفت هذا الاسلمي
فاللبن والتمر خير من الطوى! فضفته فجاءني بلبن حامض...!

فقال الاسلمي: قد أجبته أصلحك الله الى ما سألت، فسله أن
يأذن لي أن أخبرك لم فعلت

فقال: ائذن له. فأذن له. فقال الاسلمي: ضافني فسألته من
هو؟ فقال لي رجل من قريش. فذبحت له الشاة التي ذكر، ووالله

لو كان غيرها عندي لذبحته له حين ذكر أنه من قريش . ثم غدا
من عندي وغدوت على الحي فقالوا : من كان ضيفك البارحة ؟
قلت رجل من قريش . فقالوا لا والله ! ما هو من قريش . ولكنه
دعي فيها ! ثم ضافني الثانية على أنه دعي من قريش فحجته بلبن وتمر
وقلت دعي قريش خير من غيره . ثم غدا من عندي وغدوت على
الحي فقالوا من كان ضيفك البارحة ؟ قلت : الرجل الذي قلم عليه
إنه دعي من قريش . فقالوا لا والله ! ما هو بدعي من قريش ولكنه
دعي أدياء قريش . ! ثم جاء لي الثالثة فقريته لبناً حامضاً ووالله لو
كان عندي شر منه لقريته إياه . . . فانخذل ابن هرمة وضحك
عبد الله وضحك جلساؤه معه ! »

فهذا نسب ابن هرمة . أما منظره فلم يكن مهيب الشخص لا في
نفسه ولا في جسمه ، لأنه كان ضعيف الحال وكان كما وصفه الكتاب
« قصيراً دميماً أرميصاً » فلا شأن لنسبه ولا شأن لشعره ولا شأن
لشخصه كما رأيت . فبأي معجزة نجا اسم هذا الرجل من غمار النسيان
الذي طما على أسماء الملايين من أبناء تلك القرون الاثني عشر ثم
وصل الينا فعلمنا في زماننا هذا أن انساناً اسمه ابن هرمة ظهر فوق
هذه الأرض وتحت هذه السماء قبل الف ومائتي سنة ؟ وحفظنا له
كلاماً قاله وأخباراً حدثت له بين من نحفظ لهم الكلام ونروي عنهم
الاخبار ؟ لا تقل أن له شعراً تسلل في جانب أخبار الغناء التي أوردتها

الاصبهاني فيما أورد فبقى بذلك ذكره وخلص الينا اسمه ولم يرزح تحت زحام الاسماء التي يصيبها الكلال والاعياء في أشواط القرون . فليس هذا سبب بقاء اسم الرجل . لأن كتاب الاغني أثبت له أخباراً مسموعة غير شعره ولان الاصوات المائة التي اختارها ذلك الكتاب بتراجها وقصصها وأشعارها لم تكن كل ما غنى به المنشدون في الدول العربية الى عهد أبي الفرج - فابن هرمة كان معروفاً إذن بغير كتاب الاغني ومختاراً بغير اختياره ، وكان ابن الاعرابي يقول ختم الشعر بابن هرمة . . ! ولا بد من سبب آخر غير الغناء وغير رواية الكتب جعل اسمه بين الاسماء الطافية على عباب التاريخ ولم يرسب به الى أعماق النسيان التي هوي اليها من هو خير منه وأولى بالبقاء .

أما ذلك السبب فما أظن إلا انه هو هوان قدره الذي حسبنا انه كان خليقاً ان يُعقى على اثره ويغض من شعره . فان هذا الهوان هو الذي سهل له أن يتجرد لكسب الرزق من الاستجداء بالشعر ولا يبالي اللوم على عرضه ولا على قومه . وما دام قد تجرد لنظم الشعر في مدح قوم وهجو آخرين فله من « الحياة البدوية » كفيل بالعيش اليسور والذي ذكر بعد المات ، إذ كانت هذه الحياة قد جعلت الثناء غاية مجد الماجدين وجعلت رواية الاخبار غاية حكم الحكماء وعلم العالمين

فأما حب البدو الثناء بالسنة الشعراء فقد جمعوا فيه كل ما فطر عليه الناس من حب الفخر والشهرة والخلود فقام لهم مقام التاريخ و « الرأي العام » والتماثيل وكل ما يحفظ به الذكر من الأبناء والآثار وأما الرواية فهي غاية العلم عند العرب لأنهم قوم رحل لا زبدة لأعمارهم - بعد أن ينقوها في ارتياد الكلاً وتقل المتاجر من بادية الى اخرى ومن حاضرة الى غيرها ومن حي الى حي - إلا هذه الزبدة من تواريخ الناس وعبر الحوادث وتجارب الأيام وقصص المشهورين والمغمورين . فمثل الحياة التي أنفقت عندهم فيما يفيد ولم تذهب سدى في غير طائل هو حياة الرحالة الذي يعرف ما لا يعرف سواه من أبناء كل قبيلة ووقائع كل جيل ويطرفك بالخبر كما كان بعيداً منسياً كان ذلك أدل على وفرة علمه وطول تجربته . ومن كان له هذا العلم وهذه الحنكة فهو الحكيم وهو الواعظ وهو الراوية وهو « المحدث » الذي يُصنع اليه وتلتبس المعرفة عنده

ولما تحضر العرب وقامت دولتهم في المدن كان جلساء الملوك في السمر والمنادمة كلهم من « المحدثين » باللسان أو ممن يؤلفون الكتب للتحديث في الورق . فغير عالم ولا مطلع في رأيهم من يغيب عنه خبر في قبيلة أو بطن من بطونها ، أو من يُسأل عن شطرة بيت قالها شاعر في ذي خطر فلا يكون له معرفة بها ونادرة عنها . وظلت هذه بضاعة الاديب العربي أو « الفقيه الادبي » الى سنوات مضت

نذكرها ونذكر كيف كان الادباء - ممن لا يزال بعضهم على قيد الحياة - يرودون المجالس بأساطير القبائل وأقاصيص الأعراب وصغائر الأنباء عن البائد المغمور منهم قبل النابه المشهور ، ثم لا ينسون بين حين وحين نادرة من نوادر الكرماء المحمودين الذين يجزون بالالف على القصيدة يُمدحون بها ويمنحون الضيعة في الكلمة يستفسرون عنها ! ولولا هذا « التحديث » الذي غلب على التأليف العربي والآداب العربية والذي يغري بأجزال العطاء للمؤلفين والادباء لما بقي لابن هرمة واضرا به اثر في الاغاني ولا غير الاغاني ولا سمعنا عالمًا يباهى بالغريب كابن الاعرابي يقول انه كان خاتم الشعراء !



وليس ابن هرمة بالشاعر الوحيد الذي استدر العطاء بالثناء ، فهذه سنة غالبية بين شعراء العرب في البدو والحضر وندر بينهم من لم ينظم الدواوين الكبيرة في هذه الاغراض ، إلا ان الاكثر من هؤلاء كسبوا الشهرة والذكر بغير ما كسبوا به المال ورويت لهم حسنات شعرية - قلت أو كثرت - تحفظ لهم أسماءهم بعد موتهم ولو لم ينظموا حرفاً في المدح والهجاء . ومنهم من لا يعرف له اليوم شيء من مدحه وهجائه غير ما يراجع في صفحات الكتب أو يستظهره الدارسون والحفاظ . فهم شعراء ثم مستجدون بعد أن كانوا شعراء . أما ابن هرمة واضرا به فانهم مستجدون من مبدأ الأمر ثم نظموا

الشعر لأنه اداتهم في صناعة الاستجداء . وهم خلقه المحدث وحده
ولا مكان لهم في سجل التاريخ بغير اذنه

ولكن لا يفهم من هذا اننا لا نقرأ في « الأغانى » أو في المهذب
إلا شعراً كشعر ابن هرمة وترجمة كترجمة حياته القاحلة العقيم ،
فإنما قصدنا الى العبرة من سيرة انسان كهذا بقيت اثني عشر قرناً
وكان كثيراً عليه مسافة عمره من المولد الى المات !

وأردنا أن نرى كيف تقتحم الصغائر مكانها الفسيح بين العظام
حتى في ساحة التاريخ وامام عرش الخلود ! ولا حاجة بنا بعد ذلك
الى تنويه بأغانى أبي الفرج أو بمبذبه المختصر ، فقد أضاف به الاستاذ
الحضري عملاً جديداً الى أعماله النافعة في الأدب والتاريخ





مذكرات ابليس

اغواء فتاة (١)

قال ابليس : كنت أتمشى في بعض أحياء القاهرة وقد نهكني الفكر وأمضني اعمال الرأي وأنا مشغل البال بمكيدة جهنمية أوقع بها ساسة الأمم في طامة مشكلة وحرب زبون^(٢). فيينا أسير في طريق عامرة بالقصور أهلة باصحاب الثراء والجاه القديم إذ حانت مني التفاتة الى نافذة في دار قوراء لمحت فيها فتاة عذراء مفرغة في قالب بديع من الحسن تنسجم على جسدها الغض غلالة بيضاء كأنها نسجت من رغوطة الماء وخيوط الضياء ، تشف من بدنها عن بشرة صافية بضة ، ونهدين قاعدين كأنما ينفذان من خلال ذلك الشف الرقيق ، وقد اتكأت على النافذة تنظر الى الطريق وتنسم الهواء

تلك هي صاحبتى الصغيرة مريم ، وما كنت أجهلها ولا أنا غافل

(١) هو فصل مستقل من فصول يشرح فيها ابليس اساليب

اغوائه للناس

(٢) قد أفاج ابليس في تدبير هذه الحرب على ما يظهر فان الحرب

العظمى قد اشتعلت بعد كتابة هذا الفصل بسنة واربعة شهور !

عنها . ولكنها كانت طفلة تمرح في حراسة ملائكة الطفولة فلا
أجروا على الدنومنها ، وكانت زهرة في كمام الفضيلة فلا تمتد يدي
الى اقتطافها - وللطفولة حرم تحوم حوله الشياطين ولا تتخطاه

فأما وهي اليوم كاعب نبض قلبها بدم الشهوة وجرت في عروقها
حرارة الهوى ، وتفرقت عنها ملائكة الطفولة فلا شيء يعصمها مني ،
وتفتحت زهرتها فامتزح عرفها الطاهر بهواء هذه الدنيا ، فلسوف
يكون لي معها شأن كالذي كان لي مع غيرها من بنات حواء ، ثم
اتركها وما بقي فيها إلا كالذي يبقى في الزهرة الذابلة من شدى أحرقه
في مباحر الحجيم

ورأيت أن أعرج عليها في طريقي فألهو بها وأرفه عني ساعة
بهذه الفكاهة اللطيفة ، فأربح ذهني من جد الخبائث الكبيرة
والشرور المستطيرة ، واشغل نفسي بهذه الغواية الساذجة وان كانت
لا تحتاج الى أكثر من دعابة شيطان صغير من تلاميذي المبتدئين
في صنعة الفساد

وكانت مريم بنت رجل ذي مكانة وثراء ، ظلمت اضارب بعقله
في المضاربات حتى خسر عقله وماله ولم يبق له من الضياع والنسب
إلا هذا القصر الذي يقيم فيه ، فحجروا عليه وأقاموله قياما يتولى تأجير
جانب من القصر وينفق من أجرته في مؤنة العائلة وترية الصغار ،
فمكف الرجل على بيته لا يريم عنه ، وهجره أصدقاؤه وتسلسل حشمه

واحدًا بعد واحد إلا خصياً منحوساً حفظ عهد سيده كما يقول ويئس
من غير هذا المرتزق كما يعلم الله!! ولو علم الخبيث مرتزقاً أوسع
جناباً وأوطأ رحاباً لفر من بيت سيده فراره من المأسدة .!

وكنت قد وكلت بمریم ولدي الأعمور^(١) فصرفته في دعوة فتى
انسى استعين به احياناً على خلب قلوب العذارى ، وصعدت الى
مریم فدخلت غرقها وهي لا تراني وقد قامت تخطر الى المرأة ،
واني لأعلم انني أفنن المرأة بكل صورة إلا صورتها فانها خلقت مفتونة
بها ، وأقودها الى كل مكان إلا مكان المرايا فانها تنقاد اليه طيعة
راغبة ، وما أحسب حواء حين أبصرت صورة محياها في ماء الغدير
إلا قد حسبت أن الله أجرى لها الماء لتترأى فيه لا ليرتوي منه
العطاش ويحيا به موات الأرض ، وكذلك نشأ بناتها على هذا الرأي ،
والحمد لله !

يد اني اذا كنت لا أبث في نفس المرأة بذور الغرور بجمالها
فقد أتميه وأمدھا فيه وامهد منه سبيلاً الى إذكاء الحسد والبغضاء
والاستهتار بالعشق وسائر الأهواء ، واخطأ الذين خيل اليهم أن
افتتان المرأة بجمالها واضعها بمنجاة من طمع مرضى القلوب ورافعها عن

(١) الأعمور من ولد ابليس الحمة هو الموكل بالحناء والفساد في الارض
كما جاء في الاحياء

منال الراغبين، فتكبر في نظر نفسها وتُصغر المتطلعين اليها ، فأما قولهم
هذا بعض الظن وكل الخطأ . ومتى صد الدلال عاشقاً؟ بل أي عاشق
لا يتصباه الدلال ولا يضرم رغبته التمتع والمطال ؟ ؟

ان افتتان المرأة بجماها ليعدها عن طائفة من الطامعين لا خبرة
لها بأهواء المرأة . فأما الذين يعلمون الى أين يثبت غرورها فرجما
أدناهم منها وأعانهم عليها . فهي تخدع من جانب ذلك الغرور ويلقى
بها العجب في وسط ميدان الشهوات فاذا هي كالثائد الذي يجعله
كسوته المذبة وأنواطه المتلاثلة هدفاً للرماة وغرماً للرائشين

ولو علم الآباء أي حظ لي في الجمال المقتون لما امتدحوا أنفة بناتهم
ولما خافوا عليهن من شيء خوفهم من هذه الانفة ، لأنها سلاح ترفعه
الفتاة في وجوه الأزواج فيفرون منها وتضعه تحت اقدام الفساق
فيظفرون بها ، واني ليعجزني من الملاحاة الوديعه ما لا يعجزني من
الدمامة الشنيعة ، وأنا القائل عن لسان بعض الأئس :

أحب اللواتي في صباهن غرة وفيهن عن أزواجهن طلاح
مسرات حب مظهرات عداوة تراهن كالمرضى وهن صحاح
وكذلك نزيغ الشعراء ، ونخدع الامهات والآباء .

فلما نهضت مريم تخطر الى المرأة قلت لقد سنحت الفرصه
وقضي الأمر .

وأقبلت عليها أقول :

« تبارك الله » ما هذا الجبين الساطع والوجه البارع والحسن الرائع !! على مثل هذا الجمال فلتقطع قلوب الرجال حسرة ، ومن مثل هذا الرواء فلتتحرق صدور النساء غيرة ، ووالله ما هما إلا صورتان فازتا بعبأني الحسن وسماته : هذا الحيا في عالم الشهادة ، وذلك المثال في عالم الخيال ...

فتبسمت الفتاة وترنح عطفهاها وأنشأت تجيل في المرآة نظرات كانت قبل اليوم تلحظها من سواها ولا تفقه معناها ، فأخذت اليوم تتعلم كيف ترمي ، وتنظر أي الرميات يوجع وأيها يدمي ، وأي السهام يخطئ ، وأيها يصمي ، وأرسلت من بين اجفانها تلك النظرات الاتنوية التي تشبه المغناطيس لأنها تجذب اليها قلوباً من الحديد الصليب ، وان كان ذلك الحديد ليكونن عليها في بعض الأحيان حدا كحد السيف ونصلاً كمنصول الحراب

ورأيتها عارية الشعر ، عاطلة النحر ، مجردة المعصم ؛ فقلت : ما كان أجمل هذا الليل لو زانته النجوم الجوهريّة ، وما أنفس الحلي الذهبية على هذه الترائب البلورية !! أو ما كان قرط الماس أجمل في هذه الاذن منه عالقاً في اذن جارتك السمراء كأنه شرارة طارت من فحة ؟ وما بال هذا النحر لا تكسوه لبة ربما فاضت على صدر

قامت فلاحته فيه كما يلوح وضوح البرص في الاديام الاسود؟ وما لهذا المعصم لا يزينه سوار ربما التوي على ذراع مهزول فكأنه مسعر قد التف عليه ثعبان!! وهل استخرج النضار الاليمع على هذه الصدور؟؟ أو التقط الجوهر الاليسطع في ضياء الجمال الفضاح؟؟ وتلك رقية مارقيت بها فتاة فقويت عليها وما دسست في صدر أنثى خدعة هي أسرى فيه منها. بل لقد كنت اهجس بها في قلب المرأة فتوثر لو انها تصبح بغير جيد من أن يكون لها جيد لا تطوقه الحلي والعقود!

فما تلوتها على مريم حتى انكسرت كبير ياؤها وزال عنها ذلك البشر الذي كان يترقق في أسارير وجهها. وكأنها تقول: أنى لي هذه النفائس وقد حرمني الله نعمتها وأباها على الله أن يتمني بها؟ قلت أولا يفتيك أبوك عن هذا التمني؟!

قالت أن أبي لكالضيف في المنزل لو أنه يكرم اكرام الضيف. وهذا القيم قد بات يقرر عليه في النفقة ويقطر عليه الدرهم بعد الدرهم فاذا ظفر بعلبة التبغ حسبها منه غنماً كبيراً ومنة عظمى

قلت: فخطيبك!! فأجهشت الفتاة بالبكاء وهي تقول: لقد كان لي خطيب يزورنا أحياناً فيتودد إلي ويلاطفني، فلما تضعضعت حالنا وقعد بنا الدهر هجر الرخاء منزلنا وهجره في يوم واحد. فما سمعنا عنه منذ ذلك اليوم إلا أنه عقد خطبته بالامس على احدى

قريناتي في المدرسة ، ولو أنها كانت أملح مني خلقاً أو أصبح صورة
لحسدها على ملاحظتها وصباحتها ، ولكني لست أحسدها إلا على
أب أكثر من أبي مالا وأدنى إلى القبر قدماً
قلت لا يعدم هذا الجمال عاشقاً يتقرب اليه بحياته ، ويذل
المال في سبيل مرضاته !

فانتفضت الفتاة ارتباعاً من كلمة العشق . وكان مبلغ علمها فيه
أن العشق والفسق شيء واحد ، وان البنت التي تعشق غير جديرة
بأن تعشق ، وكانت تسمع العجائز يقلن عن بنات اليوم أنهن فطح
القلوب تتكشف نفوسهن لعيون الرجال وهي سر من أسرار الجنس
لا يجوز افشاؤه وخطة مدبرة يحرم اعلانها لغير بناته ، ويأخذن على
الفتيات الناشئات إطماعهن الرجال في جنس النساء ثم يتذاكرن الأيام
الحوالي أيام كن يتمنن وهن الراغبات ويحرقن قلوب أزواجهن بآلتيه
والصدود والتجني والدلال وهن بهم أكلف وعليهم أحنى وأعطف ،
ثم يتوجعن لسوء حظ بنات اليوم ويقلن لمن حضر منهن : لقد
نعما بزماننا فاستقبلن اليوم زمانكن المعكوس ! كأنما يضعن من
شأن الصبا بعد أن فارقهن ويأسفن على حظ الصبيات من الشباب
لئلا يأسفن على ما فاتهن منه . أو كأنما يحسبن الفتيات ضرائرهن
في هذا العاشق المتقلب فينتقمن لانفسهن ويبخسن ما يوليه اولئك
الفتيات من تحفه ولطائفه

وشوه وجه العشق في عينها ما كانت تقرأ وتسمع في المدرسة من وصف الفضائل وصفا كوصف الأكمة لنجوم السماء ، وتعريف العفة تعريفاً يناقض كل صلة بين الرجل والمرأة غير تلك الصلة التي يسجلها الشيخ المأذون في دفتره ، ولعمري أنها لفضائل هوائية لا تعيش الا بعزل عن الرذائل ولا تجالذ الشهوات في ميدان واحد ، وإنما لجنود تمتع عن عداتها في حصن بعيد فلا تلبث أن تقتحمه العدة عليها مرة حتى تستأسر لها أو تتقلد سلاحها وتحارب به في صفها ، وليست الثقة بهذه الفضائل الا كثرة هاروت وماروت بنفسيهما في السماء . فلما هبطا الى الأرض سكرأ وفسقأ وقتلا في لحظة واحدة !

يضع حقي الانس فضائلهم هذه عشرات في طريقي فأتناولها وأجعلها معالم يهتدي بها الناهجون فيها . ولا شيء يهون علي اغواء الفتاة الشرقية غير عفة هي بصدور الكتب أجمل منها بصدر الفتاة ، ليس لاغواء الفتاة الشرقية عندي إلا طعمة واحدة . فأما فتاة الغرب فاني انصب لها أحبولة بعد أحبولة حتى تقع في يدي ، وتصبح فريسة لي

فاذا انتقلت بالشرقية من الصيانة الى العشق أبصرت نفسها قد انتقلت الى حال ينكرها أهلها وذووها ويستهنها الناس من حولها ، وعلمت أن ما هي فيه رجس لا يرضاه أحد غيرها فخلعت العذار وارسلت نفسها في التيار ، فذهبت الى الغاية من التبذل والاستهتار

فأما اختها الغريبة فلا بأس بها من العشق ولا انكار عليها فيه . فاذا أحبت لم ينته منها أربي ولم أزل انتقل بها في أدوار شتى واندرج بها من السائع الى المحذور ومن الطيب الى الخبيث حتى يفضي بها الأمر الى الفساد

وكذلك استفيد من غلو الشريين في فضائلهم ما لا استفيده من تفريط سواهم . فكما ضيقوا دائرة الفضيلة اتسعت دائرة الرذيلة ، وكما حصروا حدود الحسنات انفرجت حدود السيئات



وأنست من مريم استعصاء وثناقلا . فأخذت يدها الى نافذة تطل على حديقة قصر في جوارهم تسكنه اسرة لها فتاة من لداها قد سبحت في الغواية سبحا وتقلبت في المقابح ردها ، وجرت في العشق على مذهب أولئك الذين ينجلون من أن تراهم اليوم مع عاشق الأمس ، ويحسبون أن الدوام على عاشق واحد كالدوام على لباس واحد . هذا ينم عن فقر الى المال ، وذلك يبين عن فقر الى الجمال

وكانت يوم ذلك في هوى فتى هو ثالث عشاقها ، فكان يختلف اليها في الحديقة وتعلم أمها من شأنها ما تعلم ولسكنها تبادلها غض النظر . ولعلها لا تكره زيارة الفتى لأن عين ابنة الثلاثين قد ترى كما ترى عين ابنة الخمس والعشر !!

وكان مجلسهما في الحديقة عند سرحة فرعاء يقضيان تحتها ساعة أو ساعات لا مقدار لها في تقويم العاشقين ، لأن اله الحب وربات الزمن لا يتلاقون في مكان واحد ، فاذا شغل الحب موضعاً فر منه الزمن ، وإذا خلا موضع من الحب تمطى فيه الوقت وتناولت الساعات

وجلسا في تلك اللحظة وقد تعاقدا بالأيدي وتجاذبا بالنظر . فكأنهما يعالجان التنويم المغناطيسي أو كأن كلا منهما قد جمع روجه في عينيه لتتعرف من وجه صاحبه روحاً لقيتها في عالم الذر ، فيطول أمد النظرة لطول العهد ، ثم تحتم بقبله لا يدريان أي راحة الذاكرة من هذا الامعان والاستقصاء أم هي بين الروحين تصافح المعرفة واللقاء

فلما رأتهما مريم على هذه الحال تضرمت في نفسها شعلة الصبا ، وسرت في عروقها حميا الهوى ، فقالت ليت لي عاشقاً !!
قلت أوتعشقين ؟ ؟

قالت ولم لا ؟؟ بل اني لعاشقة الساعة . وكأنني أجد نفسي بين يدي فتي أجلس منه مجلس هذه الفتاة من ذلك الفتى ، وانا نتلاحظ كما يتلاحظان ، وتتناق كما يتعاقبان ، وتقطف من زهر المنى في روض الهوى مثلما يقطفان

قلت فاذهبي الى عين شمس ... فهناك تجدين عيانا ما تتوهمين
خيالاً . واستقبلي عصاري اليوم في وادي الضياء والغرام حبيبك المأمول
ونعيمك المعسول

* * *

وجاء الأعرور بالفتى الانسى فأرصده في منعطفات عين شمس
بمبحث أمرته . فوقف يتشاغل بالصفير ويفازل الغاديات والرائحات
أما هذا الفتى فهو ممن طمست على بصائرهم وأضلت ألبابهم ،
وطوحت بهم في الفساد الى حيث لا يبلغ صوت الضمير ونداء
الوجدان . فأصبح فآثر النفس ، بارد القلب ، لا يخف الى غير
الحازي ، ولا يرتاح الى حديث في غير الشراب والنساء ، ولا يرى
إلا ان العالم حان أو ماخور

وذهبت مريم الى امها فاستأذنتها في الخروج أصيل ذلك
اليوم ، وكأن امها خافت عليها مغبة ما بها من الكمد واشفقت أن
تتلاشى نفسها غمًا من غدر خطيبتها وانصرافه عنها الى صاحبتهما ،
فكرهت أن تجمع عليها بين ضيق الصدر وضيق الأسر ، فأذنت لها
ونادت بالحصى جوهر ليصحبها الى حيث تشاء

* * *

ولم يبق الا ريم من النهار فتوردت الشمس وتزينت مريم

بأحسن زينتها وبرزت تنهادى في الطريق كأنها طاقة الزهر تترك
بعدها عبقاً في حيثما صاحخت الهواء

وظفقت كلما نقلت قدماً سمعت كلمة اطراء وغزل ، وكلما أرسلت
نظرة تعثرت في نظرات المقل ، وهي ترى ذلك وتسمعه ولا تعيره
نظراً ولا توليه مسمعاً، حائرة الطرف في دنياها الجديدة مشردة النفس
بين الخجل والغرابة . حتى رمقت الفتى على قرب فرأت قواماً قوياً
ومشية رشيقة ووجهاً تشرق فيه بشاشة الصبا وفقاً تبسّم فيه الملاحاة
وعينين الأتقين كأنما تضاحكان الضياء ، فأحست كأن طائراً نضّ
جناحيه بين جوانحها ، ومشت قبالتة وهي تنجذب الى ناحيته على
غير عمد ، وعلمت انها ستسمع من ذلك الفم الجميل ما قد سمعت من
اولئك الثائرة المتعشقين . فخفق قلبها وتوهج خداه . واذا هي على
قيد باع منه تسمع صوتاً رخياً ولكنها لا تتبين ما يقول

وحاولت أن تحرف عنه فخانتها قدماها . ثم همت أن تنظر
اليه فلم تطعها عينها . ورأى الفتى ترددها ووجومها فأقبل عليها
بكياسة الامراء وقال لها بلباقة الخطاب : ألسنت أنا أولى بمصاحبة
هذا الملك السماوي من ذلك العبد الأدم ؟ وأشار الى الخصي
جوهر — وكان على بعد يحدث بعض أصحابه — فضحكت .
وأدارت عينها اليه ولكنها لم تلبث أن أدارتها عنه . وما كان
فتاي ليجهل أن إعراض الخجل والدلال انما هو عين الاقبال ؟ وان

اثناء الروعة انما هو هزيمة في هذا المجال ، فأسرع اليها بجرأة أفادته
اياها ممارسة هذه المواقف وأمسك يدها وهي ترتجف بين يديه ،
فأذهلتها هذه المفاجأة ولبثت هنيهة يخيل اليها أنها تتأهب للحركة
ولا تتحرك وانها تنبس بالكلام ولا تتكلم . كأن القلب الذي
يوحى اليها الكلام والاعتزام قد طار منها في ملكوت الحب والهيام .
فلم يبق منها إلا بصير شاخص كما ينظر الصبي في أثر العصفور أفلت
من يده ، وإلا بدنٌ مستسلم كأنه بين راحتي الكرى

وأدركما جوهر وهما على هذه الحالة . فأرسل الفتى يدها
وأفاقت هي الى نفسها وهي تقول : وافضحته ! هذا جوهر أغا !!
وسمعهما يجرنجم ويطمطم بما لا يفهمانه ، وكأن كلماته من اللكنة
والعجمة أصوات بغير حروف . ثم قال : « عيب يا بك ! لا يليق
بك أن تهجم على الحرائر في قارعة الطريق ! ان هذه ليست من
اولئك اللاتي تعرفهن !... »

فاستقبله الفتى باسماً وقال بما يعهد في هؤلاء الفتيان من الظرف
وتزويق الكلام : « ساحك الله يا أبي جوهر فقد بالغت في
إساءة الظن بنا ! ولسنا نحن كما ظننت من السوقة الهمل ، ولكننا
أبناء قوم كرام والحمد لله . وأنت تعلم أن الأنسة أبعد من أن تكون
مظنة ريبة وهي ربيبتك وفتاتك ! ووالله ما كنت لأتصدى
لمحادثتها لولا انها زميلة أختي في المدرسة ، وانها كانت تزورها في

منزلنا فعرقتها وعرفتني هناك » وامتد بينهما الاستسماح والاعتذار
هنيهة ثم دس في يده ديناراً طال عهد الخصي بأمثاله فطار له لبه
وقال : والى أين تذهبان الساعة ؟؟

قال : نتمشى قليلاً حول هذه الحدائق ثم نعود . قال اذن
أدع الآنسة في صياتك ريثما أذهب الى هذه القهوة ثم ألحق بكما
بعد ذلك . قال مع السلامة !

وكذلك تصنع الدنانير والدرهم . . . فانها - بارك الله لي فيها -
قد سكبا الناس ليجعلوها ثمناً للعروض والحطام فمازلت بهم حتى
تركهم يشترون بها المحاسن والمواهب والأعراض والمذاهب . بل
حتى لقد جعلتها في أيدي بعض الناس ثمناً للفردوس وبراءة من النار
فلما شعر الزنجي بالدينار في كفه رأته كأنما قد انعكس بريقه
على وجهه واعتدل ما التوى من خراطيمه . ثم تذكر موائد القمار
وقد ودعها منذ سنين ، فخن اليها وذهب يمتع نفسه باللعب والحديث ،
وهما حظ الخصيان من الدنيا ولذتهم فيها ، بعد الطعام والشراب
أما أنا فقد استدرجت الفتى والفتاة الى حيث اختايا في بعض
تلك الاماكن المنزوية عن الانظار . . . ثم مضيت في سبيلي

عادت مريم وهي لا تطيق الصبر يوماً عن عين شمس . ولذت

رنات الذهب والفضة للخصي فأصبح يشاق تلك النعمة كل أصل،
وتأخر آنته عن الموعد قليلاً فيصعد إليها مستعجلاً . حتى خامر
الشك قلب الأم . . . فأبت عليها الخروج يوماً وماعتها يوماً ثانياً
وأغلظت لها يوماً ثالثاً . فأطاعت على كره وانتظرت في اليوم الرابع
على مضض ، وألظّ بها القلق في اليوم الخامس فبقيت تتلف حيرة
وشوقاً . الى أن حان موعد العصر فعزمت على موافاة عاشقها
— سمحت امها أم لم تسمح — وانها لتتياً للخروج اذ قابلتها امها
فاستغربت منها هذه الجرأة . وقالت ، الى أين يا مريم ؟؟

قالت : الى عين شمس !!

قالت : ألسنت تعلمين اني أخاف عليك من هذه المدينة

المشؤمة ؟؟

قالت : أما أنا فأعلم أنه لا خوف علي منها . . .

قالت : حسناً ، ولكنني لا أريد أن تذهبي اليها

قالت : ولكنني أنا أريد ذلك . . . ألسنت حرة فيما اريد ؟؟



هذه هي الكلمة الجديدة التي تعلمتها الفتاة ! الحرية ؟ لقد
كانت تعرفها من قبل ولكنها كلمة لم تكن لتؤدي في قاموس الطفولة
معنى عقوق الأم الرؤوم ، وايلام ذلك الحنان الطهور
ألسنت حرة فيما أريد . . . ؟ نعم أيتها الفتاة أنت حرة فيما

تريدين...!! وكل فتاة حرة أيضاً.... هكذا قال فلاسفة الحرية،
أكثر الله من أمثالهم

ان حرية النساء مبدأ صحيح قويم ، بيد أن الهيئة الاجتماعية
لا تخلو من منعرجات ومنعطقات لا تنطبق عليها المبادئ القويمة إلا
إذا التوت عندها بعض الالتواء ، فهل من شأن الشريعة أن تحد
مواضع هذا الالتواء ؟ لا ! إن الشرائع العامة لا تضع إلا القواعد
العامة ، وإنما ذاك عمل البيئة والاسرة ، وما دامت هذه الأزقة في
الهيئة الاجتماعية فالمبادئ القويمة لا تخرقها كلها . فلا زال الحكماء
يرسمون هذه المبادئ لاصلاح الناس فنتخذها نحن ذريعة الى
افسادهم في بعض الاحايين



المرأة الشرقية (١)

١ - ماذا يحسن ان تستبقي من اخلاقها التقليدية

٢ - ماذا يحسن ان تقتبس من شقيقتها الغربية

(١) من الصعب أن نعرف على وجه التحقيق ما هي « الأخلاق » أو الصفات التي اختلفت بها المرأة الشرقية دون سائر النساء في العالم ، فان كثيراً من الاخلاق التي تنسب اليها ويُنظن انها خاصة بها ومقصورة عليها قد وجدت من قبل وتوجد الآن في بعض النساء الاوريبات عند تشابه الأسباب ، وهي في الغالب الجهل والاستبداد . غير اننا لا يسعنا الا ان نعتقد من وجهة عامة ان هناك اختلافاً بين الشرقيات والغربيات مردّه فيما نرى الى فرق واحد : هو ان المرأة الشرقية احسن بطبيعة الانوثة من صاحبها الغربية ، فهي اوفر منها حظاً من عنصر النسوية أو ان المرأة الصميمة فيها اكثر من المرأة الصحيحة في تلك ، وهي على الجملة ارام لأبنائها وآلف

(١) كانت مجلة الهلال قد وجهت هذين السؤالين الى جماعة من الكتاب

والادباء فكتب صاحب المراجعات اليها بهذين الجوابين

لزوجها وأسكن الى المعيشة البيئية من صاحبها الغربية . وهذه هي
الخصلة التي نود ان تستبقها المرأة الشرقية في أساسها لا في تفاصيلها
فتظل كما كانت في كل عصر ملكة البيت الحاكمة المحكومة يسكن اليها
الرجل من متاعب الحياة ولا يزال عندها — صغيراً كان أو كبيراً —
طفلاً لاعباً يأوى منها الى صدر الأمومة الرفيق واحضانها للناعمة
رضيعاً وياقماً وفتى وكهلاً الى أن يشيخ ويفنى . ويستدعي ذلك ان
تعيش هي في ظله وتعتمد في شؤون العالم الخارجية عليه وتدع له
كسب رزقها وتدير حاجاتها وتنظر اليه من ناحيتها ايضاً نظرة الابن
الى ابيه لا نظرة المنافس المزاحم الى من يناجزه في ميدان واحد . ولسنا
نعني بما تقول أن تكون المعيشة البيئية واجباً مفروضاً على المرأة كما يفرض
السجن على السجين ولكننا نعني ان تكون هذه المعيشة حقاً من
حقوقها المفروضة على المجتمع ، لأن عملها في البيت — وهو اعداد
الجيل القادم — اكبر وأجل من أن تجمع بينه وبين السعي في طلب
الرزق والاحتيال على شؤون المعاش . فهي تعول المجتمع القادم
وتسهر عليه فمن حقها على المجتمع الحاضر أن يعولها ويسهر عليها ،
والا كان خروجها الى معترك السعي والجهاد علامة على التقصير والخلل
من جانب المجتمع ونذيراً بالشذوذ عن تقسيم الطبيعة الذي عرفه
الشرقيون بالبداهة من قديم العصور . ولا بد للمرأة من ان تبني كل
سيرتها في الحياة على الايمان بهذه الحقيقة التي لا سبيل الى نكرانها

بصفة جدية : وهي ان الرجل أقوى من المرأة على نضال الحياة مما يدل على انه قد خلق له ، وانها قد خلقت لتعتمد عليه في هذا الأمر لا لتزاحمه فتقهزمتهز لا محالة . ولا يعني عن القائلين بغير هذا الرأي قولهم ان المرأة انما تخلفت عن الرجل في مضمار الحياة العمومية لانه تغلب عليها في عصور الظلم والجهل فان تغلبه عليها دليل في ذاته على انه أقوى منها جسداً وعقلاً والا لما استطاع التغلب عليها بالقوة الجسدية وحدها كما لم يستطع الحيوان ان يتغلب على الانسان بتفوقه عليه في القوة الجسدية دون العقلية



(٢) أما ما يحسن أن تقتبسه المرأة الشرقية من المرأة الغربية فهو الاخلاق أو الصفات التي تعينها على تدبير المنزل وتربية الابناء وآداب المجالس وحرية اختيار الزوج . فيجب ان تمارس الألعاب الرياضية لتقوى جسداً وتصح مزاجاً ، وان تتعلم الضرورى من اصول الاقتصاد وتقوم الصحة وطرائف الآداب ، وان تحذق فناً أو أكثر من الفنون الجميلة ولا سيما الموسيقى ، ولا بأس بالرقص في محافل الأسر ولكن على طريقة تناسب عادات المشاركة ، تقتبس من الرقصات الشرقية القديمة والحديثة التي لا تخل بالصيانة والحياء ونبيه بوجه خاص الى آداب المجالس لاننا نعزو كثيراً من العيوب التي ترين على المجتمع المصري الى احتجاب الجنس اللطيف

عن مجالس الرجال وأنديتهم ، وأحسب لو ان الشبان عندنا تعودوا أن يتحدثوا الى النساء المهذبات وأن يتحدث النساء اليهم لعنوا بتقيف عقولهم واخلاقهم والاطلاع على ما يجمل التحدث به على مسمع من الأوانس والسيدات ولنزهوا نفوسهم وأستنهم عن اللغو والهجر الذي يقضون به ساعات سمرهم ، ولاتخذت المنافسة على المرأة سبيلاً أكرم وألبق وأجدى من سبيلها المعهود

أما حرية اختيار الزوج فحق للمرأة أن شاءت تولته بنفسها وان شاءت تركته لأوليائها . على اني لا أعالي بهذا الحق مغلاة الذين يحسبون اس السعادة كلها في الزواج

وبعد ، فأني أحب ان تحتفظ المرأة الشرقية « بأنوثتها » وألا تقبس من المدنية الغربية الا ما كان سلاحاً لهذه الأنوثة في أداء وظيفتها وصون حقوقها



الإصلاح الأدبي

كل إصلاح في شأن من شؤون الأمم لا يتناول تصحيح مقاييس الحياة فيها هو عبث فارغ لا يستحق عناءه - وفي مقدمة ذلك إصلاح الآداب والفنون

ويجب أن يكون مفهوماً بالبداية إن إصلاح الآداب شيء غير تنقيح صيغ اللفاظ أو تحوير أوزان الشعر أو تعديل النحو والصرف فالأمر هو في الحقيقة لا يقل عن تصحيح حياة الأمة ومن ثم تصحيح التعبير عن تلك الحياة . فهو بمثابة خلق جديد للأمم وهو من صناعة الآلهة لا من صناعة الخلائق الهالكين

وأصدق ما تمتحن به مقاييس الحياة في الأمم أن تُعرف الفضائل التي يزنون بها مقادير الرجال: ماذا يبتغون منهم وفي أية هيئة يحبون أن ينظروا إليهم؟ أيطلبون منهم حياة تكفيها حدود من الطعام والشراب والثياب المزركشة والأسماء الطنانة ويوم واحد من الزمن يفتأ يتكرر على وتيرة واحدة ويُعاد كما بُدئ إلى أن يطويه الموت في ظلماته؟ أم يبتغون منهم حياة لها حدود ضاربة في

اوائل الآزال وأواخر الآباد محتاج الى سماء عالية وآماد غير متناهية
وفضاء مترع بالنور والجمال واكوان مفعمة بالقوى والاسرار وآلهة
تعمل في الجهر والخفاء ولحظات سرمدية تمر كل لحظة منها
باستكشاف جديد من الحياة وفن طريف من فنون الوجود؟ فان
كانت الاولى فانفض يدك منهم ولا تحدثهم عن عليلين فانهم
يمشون الى أسفل ولا عن الجمال فانه غير جميل لديهم ولا عن معاني
الحياة فان حياتهم معنى واحد لا يفهمونه ولا يستحق أن يفهمه أحد .
وان كانت الثانية فلا تأس عليهم ولا تهولنك العقبات التي في
طريقهم فانهم لعل بصيرة من أمرهم وانهم لمهديون الى الآداب العالية
والفنون الرفيعة وان صرقتهم عنها بعض الدواعي الى حين
يعثر الباحث الاثري على جثة هامدة في لفائف شاحبة حولها
كسر من الفخار بينها قطع من الورق فلا يلبث أن ينشئ في خياله
عالماً حافلاً من تلك الآثار ودنيا حية من تلك البقايا الميتة : يجمع
من تلك الكسرات آنية صحيحة ، ويضع تلك الآنية في البيوت
التي تلائمها ، ويعمر تلك البيوت بمظاهر الحضارة التي تدل عليها
الجثة المحفوظة والاكفان البالية والاوراق المتهاقنة والعمارة المتخيلة ،
فاذا هو قد أسبغ من خياله عالماً رحيباً جليلاً على هيكل ضعيف
ضئيل .

فالآن هب ان باحثاً أثرياً عثر بعد الف عام على ديوان من

دواوين الشعراء الذين ينعنون بيننا اليوم بالعظمة والخلود وأراد أن يستدل منه على الحياة التي كانوا يحيونها والعالم الذي كانوا يعيشون فيه فأبي عالم يكون هذا العالم الذي يتخيله الباحث الاثري على هذا القياس ؟

أتريد الجواب بصراحة وإيجاز ؟ انه ولا شك عالم مطموس لا يختلف عن عالم « الحخير » مضروباً في عشرة أو في عشرين بل مقسوماً في بعض الصفات والأبعاد على عشرة أو عشرين !... عالم العلف والمذود والقيد واللجام والأتان !... عالم لا يتطلب من التازلين فيه احساساً اكبر من احساس الدواب السائمة في الفلاة ولا يشعر المتفقد لآثاره انه كانت له سماء أو كانت له آزال وأباد أو كانت فيه أرواح وأسرار أو كانت فيه أفراح وأهوال أو كان له إله قدير... ولو كلفني خلق هذا العالم المطموس — لو كلفني أنا الانسان الحائن تعب خمس دقائق لما رأيته جديراً بهذا التعب القليل في حياتنا المزدهمة بالمتاعب والأشغال !

وأنت يا مصلح الآداب ، يا من تريد من الناس أن ينظموا الحياة شعراً من لحن السماء وفناً من فنون الخلق والانشاء وصوراً آلهية من حقائق الأشياء ما عملك أنت بين هذه المخلوقات التي تمانجن الاقدار بمخلقتها وتكلفك أنت ثمن مجومتها ودعابتها ؟ عملك أن تنقلها من عالمها المقبور الذي هي فيه الى العالم الحي الفانئ بالمعاني التي

فكر فيها افلاطون وعبدها الغزالي وشعر بها شكسبير وغناها فاجنر
وتطلع اليها نيته وصورها ليوناردو واستشق هواها الوف الملايين
من هم أقل حظاً من هؤلاء في العبقرية والابتكار ولكنهم اخوانهم
في وطن المعرفة والادراك ، فأين أنت يا صاح من هذا العمل وماذا
لديك من العدة ؟ أمل إله ويد انسان وصبر تتلقى به الحوادث هو
صبر مخلوق من أبناء الفناء .

لقد عاجت هذا العمل الموبق سنين طويلاً ووهبته حياتي
فخسرتها وما استفاد هو منها شيئاً ! . وكاد أن يتسرب اليّ اليأس
وورد على خاطري مرات أن هذا الشرق العربي أو المستعرب ما كان
قط في عصر من عصوره الماضية خيراً مما نراه الآن ، وزعمت أن
الانبياء والروحانيين ما ظهوروا فيه إلا كما يظهر الاطباء حيث ينتشر
الوباء ، فلا قداسة ولا روحانية ولا شعور وإنما هو فقر في الروح عاجته
الطبيعة بدواء النبوة ، وقد ذهب الانبياء وبقي الداء بعدهم كما كان ،
وسيقى هكذا الى آخر الزمان . ولكننا لا نزال نعمل

وأخشى أن يكون عمل اليأس لا عمل الرجاء . ان الزاد ليثقل
ظهورنا في الصحراء المجذبة ولسنا نأمل أن نعيش فيها حتى نأكله
فنطرحه عن ظهورنا مرغمين ، ثم تقول : لعل غمامة تعبر به في هذه
المفازة فتكون منه واحة وتكون من الواحة حياة ! ولكن ترى هل تعبر
الغمامة ؟ أو تعصف السموم بالبدور قبل أن تدرکها رحمة السماء !



لِلطَّبْعَةِ الْعَصْرِيَّةِ

تأسست سنة ١٩١٩

دارها بشارع الخليج الناصري رقم ٦

بأول الفجالة - بمصر

(بالقرب من قرقول الازبكية بميدان

باب الحديد)



جميع الكتب المذكورة في هذا الملحق من علمية وتاريخية واجتماعية هي من أجود الكتب العصرية، ومؤلفوها أشهر كتاب الشرق، ومطبوعة أتقن طبع على أحسن ورق، ومزينة بالصور الجميلة، ومغلقة بأجمل وأمتن غلاف

يُضاف الى ثمن الكتاب الذي يُطلب ٤ قروش أجرة بريد البلاد القطر المصري و ١٣ قرشاً للخارج وهذا المبلغ يكفي لارسال

ما زنته ٥ كيلو جرام . فيحسن لمن يرغب في طلب كتاب واحد
أن ينتخب من هذه المجموعة النفيسة بعض كتب أخرى فنرسلها
كلها معاً ضمن طرد بريدي واحد

قيمة الكتب تُرسل مقدماً مع الطلب، أو يرسل نصفها ويحول
عليه بالباقي .

(القرش المصري يساوي ٢ ¼ بنسات انكليزية أو ٥
سنتات أميريكانية)

العنوان البريدي — الياس انطون الياس ، صندوق البريد رقم ٩٥٤ — مصر
Mr. Elias A. Elias, P.O. Box 954, Cairo, (Egypt.)

التعليم والصحة

تأليف ماهرة

الدكتور محمد عبد الحميد

هذا كتاب يجب ان يطلع عليه كل معلم ووالد وتلميذ ، وحباً
في تعميم فائدته قد جعلنا ثمنه ١٠ قروش ما

القَامُوسُ العَصْرِيُّ

انكليزي وعربي

تأليف

الباس انطون الباس

(الطبعة الثانية منقحة وموضحة بالصور)

ان جميع المعاجم الانكليزية وعربية التي تقدمت « القاموس العصري » لم يضعها مؤلفوها لفائدة طلاب اللغة الانكليزية من الشرقيين ، بل وضعوها لطلاب اللغة العربية من المستشرقين ، ولذلك تجدهم يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا امامها من البيانات ما يفسر اوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية هجائها في حالاتها المتنوعة ، وجمعها ومفردها ، الى غير ذلك مما لا فائدة منه مطلقاً للطلاب الشرقي . وأول معجم وضع خصيصاً للشرقيين هو « القاموس العصري »

ويطول بنا الشرح اذا ذكرنا مميزات هذا المعجم . واننا ننصح لكل من لم يطلع عليه للان ، مكثفياً بما عنده من القواميس العتيقة

أن يبادر الى أقرب مكتبة ويفحصه فيرى بنفسه حقيقة ما ذكرناه
ويرى الفائدة التي ينالها من اقتنائه

وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة
الانكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في
القطر المصري، وذلك بخطاب تاريخه ١٣ مايو سنة ١٩١٤ رقم ٧٧٧
والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الاولى - ثمنه ٧٠ قرشاً .

مِلَقِي السَّيِّدِ

تَرْفَعُ

مِذْهَبِ النُّشُوءِ وَالْإِتِّقَانِ

وأثره في الانقلا ب الفكرى الحربى

تأليف الباحثة الاستاذ

اسماعيل نظهر

القاموس العصري

عربي وانكليزي

مُبْصُورٌ

تأليف

الباس انطونه الباس

هو معجم لم يُنسخ على منواله حتى الآن ، ويمتاز بأسلوبه البسيط (المسجل في المحاكم المختلطة تحت نمرة ١٦٢) الذي ابتكره المؤلف لأجل التوفيق بين الترتيب المصطلح عليه في القواميس العربية والترتيب الهجائي البسيط المتبع في كل القواميس الافرنجية ، ثم تحديد معنى الكلمة العربية أو تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تمهيداً لذكر الترجمة الانجليزية . إذ بدون ذلك لا يتسنى للطلاب أن يتحقق من صحة المقابل الانجليزي للمعنى الخاص الذي يطلبه .
إطلع عليه فتعلم انه اكثر فائدة لك من أي قاموس آخر مادمت من المشتغلين باللغة الانكليزية -

عدد صفحاته ٧٠٠ من القطع الكبير ويحوي نحو ٥٢,٠٠٠

كلمة عربية وما يقابلها من الترجمة الانكليزية . وقد قرره وزارة

المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في
جميع فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري . عدد صفحاته
٦٩٣ من القطع الكبير وثمنه ١٠٠ قرش مصري والبريد

قَارِئُ الْمَلِكِ

تأليف

الكاتب الروائي الشهير ميشيل زيفاكو

وترجمة الكاتب البليغ الاستاذ

طانيوس عبده

هذه الرواية لم يسبق طبعها - مترجمة بلغة عذبة ، تقع في

٢٣٥ صفحة من القطع الكبير في جزء واحد ومطبوعة على ورق جيد

ومغلقة بمغلاف جميل وثمنها ١٠ قروش فقط والبريد

قاموس الجيب

انكليزي وعربي

عربي، وانكليزي

اجابة لطلب وزارة المعارف العمومية قد طبعنا قاموس الجيب
الانكليزي عربي والعربي انكليزي في مجلد واحد وجعلنا ثمنه ٣٥
قرشاً - وقد قرره الوزارة لتلازمة مدارسها الابتدائية ما

أعيد طبع هذا الكتاب للمرة الرابعة
في مدة وجيزة ، وهو مجموعة كبيرة جداً
من المفردات والجلل والخطابات الاكثر
استعمالاً ، خصوصاً المفردات والجلل المختصة
بالمعاملات التجارية والادارية والقضائية ،
(لاياس انطون الياس)
وبالاختصار كل ما يكثر استعماله في الاعمال العمومية . لا يستغنى
عنه أي طالب للغة الانكليزية ، فسأل من تقدمك في درس هذه
اللغة عن هذا الكتاب يخبرك بعظيم فائدته - ثمنه ١٠ قروش

التجفان
الاصنية

لطلاث

اللغة الانكليزية

يكفي للتويه بفائدة هذا الكتاب
 أن نذكر انه طبع للمرة الخامسة في بحر
 لطلاب
 الإنجليزية
 عشرة سنوات . وكل من بدأ دراسة
 اللغة الانكليزية بواسطته استفاد جداً
 (لاياس انطون الياس) من سهولة اسلوبه ، خصوصاً لأن الطريقة
 الحديثة التي ابتكرناها للفظ الكلمات الانكليزية بأحرف عربية هي
 الطريقة التي لا يمكن ايجاد أسهل واضح منها
 اشتر نسخة منه ، وجرب أن تعلم اللغة الانكليزية من دون
 احتياج الى الاستعانة بمعلم . ثمنه ١٢ قرشاً والبريد

التربية الاجتماعية

تأليف الاستاذ علي فسكري

أمين دار الكتب المصرية

ظهر هذا الكتاب حديثاً وقد جمع من الحقوق والواجبات
 والآداب الاجتماعية الشرقية ما يعرف به المرء ما له وما عليه ليعيش
 في راحة بال واسعد حال : وهو أول كتاب في موضوعه ، ثمنه
 ١٠ قروش مصرية والبريد

أنا تول فرانس في مآزله

تأليف جاك بروسون

مع خلاصة كتاب

« محادثات مع أنا تول فرانس ، لبيقول سيفور »

وزبدة ما قالته الجرائد الفرنسية في فرانس يوم وفاته

نقله الى العربية وصدره بمقدمة وعلق عليه بعض حواش

كاتب الشرق الأكبر صاحب العظوفة

من أعضاء المجمع العلمي العربي

وقد حليناه بما يزيد عن المائة والخمسين صورة وطبعناه على

ورق جميل وجعلنا ثمن النسخة ٢٠ قرشاً ، وطبعنا منه نسخاً قليلة

على ورق ممتاز وثمانها ٢٥ قرشاً فقط

الدنيا في اميركا

تأليف

مضرة الطنب العصري الاستاذ امير بقطر

سكرتير الجامعة الاميركية

(وخرج جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك)

(حائز لدرجة M.A.)

كتاب عظيم محلي بكثير من الصور البديعة يصف لك مافي
اميركا من الغرائب والمدهشات ويطلعك على سر تفوق الاميركان
ثمنه ١٥ قرشاً، واجرة البريد

تأليف الاستاذ امير بقطر

مضرة الطنب العصري

سكرتير الجامعة الاميركية

(وخرج جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك)

الغرائب

ثمنه

(١٠ قروش مصرية)

القَصَصُ العَصِيَّةُ

مجموعة ممتعة تشمل ٨٠ قصة أدبية غرامية مختلفة المغزى والأسلوب ومحللة بكثير من الصور الرمزية ومرجمة بمباراة فصيحة قريبة المتناول لطيفة الأسلوب على طريقة أهل الغرب في كتابة هذه القصص المستترفة التي يتوخى بها الذهن بلذة السيرة المحكية وايصال الفائدة المقصودة الى العقل من طريق تلك اللذة بأسلوب انشائي خاص تجتمع فيه السهولة والسهولة الحاذقة الوصف الى رشاقة المحادثة وظرفها، الى حكمة سامية أو عظمة كافة عن الشر داعية الى الخير، كما قال نابغة الشعر والنثر خليل بك مطران في المقدمة التي كتبها لها وتقع هذه المجموعة في ما يقارب الخمس مئة صفحة وثمان النسخة ١٠ قروش والبريد

مختارات

سلام موسى

ليس بين كتاب مصر الآن من هو أصرح برأيه وأجهر به من الاستاذ سلامه موسى الذي يعرفه جميع قراء الصحف والمجلات،

فهو كثيراً ما يقتحم الميادين التي نخشى اقتحامها الملائكة ، لا يبالي
أن يصرح برأيه في الدين وفي الاشتراكية وفي المرأة ، وفي مثل
هذه الشؤون الاجتماعية ، غير متعمد في كل ما يكتبه اظهار براعة أو
التباهي بمهارة ، وانما غايته التي لا يحميد عنها هي فائدة القاري ،
وليست هذه بالميزة القليلة القيمة في وقت نرى فيه عدداً غير قليل
من كتابنا لا يبغي من وراء كتابته الا أن يقول عنه الناس كما يقولون
عن البهلوان « ما أبرعه ! » في حين كان يجب أن يقولوا « ما أنفعه »
ولسنا نشك في أننا نخدم جميع قراء العربية بجمع هذه المقالات
النفيسة ، وغيرها مما لم ينشر للآن ، حتى يتيسر للجيل الجديد
قراءتها والانتفاع بها دون أن يحتاج الى الكد في البحث عنها في
متفرق المجلات والصحف . ومثمه ١٠ قروش مصرية والبريد

انوار الحياة الزوجية

تأليف الدكتورة ماري ستوب

نقله الى العربية لخدمة الانسانية وللحرص على سعادة الزوجين وسلامة العيلة
الكتاب المعروف الاستاذ نقولا الحداد

وقد ذيل اكثر فصوله بزبدة اختبارات الاخصائيين

فيما يتعلق بمصر وسائر الاقطار الشرقية

لا يطالعه غير المتزوجين والمتزوجات ومن هم على أهبة الزواج
ثمنه ١٥ قرشاً مصرياً والبريد (يظهر في مايو سنة ١٩٢٦
فاطلبه حالاً عند ظهوره)

في اوقات الفراغ

تأليف الكاتب الكبير

الركنور محمد بك حسين هبكل

مدير جريدة السياسة

مجموعة مقالات مختارة مما كتبه هذا العالم

عن اناطول فرانس وبييرلوتي وقاسم أمين وجورجي زيدان
وغيرهم . ثم رسائل خاصة بمصر منها خلاصة كتاب مستر كارتر
عن قبر توت عنخ امون وقصصاً وأحاديث كأبيس وسميراميس
وخالد وغير ذلك مما يضيق بنا المقام عن الاسهاب في شرحه
ثمن النسخة ١٥ قرشاً والبريد

الزنبقة الحمراء

(قصة مزينة بنحو ثلاثين صورة)

بقلم الكاتب العظيم اناطول فرانس

تعريب الاستاذ احمد الصاوي محمد

مع مقدمة بقلم كاتب الشباب النابه الاستاذ منصور فهمي

عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية

لم ينتشر كتاب في الحكمة انتشار كتاب « تاييس » ، كما لم ينتشر كتاب في الحب انتشار كتاب « الزنبقة الحمراء » ، ويكفي أن تعلم أن الترجمة العربية لهذه القصة منقولة عن الطبعة السابعة والثمانين بعد الأربعمائة !! فتأمل !!

وقديماً وصف « شكسبير » نابغة الدهر الغيرة بأنها : تلك الخليقة الشوهاء ذات العيون الخضراء التي تسخر مما تتغذى به من لحوم الناس ! وقال : أن الرجل الذي يثلم عرضه فيعرف مصابه ويكره جالبه عليه سعيد بجانب ذلك الذي يقضى الدقائق الجهنمية شغفاً ، إلا أنه مستريب ، عاشقاً أشد العشق ، ولكن تساوره الشكوك ...
وحديثاً ، بعد ثلثمائة عام ونيف ، جاء اناطول فرانس ، افلاطون

العصر ، فخل الغيرة في قلب رجل العصر ، الرجل الباريسي ،
باسلوبه الرقيق الجزل البليغ المداعب الاخاذ بمجامع القلوب .
فلن نجد في هذه القصة عبث اطفال وغرام أيفاع . كلا !
انك ستجد الرجل الغيور المستهام وكيف يتعذب ويعمل على
تكوين حزنه وضجره . كما انك ستجد المرأة بكل انوثتها القوية
المستكلمة لا سلطان عليها الا سلطان الهوى - هوى عقلها
وفؤادها وجسمها ..

والى غير هذا الغرام والغيرة نجد احاديث اخرى فيأضة
طليبة طريفة ساحرة .. منها فصل معقود على « نابليون » الذي
يراه المؤلف مشهوراً بسرقة علب النشوق المرصعة من النبلاء !!!
ثم حديث « فلورنسا » الجميلة ، والفنون الجميلة ، والاشتراكية ،
والزواج . الخ الخ

الزنبقة الحمراء ! انها نداء صارخ عميق الى الحب كأنه هدير
البحر ! فترى الحب ، ذلك الطاغية الجبار ، آتياً مليئاً النداء تهتز
لقدومه الكائنات ... فيطلع الفجر مبرقعا بنشوة الحب الأولى ،
ثم تشتعل ناره ويشتد أواره حتى تأتي الغيرة فترخي يدها على الغرام
ستار ليل الهجر الأبدى ... فياله من مشهد مريب ترتعد من هولته
الفرائص ويغلب الأسمى العيون فتدرف الدمع الهتون ! ...

الزنبقة الحمراء! انها كتاب الحب! وهل كتاب الحب الا

كتاب الحياة؟؟؟

ثمان النسخة ١٥ قرشاً مصرياً و ٢٠ قرشاً على ورق خاص

ممتاز والبريد ٤ قروش و ٦ للخارج

روح الاشتراكية

تأليف الدكتور غوستاف لوبون

نقله الى العربية الاستاذ محمد عادل زعيتر

كتاب اجتماعي يبحث في مبادئ الاشتراكية ونفسية انصارها،
وعن كونها معتقداً ، وعن اختلافها باختلاف الشعوب ، وعمابين
مقتضيات الاقتصاد من التباين ، وعن المبادئ الديموقراطية ،
ورغائب الاشتراكيين ، وتطور المجتمعات في الوقت الحاضر ،
ومصير الاشتراكية . ثمنه ٢٥ قرشاً والبريد

مقدمة الحضارات الاولى

تأليف العلامة الحكيم غوستاف لوبون

لما ألف الدكتور غوستاف لوبون كتابه في حضارات المصريين ، والأشوريين والفينيقيين ، والفرس وغيرهم ، وضع له مقدمة هي بالنسبة الى تاريخ الامم القديمة بمنزلة مقدمة ابن خلدون بالنسبة الى تاريخ الامم الاسلامية ، فأرسل هذا الفيلسوف بنظره الثاقب في تاريخ الحضارات الاولى واستعان على ذلك بسياحاته الكثيرة واستنتج من كل ذلك حقائق في فلسفة التاريخ بناها على قواعد علم النفس وعلى النواميس المقررة في العلوم الكونية ، فأصبح كتابه المرجع في كشف النقاب عن كيفية اشراق شمس الحضارة في شعوب البشر وتدرجها في سلم الرقي . مطبوع طبعاً متقناً في ١٢٧ صفحة كبيرة على ورق صقيل وثمنه ٨ قروش والبريد

قاموس الجيب

عربي ، وانكليزي

عدد صفحاته ٥٤٠ وكتابه ٢٥٠٠٠

وثمنه ٢٥ قرشاً

تاييس

(قصة مزينة بالصور)

تأليف شيخ كتاب العصر أناتول فرانس

وترجمة الاستاذ احمد الصاوي محمد

تاييس - صورة صادقة لمصر القديمة بعلومها وفنونها وفلسفتها
وادابها ، وقصورها وحقولها ، وصحاريها ووديانها ، وملاعبها
وأديارها ، وعادات أهلها

تاييس - قصة حب تملك عليك نفسك ، فنظل نقرأ حتى
تتسى نفسك وتحملك دعايات أناتول فرانس اللذيذة المشهورة الى
عالم كله ضحك ومسرات ، ثم تجعلك تبكي لآلام رجل راح ضحية
الدينا الفرور بعد ان عذبه فكره عذاباً فظيماً .

اقرأ تاييس - تجسد الحكمة والمعرفة والرود الصائبة على
الاسئلة التي تخالج نفوس الشباب الفتية الحائرة ، وقلوب أهل الفطنة
والذكاء .

ما الحب ؟ ما الكره ؟ ما الحكمة ؟ ما الضلالة ؟ ما المعرفة ؟
ما الجهالة ؟ ما الفلسفة ؟ ما الغباوة ؟ ما الوطن ؟ ما الخيانة ؟ ما الشر ؟
ما الدين ؟ ما الكفر ؟ ما الجنة ؟ ما النار ؟ ما الشهوة ؟ ما العفة ؟

ما التلذذ؟ ما التقشف؟ ما الحرية؟ ما العبودية؟ ما العشق الحلال
والعشق الحرام؟ ما فلسفة الفضيلة والرذيلة؟ ما حكاية الارض والسماء؟
إقرأ تاييس - تاييس تحمل لك كل هذه الالغاز المغلقة!
تاييس تبوح لك بأسرار الغرام! إقرأ قصة تاييس الفاجرة!
تاييس القديسة!

ثمان النسخة ١٠ قروش والبريد

الحقوق الوطنية

تأليف الاستاذ فرنسيس ميخائيل

الغرض منه تعليم الطالب مقتطفات من النظام الاجتماعي ليلم
بمحقوقه وواجباته نحو أبناء وطنه ويقف على القوانين والانظمة التي
تجري على بلاده ويطلع على حدود السلطة التنفيذية والقضائية وما
يتمشى عليه دستور وطنه - يقع في ٧٠ صفحة

وثنه ٣ قروش والبريد قرشان

مَسْرُوحُ الْأَهْلِيَّةِ

مَجْمُوعَةٌ أدَبِيَّةٌ فَنِّيَّةٌ رِوَايَةٌ
فِي حَقِيقَةِ الْحَيَاةِ

تبحث في حقيقة الحياة بأسلوب عصري لم يسبق لكتاب عربي
النسج على منواله ، وضعها الاستاذ خليل بيدس صاحب مجلة النفائس
فجاءت آية بديعة في فن الكتابة والطباعة ، تشمل ٣٥ قصة لذيدة
جمعت من كل فن وضربت بكل مسهم في الادب والاجتماع والحب
والفلسفة في لغة سلسلة هي السحر الحلال . ويتخلل هذه المجموعة
كثير من الصور الجميلة التي تزيدها بهاء ورواقاً وتقرب مقاصدها
للقاري . . . تقع في ٣٣٢ صفحة - وتمنأ ١٠ قروش والبريد

عِلْمُ الْجَمَاعَةِ

بِحَيَاةِ الْمُهَيِّمَةِ الْجَمَاعَةِ وَتَطَوُّرِهَا

تأليف الكاتب الشهير الأستاذ تقولا حداد

(التزام المطبعة العصرية)

هلم بنا ندخل في بوابة علم الاجتماع ونكشف اسرار الهيثة
الاجتماعية ، تلك الاسرار العجيبة الغريبة

ترى امما عظيمة راقية متمدنة حيوية تضرب في طول الكرة
الارضية وعرضها ، وترى شعوباً متأخرة خاملة خامدة الحركة ، وترى
جماعات همجية متوحشة منحطة جداً — اذا كانت هذه الجماعات
كلها ابناء آدم وحواء ، فما سر تفاوتها في الرقي ؟

ففي « علم الاجتماع » تعلم كيف تكوّنت الجماعات والشعوب
والأمم ، وكيف تنوعت وتفاوتت في رقيها

ترى جمهوراً متهيجاً متحمساً متهوساً ، ثم ترى جماعات هادئة
عاملة ، ثم ترى اناساً في مجالسهم يتناقشون ويقترعون ويقررون
اموراً . ثم ترى هيئات نظامية من جمعيات وشركات وحكومات الخ ،
فما هو سر التهوس والتناقش والنظام ؟ . ثم ترى ازياء تعاقب ،
وعادات تتوالى ، وتقاليد تتوارث ، ورؤياً عاملاً يسود ، وقوانين
تتقرر . فكيف تنشأ الازياء والعادات والتقاليد والقوانين ؟

في « علم الاجتماع » ترى العواطف والعقول تتصادم فتشير
الجماعات ثم تسكنها ، وتمخض الثورات الفكرية عن الانظمة والهيئات
« علم الاجتماع » يبين لك ان الشهوة الجسدية ، والحب ،
والذوق الجميل ، والعواطف ، فعلت كل ذلك ، وفي وسعها أن تقول

للجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل

« فعلم الاجتماع » هو علم التكوّن والنشوء ، وعلم العواطف
المسيطرة على الهيئة الاجتماعية ، وعلم العقل المدرب للعواطف ،
وعلم الحب والجمال اللذين يرتفعان بالمدينة الى فوق
« علم الاجتماع » هو البوابة التي تدخل منها الى عالم أسرار
الهيئة الاجتماعية حيث تنكشف لك وترى العجب العجاب . هذا
هو العلم الذي بسطه الاستاذ تقولا الحداد الكاتب الاجتماعي
المعروف في هذا الكتاب الذي نحن في صده ، بسطاً يدع كل
قارىء يفهمه بكل سهولة

فهذا الكتاب هو الوحيد في موضوعه باللغة العربية والمستوفي
كل ما يخطر لك ببال من هذا القبيل . أفلا تشعر أنه يجب أن
تطالعه وأن يكون في مكتبتك لكي تعود اليه كلما كنت تعرف
منزلتك في الجماعة ومنزلة قومك في الامة ومنزلة أمتك في المجتمع
الانساني ؟ وما هي وسائل الارتقاء لك ولقومك ولامتك ؟

الكتاب الأول - في حياة الهيئة الاجتماعية - ٢٥ قرشاً

الكتاب الثاني - في تطور الهيئة الاجتماعية - ٢٥ قرشاً

المرأة وفلسفة التناسلية

تأليف الدكتور فخري طيب الجلد والامراض التناسلية

إذا أردت أن تفهم « من هي المرأة ؟ » وتاريخ معاملتها عند الشعوب القديمة . وكيف تعيش المرأة ، وكيف تفكر ، وما تأثير طبيعة جسمها وعقليتها ونفسياتها على حياتها التناسلية وعلى حياتها الأدبية والاجتماعية . وإذا أردت أن تعرف معنى جمال المرأة وكيف يتأثر بال العناية الصحية أو بالزينة الصناعية . وإذا أردت أن تفهم حقيقة موقفها كفتاة ، وكأم ، وكواحدة حرة طليقة لا تخضع لأنظمة الزواج إذا أردت أن تعرف كل شيء عن المرأة بصراحة فنية ودقة علمية فما عليك الا أن تقرأ كتاب « المرأة وفلسفة التناسليات »

يقع هذا الكتاب في نحو ٦٥٠ صفحة ، ومحلى بأكثر من ٥٠ صورة تمثل حياة المرأة في مختلف الأقطار والعصور وثمنه عشرون قرشاً مغلفاً و٢٥ قرشاً مجلداً واجرة البريد

كِتَابٌ

الْأَمْرَاضِ النَّاسِلِيَّةِ

وَعَدَمِهَا وَطَرُقِهَا لِقَوَائِمِهَا

تأليف الدكتور فخري طيب الجلد والامراض التناسلية
في سنة واحدة أو شكت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أن
تفند لانه أحسن كتاب ظهر باللغة العربية حاوياً كل المعلومات
اللازمة للطبيب ولأفراد الشعب عامة عن هذه الأمراض وكيفية
التعرض للعدوى بها وطرق معالجتها وأحسن ما يتبع عملياً لمنع العدوى
بها . كتاب حيوى للشبان والشابات يفهمهم الاخطار التي يتعرضون
لها من أول التقييل الى ويفهمهم واجبهم الادبي والصحي
لتحاشى هذه الاخطار

يقع هذا الكتاب في ٣٣٣ صفحة بالقطع الكبير وبه اكثر من
٦٠ صورة تمثل المرض في الاعضاء التناسلية عند الذكور والاناث
وثنه ثلاثون قرشاً مجلداً بقماش واجرة البريد

قاموس عربي وانكليزي باللفظ الانكليزي للكلمات العربية

نأيف سقراط سييرو

(وقد التزم طبعه وفتحه الياس انطون الياس واضع القاموس
العصري الشهير)

قد جمع هذا القاموس كل شاردة وواردة من مفردات وجمل
واصطلاحات اللغة المصرية الدارجة في الكلام والكتابة . ولا تغالي
اذا قلنا انه لازم لكل مشتغل باللغة الانكليزية من ابناء مصر
خاصة والشرق عامة لما يحويه من الكلمات التي لا يمكن وجودها
في غيره من المعاجم العربية انكليزية — ثمنه ١٠٠ قرش صاغ

روكامبول

في ١٧ جزء كل منهم رواية حميلة كاملة
(الجزء الاول « الارث الخفي » وثمنه ٥ قروش)

(تظهر في يوليو ١٩٢٦)

رواية

بجزئتي

السُّلَّةُ الْعَظِيمَةُ

تأليف

الكاتب الروائي الشهير ميشيل زيفاكو
وترجمة الكاتب البليغ الاستاذ

طانيوس عبره

لم يلق من كل الروايات المنقولة الى اللغة العربية ما لاقته هذه
الرواية الساحرة من الاقبال ، فقد طبعت للآن ثلاث طبعات على
ورق ردي ، وطبع ذري ولكنها رغمًا عن ذلك وعن غلو ثمنها
(إذ كانت تُطبع في ٤ اجزاء صغيرة وكل جزء يُباع بعشرة قروش)
كانت تتخاطفها الايدي عند ظهورها

وقد طبعتها الآن في جزئين كبيرين على روق جيد ، وغلفناها
بغلاف جميل وجعلنا ثمنها ٢٠ قرشا فقط والبريد

رَوَايَتُهُ

بِجَارِ دَلِيَّاتٍ

تأليف الروائي الشهير ميشيل زيفاكو

وترجمة الكاتب البليغ الاستاذ طانيوس عبده

ليس الاستاذ طانيوس عبده في حاجة الى التنويه بذكره فهو أعظم من اشتهروا في عالم الترجمة بنقل الروايات الادبية الشيقة الى لغة العرب، وامتاز على كثير من المعربين بأنه ينقل رواياته في عبارات سلسلة خلاية .

وهذه الرواية من أشهر الروايات التي ظهرت باللغة العربية الى الآن وهي تقع في ثلاثة أجزاء (بدلاً من ثمانية اجزاء في الطبعة الاولى) مجموع صفحاتها ٨٥ من القطع الكبير - ومطبوعة على ورق جيد جداً وحرف جميل وتجليد متين وثمن الثلاثة اجزاء ٢٠ قرشاً فقط والبريد (بدلاً من ٤٠ قرش للطبعة الأولى) وتليها

رَوَايَةٌ

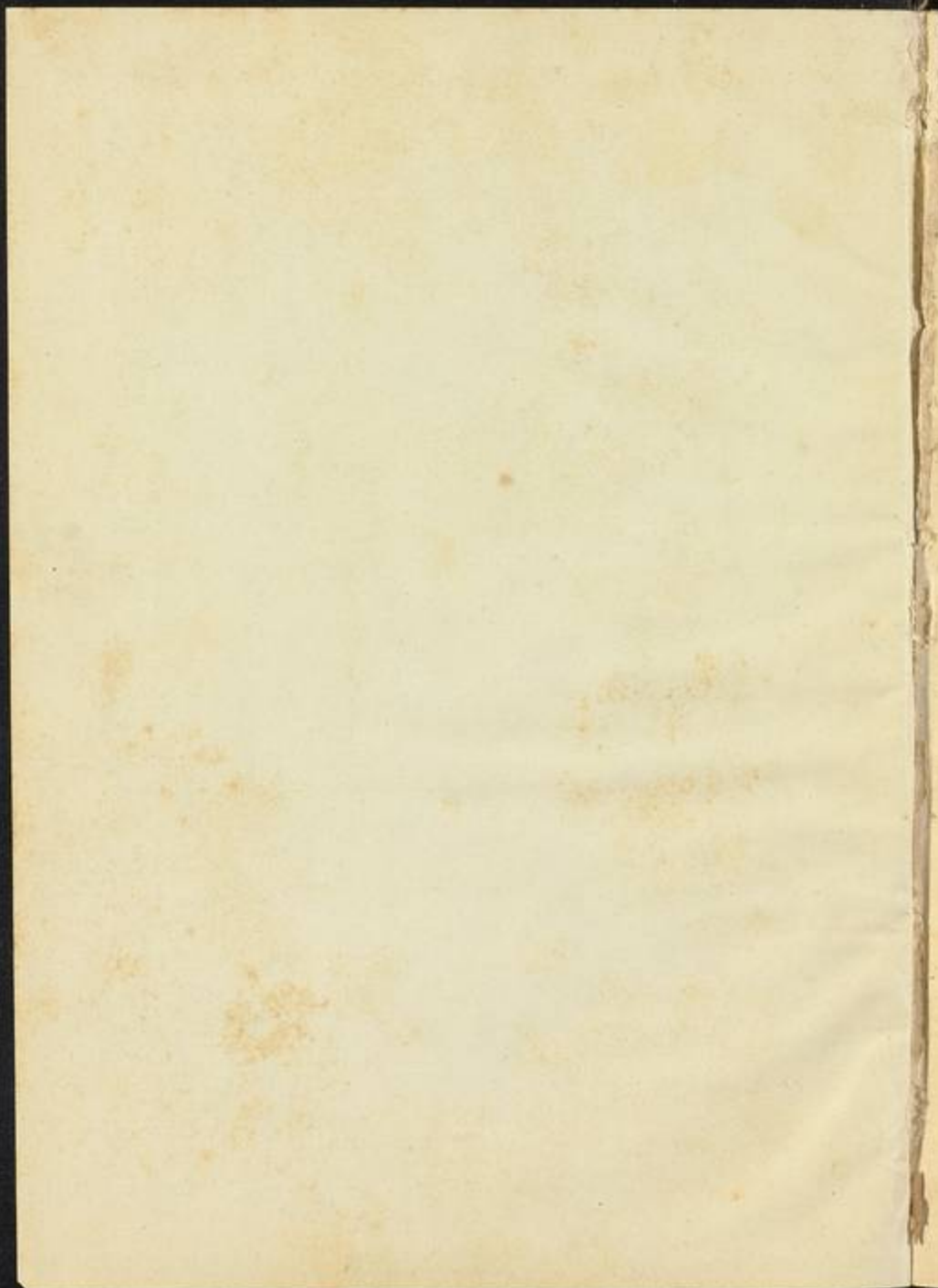
الْأَمِيرُ فَوْسَتَا

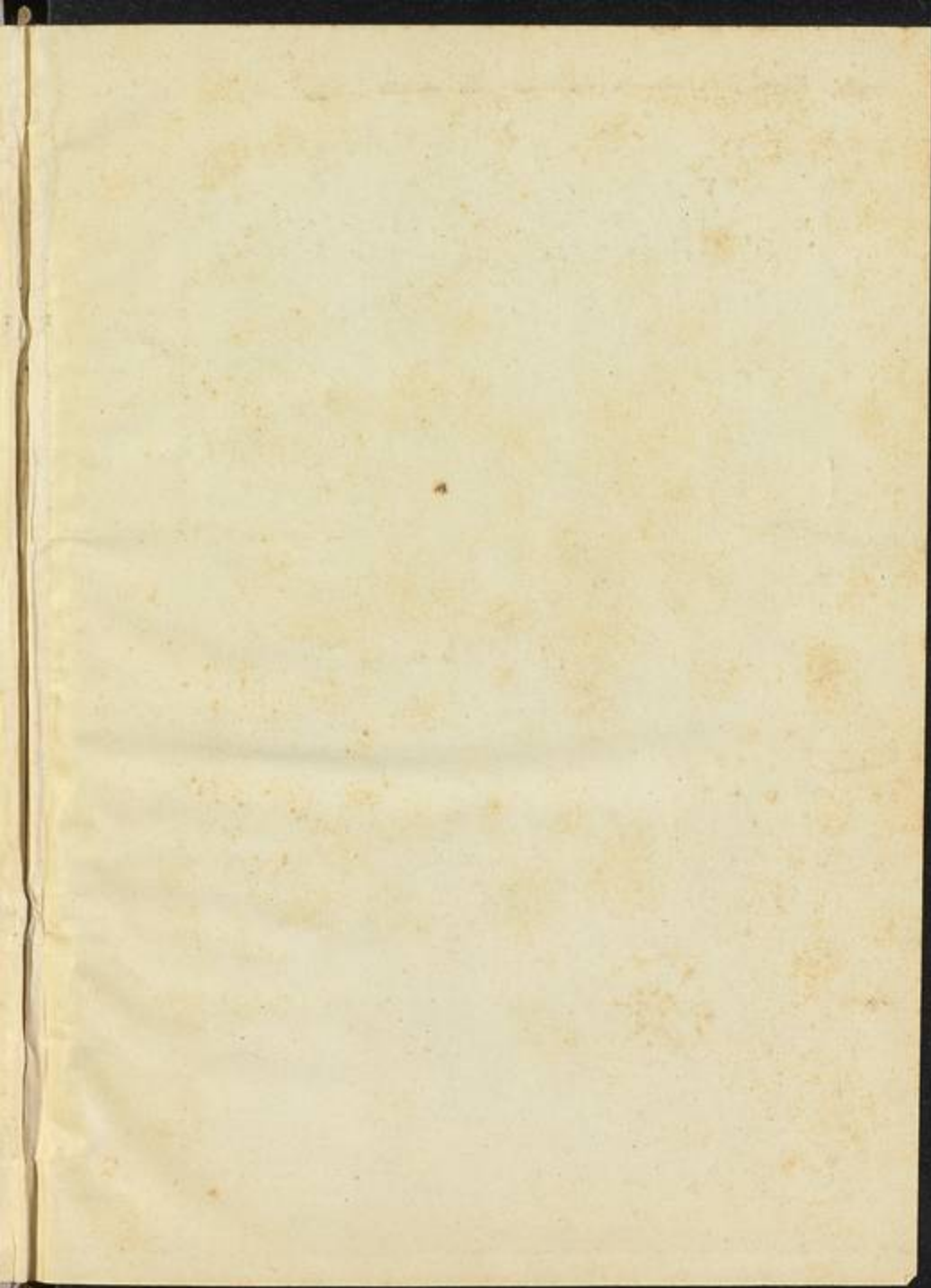
(كاملة في جزئين كبيرين بدلاً من ثمانية اجزاء صغيرة)
وهي تابعة لرواية باردليان - وثمنها ٢٠ قرشاً والبريد

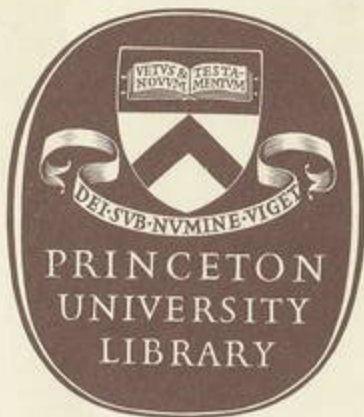
تم رواية

كُتَيْبَانَا

(كاملة في جزئين كبيرين بدلاً من ثمانية اجزاء صغيرة)
وفيها تكملة حوادث الروايتين السابقتين وثمنها ١٦ قرشاً







PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

